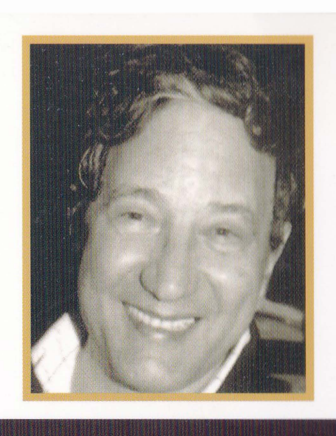
بنسالم حِمّيش

رواية



هذا الأندلسي!

دار الآداب

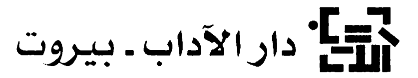


بنسالم حمّيش مفكر، روائي وسيناريست مغربي. دكتوراه الدولة من جامعة باريس في الفلسفة. له أعمال بالعربية والفرنسية في البحث والإبداع. ترجمت بعض رواياته إلى عدة لغات. عضو في مؤسسات عربية وأجنبية. فاز بجوائز، أهمها : جائزة الناقد للرواية (لندن، ١٩٩٠)، جائزة الأطلس الكبير - الفرنسية (الرباط، ٢٠٠٠)، جائزة نجيب محفوظ (القاهرة، ٢٠٠٢)، جائزة الشارقة لليونسكو (باريس، ٢٠٠٣)، ميدالية تنويه من الجمعية الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب والعلوم (باريس، ٢٠٠٩)، جائزة نجيب محفوظ لاتحاد كتاب مصر (٢٠٠٩). يشغل حاليا منصب وزير الثقافة في الحكومة المغربية.

سالم حميّش

هذا الأندلسي

رواية


دار الآداب - بيروت

هذا الأندلسي

سالم حمّيش/كاتب مغربي

الطبعة الأولى عام 2007
الطبعة الثانية عام 2011
ISBN 978-9953-89-186-6

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

المحتويات

الفصل الأوّل

البحث عن المخطوطة الضائعة

وقد بلَغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحُورِ الحِسان، من بَنَاتِ اليُونَان، الرافِلاتِ في الدُّرِّ والمَرْجان، والحُلَلِ المنسُوجَةِ بالعِقْيَان، المقْصُوراتِ في قُصور الملوك ذوي التِّيجان . . .

من خطبة طارق بن زياد في جيش فتح الأندلس

والعادة هي تحجب عن الله، والحجاب هو البعد والشقاوة. فالعادة أصلِ البعد والشقاوة. فخرقها وإزالتها ذاتُ القرب والسعادة.

ابن سبعين، **شرح عهد ابن سبعين لتلاميذه**

فاتحة

يا لهفاه!

يا لهفاه على التي ضاعت منّي وأحلّت في صدريَ غصّة!

استوضحني عن هويّتها صوت عهدت سماعه في بعض نوماتي، فصحت ملء حنجرتي: تسألني عنها يا هاتف الغيب وأنت بها عريف!

علا صراخي ودوّى في هذه الليلة الليلاء حتى أيقظني بعنف، والطقس بارد ممطر، والوقت الخريفي يتاخم السحر.

قمت لتوّي وخرجت إلى أزقّة حيّي وأحياء مجاورة، أعبرها تارة هائمًا على وجهي مفكّرًا، وآونةً واضعًا ذهني كلّه في تباشير الصبح الصاعد، واستفاقات النبات والكائنات من حولي.

مرّة أخرى لعلّها الواحدة بعد الألف، أقمت صلاتي ولا دعاء لي إلاّ أن يمكّنني الخبير العليم من مخطوطتي، جوهرتي الغاربة وركنيَ الفقيد.

شتاتُ جملٍ مخرومة وكلماتٍ يتيمة هو ما تبقّى لي منها، تصيّدتها بالنسخ أثناء يقظاتي المترنّحة، أو على عتبات الصحو

السريع، تصيّدتها وهي تعبر خاطري لمعًا وشظايا متطايرة، ومنها:

«تكوثرْ بالكون، يا هذا، تكنْ به أذكى وأزكى [...] يكن [...]

العلمُ للعلوّ علامة [...]

والحبُّ في رحابه سمادُ الحيّ وركبُ السلامة [...]

حلزونيَّ الارتقاءِ صِرْ [...] حتى تكْسر الحلقات العائبة، حتى تطبعَ عودك على مرقاك لا مبتداك، حتى تتربّصَ بالخمول والعادات الدوائر [...]

والعقلِ إذا صفا ما خلاك بدُّكَ وما خبا [...]

غموضي استتاري، فمن تأوَّلني من غير فهم جهلَ أسراري فعاداني [...]

[...] إني لك يا الله، وإنّي إليك راجعٌ وأحشر [...]

فاغرزني بجاهك وعزّتك إلى أفلاكَ الآنَ الآنَ وحِطّني كيما أبدّدَ سحبَ الكثرة، كيما أقيمَ محققًا في الوجود الحقّ والوحدة.

[...] رياضتي الخلوة والعزلة [...]

أمّا لماذا أتمادى في هذا المدى [...] فانظرني ولا تسأل.

الصلح مع جملتك صلاح [...] فارفع عنك يا السالكُ اللواحقَ والمحمولاتِ، إذ كلّها شوائبُ وموهومات.

حاء باء، وحورِ العيون ما أنا من عبدة الهاء أو النون، ولست بينكم بمجنون...».

*

مخطوطتي محطّتي الأساس وشعلتي البكر: إن وجدتُها سعدتُ وعلى السعيِ قويت، وإن منها حُرمت وتطاول الفقد واستدام، اكتويت كيًّا وانطويت...

قد يعجب امرؤ لحزني الشديد عليها ومن غصّتي في ذكرها، كما لو أنّي رُزئت في حبيب عزيز أو فقدت المتاع النفيس وما ليس له بديل... إيه! صحَّت الكناية يا هذا ودلّت. نصّ مخطوطتي الفقيدة من صنف نصّ النصوص، لأنّ الكلام فيها من مقام عليٍّ ونسجٍ محكمٍ رفيع. ولا أدّعي أنّها وحي أوحي إليَّ من أحشاء الغيب ـ حاشا حاشا ـ بل، لو وجب التشبيه، كألواح نورانيّة مباركة هي، ألواحٍ حروفُها من دم زكيٍّ دافق، وحركاتها من فعل برقٍ دقيقٍ لامع؛ ألواح لا يجود الوقت بمثلها مرّتين، بدليل هذا الإمحاء من ذاكرتي لمعظم معانيها والمضامين، بحيث لم تترك لي منها إلاّ طللاً جديرًا ورائحة أخّاذة.

صفحاتي فيها ـ لو تعلم ـ كانت أشبه بأوعية أمدّها أثناء نوماتي أو جذباتي، توقًا إلى لآلئَ مخبوءة في شمسيَ الجوّانيّة، أو في أمطاريَ الموهومة. ولما يحالفني التوفيق أصحو لتحريرها، ثم أبادر إلى معانقة الريح أو إرسال قبلات إلى النجوم في كبد السماء.

لذّاتي إذ ذاك لم تكن تعدلها لذّات. هي المعيار كانت لصحّة الحياة فيَّ وخصبها، وهي البوصلة المرشدة، وهي المشكاة لارتياد رحاب السعد العليّة.

لذاتي لو قُدِّر وصولها إلى الناس، لأنكرها أعداء خمرتي وخطفاتي، ونال منها الذوّاقون الفهماء حصصهم، كلّ حسب كعبهِ وطاقته.

غداة ذلك الفقد، أصبحت ـ لو تدرك ـ أقوم للكتابة كما لو أنّها صنو الصلاة، فأتزوّد بكل ما يلزم من عدّة روحيّة وعتاد معرفي، طمعًا في أن أُوقع في شركها أفكارًا ومواجيد دانية، من جنس التي حفلت بها مخطوطتي، وكانت تغْبر القلب والخاطر في لحظات لمحية وضاءة.

حيلي للتخفيف من عبء حدادي: إجراء الطقوس الإعداديّة وتركيب سوائل يشحذ شربُها الذاكرة وينعشها؛ انتظارات متصلة أو منفصلة في الأوقات البكر أمام الصفحات البيض؛ إدمان على النوم تارة وعلى السهر أخرى، حتى تحسبني سكران وما أنا بسكران، وذلك كلّه وغيره طلبًا للرؤى والخطرات الإلهاميّة، طلبًا لإعادة إنشاء ضائعتي، ولو قسطًا قسطًا أو أبعاضًا دون الكل.

حيلي ـ ولو لم تنجع بعدُ وتؤتِ أكلها ـ صارت لي مخدّرًا أتعاطاه للتفريج، ولو قليلاً، عن نفسيَ المكلومة، لإطلاق آهات لعلّي بها بين الفينة والفينة أتنفّس الصعداء وأنفرج.

في آخر المطاف والسعي، يقنتُ أنّ فلحي حصادُه زهيد،

وجهدي الجهيد يزهر أحيانًا ولكن، كالزيزفون، لا يثمر، وهو من صنف ما ذكرت أعلاه وغيرِه ممّا لو سطرته تُفهم كلماتُه دون مكنوناته، فلا حاجة لإيراده وجرّ ضعاف الهمم والعقول إلى شعابه.

صحيح أنّه قبل مصابي الجلل، كان يحصل لي أحيانًا، كأيّ كاتب بشر، أن أنضب وأعكل. لكنّي، رغم هذا، كنت أربأ بنفسي عن اتخاذ ذلك ذريعةً لأتعطّل، أو أصير من المنهارين الآفلين. ففي تلك الأحيان كنت أزاول نشاطيَ الآخر: أن أعيدَ إلى الواجهة قضايا قديمة، وأطرحَ مسائل «كلاميّة» أو باطنيّة جدّ مُعضلجةٍ عويصة، كتلك التي لا حلّ لها إلاّ في انحلالها الخالص المحقّق...

أمّا اليوم فحتى هذا المنفذ عزّ واحتجب، ولا حول ولا قوة إلا بالحقّ الحر.

* * *

ـ ١ ـ

أن تكون المتنفّس المذبوح باليأس والغمّ، الذاكرةَ الحيّة للفقد الثاوي كالشفرةِ في اللّحم، وأن تخرج رغم ذلك منتحلاً بسمة بوذيّةً مشعّة، وعلاماتِ الإقبالِ الحارِّ والبهجة. . .

أن تخاطب الناس بأقوال التفاؤل القطعيّ المسكوك، وحتى الصارخ أحيانًا؛

أن تدليَ بالتصريحات الحماسيّة الطّنّانة، وتُظهرَ الأشياءَ فوقَ الواقعِ أو في أغلفة مثلى. . .

ذلك كلّهُ بلاغةٌ ولعلّهُ أمُّ البلاغاتِ وإلاّ فلا. بلاغةٌ ليست مهمّة هيّنةً يسيرة ولا في مقدور صغار الأحلام والذوق والعريكة. . .

وفعلاً ـ فكّروا معي يا أولي الألباب والأكباد ـ ماذا كنّا نؤول إليه لولا أفانين التصنّعات والأقنعة، لولا القوى الوهميّة والدهن من القوارير الفارغة، ولولا هذي الحيل النفسيّة، وهذا الجنوح الفائق والخيال الفيّاض!

فكيف لا أخصُّ بالعطف والتحنان السيمياء والكيمياء والعرافة وحتى شعار الشعراء: أعذب الشعر أكذبه!

من هذا الباب، وربما من باب طلب التخفيف والسلو، تنكّرت فقصدت عرّافة يهوديّة في بادية مرسية، مشهورة بمهارتها وطول باعها في قراءة الطالع وإسداء النصيحة. لما أتت نوبتي لمقابلتها، بعد انتظار طويل مع طابور من المنتظرين، بادرتْ إلى تفحّص عينيّ بنظرات ثاقبة، أتبعتها بقول مدهش حقًّا: ما جئتني من أجله يا ابن سبعين لا علاج له عندي. ماعوني لا ينجح فيه ولا عقاقيري. عد إذن أدراجك واغطس في ماضيك ما استطعت، ودوّن سعيك وما ترى، لعلك تتذكّر أو تنسى.

أردت الكلام فمنعتني، والأداءَ فأعفتني. قمت مكرهًا وقادني خادمها العملاق إلى باب المغادرة.

*

عملاً بوصيّة ناصحتي، اعتزلت في رابطة سبعة أيّام تباعًا، لا شغل لي ولا همّ إلاّ تفقّد ما تيسّر من محطّات ولحظات سابقة على حدث الفقد، عساها تفرّج عنّي كربتي وتهديني إلى ضالّتي المنشودة.

في المحصّلة، طالعني ذلك الفتى الطائشُ النزق الذي كنتُه.. تربّيت كالإمام ابن حزم وترعرعت بين أفخاذ النساء، وتقلّبت في حجورهنّ، أتعلّم منهنّ حفظ القرآن والأشعار، وفنّ التجويد والإلقاء، وحتى الخطّ والعزف على العود والناي. وإنّي لتغمرني لذكراهنّ أنفاس ثغورهن والصدور، فتسري في باطني عطرًا وطيبًا.

أمّي أمامة، يرحمها الله، كانت لي ولأختي وأخي الأم الرؤوم الحنون، وكانت لي تخصيصًا حامية وملاذًا حين يقوى عتبُ أبي وطغيه عليّ. هذا الأب من أعيان دولة بني هود المتقلّبين في مناصبها ودواليبها، كان يريدني أن أكون، كأخي الأكبر، على صورته وشاكلته، وارثًا لسرّه، خبيرًا في ارتقاء سلّم المراتب والرواتب والقبضِ مع القابضين على ناصية الجاه والسلطة. أمّا أنا فكنت بجوارحي ووجداني أبغي غير ذلك وإلى سواه أجنح وأتوق.

منذ مراهقتي وبلوغي كان ما تبقّى للأندلسيين من بلادهم يضمر ويتناقص بين عهد وعهد. والغالب على وجهائهم وساستهم هو التدرّج نحو تيهاء التصدّع والدرك الأسفل. وكمعظم هؤلاء وذريّتهم ممّن أبطرهم الترف والبذخ، أمسيت أنشد الشهوات واللذّات وأجدُّ في اقتناصها، كأنّي أموت غدًا، أو كما لو أنّ عِزرائيل يمهلني شريطة أن أهوى المتع الحسّيَّة وعليها أتهالك.

أمام ما كان يبدو طامة محدقة وهولاً وشيكًا، صار المترفون آباءً وأبناء يتخيّرون من الشهوات أدعاها للتسلّي واللهو: شهوة البطن وشهوة الفرج. أمّا أنا فقد عاينت أنّي أقدّم هذه على تلك، بل أخصّها بصفات الترياق الأنجع والأرقى لما كان يعتريني أحيانًا من حزن شديد أو صحو.

طلّق أبي زوجته الثانية وعقد على أخرى أصغر منها ومن أمي، فتوزّعت حياته بين بيتين، وكثرت مشاغله ومساعيه أكثر من ذي قبل. جرّاء ذلك تحرّرت من سطوته وعسفه. أمّا أمّي العليمة

بنزواتي وجناباتي فكانت تتستّر عليّ مقابل أن أهتمّ بتعليمي ودروسي. لم يكن يخفى عليها شيء من مناوشاتي لبعض الجارات، ثيّبات وأبكارًا، ولا من مخالطتي لبنات الهوى اللائي كنَّ تدفعنَ عن عملهنَّ خراجًا لمحتسبي الإمارة، فسُمّين باسم الخراجيّات وعُرفن به في الجزيرة عند القاصي والداني.

عن الخراجيّات ماذا أقول؟

أنبش في ذاكرتي، عملاً بوصيّة العرّافة، فما أستخلص منهنّ سوى صور باهتة متلاشية، تذكّر بهشاشة وجودهنّ نفسه وجروحيّته. نسيتُ اليوم سوادهنّ الأعظم، ولا أعلم ما فعل الدهر بهنّ. وأحسب أنّ الموت أو الهرم المبكر أتى على بعضهنّ، وقد تكون سبل السعي في الأرض أو الانعتاق والتوبة انفتحت لبعضهن. لكنيّ، رغم ذلك، ما زلت أذكر بيت بغاء ارتدته مع بعض أقراني في بادية مدينتي الشماليّة، كانت ربّته الضخمة الجثّة كلّما استقبلتنا شرّعت لنا الأبواب، وأزاحت الستائر، وصاحت فينا بفم مخمور يمضغ العلك مضغًا وصوتٍ متهتّك أجش: «مكرهة أختكم لا بطلة.. تخيّروا يا أولاد الخير. انكحوا ما طاب لكم وجودوا...». كان أكبرنا لا يجود واسعًا إلاّ إذا وجد فيهنّ، حسب تعبيره، من تعمل بضمير مهنيّ منقطع النظير، وكنّا نضع هذا الكلام ومثيله موضع هزل وتنكيت.

تتعدّد أعذار الوافدين عليهنّ، والركن الركين واحد: التلهّي عن محن الحياة، ولو على توهم، مقابل مدّ يد الأجر إليهنّ. أمّا أنا، علاوة على ذلك، فكان انجذابي نحوهنّ تبرّره رغبتي في أن

أتملّى بالعين المجرّدة عرضيّةَ الوجود الزائل، وهذا عبر تبذّيهنّ المتصنّع المهزوز، وغلبةِ اللغوِ عليهنّ والزينة والعطور.

إنّي مهما أنس فلن أنسى واحدة في ربيع الجمال والعمر، كنت عرفتها في دار ليست دار دعارة ـ حاشا حاشا! ـ بل رياض حاجّة ورعة ذات جاه ونفوذ، تأخذ تحت حمايتها فتيات يتيمات أو تالفات، وكلهنّ معدمات، فتحفظهنّ من المحتسبين والقوّادات، وترعاهنّ حتى تجد لهنّ أزواجًا أو سبلاً للخلاص والتوبة. . . هذه الوليّة الصالحة ـ المعروفة باسم أم الخير ـ قبلتني جليسًا لمحظياتها لأنّها، حسب ظنّها، توسّمت الخير في نواياي وفيَّ.

الجلسات، في الأسبوع مرّة أو أكثر، كانت غالبًا ما تعقد في حديقة الرياض حول جوقة مختلطة، يبرع أعضاؤها في غناء الموشّحات والأزجال وخلق جو طروب بهيج، يزيل عن النفوس أكدارها ويريحها من الهموم، ولو إلى حين. كانت الحاجّة تطعم الحضور وتسقيهم بما طاب وحلّ، وتحرص على الحؤول دون اختلاط الشباب بالشابّات إلاّ بقدر ما تسمح به لغة الرموز والنظرات. وكانت هذه اللغة عند أهل الجرأة والحزم مدخلاً لانفلاتات غراميّة، تحدث خارج الرياض بتواطؤ مع بعض الخادمات.

كذلك تعرّفت على تلك الفتاة، فتمكّنت من أخذها معي على فرسي إلى غار أعلم موضعه المتاخم لشطّ مهجور. وهنا على قطيفة غرقت معها في وصلة نكاحيّة رائقة شائقة، حدث أن تابعنا

حلقاتها في ماء الموج، فكانت، وحقّ الحقّ، من صنف ما يعزّ مثيله ولا ينسى. وقبيل حلول وقت الأوبة، جلست الفتاة حذائي، فسرحت بنظرها في الأفق تائهة أو متأمّلة. خلتها تتمتّع بجمال البحر ومداه، فباركت فعلها وشجّعتها عليه، لكنّها، هي الضنينة بالكلام، باغتتني بقول أذهلني، مفاده أنّها إنّما تبثّ إلى البحر لواعج أحزانها بدبدبة تجاري الريح على سطحه. وتمنّت لو تفعل ذلك لما تتعلّم العوم. وعدتها أن أكون في ما تبغيه معلّمها، وتفوّهت بألفاظ لطيفة لعلّي أواسيها ما استطعت، ثم أقنعتها بلزوم أن أصحبها إلى باب مستقرّها.

لم تمض بضعة أيّام حتى جاءتني إحدى خادمات الحاجّة تنعي لي فتاتي غرقًا في البحر، وتنبئني أنّ سيّدتها ساخطة عليّ، لا تريد رؤية وجهي في دارها أبدًا.

وأذكر، نعم أذكر أنّي تألّمت لموت البنت التي سهوت عن معرفة اسمها وحالتها، فاعتصمت في غرفتي زمنًا، أدّعي أنّي منقطع للتحصيل والدرس، بيد أنّ علامات سهادي وسقمي لم تخف عن أمي وأختي. قضيت أحد عشر يومًا أصوم وأطعم القطط بوجباتي، لا شغل لي ولا اهتمام إذا نمت أو صحوت إلاّ بطيف فتاتي التي عاشت تعسة وماتت نكرة. وأذكر أنّي نظمت في رثائها قصيدة ضمّنتها من بعدُ مخطوطتي الغاربة، ونسيت بحرها ومتنها وحتى قافيتها.

كان عليّ أن أنهي ما كنت فيه لمّا دخلت عليّ أختي زينب تخبرني هلعة بتدهور صحّة أمّي. نزلتُ إليها توًّا لأطمئنها على

حالي، ظنًّا منّي أنّ مرضها هو بي، وكذلك لأخفّف عنها شعورها بتقصير أبي في زيارتها. لكن ما إن حنوت عليها حتى سمعتها تهذي وتلهج باسم واحد لا ثاني له: «سيدي الخِضر». قست نبضها وحرارتها فتبيّن لي أنّ الحمّى تستبدّ بها وتعبث. طلبتُ من زينب والجارية إحضار عقاقير وأعشاب، فهيّأتُ وصفة تعلّمتها من طبّ الرازي، وجرّعت سائلها المحصّل للمريضة، ثم وضعت على جبهتها عصابة مبلّلة بماء الورد. ساعة من الانتظار مرّت ولا تحسّنَ بدا عليها. اضطربت للأمر وجزعت. وفيما أنا أهمّ بالذهاب إلى طبيب أستقدِمُه، أقبلت جارية أخرى مهرولة تعلن بصوت منفعل مبشّر قدوم السيّد الخضر. سألت أختي إن كان الرجل طبيبًا فبثّت في أذني جوابًا أذهلني: في حالة أمّنا، لا طبيب غيره.

استرجعت في ذهني ما أعرفه عن هذا الرجل الأربعيني الأعزب، وبالتخصيص عن طيب سمعته وجلال قدره عند أبي وعلية القوم، فأمنت جانبه وترجّيت شفاء العليلة على يديه.

لمّا برز أمامنا مسلّمًا كان، كما عهدته، في غاية الوسامة والأناقة، ملوكيَّ البزّة، مشرق الوجه والقسمات، بهيّ الطلعة والابتسامة، لطيف النظرة والإشارة... رأيته يجلس إلى جنب أمّي ويحنو على رأسها مقبّلاً، فكان ما بدر منها عجبًا والله: فتحت عينيها واسعًا وأزاحت عصابتها واستوت في جلستها، كأنّ صورة الجليس ورائحته أيقظتا حواسّها للحياة بعد ضمور وانكماش، وأعادتا إليها صحّتها بعد سقم ووهن، فهمستْ باسمه

مرارًا، سعيدةً مستبشرة، وشدّت على يديه تقبّلهما وتنظر فيهما تارة وإلى وجهه تارة، كأنّها تبغي التحقّق والتيقّن، وهي فيما تعيشه وتأتيه لا تحفل بي وبأختي، وقد انزوينا قاعدين، ولا بالجاريتين المتنافستين في ملء المائدة بالمأكل والمشرب. وأخال أنّها ما كانت ترجع إلى رشدها والالتفات إلى ما حولها لو لم يدعها الخِضر إلى الاقتيات، فلبّت طائعة، تحدوها شهيّة فائقة متفتّحة؛ ثم نادى الزائر المنقذ على الجاريتين وهو يتأهّب للانصراف، فأمرهما بالسهر على راحة سيّدتهما، وقال في اتجاهي بلهجة واثقة مبشّرة: غدًا إن شاء الله تصبح الوالدة أحسن حالاً.

وكذلك كان، إذ أفاقت أمّي عن بكرة أبيها وأخذت تغتسل وتتزيّن، وقضت اليوم كلّه تدير شؤون الدار، أنيقةً رشيقةً نشطة، وتهتم بي وبأموري غاية الاهتمام. وقبيل أن أخلد للنوم اختليت بأختي فسألتها عن الخِضر ورأيها فيه، أجابت بصوت مطمْئن رزين:

ـ أمّنا، يا عبد الحق، تعشق الخِضر. وهذا الفاضل يرعى حبّها الروحي بكثير من العفّة والرفق. إذا اشتدّ عليها الحال حضر، فكان ما شهدتَه بالأمس، وحصل مثله من قبل من دون أن تعيه أنت.

ـ وأبونا، يا زينب، هل يعلم؟

ـ نعم يعلم. إنّما ثقته بنبل الطبيب تمنعه من أن يغار أو يغضب.

ضربت يدًا بيد ورجوت الله أن يقي أمّي وحبّها العذري من أيّ زلّة ومكروه.

في ظهر الغد أذكر أنّي قصدت الخضر في رابطة بضاحية مرسية كان يرتادها، تحدوني الرغبة في التيقّن من صحّة ورع الرجل وتقواه. استقبلني مرحّبًا وفطن إلى أنّ ورائي شيئًا، فسألني عنه ملاطفًا وهو يدعوني إلى مجالسته... حين أغطس في عهد فتوّتي وأقلب ذاكرتي لا ألوي إلاّ على النزر اليسير ممّا دار بيني وبين الرجل من حديث، منه سؤالي له عن أهل الأندلس وما آلت إليه أحوالهم من سوء، فكان من جوابه المستفيض ما لا أذكر إلاّ خاتمته:

«إنّنا، يا ولدي، نسير يقينًا، ولو بالتدريج، نحو تصدّع غير مسبوق لوجودنا في هذه الجزيرة. العلامات المنذرة التي تبثّها الكسور والفتوق ما أكثرها! وتناسلها في نسيجنا الكياني والذهني ما أفدحه! صلوات الجنازة على أندلسنا الآفلة ستحتدم وتعلو، إلاّ أن تحدث المعجزة العظمى».

سألته عن الإيمان، وفي ذهني نوبات أمّي العشقيّة وحالها معه، أجاب:

«حجج ثلاث، ما أندرها وأعجبها، ترجّح كفّة الإيمان عندي، يا ولدي.

«أولاها: اللقاءات والأعراس وملذّات الحياة الدنيا تشكو غالبًا، في نظري، من عجز مبين في الكمال والدفء. فكيف لا

أفترض وجود عالم للروح أبهى وأمثل، بل من قبيل ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

«ثانيها: في فصل الإرجاءات المتوالية والفرص الضائعة، حطّمتُ كل الأرقام القياسيّة وبلغتُ القمم. وفي آخر المطافات، أخذتُ أتيقّن أنّ ذاك ـ من يعلم؟ ـ لربما يكون طريقتي أنا للمراهنة على وجود حياة أخرى أجمل وأكثفَ وأبقى.

«ثالثها: انتهيت، بعد تأمّل وتدبّر، إلى الإيمان بالبعث ويوم الحساب. وسببه أنّ ظواهر القهر والقساوات، وإعفاء الأشرار من العقاب في هذه الدنيا الدنيّة، أضحت عندي لا تُحتمل ولا تُطاق.

«تحشيةً على تلك الحجج، قد أبثُّ خفيةً هاته: الإنسان، وقد يقن أنّ جثّته موعودة للديدان، لا يسعه، وهو على قيد الحياة، إلاّ أن يتفانى في أخذ نفسهِ بالشفقة، فيهبَ لها دارًا أخرى خالدةً خالصةً، حقيقةً بكبريائه اللامتناهي وبصفاتِ روحه الثمينة.

«خارجَ حججي المذكورة، إنّي لا أرى أخرى، ولو حوت رهان المعرّي، تكون أقلَّ ذاتيّةً أو أكثر حجيّة».

سألت جليسي عن رهان شاعر المعرَّة، فأنشد بيتيه:

قال المنجمُ والطبيبُ كلاهما لا تُحشَرُ الأجسادُ قلتُ إليكما

إن صحّ قولكما فلستُ بخاسرٍ أو صحَّ قولي فالخسارُ عليكما

وأذكر أيضًا أنّي سألت معشوق أمّي عن الحبّ وطبائعه، لعلّي أستدرجه إلى حاجتي من حيث لا يدري، فحدّثني فيه بكلام

استعصى عليّ فهمه نظرًا لحداثة سنّي، إذ عقلت ألفاظه الشيّقة البهيّة دون معانيه، ثم نسيته تمامًا.

كلام الخضر كان في مجمله متّسمًا بالجدارة والعمق، حفظت منه عن ظهر قلب شذرات، هي ما ذكرته وضمّنته مع تعليقاتي في مخطوطتي الضائعة.

لم يمض شهر على لقائي بذلك الرجل حتى شاع خبر اختفائه عن الأنظار، وتعدّدت فيه الروايات، واحدة تقول قُتل وغُيّبت جثّته على أيدي رجال خوفًا منه على نسائهم وبناتهم، وثانية تجزم أنّه مات شهيدًا بين آخر المدافعين عن قرطبة، وثالثة تدّعي أنّه رحل إلى المشرق لجهاد الإفرنج وجلب العون والدعم إلى بلاد الأندلس. . . ومن بعد غيبته بشهرين توفّيت أمّي ذات ليلة ليلاء، بعد أن اشتدّت عليها الحمى فالغصص الوجيعة، ثم تبعها أبي إلى الدار الأخرى، وإنا لله وإنّا إليه راجعون.

«عد أدراجك واغطس في ماضيك ما استطعت، لعلّك تذّكر أو تنسى»، هذا ما كانت عرّافتي اليهوديّة أمرتني به. والمحصل من غطساتي المستطاعة، على فرادة بعض دررها، تبدى لي زادًا زهيدًا لا يفضي ولا يشفي، وكله في مرآة ضالّتي المنشودة غيض من فيض، غيض تفصله أشواط ومقامات عمّا سطّرته بالبلاغة والمفهوم حول فتاتي المجهولة الاسم والهويّة، وأمّي العاشقة والخضر معشوقها، وحول شؤون شتّى قوامها الله والإنسان في فضاء وحدة الوجود والارتقاء إلى الذّرى النورانية السَّنية.

* * *

ـ ٢ ـ

لمّا علاني اليأس من استرجاع مخطوطتي الفقيدة طيَّ فحواها الفذّ البدئي وهيكلها النوراني الأوّل، قلت: عليّ إذن بالنسيان ولا شيء إلآه، أي بالتورّط أكثر في ذلك الطور الذي خبرته من قبل، وسمّيته طور الطيش والنطق في الهوى؛ طور وطأته وأنا دون العشرين، كما تقدّم، وكان عنوان غلبة الشهوات الإيروسيّة عليّ، وما تستتبعه من واردات قوليّة، زائغةٍ منفلتة. . .

نصّ لامتناه هو المرأة!

وأنت في مسعاك إلى الوقوف على نص المرأة الكاملة، أليس كل واحدة تحيلك بالضرورة إلى أخرى، بالمماثلة أو بالتدرّج نحو الأجمل؟! ومسعاكَ ـ لو تعلم ـ لا تكفيه حياتك كلّها وإن قصرتها على البحث والانتباه وكثرة الآه، وجعلتَ سريرك قبلةً العابراتِ الكاعباتِ الفاتنات.

لاتّقاء شرّ انهياري ومحو حدادي في إثر مصابي ذاك، قلت عليّ أن أفترض الواقع الحقّ غيرَ الذي أنا عليه وفيه، أن ألتقط للدنيا صورًا مضادّة للتي أدركها بحواسّيَ الخمس، أن أقوّيَ الذات بشتّى أنواع المنشّطات، قبل الإقدام على قضاء أوقاتٍ في لقاء الخلق. . .

وبدءًا عليّ بهنّ.

عشرة النساء كانت وما زالت تعينني على حمل أعباء الطريق، واجتياز المعابر والمضايق. فلهنّ عليّ فضلٌ في صبري على محن الوجود الدبق والوقت السائل. وقد أكون أنا بدوري، من حيث أعي أو لا أعي، أسدي لهنّ في عشرتي خدمات كخدماتهنّ على نحو من الأنحاء.

رغباتي الإغرائيّة ما زالت قائمة على أشدّها، لها في الحرث نوابض واستطاعات، ويوم تخبو أو تجفّ، فلا ريب أنّي سأكون قاب قوسين أو أدنى من أفول طوريَ السالف الذكر.

على عتبة ما أنا مقدمٌ عليه أو عائد إليه، هذه وصيّة لربما وضعتها في مخطوطتي الضائعة بكلمات أجودَ وأمضى، ولها قيمة صوريّة من حيث جوازها على أطوار الحياة والسلوك كلها، وهي: *«من طلبَ ظفر، ومن ظفرَ ربح، ومن ربحَ تأنس، ومن تأنسَ نشط، ومن نشطَ زاد طلبه، ومن زادَ طلبه أخرج ما لم يقصده ولا يخطر له على قلب، وهو كماله الأخير...»*.

ليس طلب البدء كطلب العود عليه، إذ الدور لا يحيا ويقوى إلاّ بأشواط وشرائط، هي الظفر والربح والتأنس والنشاط، وكلها نزوعات إلى حرث الممكنات واستنطاق بواطن الخفاء.

وطلبي اليوم؟

لا طلب لي إلاّ هنّ.

فلولاهنّ، حيال محنتي الحاليّة وما حصل لي دونها من قبل،

لولاهنّ لكنت أسلمت للأقدار أمري مهزومًا، وتركت حبل مآلي على الغارب.

كنتُ الرابحَ المتأنسَ الناشطَ في عشرتهنّ، حتى سمّينني بما سمّاني به مريدون: ابن دارة والمغناطيس والقطب، وأضفن المفرِّجَ والشافي... هذا ولم ألبس قط تلك الصفات زهوًا وخيلاء، بل سخّرتها في إغاثة الملهوفات وخدمة المهجورات من العوانس والأرامل والمطلّقات، وما أكثرهنّ في هذا الربع الذي أقطنه بين مرسية وقرية رقوطة، كما في باقي أقاليم أندلسنا الممزّقةِ الجريحة!

بِرِقّةِ قلب خُلقت ورهافة إحساس، ومن الحسن أعطيت ما ترى، فكيف لي أن أشهد امرأة، لا حول لها ولا قوّة، تتعذّب أو تتلاشى من دون أن أمدّ لها يدًا رحيمة، ملتفتًا إلى خالقها، مقطّبَ الوجه، مريرًا وسائلاً: لماذا يا ربّ؟!

في هذا السياق، مهما أنس فلن أنسى منهنَّ واحدة من أب مسلم وأمٍّ روميّة، كنت قبل انتحارها أمضيت زمنًا ـ أنا عاشقُها السريُّ الوفيّ ـ في فهم أنّ تفاؤلها النزقَ الإطلاقي لم يكن مجرّد نزوة أو مزحة، بل كان فنَّها في التخفيف من شعورها المأساويِّ بالوجود، أي ترياقًا لنصيبها الملعونِ من إصابات القدَرِ ورجّاته.

وامرأة أخرى أقول في شأنها: سحقًا للحشيش وتبًّا!

لكنْ ما أجملها ـ حبيبتي النصرانيّة هاته ـ حين أراها أثناء يقظتها تمضي أوقاتًا في إعداد وجبتها منه، ثم تتناوله مضغًا أو بلعًا وسط طقوس غريبة ما أنزل الله بها من سلطان.

منتقدوها تواجههم بتبريرات كلّها، حسب ذوقي، ضبابيّة من صنف: الحشيش يسهِّل لي إجالة النظر في علاقاتي الغيريّة، ويسعفني على طمس الحالة التي أنا فيها، ولو على توهّم.

بناءً عليه كان صديق مشترك يعلّق متهكّمًا: لو كان زارعو الحشيش بباديس وتجّاره وطائفة هداوة مستهلكوه يعرفون داعية مخدّرهم هاته، لضمنوا لها بالمجان التزوّد منه مدى الحياة أو لما تبقّى لها من الحياة.

حالات نساءٍ أخريات لو ذكرتها، ولو بإيجاز، لذهب بي الكلام كل مذهب، وأجّجت حنيني ـ أنا مرهف الحواشي والحواس ـ إلى اللواتي أحببتهنّ عذريًا أو كانت بيني وبينهنّ أشياء.

أعلم أنّ الشائعات المغرضة حولي يتناقلها في مجالسهم السمّار وفقهاء التسطيح والكبت، من آخرها أنّ واحدًا، يدعى زيد أبو الحملات، سمّاني رأس الغاوين وقوّلني كلامًا أنا منه بريء، مفاده أنّي حين تحلّ ساعة احتضاري، سأتضرّع على فراشي بهذه الشكوى: يا لهفاه على رحيلي من دار ما زال فيها نساءٌ ونساء، لن تنالهنّ أبدًا غزواتي؛ وعزائي في دعائي أن تستقبلني من الملائكة إناثها يوم بعثي...

أنا على سنّة سيّد المرسلين: *«حُبّب إليّ من دنياكُم الطيب والنساء»*، فإذا صحّ هذا في واحات الصحراء، فلا أصحّ منه في ربوع أندلسنا المتبقّية، وفي هذه الحاضرة الشرقيّة التي أنا حلٌّ بها، حاضرة واديها الدافق من شقورة يوزع بين السواقي ألحانًا

تجذبها النواعير إلى الهواء، فيترجمها الطير بمنطقه تغاريدَ تزهو بها الفواكه والأزهار، فتنشرُ الرياحينَ بين البساتين والعرصات ريحٌ طيّبةٌ طروب، تنشرها هبّاتٍ وغنائمَ للمتنزّهين وفلول العشاق.

كل تلك الخيرات، وسواها كثير، يسعى إلى طردنا منها حملة الصلبان من قشتاليين وليونيين وأراغونيين، بينما ملوكنا وطوائفهم، المفرّقةُ قلوبهم، نسوا الله فنسيهم، يفرطون في الأرض ويضاجعون الترف والخوف، وسيوف بعضهم على بعض مشهّرة للإجهاز والفتك.

حزني مضاعف بل مثلّث الأضلاع، وإلى الله المشتكى: حزنٌ على تلكمُ المخطوطة الضائعة، وحزنٌ على أندلسٍ تضيع من أهاليها المسلمين جزءًا جزءًا، وحزن على تضييع قوّتنا الروحيّة إربًا إربًا. والحيلة في دفع هذه الأحزان حيّزها يضيق، إلاّ عن الصبر وتقوية النفس بالطيّبات.

اللذاذات ملاذات...

«إنّما اقتصد ثمّ اطلب مخطوطتك بين خليلاتك السالفات، فسارقتها قد تكون إحداهنّ، والله أعلم». ووافق هذا الهتف الغيبي كلام منجّمة تبدّت لي في المنام منذ أيّام، ولم آخذه على محمل الجدّ، قالت: سارقتك قد تكون من خليلاتك يا ابن سبعين، إمّا على دينك وإمّا كتابيّة أو مشركة. فابحث، لعل وعسى.

* * *

- ٣ -

في بادية مرسية، شمال غربيها، توجد قرية على سفح وادٍ وافر المروج والأشجار، غزير المياه، اسمها، كما سلف، رقوطة، يصلها الفارس في بضع ساعات؛ بها كان مولدي رجب ستمائة وأربعة عشر، ولي فيها ضيعة كانت نصيبي من إرث الوالد يرحمه الله، ضيعة وهبتها مناصفة لميمونة مطلّقةِ أخي الأكبر أبي طالب، ولأختي زينب الأرملة. والمرأتان معًا كلّما حللت بين ظهرانيهما نصبتا لي خيمة، حسب رغبتي، إن كان الفصل ربيعًا أو صيفًا، وتنافستا في إسعادي وإكرامي. تذكّرانني أحيانًا أنّ الدار داري، فأجيب: «بل الدار دار الله، يورثها لمن يشاء، وأنتما من يشاء». حرصهما الأكبر أن يوفّرا لي كل أسباب الخلوة والانقطاع إلى الدرس، فلا كلام لهما معي إلاّ في الأهمّ والضروري، أو في ما أستخبر عنه وأسأل.

كانت ميمونة في أوّل عهدها بالطلاق كثيرة الشكوى من ظلم أخي، تسند رأسها إلى كتفي وتناجيني باكية: اسمي على غير مسمى، أنا قليلة السعد. . . كم مرّة ترجّيت أبا طالب أن يقبل عقري ويبقيني تحته، وله أن يتزوّج بالأخرى وبما طاب له منهنّ، لكنّه طاوعها ورضخ لشرطها، وكله طمع في مالها وجاه أبيها. . .

كنت أواسيها بكلام أقرّت أنّه ينزل عليها بردًا وسلامًا، ولا أقول في أخي كلمة سوء ولو أنّي أعلم انتماءه إلى زمر المتهافتين على الرئاسة وتجميع المراتب والرواتب، وكلها في عرفي وتحقيقي إن هي إلاّ أوهام الدنيا الدنيّة. لذا ما كان يسعني سوى أن أتركه في خوضه يلعب مع اللاعبين.

أمّا أختي زينب فقد بقي من زينها حروفه، وحروفه تخفي جرحًا دفينًا بدأ بمقتل زوجها في موقعة العُقاب، التي كانت عقابًا للمسلمين على تطاحنهم وتفرّقهم قددًا؛ وغار ذلك الجرح جرّاء رزايا أخرى ألمّت بها، أنكاها وفاة وليدها الأوحد بمرض لم ينفع معه علاج، وهي اليوم تغالب حزنها المقيم وتفريطَ أخينا فيها بابتسامة رقيقة وضّاءة لا تبرح محيّاها، وتجد فيَّ العزاء والسلوان، فتقول لي كلّما التقينا: ما بقي لي إلا الله وأنت.

المرأتان، رغم قسوّ القدر عليهما وبلوغهما سنّ انقطاع الحيض، يقضيان وقتهما في أشغال منزليّة متعدّدة، وحلقاتِ كلام لا تخلو منها النكت والنوادر، وحتى الضحكات الخافتة أو الطليقة، بحسب الظرف والمكان. وكانت الواحدة منهما إذا شكت إليّ من ألم ما في جسمها ـ وأعلم أنّه وهمي ـ ناولتها عشبًا لا يضرّ ولا ينفع، مغلى في ماء وعسل، فتبرأ وتدعو لي بخير دعاء.

مستقرّي في الضيعة أهرب إليه كلّما تكاثر المريدون حولي أو دنا خوض أهل السياسة منّي. وهذه المرّة اغتنمت عزلتي فرصةً للاطلاع على كتاب *الخير المحض* لبروقلس وفصوص من

ثيولوجيا المنسوب إلى أرسطو والغالب على ظنّي أنّه لأفلوطين؛ كما أنّي عاودت الانكباب على كتاب في *الأسماء الحسنى* لابن المرأة المالقي ومنقولاته عن شيخه أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي، وأيضًا على مصنّفات علماء الأسماء والحروف كالبوني والحرالي، رحمهم الله جميعًا؛ كما أنّي خلال عزلتي عمّقت النظر في بعض كتب الطبّ والكيمياء والسيمياء. ولعلّ انجذابي إلى هذه الفنون صار يقوّيه نزوعي المتزايد إلى تعلّم علاج أعطاب، وكذلك فكِّ أسرارٍ وألغاز، ضمنها بل أبرزها ولا ريب اختفاء مخطوطتي وانقطاع الإلهام عنّي.

*

فضّلت المرأة على الرجل بتسعة وتسعين جزءًا من اللذة، ولكنّ الله ألقى عليهنّ الحياء. هكذا تكلّم سيّد المرسلين وخاتمهم. إنّما في أندلسنا، التي نسيت الله فنسيها، الحياء سقط عن معظم نسائها من الكتابيّات وحتى المسلمات وغيرهنّ، فصرتَ ترى المرأة إذا أعجبها رجل سعت إليه بشتّى الوسائط والتعلات، التي تعرف هي وحدها إحكامها وسرّ نفاذها.

صبيحة اليوم السابع من إقامتي الرقوطيّة، زارني فتى ممّن يريدونني ـ رغم تحرّجي ـ معلّمهم ومرشدهم، ومعظمهم دون العشرين وأنا أكبرهم ببضع سنين. كان زائري أنجب من عرفت وأقدر على الطلب والتحصيل. سلّم عليّ وجالسني مرتبكًا منفعلاً، واعتذر عن مجيئه إليّ من دون سابق إشعار. سألته:

ـ كيف اهتديت إليّ يا عبد العليّ؟

أجاب وقد تضاعف اضطرابه:

ـ هل يضلّ عن سبيلك، يا معلّمي، من يقوده قلبه وله حسّ ولسان!

ـ وما حاجتك يا أخي؟

ـ أستفتيك في أمري. . . راشيل، إن كان سيّدي يذكرها، تمكّنت منّي إذ أسلمتْ وقالت الشهادتين وتسمّت بفاطمة، فتزوّجتها على سنة الله ورسوله. . .

اهتبلت فرصة صمته المفاجئ، فباركت له في قرانه، ولو أنّي لمحت عليه سمات الشكوى والضيق. قال:

ـ لا بارك الله في زواج يقننتُ بعد شهره الثالث أنّ الزوجة مسلمة في الظاهر، يهوديّة في الباطن. ولي في ما أدّعيه دلائل وقرائن. إنّي، سيّدي، في حيص بيص من أمري. هجرت مضجعها خوفًا من أن تلد المنافقة منّي فيسوء حالي ويعضل. . .

شأن محيّر حقًّا! فبماذا أفتي؟ وفيما أنا أعد جوابًا في ذهني سألته عن أخت راشيل الكبرى ـ وكان بيني وبينها أشياء منذ مدّة خلت ـ، فقال إنّها رأس البلاء ومحرّضة زوجته على التدرّع بالتقية. قلت وأنا أناوله كعكة من صنع ميمونة:

ـ توكّل على الله، فهو حسبك ونعم الوكيل. غلّب حسن ظنّك على سوئه، واحكم بالظاهر، فإذا طفا عليه الباطن وهاج، حكّم

عقلك وافصلْ وحدك في أمرك تكن عليه قادرًا ومسؤولاً. أمّا سارة فلي معها كلام بمرسية عمّا قريب إن شاء الله.

أبدى المريد علامة الرضى، قام محييًا وانصرف، تشيّعه نظراتي الحنون وذكرى قصّة كانت لي مع فتاته الهائمة به حبًّا. فمرّتين أو أكثر، وأنا بمنزلي في مرسية، جاءتني قبل زواجها تشكو إليّ جفاء فتاها وعزوفه. كانت الفتاة، فضلاً عن جمالها الخلاّب، عربيّة اللسان، حفّاظة لشعراء الضادّ الكبار، ما إن تقابلني حتى تشرع في وصف حالها بأبياتهم موزونة مقفّاة، بينما أذهب أنا في إنشاد أخرى، وأحكي لها حكايات في العشق وما جاوره، متوخّيًا مواساتها والتخفيف عنها... وذات مرّة، والليل وشيك الحلول، أنبأني سلمان، خادم بيتي، أنّ الفتاة على الباب تطلبني وحالتها غير سويّة. أذنت له بإدخالها والبقاء معها في صحبتي. كانت بالفعل متوتّرة الأعصاب، شاحبة الوجه، محمرّة العينين. سألتها بعد أن رددت عليها السلام:

ـ ما بك يا راشيل؟ خير إن شاء الله!

جلست حذائي وشربت كوب ماء بأكمله، تنفّست ملء صدرها كأنّما هي تستجمع قواها لإلقاء قول ثقيل عليّ. قالت وقد خفّ قليلاً روعها:

ـ كنت أرى سبب إعراض فتايَ عنّي في تعلّقه بك، وها أنا اليوم أعرض عنه بسبب وقوعي في عشقك. كذلك الحبيب الأوّل هداني إلى الحبيب الحقّ. أنت الطائر المحكي وعليٌّ الصدى. أنت جملة سعدي والمبتغى...

«اللي تسحر مع الدراري يصبح فاطر»، حتى لا يصحّ عليَّ هذا المثل العامي طلبت من المراهقة أن تعود إلى أهلها، مرغّبًا إيّاها في أن تبقى وفيّة لحبّها الأوّل، وكتبت لها على وريقة بيتين لأبي تمام: «*نقّلْ فؤادكَ حيث شئتَ من الهوى/ ما الحُبُّ إلا للحبيب الأوّلِ// كم منزلٍ في الأرضِ يألفهُ الفتى/ وحنينهُ أبدًا لأوّلِ منزلِ*». ناولتها الوريقة مطويّة وقلت لها وأنا أنظر إلى سلمان نظرة يعرف معناها:

ـ خذي يا ابنتي هذه البطاقة. اقرئيها في بيتك وتأمّليها، ثم علّقيها حرزًا يحفظك من الوهم والزيغ.

عاد الخادم بعد أن أغلق الباب خلفها وتأوّه قائلاً: زمان المسخ هذا! ما بقي حياء ولا حشمة!

* * *

ـ ٤ ـ

سارة، أخت راشيل الكبرى: أمّا هذه المرأة فمن اللآئي حامت حولهنّ نزوعاتي الشكوكيّة في شأن مخطوطتي الغاربة، والأسباب في خاطري واردة، ولو أنّها غائمة ملتوية.

كيف تعرّفتُ عليها؟

كل اللواتي واقعتهنّ أو لاعبتهنّ دون المواقعة، كانت لحظات تعرّفي عليهنّ من البواكير والمقدّمات المتفتّقةِ المتألّقة. لذاذات البدايات ـ أنعم بها وأكرم! ـ لا تُنسى ولا تطوى. . . ففي يوم خريفي كئيب، ركبت فرسي قاصدًا البحر شرق مرسية، وكلّيَ شوق إلى استعداء مياهه ورياحه على كرب كان في بعض الأحايين يلمّ بي. وبينما أنا أمشي على رمل الشاطئ تتبعني دابّتي، إذا بامرأة، ذات قدّ ممشوق وشعر ثائر مرفرف، تخطو خلفي على بعد أمتار معدودة. تجاهلتها طوال المسافة المتبقّية لبلوغ منطقة صخريّة عصيّة على الأقدام. ولّيت راجعًا فلم أر للمرأة أثرًا. أجلت نظري في كل الجهات البريّة، ثم حوّلته نحو البحر فأبصرتها تسبح فيه كما لو أنّها من عرائسه وحيتانه، تصعد مع الموج إذا علا، وتنزلق إذا انهمر؛ سمعتها تصفق مغنّية حينًا وتطلق صيحات نشوانة آونة. غالبت ظنّي في جواز كونها جنّيَّة أو

ساحرة بأن أوقفت فرسي وصلّيت العصر. وما إن سبّحت وسلّمت حتى تناهى إلى أذني صوت نسوي من خلفي يردّ السلام، ويقول بلهجة الإقرار: «مسلم أنت... وأنا من قوم موسى». التفتُّ إليها مدهوشًا وقد وقفت: خصلات شعرها كوشاح نديّ خافق يشي بجمال وجهٍ، سبحانَ الصانع! فستانها الشفيف المبتل يفصح عن جسم غضٍّ فاتن! فكيف لي أن أتّقيها بصرف نظري عنها متوهّمًا حلاوة أنفذَ وأجدى! دثّرتُها بسلهامي ليس خوفًا عليها من وعكة صحّيَّة، بل لأداريَ انفعالي وأجد إلى الكلام سبيلي. قلت:

ـ الجوّ ممطر وهذا الطقس بارد أما تخشين في هذا الصقع من سوء الطوارئ؟

فجاوبتني وقد تلفلفت بلُبسي وأوضحت وجهها ما استطاعت:

ـ في هذا الفصل وغيره، أتريّض بالسباحة في بحر الزقاق هذا أو في الأطلسي. الإدمان على الالتئام بالمياه المالحة طريقتي لتبرئة ذمّتي من دم المسيح، ونافذتي على ما يتبدّى من فيض الكون.

كلام سامٍ هذا الذي يبثّه ثغر هذه المرأة الغريبة، وتخفق به شفتاها الشائقتان الشهيّتان. أرجأت محاورتها ريثما أتبيّن مسلكي إليها بالتي هي أجمل. فارت الجمل في ذهني، والمعنى غنيٌّ اللحمة والوحدة. وقبل نطقي بما تيسّر، رأيتها تحنو على فرسي وتناجيه في أذنه، فيحرّك رأسه اهتمامًا واستجابة. التفتت إليّ بعينين وضاءتين وقالت:

ـ هذا فرس عربي خالص الأرومة والنسب، أبيُّ النفس، عليُّ الهمّة، جوادٌ كريم، ذو أريحيّة وسؤدد... نِعمَ الفرس ونِعمَ مالكه!

سكتت برهة كأنّها تقيس نبضي، ثم أردفت:

ـ أسمّيه الفاخر ولو كان له اسم آخر.

استأذنتني في ركوبه فأذنت مرحّبًا. ابتعدتْ شوطًا ثم جرت نحو الفاخر من خلف وقفزت، فإذا بها تمتطيه رائمة كالخاتم في الخنصر، وتنطلق ويداها ممدودتان كجناحين ينشدان الإقلاع فالتحليق. وفرسي بين اليابسة والمبتلّة يجدّ في الركض كما لم يفعل معي أبدًا من قبل، حتى خلته يلتذّ بالتحام راكبته به، ويلبّي رغبتها الجامحة ما استطاع... ولمّا أتمّت دورتها السابعة قفلت راجعة إليّ، وترجّتني أن أركب خلفها وأشدّ على نطاقها شدًّا فلبّيت. انطلق بنا الفرس بركض متهاون، كأنّما هو يستثقل مزاحمتي له عليها، ثم بدا له أن يوافقني، فحثّ الركض وأعلاه، فتوهّمت السماء والأرض قبّة، وأنا وهذه الفارسة في فلكها نجول ونرتع، والريح بين البرّ والبحر تلفحنا بهباتها المطهّرة وأنسامها النديّة. ولمّا أحسّت من حاملنا التعب، شدّت لجامه فعاد إلى الخطو ثم حنت على رأسه تقبّله وتداعب وجهه، وهو يتبختر أو يحمحم من فرط الحبور والغبطة. قطعنا مسافة على هذه الحال والهيئة، وحين بلغنا مرتفعًا فيه بضع دور متناثرة، أوقفت مسيرنا بحذاء منزل صغير مطلّ على البحر، قالت: هذا عشّي.

بادرتُ إلى الترجّل مهمهمًا بكلمات تشي بفرحي، وأعددت أخرى لوداعها، لكنّها باغتتني بالقول: أعلوك بذراع، اقطفني إن شئت ثم احملني إلى داخل عشّي.

قدتُ الفرس إلى حظيرة ذات كلأ وظِل جنبَ المنزل، ثم جذبتُ إليَّ الفارسة بكثير من اللّين، وحملتها بين ذراعيَّ حتى الباب، ففتحته هي بركلة خفيفة، ودعتني أن أكمل السعي، وأنا بين بهائها المتنفّس وخفقات قلبي أدعو لي بالأناة والتروّي. قالت: «أمام ذاك الستار أوقفني، وعلى ذاك المقعد انتظرني»، ففعلت. أعادت إليّ سلهامي شاكرة واختفت وراء الستار. حسست أنّها تغسل أطرافها كيما تتطيّب وتغيّر لبسها. وصحّ إحساسي لما أن عادت إليّ وقد علا جمالها جلوًّا وريعانًا: الشّعر مجفّف ممشوط، العينان النجلاوان وسط وجه ريّان زادهما الكحل لمعانًا وسعة، الجسم يفوح بعطر لا أرقّ منه ولا أزكى... قدّمت لي طابق فواكه وكوب لبن، جلست تقتات معي منه وترتشف شرابًا لعلّه نبيذ حلال لها. سألتها عن اسمها فابتسمت وعضّت ببنانها ثم قالت:

ـ اسمي سارة بن ميمون. إنّي من حفدة موسى بن ميمون، هل تعرفه؟

ـ عبد الله موسى بن إسحاق بن ميمون، كيف لا أعرفه؟ كانت لي مع كتابه «دلالة الحائرين» جلسات يكون لي إن شاء الله ما بعدها.

ـ قرأت ما تيسّر لي من هذا الكتاب، وخرجت كما دخلت: حائرة بل خالية الوفاض من أيّ يقين. هل لأنّي من صغار الأحلام الذين ينهاهم المؤلّف عن قراءته ولو بمعلّم؟ لكن دعنا ممّا يفيض ولا يفضي، حدّثني عن نفسك...

خطر لي أن أنبئ المتذمّرة أنّ سلفها وابن رشد من واد واحد، إذ كلاهما يحرّم التصريح بمسائل أهل البرهان للجمهور، وحتى لمحترفي الجدل والكلام، لكنّي آثرت أن أجيب عمّا تسألني:

ـ مسلم موحّد كما ترين، ابن المغرب والمشرق وطالب أبدًا للعلم ولو من حكماء الصين...

ـ واسمك أيّها الفارس؟

ـ عبد الحقّ ابن دارة.

استغربت المرأة نسبي وفطنت إلى أنّه لقب صوفي أو جهادي، فلم تستوضحني بل تابعت:

ـ أنا من يهود الأندلس، ورثة التوراة، فاتحةِ العقد التوحيدي... فاتحة أفسدها الحاخامات والمتأوّلون الغلاة بكلامهم عن أرض الميعاد وشعب الله المختار، كأنّما إبراهيم عليه السلام حكر عليهم، لم يهِمْ على وجهه في الصحراء إلاّ للقاء ربّهم وليس ابتغاء وجه إله كل الناس ... كان لي أخ بكر، يا ابن دارة، خالفهم الرأي فأوقعوا به المكاره والإهانات. سجنوه وضربوه وحلقوا نصف لحيته حتى مات من الغيظ والغم...

سكتت ولهى متنهّدة، فاهتبلتها فرصة للتخفيف عنها، قلت:

ـ وأنا على دين محمّد، خاتم العقد التوحيدي ومسكه. لنا إلى كل الأنبياء والرسل نسب إبراهيمي ثابت حقيق. إنّما لنا أيضًا ما لكم في أندلسنا من فقهاء يفرّقون القلوب ويركبون الدين عوجًا.

برزت من غرفة مجاورة هرّة بيضاء، قفزت إلى حجري وتكوّمت فيه متحننةً ملاطفة. قالت مضيفتي:

ـ هذه الهرة اختارت بيتي ملجأ، أطعمها يوم أحضر وتبحث عن رزقها حين أغيب... سمّيتها نجمة.

ـ نجمة عليها كل أمارات الذكاء والفطنة، فضلاً عن حسنها الباهر وبهائها الأخّاذ. ألا أنعم بها وبمالكتها.

قلت ما قلت مداعبًا بيدي ظهر الهرّة، فبرقت عينا سارة بنور مشعّ يشي بفهمها أنّها المقصودة بجميل كلامي، وأنّي فهمت من جميل كلامها في فرسي كونَه يعنيني. فالخير بالخير والبادئ أكرم.

ذاك كان أوّل لقائي بسارة بن ميمون. وكدأبي في فاتحة كهاته، أتحلّى بخفّة الظلّ وألجم شهوتي واندفاعي بشرائط التأنّي والعفّة. استأذنتها في الذهاب، فرمقتني بنظرة محايدة ثم شيّعتني إلى مربض فرسي بكلمات طيّبة، وأخرى عن مواقيت وجودها في عشّها البحري وفي منزلها المرسي.

تلت ذلك اللقاء الفاتحة لقاءات سرِّيَّة أخرى، كانت لنا فيها جولات حواريّة وأخرى غراميّة، جنى كلانا منها ثمارًا وثمارًا، وهفونا معًا بكل جوارحنا والتحامنا إلى تقصّد الألباب دون القشور، وتلطيف التضادّ والخلاف، حتى صارت بقرآنيَ تستشهد، وصرتُ بصحيح توراتها أذكّر، ولا مسعى لنا ولا مطمح إلاّ نعيم الإحاطة وحسن التجاذب.

وذات يوم حدث ما كان محتملاً: فراق لستّة أشهر ويزيد، تزوّجت سارة خلالها من واحد على دينها، ثمّ طلّقته لأسباب زهدتُ في معرفتها، فساءت علائقها بأسرتها وحاخامات مقرّبين إلى أبيها. وحين لبّت دعوتي إليها وجاءتني صباح يوم أحد متنكّرة في زيّ مسلمة، أدركت صنيع الظروف القاسية بها ما إن أزاحت خمارها الفضفاض، وأبانت عن وجه شاحب مكدود، يشي بجسم سقيم منهك. قالت وهي تجلس قدامي حول مائدة لبن وحلوى:

ـ ترى ما فعلوه بي! أقوام الصليب يتربّصون الدوائر بيهود مرسية ومسلميها، وبنو قومي يضيّقون الخناق عليّ ما استطاعوا. إنّي، يا ابن دارة، أفكّر ليل نهار في الهجرة إلى المغرب أو إلى أرض أبعد.

ـ لا تقنطي من رحمة الله، يا سارة، ولا تتعجّلي، فما بعد الشدّة إلاّ الفرج... عبد العلي مع أختك راشيل ليس على أحسن حال، وحتى أنا، لو تلمحين، لست على ما يرام. حزني معظمه على ضياع أندلسنا منّا بلدًا بلدًا وحصنًا حصنًا، وحزني بقيّته على

فَقْدِ مخطوطة كتبتها بلغة الجذب والحلم وبمداد نوراني مشعّ. والراجح على ظنّي أنّها سُرقت منّي...

أطرقت قليلاً ثم حدجتني بنظرة ثاقبة وقالت:

ـ لعليّ لو شاء أن يطلّق أختي، أمّا أنت إن كنت تشك فيَّ فأنت غلطان...

ـ لا.. حاشا حاشا.. بل دعوتك لأستخبر عن حالك وأحكي لك شيئًا من حالي. نصحك هو ما أبتغيه ولا أقصد سواه.

ـ الآن وقد قطعت الشكّ في اليهوديّة باليقين، أكمل الدورة مع خليلاتك الأخريات... ولا تنس منهنّ المشركات.

نصيحتها الأخيرة أسدتها وهي تقف وتعدل فستانها. مدّت يدها إلى عنقي فلامسته، ثم سبقتني إلى الباب واختفت وراءه مخلّفة لديّ إحساسًا أنّي قد لا أراها أبدًا بعد اليوم.

* * *

ـ ٥ ـ

«لا تنس منهنّ المشركات»!

لم أعرف إلاّ مشركة واحدة، اسمها بلقيس، فقدتُ أثرها هي الأخرى قبيل ضياع تلكمُ المخطوطة. كان بيتها بضاحية مرسية الجنوبيّة مزدانًا بتماثيل وأيقونات. زرتها مرّتين أو أكثر، وكذلك فعَلتْ، ثم انقطع ما بيننا فجأة، إذ رحلت إلى حيث لا أعلم. وما كان بيننا لم يتعدّ الكلام الوجيز الدقيق، المحكوم بضيق الوقت واتخاذ الحيطة والحذر من الآذان اللاّقطة، والعيون الثاقبة. والكلامُ بيننا كان يغلب عليه شقّ الإلهيّات والمسائل الحياتيّة الحدّيَّة.

أذكر أنّها دعتني ذات مرّة إلى حفل تأبين شيخ فرقة هرطقيّة اسمها «الأرضيّون»، عملتْ فيها كناسخة مدوّنة. وبعد أن ضمنتني لدى وجهاء الفرقة، قبلتُ الدعوة من باب أنّ معرفة الأشياء خير من جهلها، سيّما إن تمّت بالسمع والرؤية معًا. ومن أعجب ما شاهدته وتأكّدت منه على أوراق داعيتي كان خطبة المعيَّن لخلافة المتوفى، ومن أقوى فقراتها:

«إذا كنّا، أيّها الإخوة، أقلاّء في لحظة توديع فقيدنا المبجّل،

فلأنّه في وصيّته الختميّة نهى عن ظهور أثر ما لأيّ عباءة أو لحية دينيّة في مراسيم تشييعه إلى مثواه الأخير.

«لا يخفى على أحد أنّ الراحل ـ ولتتقبّلِ الأرض رفاته في حضنها ـ لم يكن على وفاق مع أيٍّ واحدة من الديانات القائمة. كان يؤمن أيّما إيمان أنّ أمّنا الخالقة الرازقة إنْ هي إلاّ الأرض، وأنّ هذه للأحياء هي كل شيء (رغم هزلها في أنظمة المجرّات)، وأنّ في البدء كان الانفجار الأعظم، وسيعقبه في آخر المرداس الكوني الانطفاءُ الأعظم، الذي ستخرج منه عوالم فلكيّة أخرى، موعودة لأزمنة وأحقاب سحيقة جديدة.

«تلكم كانت عقيدته الأثيرة التي ليست في نظره أقل حجيّة ووثوقيّة، ولا أكثر صلابة وتجذّرًا من أيّ عقيدة غيبيّة أو دينيّة أخرى.

«إنّه، طوال حياته الغنيّة الحافلة، لم يقايض عقيدته تلك بأيّ وعد بالخلاص في عالم آخر افتراضيٍّ بل وهمي، ولا بأيّ رهان انتهازيٍّ دينيًّا وجبانٍ أخلاقيًّا، كما في حكمه وحكم فرقتنا الواعية.

«لنعترف إذن لفقيدنا بفضيلة الوفاء القوي لإيمانه الأرضي، الذي لم ينل منه ما تعرّض له في خريف حياته من إرهاقات الهرم والمرض الموجع.

«آخر الكلمات في وصيّته إلينا وإلى من هم على نهجنا أن نرعى حقوق الأرض رعايةَ رفقٍ ومحبّة ونقوم بها، فلا نلوّث

مياهها وترائبها التي منها إلى الوجود خرجنا، ولا نقطعَ أوصال الغابات التي هي رئاتها وعلامات نضارتها. والهواء الهواء علينا بصونه في أعلى درجات النقاوة والطهر، وإلاّ تسمّمنا وذوينا.

«لكلّ قصّته الخاصّة مع السماء. أمّا فقيدنا المبجّل فقد آثر نسج قصّته الذاتيّة مع الأرض، تربةِ ميلادنا وبزوغنا ومثوانا الأخير الأوحد. فليعد إليها آمنًا مطمئنًّا، ولنسر على هديه في طريقه المبين، واثقين مستمسكينَ أرضيين».

وما هو إلاّ شهر أو أقلّ حتى أخبرتني بلقيس أنّها انشقّت عن الفرقة تلك، لا لكي تنشئ فرقة مغايرة، بل هروبًا من ضغط الجماعة وأوهامها، وسعيًا إلى إيجاد خلاصها بنفسها وجهدها، عبر التجربة والاستقراء، والتأمّل والاستغوار. وهذه المرأة الدماغيّة، منذ بداية عهدي بها كانت لا تتوانى في هجاء المطلق وتعييره، كما لو أنّه جار عدوانيّ أو ثقيلُ الظل، جديرٌ بأن تتفانى في خدشه بأظافرها الصقيلة الحادّة. لكنْ خلال حياتها من يوم لآخرَ في حضن النسبيّة الصرفة، كان يحدث لها أحيانًا، كما اعترفت لي، أن تصرخ مستغيثة: إنّي أتخبّط وأغوص، خلّصوني.. ارفعوني.

ذمامة بلقيس كانت ـ والله ـ تتبخّر وتختفي وراء خفقات وجودها الجريح، وبلاغةِ يأسها الدفين. سؤالاتها وخاطراتها، سواء تقبّلتُها أم عدّيتُ منها، كانت في الغالب من الحساسية والغور بحيث تبعثني على اليقظة والالتفات المشوبين بشيء من

الدهشة أو الحيرة. فخليلتي كانت مثلاً تقول كلامًا لا أتذكّره الآن إلاّ على سبيل التقريب لا الضبط ، منه:

«وحقّ الأرباب، يا ابن دارة، لولا سعة صدرك وصفاء عقلك لما كاشفتك في أمري. أنا بلقيس أو ما تبقّى منها، أشعر، ولمّا أبلغ عقديَ الثالث، أنّي واقعةٌ موقّعةٌ أسفله. الحياة عندي في المحصلة حصاد أوهام وأضغاث أحلام لا غير. أزماتي منذ اشتدّت ما انفرجت ولا خفّت؛ ووجهي هذا الذي ألقاك به، وليس لي سواه، يُتعبني إذ يتبعني أنّى حللت وارتحلت، لا حيلة لي لتحسينه، ولو بالدهون والمساحيق.

«وأنا في العشرين، ماتت أمي من شدّة الحسرة والحزن على أبي المقتول في موقعة العُقاب، وهاجر أخي الأكبر ولم يعد، كأنّما الأرض ابتلعته أو حشرته في الثلث الخالي منها. تزوّجت بعد ذلك برجل سكّير، كان يشرب الخمر على الريق محضًا، فلم يزل حتى مات. وتزوّجت ـ أنا القليلة بنفسي ـ برجل آخر بخيلٍ أحمق، شرط عليّ أن لا عرس ولا وليمة فقبلت، وأضاف أن لا غناء ولا طبل ولا غيطة فرفضت. غاب شهرًا للتفكير وعاد فأعلن: أعقد عليك ثم تغنّي لي شويّة وترقصي وأنا أضرب الدفّ، لا جوقة ولا محضر. مكرهةً قبلت لأنّ الألكع صاح مهدّدًا: إمّا هذا وإمّا أنتحر. . . ومرّت ليلة عرسي كما ارتضاها، ثم صار بعدها شديد الافتتان بي، يخاطبني متعجّبًا: فولة ـ هكذا يسمّيني ـ ما أصغرنا وأضعفنا، والوقت المنفلت كالزئبق من بين أيدينا يدوس حواسنا وجسمينا! أوقفي هذا النزيف يا فولة، أوقفيني وإلاّ أجفلت أو أجرمت. . .

«وذات يوم ربيعي، حملني المعتوه على دابّته في نزهة إلى صحراء المغرب، فبدا له أن يتركني وحدي في عرضها بدعوى أنّي عاقر ووعرة، ونصحني أن أحصي الحصى في انتظار أن يعود إليّ على متن بُراق ينطح السحاب ويطوي الهواء، ثم غاب فلم أر له من بعد وجهًا.

«ما حصل لي في جوف الصحراء عجب عجاب. اشتدّ ظمأي ولا ماء. همت على وجهي، والشمس قضبان نحاس حامية تصليني. هذيت بكلام صعب ذكّرني به بعد صحوي الجمّال الذي أنقذني، قال إنّي هتفت ملء فمي: يا ربّ الأرباب، لمَ بسطتَ الأرض ولم تكوّرها، وخلقتَ الكون في ستّة أيّام وليس في رمشةَ عين؟... ما ربحك والغاية في تعذيبي بسوء الطّالع وبالقبح المقيم والعقم المسلّط؟... أملي في الموت النافذ كبير، لكن ما بين دفني وبعثي وما بين حشري وحسابي، كم من دهور وأحقاب سحيقة تمرّ عليّ وأنا أنتظر؟...

«حمدت الآلهة أن أعمت الأعرابي عن فهم كلامي، فلو وعاه لنقله وأبلغ عنّي. وحمدتها أيضًا أن حفظت لي بعض عقلي ـ أو هكذا تصوّرت ـ ولو أنّي جرّاء محني هزلت قبل الأوان وترهّلت...

«واليوم، هأنذا أحاول جهدي لملمة شعثي وشتاتي، مرّةً لي، ولو بالتوهّم، ومرّاتٍ عليّ.

«وكيف أقدر على أمري، والبلاد كلّها كأنّي بها خلتْ من روْح

ربّ الأرباب، فآلت أركانها إلى التداعي والخراب. . . أتعبتك بالكلام يا ابنَ دارة؟

ـ لا (قلت) حاشا حاشا. . .

ـ لو عرفتَ سرّ إدماني على تركيب الجمل! جسمي بؤرة أعطاب، منها هذا الصفير في أذنيَّ لا يفارقني، فإذا تكلمت أو كُلِّمت أمهَلني. حدثْني إذن حتى أسكت أو حادثني بما تشاء.

ليس من اليسير الإسهاب في الكلام مع امرأة ذات قروح روحيّة وأخرى جسميّة، فقد ينطق اللسان بما يخدش أو تكون الألفاظ حمالةَ أوجهٍ وتخريجات. لذا كنت معها أؤثر الإيجاز والومضات. قلت وقتذاك كلمات ما زلت أحفظها:

«هذا زمن، كما ترين يا بلقيس، يُدمع العيون ويفتّت الأكباد. البلايا والنائبات ضخمة الانغراس والامتداد، شديدة الجذب والامتصاص، وكلّنا فيها ممتحنون، وأنت بيننا ممتحنة. فمنّا من يصبر ويسلك، ومنّا من يضعف ويضمر؛ أنتِ بعيدة عن هؤلاء، دانية من أولئك. مجاهَدة تلو أخرى حتى تتحلّلي بالتدريج من شائناتك كما من جلد بالٍ، وتعلوكِ زائناتك لطائفَ ولطائف. الجمال الحق والأبقى، بالكدح والكسب يُستجلب ويُبنى، ولا إخالك بلغت طور التجرّد للعُلى. . .».

أذكر أنّ مخاطبتي أدارت رأسها ونظرت إليّ نظرة استشكال أو استوعار لما أدعوها إليه، ثم نعتت تماثيلها وسألتني لم لا ألومها

عليها، جاوبتها أنّ قلبي قد صار قابلاً كل صورةٍ، كما قلب الشيخ الأكبر ابن عربي. . . سألت: حتى لبيت أوثان، أومأتُ أن نعم. عقبتْ بكلام مفاده أنّ ربّ الأناجيل لم يخلقها على صورته، وربَّ القرآن لم يعتقها ممّا هي فيه. شعرتُ أنّها المهجورة، لا يعوّض عن اضطرامها الجوّاني وفقر علاقتها بالمتعالي إلاّ أرباب صغار، مرئيّون قرباء؛ تحاورهم وهم طوع عينيها ويديها، تعاتبهم وأحيانًا تعيّرهم، حتى إذا انقشعت أوهامها وأتاها الصحو بغتة، وصلوها ولو برهةً بربّهم الأعلى، ساجدين مسبّحين، وهي معهم في زاوية بيتها المخصوصة، توقد الشموع ولسان حالها يهلّل ويكبّر.

لو كان الحياء المتعفّف شخصًا لأقدم على قتله هؤلاء الذين يتحرّقون إلى التنافس في الجهر الصارخ، وكلٌّ لحسابه: إنّي أشقى الناس!

أعرف من تمنّوا لو يُكتب ذاك الجهر على شاهداتهم كاعتراف بعديٍّ أخير، وبلقيس منهم، وهي التي تركت لي بطاقة قبل أن تغيب، قالت:

«علاقتي بالآخرين والدنيا، يا ابن سبعين، أشبه ما تكون بالقوت العصي على البلع. غيرُ محبوبة أنا وعاقرٌ حقًّا. . . قل إنّي كيس من العقد بل مأزق بلا مخرج. هل تسمعني: مأزق بلا مخرج! وحدتي ووحدتك لم تعودا تتبادلان سلامات صادقةً حارّة، كما كان حالنا في عهد بهيٍّ ولّى. إنّي إذن أودّعك الوداع الأخير، أذهب لأضيع تمامًا، ثملةً بالفناء، متدخّنة، منكوبةَ

الروح، متصدّعةَ الجسد. . . وحقّ إلهك وآلهتي، لن تكون الجنّة جنّة إلاّ إذا كان والجوها الأوائل من أمثالي».

الجدبَ الجدب! القنوطَ القنوط!

بلقيس ـ هذه المشركة بمعنىً قهريٍّ مجازي ـ ليس مثلها يسرق مخطوطة لا طاقة لها بها ولا حاجة. وحلم استردادي لهذه المفقودة ـ ولو تركت حبله ممدودًا ـ لا يفيد، والبحث عن بلقيس مضيعة للوقت وسراب بليغ.

* * *

ـ ٦ ـ

يا سلمان...

سلمان قوطيّ الأصل، أسلم واستعرب، تزوّج مسلمة ثم فقدها ولم تلد. اختار بعدها حياة الزهد والتقشّف ودخل في خدمتي. كان الرجل ورعًا خيّرًا، يصلني بأهل الفاقة والعوز، إذ ينقل لي أخبارهم، ويعيّن لي أحوجهم إلى مساعدتي، فيتكفّل بإيصالها إليهم بتفان وأمانة. وما خلا أوقات النوم والصّلاة، تراه يندب نفسه للأعمال اليوميّة، العاديّة منها والطارئة، ويسيّج وعيه بها كأنّما ليتّقي النظر إلى أعباء المصير والأمور الجسام، التي يراني مهمومًا بها ومثقلاً. ومن شيمه أيضًا أنّه يتقن فنّ الخفّة والتواري في فترات اعتزالي للتأمّل والتحصيل. فكلّما عاد من قضاء حاجاتي في المدينة، تراه أحرص ما يكون على توفير أسباب السكينة والهدوء من حولي، ويمسك عن مخاطبتي إلاّ إذا طلبته أو حدث ما لا يستطيع عليه صمتًا.

يا سلمان...

بقامته النحيفة العالية، برز كعفريت من بين الجدران. قال بصوته المبحوح:

ـ أتى سيّدي رهط من الطلبة يطمئنون عليك ويقرئونك السلام. أجبتهم «مبلّغ» ورددتهم.. ماء الوضوء سخّنته والغداء جاهز.

ـ هات الماء والطبق جزاك الله، والطلبة لو عادوا غدًا أدخلهم.

ـ غدًا وليس قبله؟

ـ وهو كذلك.. ثم جهّز بعيد الظهر حصاني.

عبرت أزقّة المدينة ورحابها راجلاً، أقود دابّتي خلفي. وجوه المدركين الوعاة من العباد تزداد عبوسًا واكفهرارًا، كأنّما تثخنها علائم حداد لا حدّ له ولا متمّ. هزيمة المسلمين في موقعة العقاب كانت مفتتحه، وسقوط قرطبة وبلنسية عمقه، والموحّدون تشرذموا وهانوا، وكل عام يجيء بالمزيد من النكسات والمكاره، وعامّة الناس في الدروب والطرقات يسلكون أو إلى الحوانيت والمساجد والديار يلجأون، فزعين دائخين، كأنّهم على مشارف هاوية سحيقة وهلاك لابدّ آت. ولهم في التهيّؤ أو التنفيس صيغ وطرائق، هؤلاء بالإقبال على الملذّات ما ظهر منها وما بطن، وهؤلاء بالادّخار والبخل والتقتير، وأولئك بالانقطاع إلى الزهد والعبادات...

حين انتهيت من عبور مسالكي العامرة، ودنوت من البادية المفضية إلى جبال الغرب، تأهّبت لركوب فرسي، فإذا بنفر من شبّان يهبّون نحوي ويحيطون بي. تعرّفت على بعضهم، ومنهم

عبد العلي والصادق. حيّوني منفعلين، رددت تحيّاتهم مبديًا استغرابي لحضورهم، ثم دعوتهم إلى مجالستي قرب سنديانة معمِّرة. سألتهم عمّا بهم، فتجرّد للجواب أكبرهم، الصادق الشاطبي، قال:

ـ قدمنا صباح اليوم إلى بيت سيّدنا، فردّنا سلمان، ولولا صعوبة الظرف لما أتينا من غير ميعاد...

ـ أذكره يا الصادق ولا تبطئ.

ـ كنا في المسجد بالأمس نقرأ كتبًا أوصيتنا أن نأخذها بقوّة، فإذا بفقيه يدعى عبد القادر القبري يدعو قريبًا منّا إلى حلقته، فما إن انعقد أمامه جمع حتى بسمل وحوقل، ثم أرغى وأزبد وهو يسوق الآيات والأحاديث في تكفير أهل البدع والأهواء من فلاسفة ومتصوفة، ودعا الله عليهم أن يقطع دابرهم من الأندلس ويطهّر الدّين من سمومهم وأرجاسهم، ولم يضرب كمثال للتدليل إلاّ اسم سيّدنا وقولةً محرّفة ولا شكّ، رواها عنك زاعمًا أنّها بخطّ يدك، واستلّ بطاقتها من كمّه وقرأها بصوت ثائر مدوٍّ: «يقول رأسهم ابن سبعين: لقد حجر ابن آمنة واسعًا بقوله لا نبيّ بعدي.. أستغفر الله من ذكر كفره وغلوائه. فيا لطيف يا لطيف يا لطيف».

وأردف عبد العلي:

ـ وكرّر المحرّض كلمة اللطيف ووجهه يحمرّ، وأوداجه تنتفخ، ولعابه من فمه يتطاير. وتبعه في ذلك بسطاء القوم المغرّر

بهم، فقمنا نحن كرجل واحد، ودعونا المستعدي المغالي إلى اتّقاء غضب الله باطراح الكذب والبهتان. قلنا له إنّ في كلامه قلبًا وتصحيفًا لكلمة شافهنا بها معلّمنا الأبرك وليس بغيرها، وحفظناها عنه، وهي: رجح ـ وليس حجر ـ ابن آمنة واسعًا بقوله لا نبيّ بعدي...

وعقّب الصادق:

ـ استشاط الرجل غضبًا، وأنكر وتوعّد، ملوّحًا بورقة نسب خطّها إليك، فاختطفتُها منه حتى أقارنها بخطّك في تقييد لك كان معي، ولمّا تبيّن لي الفرق بين الخطّين أشهدت بعض من حولي، ثم جهرت بلعن فقيه السوء والزور، فلم يجد مخرجًا إلاّ في ادّعاء أنّك قادر على تغيير خطّك لما لك من معرفة بالكيمياء وعلم الحروف، وأضاف السحر. فعمّت الفوضى أرجاء الجامع، وضربَنا الدهماء بالنعال، وطردونا من بيت الله شرّ طردة، ولا ندري ما كان يُفعل بنا لو لم نفضّل الفرار...

ابتسمت لهم ونظرت إليهم نظرة ودودة، عساني أهدّئ روعهم وأهوّن الأمر عليهم. قلت:

ـ حسنًا فعلتم. بيوت الله إنّما هي لعبادته وذكره، وليست لبذر الفتنة والشقاق بين المؤمنين. هذه بطاقات سبع كعددكم، أكتب على كل واحدة بخطّ يدي قوليَ ذاك صحيحًا واضحًا؛ أطلعوا عليها أتباع الفقيه القبري حتى يقارنوا الخطّ بالخطّ، ويميّزوا السويَّ من الزائف. فإن عدلوا فذاك ما نبغي، وإن ضلّوا فلا

هاديَ إلاّ الله. اثبتوا على ما ترضونه وتحبّونه، ولا تخافوا ولا تحزنوا...

قال شابٌ قوي البنية والشكيمة، لامعُ النظرة دقيقها:

ـ ليس على أنفسنا نخاف بل عليك يا مولانا. ضعاف العقول، راكبو الدين عوجًا، نخشى أن يتربّصوا بك الدوائر أو يمسّوك بالأذى. فكرتنا أن نتناوب على حراسة بيتك ومرافقتك أينما حللت وارتحلت...

أبدى الصحاب جميعهم علامات الموافقة والتأييد. سألت رائد الفكرة عن اسمه وعمله، أعلمني أنّه عمرو القرطبي، هاجر من بلنسية بعد أن آلت إلى النصارى، وقُتل فيها أبوه غدرًا. وأضاف أنّه يشتغل في مرسية كتبيًّا متجوّلاً، ويطلب أخلاق الصوفيّة وشيئًا من علم الحساب. رحّبت به بين خلاّنه الجدد، وأثنيت على عمله وطلبه ثم أردفت:

ـ حربنا يا شباب ليست ضدّ الفقهاء، أبناء جلدتنا، بل ضدّ حملة الصلبان والأسلحة، الساعين إلى دحرنا وإخراجنا من ديارنا. قرطبة، واسطة العقد، ومدن وحصون من أندلسنا انتزعوها منّا غزوًا، وأخرى أخذوها صلحًا من ملوك الخذلان وفساد الزمان، نعوذ بالله من شرّ نيّاتهم وأعمالهم. أمّا مرسية وإشبيليا وغيرهما جنوبَ الجنوب فتوجد في كفّ عفريت، لن تفلت من الفقد إلاّ بجيش جبّار كجيش الموحّدين الأوائل، إلاّ بتذكّر الله وذكره ونصرته بالتوحيد. ولكم في هذا الجهاد مدارج

ومعارج، فاسلكوا منها ما استطعتم. أمّا الفقهاء فحاوروهم بالتي هي أحسن، أو غضّوا عنهم الطرف إن غلوا وتعصّبوا، فهؤلاء هم من عناهم سيّد الخلق بحديثه الشريف: *«ويل لأمّتي من علماء السوء»*، وقال عنهم أبو طالب المكّي ما حفظتموه في قوت القلوب.

سارع عبد العلي وبعض صحابه إلى الصدع بصوت واحد: *«علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله»*.

قلت بلهجة التنبيه والتحذير:

ـ لكن من منكم ردّ على عنفهم بالعنف فلا إليَّ ينتسب ولا معه أسير...

انتفض عمرو سائلاً:

ـ أنمدّ لهم خدودنا للصفع، كما على مذهب المسيح؟

أطرقت مفكّرًا ثم قلت:

ـ سئل النبي الكريم: *«ما السؤدد؟ قال العقل»*. وعليه، العنف في أيّ حال إضعاف للعقل وخرق، وهذا ما اجترحه متأخّرو المرابطين وفقهاؤهم الحشويّون لمّا أحرقوا إحياء الإمام الغزالي؛ وهذا ما أتاه أيضًا بن تومرت لما أن كفر دولة المرابطين واعتبر جهادهم أوكد من جهاد الروم وأعظم... فاتّقوا شرور الغلو والتعصّب الأعمى في بني أمّتكم ما استطعتم... والآن اسلكوا

وغالبوا وعورة الطريق بالصبر والعزم والهمّة العالية. . . موعدنا كالمعتاد في صلاة الظهر يوم الجمعة. اذهبوا إلى النهل من فنونكم الأثيرة، ولا تنسوا كتبًا ونصوصًا أوصيتكم بها خيرًا، أذكر منها: خطب وحِكم للإمام علي بن أبي طالب، *والإشارات الإلهيّة* للتوحيدي، *ومسالك السائرين* للهروي، *ومحاسن المجالس* لابن العريف الصنهاجي. عودوا من حيث أتيتم، رافقتم السلامة.

ابتعد الشباب واجمين، متثاقلي الخطى. ركبت جوادي ويمّمت وجهتي. قطعت مراعيَ ومروجًا كانت شمس نهاية هذا الصيف تزركش بُسُطها ببقع ضوئيّة مترنّحة؛ ثم ولجت غابة تكسو سفح الجبل وأعلاه بأشجار سامقة، متمايلة أغصانُها مع ريح شرقيّة، فائحة بنداوة السواقي والأنهار وأريج النباتات والغلال.

لمّا بلغت قمّة الجبل راجلاً تتبعني دابّتي، قصدت للتوّ الغار الخفيّ الذي اعتدت ارتياده آمنًا عند الحاجة. سمّيته تيمّنًا وتبرّكًا منذ اكتشفته: حِرائي. من حوله حتى فرسي أمسى يسعد بالكلأ الغني والهواء الصافي. داخله صلّيت العصر، ثم جلست أرمق من فوهته أشعّة الشمس الأرجوانيّة تخضب أفق الجبال المترامية وتعلن دنوَّ المغيب.

مرّة أخرى، من جهة الإلهام والجنّي، الجدبَ الجدب!

قلت مناجيًا: إن طال عليَّ هذا الانقطاع، فلا أمل في الحياة يرجى، ولئن ألقي بنفسي من أعلى هذا الجبل أخْلصُ لي

وأجدى. ومع وجود الفارق، ألم يخالج صنو هذا الشعور محمّدًا سيّد الخلق، لمّا انقطع عليه مدد الوحي بغياب جبريلَ عنه، حتى إذا عاد إليه الفتح ونزلت عليه سورة الضحى أقبل على الحياة مجدّدًا، يقوّيه الأمل والرضا.

تكوّمت في جلوسي وطغى عليّ لاعج كربي، فوقر في نفسي أن أصرف فكري عن كل شيء، أن أطمس نوابضي وأخضع رأسي للتطهير الأكبر، حتى لا أفكّر في أيِّ شيء. واللاّشيء هذا أردته شبيهًا بفراغ أثيريٍّ أحاديِّ الشكل، لا قوام له ولا حدّ، ولا عقدة ولا سرد.

لكنْ ما إن شرعت في إنجاز الوعد حتى اضطررت إلى القبض على نفسي في حالةِ مخالفةٍ وخرق: إنّي أفكّر في أن لا أفكّر في أيِّ شيء. وعندها فهمت أنّ خطّتي المجازفة الجسورة لا تحقيق لها إلاّ إذا علوتُ وعلوت فوق حواسي وهيكلي، إلاّ إذا تجوهرتُ بمطلق العلم وعلم المطلق، وهذا ما ليس بعدُ في طاقتي واحتمالي.

توهّمت أنّ صوتًا يدندن في أذنيّ بالقول: لا مخرج لك ممّا أنت فيه إلاّ أن تستعيد المخطوطة... هي لبنة طورك الأرقى وآيتك للفتح الأشفى.

استقمت واقفًا واستحسنت العود إلى مستقرّي، كيلا يغلب عليّ النوم من فرط الانتظار، أو يحدث لي مكروه مع انتشار الليل وحيوانات المكان.

* * *

- ٧ -

صبيحة يومه الأربعاء، أفقت مبكرًا ولساني رطب بسؤال تردّد عليّ في النوم: هل تكون خوانيتا المسيحيّة هي السارقة؟

تعرّفت على هذه المرأة قبل سنة ويزيد، وافترقنا منذ شهرين لأسباب أذكرها بعد حين. إنّها من أسرة نصرانية ذات أصل قوطيّ، آثرت العيش بين مسلمي مرسية، لا حرج عليها ولا خوف. عرفتها كما لم أعرف واحدة قبلها أو بعدها حتى إشعار آخر، أي بمحض المصادفة العجيبة التي لا يجود الزمان بها إلاّ نادرًا. فبينا كنت أمشي ذات صباح قاصدًا وراقًا في طريقي إلى المسجد، اعترضتني أنثى ميّادة القد، ذات حسن يا ألله! سألتني عن الساعة بصوت غنائيٍّ مجروح، فجبذت أسطرلابي من شكارتي وأنبأتها أنّها العاشرة أو حواليها. تنهّدت فزاد صدرها بروزًا، ونظرت إليّ نظرة فاترة مستخفّة، ثم قالت قبل أن تتابع سيرها: سألتك يا هذا عن الساعة متى تقوم، لا عن الساعة التي نحن فيها!

مضت بضعة أيّام وأنا لا مُنية لي إلاّ أن أقابل تلك المرأة في طريقي ذاك، أو في أزقّة وساحات صرت أرتادها ناظرًا من طرف خفيّ إلى شبيهات ضالّتي المنشودة من الروميّات، ولو على

قلّتهنّ. ولمّا أعياني البحث، قرّرت إيقافه والانقطاع إلى ما هو أرفع وأنفع في رحاب التزوّد بالعلم وأقوات القلب. لكن قراري ذاك لم يمنعني من التفكير في أسباب سؤال امرأة حسناء عن قيام الساعة، كما لو أنّها تتمنّاها وتستعجلها. مفارقة كهاته ليس سهلاً، من باب التأمّل والنظر، طيُّها أو نسيُها.

وذات صباح آخر، وأنا راجع في متمه إلى بيتي بعد لقاء مطوّل مع طلبتي في الجامع الصغير، تعلّقت عيناي بامرأة كأنّها لتلكم النصرانيّة صنو ومثيل، إلاّ من اختلاف هيّن في تسريحة الشعر وطريقة المشي. تقدّمت إليها لا أملك عقلي، سألتها إن كانت تعرف الآن الساعة متى تقوم، استغربت سؤالي فزعة، فما كان منّي إلاّ أن حوّلته إلى سؤال عن الساعة التي نحن فيها. أجابت أنّي لن أنال ما أبغي إلاّ أن أتبعها إلى مسكنها. قبلت بإشارة من رأسي، وسرت وراءها على بعد أمتار، لا تسوسني سوى حواسي البهيميّة، وأيضًا رغبتي في كشف الغطاء عن محجوبٍ عنيدٍ عصيّ... قادتني المرأة عبر ممرّات ودروب، تضيق بالراجلين حينًا وتكاد تخلو منهم حينًا آخر، حتى إذا وقفتْ أمام باب منزل، أشارت عليّ بدخوله وراءها، ففعلت وأنا أخفض عمامتي على جبهتي وأدعو لي بالسلامة وحسن المنقلب.

في غرفة فسيحة دعتني السيّدة إلى الجلوس على أريكة وثيرة، ريثما تسوّي هندامها وتقضي حاجات كلب لها لقيها بالعطف والتحنان، وخصّني بشيء من التحديق والنبح. كان المنزل في منتهى النظافة والأناقة، فضاؤه حسن التأثيث شيّقه، أرضه

مفروشة بزرابي فارسيّة متناغمة الأشكال والألوان، زواياه مزدانة بقناديلَ خفيضةِ الأضواء، وعلى الجدران أيقونات ورسوم المسيح المصلوب وقدّيسين تحيط برؤوسهم جميعًا هالات نورانيّة مشعّة.

لتخفيف الانتظار عليّ أو لصرفي عن هواجس أخذت بالفعل تراودني، أطلقت المرأة صوتها بكلام كثير، فهمت منه أنّها طلّقت زوجها السكّير الفاسد، وطردت عاشقها الخؤون الفاسق، ولم تعد تسعد إلاّ بكلبها الوفيّ المحبوب؛ وفهمت أيضًا أنّها في حقل الحبّ تؤثر أن تكون ذات اليد الطولى، أي مخيّرة لا مسيّرة تأخذَ من الرجال أوسمهم وأميلهم إلى الصمت والطاعة... وما كان شيء يلهيني عن تدفّق كلامها عدا روائح ماء الورد، لعلّها به تستحمّ.

لمّا عادت إليّ، وقد تعطّرت وتزيّنت بحليها النفيسة وبثوب شفيف نفيس، بدت لي أكثر روعة وجمالاً من ذي قبل. جلست حذائي متلذّذة بشرب كأس نبيذ، ناولتني كوب لبن الخيل ودعتني إلى أخذ ما يطيب لي من طبق مليء بفواكه شتّى، ثمّ إنّها بلهجة متلطّفة وسمت بالبائخة طريقتي في اصطياد النساء باستفسارهنّ عن الساعة، وخفّفت عنّي بقول أدهشني: هل يسأل عن الساعة من مثلك موعود للخلود! شكرتها على جميل مشاعرها، لكنْ من دون أن أفرّط في الدفاع عن نفسي وهمّتي، إذ حكيت لها باقتضاب ما حصل لي مع شبيهتها ولم يكن لي فيه سبق أو مبادرة. أبدت لي إشارات التصديق والطمأنة، حالفةً بمريم وابن الرب أنّها غير التي حكيتُ عنها ثم أقرّت، وهي تنطق باسمها

وتتعرّف على اسمي، أنّ القدر كتب لقيانا وحقّقه. أجبت حتى لا أظهر جافًّا أو مجافيًا: وبها ونعمتِ.

فجأة سقطت قلادتها على حجرها، فسارعتُ إلى تلبية طلبها بإعادة تثبيتها على عنقها، فيما هي تؤكّد على أنّ هذه القلادة وكل حليها الأخرى تخاف عليها من السراق، عديمي الدين والخَلاق، فلا تتزيّن بها إلاّ في ساعات الراحة والفرح، وعقبتْ: ومنها هذه الساعة التي نحن فيها؛ ثم مالت على أذني سائلة: تبخرتَ بالعود القماري وتعطّرتَ برحيق المسك. هل أنت، مثل نبيٍّ دينك، حُبّب إليك من الدنيا الطيب.. والنساء؟ أبديت إشارة الموافقة. أمّا بعد: *فكان ما كان ممّا بِتُّ أذكره/فظنَّ خيرًا ولا تسأل عن الخبرِ.*

كذلك تعرّفتُ على خوانيتا أربوس. واستمرّت علاقتنا بين مدّ وجزر ردحًا من الزمن، أدركت خلاله أنّ هذه المرأة لها عن الحياة ـ حياتها بالمثال ـ تصوّر ذو خلوص بلّوري، هندسي؛ ومن ثم اهتمامها الخارق بذاتها وخوفها الشديد من كل شوائب التعكّر أو التعقيد؛ ومن ثم أيضًا رؤيتها للمرض كمفارقة عويصة وضمور. ويومَ، كما تقول، يصير جسمها وروحها وعاءين لذلك، ستقدم ولا شكّ على هارا كيري... وإذ تُسأل عن معنى *هارا كيري* تدير إشارات مفادها النحر الذاتي.

كما أنّ خوانيتا، القليلة التديّن، لا تذهب إلى أن تزاول الكذب كما تتنفّس، ولكنْ إدراكًا منها أنّ الحياة، حياتَها على الأقلّ، تشكو دومًا من عجز جماليٍّ عضال، فإنّها، حسب

أقاربها، دأبت على ممارسة عادة سيّئة تقضي بأن تختلق من بنات أفكارها الزوائد والتكملات الكثيفة، وتقولَ الأشياء لا كما هي، بل كما يحسن أو يلزم أن تكون. تلك كانت على الدوام سُنّتها لجعل العالم مستحملاً والناس قابلين للعشرة، ولو بمقدار. لكن، واأسفاه، أقلاّء هم الذين كانوا يدركون نسغ اختلاقاتها تلك وحمولتها الوجوديّة!

خوانيتا النصرانيّة بين اليهود والمسلمين كالسمكة في الماء كانت، لكن لا خبر لها عن حروب بني ملّتها على مدن أندلسنا، ولا عن وقائعها وويلاتها. فكأنّها خارجَ التاريخ تقيم، وإن وصل إليها منه صدى أو ريح، قوّست حاجبيها مستغربة أو مستنكرة، ثم لاذت بمحيطها الجواني وأشيائه، كما الرضيع بحجر أمّه.

مهذارة هي خوانيتا بل سيّدة الثرثرة!

لو رأيتَها تتكلّم لاقتنعتَ أنها في تكوير الجمل والرمي بها ظاهرةٌ خارقة للعادة. الكلام عندها يتصدّر حاجاتها الحيويّة كلّها، إذا انقطع عليها تيّاره أو سهت عنه أضحت كما لو أنّها على حافّة هاوية أو خطر داهم، وإذا قصّرت حبله بدت وكأنّها في ضيق تنفّسي خانق. كانت منطوقاتي في حضرة لسانها المهيمن ـ وقسْ عليّ الآخرين ـ مجرّد نقط وفواصل وأدوات وصل تذكّرها بما نسيتْه، أو تستعديها على الاستفاضة وأخذ قصب الاستئناف والجمع. والمواضيع: من كلبها (وما أدراك ما كلبها!) إلى الملبوسات والحلي والمساحيق، مرورًا بالبراهين على وجود الجنّ والعين القبيحة وترهات شتّى، تُعليها المتكلّمة إلى سدّة

الدرر المكنونة. أمّا التعريض الفادح بالرجال فلسانها فيه يضحو شعلة صناعيّة، لا ينفع في إطفائها النفخ المبرّح، ولا الخنق بالخيش، ولا الرش بالخراطيم.

حكت لي ذات مرّة عن مشادّة كلاميّة اشتدّت يومًا بينها وبين أحد قدامى عشّاقها لما أن احتجت عليه قائلة: تعيب عليّ ثرثرتي، وجنسك احتكر الكلام مئات السنين، وصرّفه قهرًا وتكميمًا في حقّ جنسي المسكين. إنّي إن أسهبت في القول وجُلت وصُلت فليس ذلك أصالة عن نفسي فحسب، وإنّما أيضًا نيابةً عن كل الطائعات الصامتات عبر التاريخ وانتقامًا لهنّ. . .

وأردفت أنّ الخصيم عاندها متلعثمًا فقال: حكمك ربما تبالغين فيه. وحتّى لو كان عين الصواب فهل عليَّ أن أعاقَب على ذنوب آبائي وأسلافي! فردّت عليه: هو حساب هائل بل دَين فاحش لا بد للأحياء مثلك من الإسهام في تسديده.

وروت أنّ الرجل ثارت ثائرته، وأعلن زهده في أن يقطف من جمالها شيئًا، وإيثارَه هجرها على الكدّ في احتساء الجمل تلو الأخرى، بين أمواج كلامها المتدافعة الجارفة. وعلّل قراره بموقف العطف على أذنيه والحفاظ على استقامة رأيه في المرأة الكاملةِ المثلى.

في عشرة النساء، لا غنى عن رصد النظائر والأشباه، ولو مع وجود فوارق لا تغيّر من قاع التجانس شيئًا. تذكّرني خوانيتا بمسلمة نسيتُ اسمها، كثرت التأويلات في أسباب التحاقها بالرفيق الأعلى ـ وفاةً سريريّة أو انتحارًا ـ، وأجمعت على تعيين السبب

الأساس في انفضاض العشّاق من حولها، وما أعقبه من همود في لسانها وانقطاع قسري إلى البوار والعزلة. ولقد سجّلت ـ أنا آخر المتعلّقين بها ـ في مخطوطتي الضائعة قولاً مفاده أنّي صمدت في حبّها واجتهدت، إذ كنت الوحيد الذي أدركت أنّ الكلام عندها كان طريقتها في التلهّي عن شعور حادّ بالعدم لا يفارقها، فكانت الكلمات بمثابة أحجار ترميه بها رائمة الحؤول دون هياجه عليها. ولمّا انسحبت كل المرايا من حولها إلاّ مرآتي، فضّلتْ إعفائي من مهام لم أكن أستطيعها وحدي. وما هي إلاّ شهور حتى أتاني نعيها، يرحمها الله. وقال شهود عيان إنّها أسلمت الروح وفمها مفتوح تهيّؤًا لكل الطوارئ والخوارق. . .

عودًا إلى خوانيتا، وقد لا أستغرب أن تكون نهايتها شبيهة بنهاية تلكمُ المسلمة: بعد انقطاعي عنها مدّة، علمت أنّها في حالة انهيار عاتٍ. زرتها فأنبأتني بمصيبة زبّاء، منعها انفعالها الشديد من تسميتها. وعلى ضوء تحرٍّ أجريته، فهمت أنّ الأمر سببه موت كلبها قرّةِ عينها، وهو من صنف نادر جدًّا؛ إنّه بالأحرى كليب، كانت رسوم له معلّقة على جدران غرفته الخاصّة تدلّ على إشادات وتنويهات حظيَ بها من قِبَلِ العارفين المتضلّعين في الجمال الكلبي.

متعاطف ومواسٍ أنا؟

أكيد أنّي كنت كذلك إلى حدّ ما، لكن باعتماد موقف صامت مبهم.

ذات يوم وأنا أفتّشُ في عمق جواريري، اكتشفتُ مذهولاً

رسومًا كنت ذات يوم خطّطتها للكليب المتوفّى وخلّدته فيها بهيئات أربع: واحدة، الأكثر ظرفًا، تظهره متبوّلاً أو متغوّطًا تحت رعاية سيّدته البصيرة الحنون؛ أمّا الرسوم الثلاثة الأخرى، وهي متنوّعة، فتُظهر صاحبتي وهي تمسك زمامه وتتبعه بخطى حثيثة... كم كان سُلوانها بيّنًا حين أهديتها إبان حدادها الرسومَ كلّها، مشفوعة ببطاقة ذات كلمات غنائيّة رقيقة.

تلكم الرسوم توجد الآن معلّقة هنا وهناك في بيت الصاحبة بمعيّة أخرى كثيرة.

بعيد انصرام فترة حداد حدّدتها في شهر، فاجأتني خوانيتا بأن سارعت إلى تملّك كلبين من ذاك الصنف النادر، إضافة إلى اثنين آخرين بالثمن الأغلى، وطلبتْ منّي تسديد الحساب الإجمالي الذي يشمل أيضًا المستلزمات والشواهد البيطريّة. وذاك ما لبّيته بكرم حاتمي، لكنْ تأشيرًا على وداع أخير لها ولعالمها الكلبي، الذي لا ريب أنّ الملائكة لا تخطر فيه قطّ.

أمّا الساعات الأخيرة التي أمضيتها مع الخليلة المدلّلة، فقد أيقنتني أنّي كنت كالزائدة الدوديّة في فضاء يسلبني حتى التعبير عن سعري ضدّ حيواناته المهيمنة الوقحة. وهكذا، لمّا شعر الكلاب الأربعة بعدائي لهم وبسوء احتفال سيّدتهم بي صاروا، عند كل لقاء بيننا، يستفزّونني بالمناوشات المزعجة، وينبحون عليَّ تناوبًا أو مجتمعين، كما لو أنّهم يرغمونني على طمّ حوائجي وتعجيل رحيلي. وكان هذا ما أقدمت عليه ذات مساء، إذ انسحبت إلى حال سبيلي، خفيفَ الوطء، ماحيًا أثري وحتى اسم

«الحقّ» الذي دأبت خوانيتا على إطلاقه عليّ، ولم ينفع نهيي لها عن ذكره. انسحبت، وفي يقيني أنّ لصاحبتي رهطًا من الخلفاء في قوائم الانتظار.

في بحثي عن مخطوطتي المفقودة، التذكّر شرط للمعرفة لازم، ولو أنّه غير كافٍ. المشبوهات عندي لا يصحّ لي إجراء حساب الاحتمالات عليهنّ، إلاّ إذا استرجعت بالذكرى صورة كل واحدة على حدة، وما كان لي معها. وبعد هذا، إمّا إبراء للذمّة وقول جميل، وإمّا شكوك تبقى وتقوى.

قلت لقطع الشكّ باليقين: لا بدّ لي من مقابلة خوانيتا ومفاتحتها في الأمر. وكان هذا ما فعلت في ظرف مناسب آمن. في البداية سمعتها تستهجن كلامي في ما أتيتها من أجله، ملاحظة أنّ الحزن الأصحّ يكون على كائن محبوب، حيوانًا كان أو إنسانًا، أو على شيء نفيس لا يعوّض، وليس على كومة أوراق لا تغني ولا تشبع من جوع. أوراق، قالت، لو حصلت بين يديها لأطعمت النار بها أو رمتها في القمامة إن لم يطلبها صاحبها بعد مدّة. «مثلك، أضافت، لم أجده بين الرجال، يا الحقّ. سخاء وأريحيّة، وفهمٌ وهمّة عالية. أقسم لك بالأناجيل بل بقرآنك إنّي لم أرَ مخطوطتك ولم أسرقها. صدّقني وإلاّ هذي يدي اقطعها إن شئت».

في إشارات عينيها المحمرّتين المشعّتين أمارات الصدق تمحو سوء ظنّي بمشبوهتي، وترفع عنها في هذه الحالة أسباب الكذب المركوز في جبلها وطبعها.

* * *

- ٨ -

مرّة أخرى أضلّ وأخطئ المرمى.

اليأسَ اليأس!

ليس لي والله إلاّ أن أطويَ الصفحة وأوقفَ السعي. فلا استماتة بعد اليوم، ولا إلحاح في اتّباع سراب لا يحبل إلاّ بصنوه، وإلى أعوص منه يفضي. هذا نهيٌ بل أمرٌ منّي إليكِ يا نفسُ، فاستوي واتّعظي، وغدًا الجمعة أدعو لك في بيت الله الأبرك، عساك أن تنالي الإجابة أو بعض الفتح.

صبيحة يوم الجمعة، خرجت من بيتي باكرًا، فسمعت جماعة السبعة من تلامذتي يتنادون للاجتماع، كما لو أنّهم باتوا حرسًا لمنافذي وحيطاني. رمقتهم خفيةً وهم يتبعونني عصبةً، وظنّهم أنّي لا أراهم ولا أشعر بهم. اغتنمت حراستهم لي، فقصدت سوق العطّارين حيث اقتنيت من حانوت قواريري الأثيرة وشيئًا من السواك والبخور، وبعدها عرّجت على كتبيّ أعرفه فأدّيت له حسابًا في ذمّتي، وجدّدت له رجائي في أن يجد لي عناوين كتب سمّيتها له؛ ثم إنّي قطعت أسواقًا أخرى ومحلاّت.

علامات التجهّم والعبوس طاغية على وجوه الناس من فرط

الكساد وقلّة الدخل، ومن استشعار المكاره وبلايا وشيكة الحلول والكسح. حسبت أنّ المرور بحديقة مجاورة قد يخفّف عنّي، فقصدت واحدة لعلّها أعتق حدائق مرسية، وهنا عاينت الخراب في رحابها وأركانها، أصاب أغراسها بالطفيليّات المتكاثرة المنتشرة، وعاينت النخرَ وقد سرى في جذوع أشجار وجذورها، وما بقي يانعًا واقفًا يتهدّده التداعي والعقم. قلت هكذا إذن بالعدوى تنتقل غمم الآدميين إلى عالم النبات وحتى الحيوان، وغمّتي جزء من ذلك ولا مفرِّج إلاّ هو.

قدّرت وقت الصلاة قريبًا، فيمّمت شطر المسجد الجامع، وعيون السبعة عليّ لم تبرحني. في مدخله وعتباته ازدحم الوافدون، وتكاثر المتسوّلون ذكورًا وإناثًا. اقترب منّي تلامذتي ومريدون آخرون تعرّفت على بعضهم، فسلّموا عليّ وشقّوا لي طريقًا اتّبعته وأنا أتصدّق ما استطعت على المحتاجين المتعلّقين بنظري عبر أحجام ترجياتهم واستعطافاتهم، وكلّها تذكّرني تارّة بحالتي حين أستجدي متضرّعًا عودة مخطوطتي المفقودة إليّ، وطورًا بوضعي لمّا أدعو ربّي من عمق يأسي أن يجعل لي آية ويحول بيني وبين الكبو...

في الصحن، بعد الوضوء، جمعت رفقائي حولي وسألتهم تخفيف طوق حراستهم لي ببيت لا يؤمّه المؤمنون إلاّ عابدين متآخين. فانبرى عبد العلي وعمرو والصادق ومن معهم يذكّرونني أنّ الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب قتله لؤلؤة في مسجد الصلاة، وكذلك غيره من الصالحين والأولياء. سألتهم: أبلغَ

السوء والخطر هذا المبلغ؟ فردّوا بصوت واحد: وهو كذلك وأكثر... وحقًّا يقولون، إذ بدت لي وجوه تمرّ بي أحيانًا هنا وهناك ملقية عليّ نظرات ملؤها الحنق والغيظ.

لمّا نوديَ: الخطبةَ الخطبة، توجّهتُ إلى داخل المسجد، واقتعدت في الصفوف الخلفيّة مكانًا عيّنه لي الرفقاء، وجلسوا حولي من كل جانب. وما هي إلاّ لحظات تخلّلتها نحنحات وهمهمات حتى طلع علينا إمام الجامع وخطيبه أبو الحملات، الفقيه المالكي، الشهير بتزمّته وضيق صدره وفكره، فتلا على الجموع خطبة ذات شكل مبيّت مكرور، ومتنٍ ذي جعجعة ولا طحن، أبلى خلالها إبلاءً شديدًا في التشهير بالفلاسفة المتزندقين، المتستّرين، حسب قوله، في عباءات المتصوّفة والمرشدين، معتبرًا خطرهم أفدح من خطر النصارى، وقتالَهم أولى بالسبق والجهد الجهيد. وقال كلامًا آخر قوامه لغو وجهالات، ومرماه تضليل للناس وتبليد؛ وختم بالدعاء الحماسي لأمير المؤمنين الرشيد، ولأبيه المأمون فقيد العدوتين وأمّة المسلمين. ثمّ نوديَ للصلاة، فأدّيتها بين حرسي مع الجماعة، وأنا متوجّه بجوارحي وكياني إلى الذي عنت له الرقاب وبيده الموت والحياة، وهو على كل شيء قدير. وحين أنهيت التسليم استعجلني عمرو وصحبه في مغادرة الجامع فوافقتهم، وسرت محاطًا بهم كسيف في غمده، حتى إذا بلغنا آخر الشوط إلى الباب انهال على رؤوسنا وابل من العصي والنعال، وعمرو بقامته الفارعة يتلقّفها ويرمي بها إلى مصادرها. ولمّا بلغنا عتبة الخروج

قويت الزحمة، وعلت أصوات تضدع بالقذف والسباب في الزنادقة المارقين. رأيت أياديَ ممدودة نحوي يطلب أصحابها منّي متاع الله، وشعرت بواحدة منها تتلمّس ظهري بموسى حادّة ما لبث عمرو أن شدّ عليها وسحبها من حاملها ببأس ودراية منقطعة النظير، ثم إنّه أمر صحابه بإبعادي إلى مكان آمن سمّاه، فأطاعوه بينما ظلّ هو ونفر من الفقراء يقاومون المعتدين بالضرب المبرّح واللكم العنيف.

إلى رابطة واطئة مظلمة في زقاق خلفي قادنا عبد العلي، فاستقبلنا خديمها مرّحبًا، وأوقد الشموع لنا كيما نرى أين نضع أرجلنا ونجلس إلى حين. لم يسألنا عن شيء، واكتفى بنعت صندوق قائلاً إنّ ما يأتيه من الكرام يُنفق على اليتامى والمعوزين وأبناء السبيل. سلّمت الرجل آخر صرّة نقود بقيت لي، فأغدق في الدعاء لي ولمن معي أن يقينا الله شرّ ملاحقينا من خيّالة النصارى ومشاتهم المتسرّبين إلى مرسية وضواحيها. ولو علم المسكين أنّ فرارنا ليس من هؤلاء بل من أبناء ديننا وجلدتنا لاستفحش الأمر أو لما صدّق.

لحظات انتظار مرّت يسودها صمت قلق مطبق، أعقبها خفوتُ أصداء الصياح والصدام الآتية من قِبل المسجد، فإقبالُ عمرو إلينا لاهثًا، ملطّخ اليدين والوجه بالدم. قام الجمع يمدّونه بالإسعافات الأولى، وأقدمت أنا على بلسمة جراحه بأن صببت عليها إحدى قواريري العطريّة، ودردرت فيها شيئًا من الكمّون، ثم ضمّدتها بقطع من مناديلَ نقيّة. استراح الجريح قليلاً مستردّاً

أنفاسه، ثم أطلق ضحكة متقطّعة واعتذر لي عنها. سأله البعض علام الضحك، أجاب:

ـ خديم هذه الزاوية كأنّه توأم معلّمي أيّام صباي، محمّد الهبطي؛ هذا الفقيه كان يسأل التلاميذ في الكُتّاب أسئلة يتضمّن معظمها أجوبتها، يقول مثلاً: لماذا يلزم على الإنسان الادّخار من أجل الحاجة والشيخوخة؟ أو لماذا يلبس الإنسان الصوف إذا جاء الشتاء واشتدّ البرد؟ وإذ أجيبه بما لا يتطلّب الجهد، يقول لي أحسنت...

صدرت عن الجمع ضحكات محتشمة شاركتهم فيها؛ ثم إنّ عمرو أوعز إلى أحد صحابه ـ وهم الآن أحد عشر شخصًا ـ أن يخلع عليّ سلهامه الخفيف، وخصّني بالقول: تسلهم يا سيّدنا تسلم؛ وبعذاك طالبهم أن يغادروا الرابطة مثنى مثنى قاصدين مستقرّي، وأن يوسّطوني بينهم، على أن يقودنا هو عبر مسالك آمنة، بعيدة عن النهر والأمكنة المأهولة؛ وكذلك خرجنا، وخديم الزاوية يضرب يدًا بيد مستنكرًا جناية الظالمين علينا وسكوت السلطان عنهم.

داخل بيتي اكتمل جمعنا. دعوتهم أن يشاركوني طعامي، فنشط سلمان في إعداد أكلات سهلة الطهي، قوامها القديد والبيض وأجبان وحلوى. أكلات كانت فيها البركة، إذ كل منّا نال نصيبه هنيئًا مريئًا. وبعد أن فرغنا قدّم لي عبد العلي من لم أكن أعرفهم من قبل، وأحبّوني في الله وتاقوا إلى لقائي. كلّهم فتيان في أوجّ الحيويّة والقدرة على الإعطاء والأخذ، منهم

المتزوّج ومنهم من ينتظر. سألني أحدهم، ويسمّى عدنان المالقي، عن قولي في خطيب كأبي الحملات، يدعو لملوك يستغلظون بالإفرنج ويتّخذونهم أعوانًا لقهر رعيّتهم وإذلالها. أجبت:

ـ هذا الخطيب، وأنداده كثر يا أخي، صنو الجهالة هو بل عصارتها، لا يعرف كوعه من بوعه، يشتطّ ويخبط خبط عشواء. إنّه من «فقهاء السوء» و«ضعفة العقول»، كما وصفهم الإمام الغزالي وأبو الوليد ابن رشد. قال المصطفى عليه السلام: *«العلماء أمناء الرسل، ما لم يخالطوا السلطان، ويداخلوا الدنيا، فإذا خالطوا السلطان، وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم»*، انتهى. ففقهاء الجمود على الموجود هم. بضاعتهم من الدين زهيدة بائرة، يلوّحون بها مهدّدين، ولهم فيها مآرب أخرى. لا بالحجّة يقارعون الحجّة بل باللّمز والقذف والتجريح. وفي التأويل، إذا قبلوه، ليس لهم ما ينفقون، ولا يستثمرون سوى عجز مداركهم وفقر عقولهم واحتقان صدورهم، وهم يفرضون بالعنف نواقصهم هاته قواعدَ للتناظر والتعامل... تراني أكرّر ما قد أكون حدّثتكم فيه من قبل؟

تململ عبد العلي في قعدته استئذانًا في الكلام، قال:

ـ في كلّ مرّة يا ولّينا نطقت، تجود علينا بواسع علمك وسديد فهمك. وقْعُ منطوقك علينا نجد فيه دومًا جدّة لا تبلى وحلاوة ونُعمى. ولقد نقلتُ بعضه بإشبيليّة في مجلس مختلط، فلقي القبولَ كلّه من الحاضرين والحاضرات، إلاّ من فقيه كالح الوجه،

منقبض الصدر، أخذ يشوّش عليّ بصوته الأجشّ وتعريضه الفجّ، فانبرت له جميلة...

قاطعه شاب حديث الالتحاق بالجماعة، فسأل مبتسمًا:

ـ انبرت له جميلة! صفها لنا يا عبد العلي...

ـ في حضرة الأستاذ، يكفيني أن أنعتها بما قلّ ودلّ: إنّها ذات حسن باهر أخّاذ، وعلم وهمّة، وحياء ملفتٍ للأنظار... نعم انبرت للفقيه فنهرته قائلة: لو سكتَّ سترتَ جهلك وأرحتنا منك... وعقبت أخرى: مثلك، يا رديء الطبع، إذا نطق لغا وإذا حكم طغى.

لقي كلام الفتى وقولتا الجميلتين استحسانًا وتنويهًا من خلاّنه ومنّي. فتعجّب واحد: من ربّاتِ خُمرٍ وحجال هما وتنطقان بالحكمة! وعلّق آخر: هو الله أنطقهما بها؛ أمّا أنا فقلت:

ـ لكن إيّاكم أن تنحوا باللائمة على الفقهاء وحدهم، فتكونوا كمن يقف عند «لا تقربوا الصلاة» أو «ويل للمصلين». فهؤلاء جزء من كل، مثلهم في فلك الملك ـ مع اختلاف في الوظيفة ـ كمثل العساكر والكتّاب والتجّار والمخبرين المأجورين، علاوة على المتزلّفين من المؤرّخين والمنجّمين والشعراء المدّاحين، وكل هؤلاء وغيرهم من أهل الدولة ووجهائها أناس حرابيٌّ نهّازون، متاجرون صلافى، عشراء المناصب المعبريّة والتواطؤات المشبوهة. شعارهم الباطني: نحن أوّلاً وبعدنا الطوفانُ وانسحاقُ الأندلس... الحكم الذي يفتح الأبواب

مشرّعة لمحترفي الفساد والزلفى، عديمي الدراية والخبرة، لهو حكم ونظام الحقّ على طرفيْ نقيض... وأبو الحملات سليل تلك الطينة وصنيعتها. أما رأيتموه يقرظ المأمون واسعًا ويعمى أن يعرف أنّ هذا الأمير ألغى العقيدة الموحّديّة ودمّرها، وأفنى شيوخها وحماتها بالآلاف، وعلّق رؤوسهم على أسوار مراكش حتى أفسدت نتانتُها الهواء؛ كما أنّه استغلظ بالنصارى على رعيّته، ومكّنهم ومرتزقتَهم من بيت مال المسلمين وأراضٍ بأندلسنا، منها بلنسية الثريّة الخصيبة! ثم أما رأيتم خطيب الزور ذاك يخصّ الرشيد، خليفة المأمون، بالمدح والتبجيل، وهو الذي ارتقى العرش مراهقًا بدعم من حرس الإفرنج، وفي عهده هذا تملّك القشتاليّون عنوة أو بالتفويت جزيرة شقر وقرطبة وأقاليم أخرى كثيرة، كما أنّه تخاذل فترك على شفا جرف إشبيليّة الحبيبة، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله...

توقّفت قليلاً أستردّ أنفاسي ثم تابعت:

ـ معظم تلك الكوارث معروف عند كل ذي بصر وسمع ﴿*فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور*﴾. كذلك أبو الحملات وأشباهه لا يساوي التاريخ عندهم جناح بعوضة أو خردلة، فلا يعقلون الأحداث الجسام ولا يعتبرون. وفي حديث أبي داود عن ابن عمر أنّ النبي عليه أزكى السلام قال: «*الجاهل بالتاريخ راكب عمياء وخابط خبط عشواء، ينسب إلى ما تقدّم أخبار من تأخّر ويعكس ذلك ولا يتدبّر*» انتهى. نعوذ بالله من ذلك.

كان الطلبة يتبارون في نسخ أقوالي، إلاّ عبد العلي وعمرو فظلاّ يمعنان في الإنصات، هذا بالتحديق في فراغ المكان، وذاك بخفض ناظريه ومداراة جراحه. انبعث بينهم صوت الشاب عدنان المالقي، قال:

ـ الموحّدون أنقذوا الأندلس في طور قوّتهم، وهم اليوم تشرذموا ووهنوا، فتركونا بين مطرقة الإفرنج الطغاة وسندان ملوك يصحّ عليهم وصف المتنبّي: *«أرانبُ لكنّهم ملوكٌ/ مفتّحةٌ عيونهم نيامُ»*.

فأردف الصادق:

ـ وملوك الطوائف بنو هود عندنا في مرسية وبنو كذا وبنو كيت في مدن أخرى، لله در محمد بن شرف في وصفه الجامع الثاقب لهم...

فجأة أنشد الجمع بصوت واحد، بعضهم ضاحكين، وبعضهم مبدين حركات ساخرة: *«ممّا يزهّدني في أرض أندلسٍ/ أسماءُ معتصمٍ فيها ومعتضدِ/ ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها/ كالهرّ يحكي انتفاخاً صورةَ الأسدِ»*.

بادر عبد العلي إلى الكلام كأنّه يريد إعادة الهيبة إلى مجلسنا وصبغة الجدّ إلى رفاقه، قال:

ـ كثرة الهمّ، يا معلّم، تضحك. وقد نصحتنا من قبل بالهزل والمفاكهة على سنّة نبيّنا الأمين، لكن ماذا بعدُ ذلك نفعل؟ هل

نحارب العدو الإفرنجي دفاعًا عن أنفسنا في موطننا، وكيف السبيل إليه؟ أم نصارع السلطان ونصبّ جام غضبنا على دوائره وأسلاكه، وهل نقدر عليه؟ ومهما أنس فلن أنسى قولاً لك فاتحتنا به فيما سبق وخزنتُه في ذاكرتي نصًّا وروحًا، قلتَ: *«واكفروا بالحقيقة التي من زمانكم هذا، وقولوا عليها وعلى أهلها لعنة الله، فإنّها حقيقة كما يسمّى اللديغ سليما».*

ناجيت نفسي: لا شلّت يمينك يا عبد العلي ولا فضّ فوك! قولة فهتُ بها فعلاً من قبل ونسيت تركيبها، وأحسب أنّي دقّقت معناها وفصّلت في مخطوطتي الغاربة. وعسى أن يكون هذا الفتى حفظ عنّي خواطر أخرى قد تأتيني منه لمعًا تحيي ذاكرتي وتنعشها.

صدع صوت عمرو قويًا كأنّه يغالب وجعه، قال:

ـ إن كان هذا هذا، فلا يبقى إلاّ أن ننشد الحياة الكريمة أو نهلك دونها. أمّا كيف؟ أن نطيح بملوك الطوائف في سجون نائية عازلة، كما فعل من قبل الأمير بن تاشفين بالمعتمد بن عباد صاحب إشبيليا الآفلة؛ بل حلمي نظير حلم المتنبّي يا معلّم: أن نتمكّن من تضريب أعناق الملوك، حتى نعيد للأندلس قوّتها ونرهب عدوّ الله وعدوّنا.

تصاعدت بعض الأصوات مؤيّدةً، فكان عليَّ أن أرشّد فورة الشباب، وأنعت ما أراه الطريق الأقوم، قلت:

ـ الحرب الأهليّة بين المسلمين، حفظكم الله منها، لا تحتاج

إلى من يسعّر لظاها. أحلاف النصارى لهم اليد الطولى في قتل هذا الملك وتنصيب آخر، وقد يهبّون لنجدة ثالث إذا قضت كيمياء سياستهم ذلك؛ ثم إنّ سنة التناحر بين ملوكنا قائمة سارية، ترونهم يسترخصون الموت في سبيل التعلّق بعروشهم واللزوق بها... أما أتاكم خبر أمير مرسية الموحدي عبد الله أبي محمّد، الملقّب باسم العادل بالله، حكى لي عنه أبي يرحمه الله وأنا ابن العاشرة، إذ اشتغل معه في ديوانه ثم انفصل عنه، وصار ممّن يدعون عليه في المساجد ويؤلّبون عليه الناس بعد أن وقّع هذا الأمير الرعديد معاهدة فوّت بموجبها حصونًا وأقاليم مجاورة لفرديناندو ملك قشتالة، فهجم عليه الثوّار والحرس في قصره، وخيّروه بين أن يتنازل عن العرش أو يُقتل دونه، لكنّ المتهوّر لجّ في امتناعه وعناده، فزجّوا برأسه في بركة ماء حتى همد... وأمثال هذا الأمير كثر، ولا ناصر إلاّ الله.

سألني عمرو قلقًا وكذلك بعض الطلبة عمّا يلزم فعله أمام هذه المآزق والمآسي النازلة على بقيّة أندلسنا، وسمّوني بألقاب كنت نهيتهم عنها، فأطرقت مفكّرًا لحظة ثم قلت:

ـ أكرّرها لمن منكم لم يسمعني من قبل: لا تنادوني بالإمام أو الشيخ أو القطب. إنّما أنا معلّم أطلعكم في العلم على ما يتيسّر لي، وفي الرأي بما يخالجني ويبدو لي. فلا تطلبوا منّي الخوارق والكرامات، ولا ما فوق طاقتي ودلوي. كم مرّة قلت لكم: لا الزعامة أبغي ولا النبوّة أدّعي... أسوأ المآسي أن يغدوَ الآدميُّ في رحاب التعرّف والإدراك عصيًّا على صنوه؛ وأسوأ ما في

السوء أن يحدث هذا بين أقوام عاشوا عهودًا معًا، ومعًا كافحوا ونشدوا وأنشدوا وشيّدوا.. . إرادة التعايش والتساكن سويًا وإنشاءِ حضارة أندلسيّة مثلى مستنيرة، منفتحة وناهضةٍ مبدعة: هناك قِوى مدجّجة بالسلاح والكراهية تروم عرضها على التصدّع والهدم؛ قِوى ليس في قوامها سوى ألفاظِ أفكارٍ ثابتة متحجّرة، تتخبّط في التعصّبات للمذهب والعرق والطائفة، وغير ذلك من الانصهارات المعميّة السالبة. أمّا حكّامنا العجزة فإنّهم يعلمون في سرائرهم أنّهم لا يستطيعون شيئًا لصالح أمّتهم، لذلك ترونهم يتركوننا في آخر المطاف عند الحالة التي يجدوننا عليها: حالمين بالصحّة والمناعة، وبالطور الروحي الأرقى أو في طريق الرُّقي. لكنْ هذا الطور، رغم المثبطات والانكسارات، عليكم بارتياده والبحث عنه جادّين مجتهدين، نشطين معتزّين، لأنّه هو الحقيقة الأبهى والأجدر، هو مفتاح الفهم الرصين والعمل الأصوب، هو ترياقكم ضدّ أوهام أولي الأمر في هذا العصر الضالِّ المُضِلّ. ولعلّ ما ذكّركم به عبد العلي من قولي يعني هذا أو قريبًا منه. وهذا إنّما أسوقه على الوجه السائد الأعمّ، فإيّاكم أن تجهلوا أو تنسوا الشهب اللامعة في المسار المتعثّر أواللحظات المشرقة في الليل المدلهم، وكلّها بمنزلة اللآلئ المشعّة ولو في عقد منفرط مخروم؛ اعلموا وتذكّروا في الخلافة الأمويّة بأندلسنا وجوهًا فذّة متألّقة وصدورًا سمحة متّسعة، أبرزها وأحبّها إليّ عبد الرحمن الناصر وخلفه الحكم المستنصر بالله؛ تقصّوا أعمال هذين الخليفتين العظيمين في حقول التأهيل الحضاري والتسلّح العلمي والتحصين العسكري؛ تقصّوا واستخبروا، لا للمفاخرة والمباهاة

بل للوقوف عند تجلّيات الأمثل الممكن في أمسنا القريب وتربية النفوس والأبدان على نشدانها وتحصيلها لحاضرنا هذا. ولا سبيل إلى تحويل تراكم التجارب والأحقاب من السلب والردوم إلى الإيجاب وحسن التقويم والإنجاز إلاّ بما أوصيت به من قبل وأصررت عليه.

تعالت الأصوات بالهتف: *تقوية الطاقة بخرق العادة وتخطّي الإعاقة* إلى المراقي المفضية كلّها إلى خالقها.

ختمتُ بالقول: للحديث صلة في مسجد الجامع بمشيئة الله. لكن عمرو صاح محذّرًا ثمّ متلطّفًا، قال:

ـ لا صلاة في المساجد بعد اليوم. الغلاة حوّلوا بيوت الله إلى ساحات عراك وعدوان. وهذي جراحي شاهدة على ما فعله بي وغد وشرطي. أنت يا معلّمنا حبيبنا، ويعزّ علينا أن يحلّ بك مكروه، جرّاءَ طعنة تصيبك من مجرم مأجور أو بليد معتوه.

اهتبلتها فرصةً فشكرت عمرو على إجهاضه هذا الصباح محاولة اعتداء عليّ، ثم كان أن فوجئنا بسماع خبط شديد على باب المنزل، تلاه شجار كلامي بين سلمان والخابط. قمت أنظر في الأمر، فإذا بشرطيين يلحّان عليّ أن أسلّمهما عمرو القرطبي المطلوب من حضرة صاحب الشرطة. سألتهما عن السبب، فأنبآني أنّه اعتدى اليوم على شرطي بشهادة جمع من المصلّين. هل أنكر وجود عمرو في بيتي أم أرفض تسليمه بدعوى إقامته في حماي؟ قرّرت اعتماد الردّ الثاني، لكن عبد العلي وصحبه سرعان

ما تحلّقوا حول الشرطيين وقالوا: أمّا نحن فنشهد أنّ الشاكي كان المبادر إلى الضرب. علّقت: الشرّ بالشرّ والبادئ أظلم. طلب الشرطيّان منّي تفتيش بيتي بحثًا عن المعتدي، فمنعتهما من ذلك إلاّ أن يأتياني بترخيص مكتوب. لم يجد الرجلان بدًّا من الانصراف تحت نظرات الطلبة المهدّدة الشزراء، ثم أخبرني هؤلاء أنّ عمرو وجد له منفذًا من سطح منزلي، ورغبوني في إغلاق بابي حتى يذهبوا ويروا ما جدّ في الشأن.

عملت بنصيحة الصحاب وناديت: يا سلمان لا تفتح لمن لا تعرف صوته. هلمّ إلى مطرحي تكشف عن ظهري وتضمّد ندوبه.

* * *

ـ ٩ ـ

هل أقول إنّ لي فكرًا ملتويًا أو شاذًا من حيث انجذابي إلى طلب الأقصى الذي هو، عند نظرائي، شجاعة، أو كما قال مولانا النفري: *في المخاطرة جزء من النجاة*؟ مهما يكن من أمر، رأيت من الحكمة أن أكمل البحث عن مخطوطتي وأذهب به إلى منتهاه، فإمّا رجاءٌ وانفراج وإمّا تسليم ويأس. وكيف لا أحاول هذا الشوط الخاتم ولم يبق في جدول مساعيَ سوى عشيقتي المسلمة، قَطر الندى!

هذه المرأة نحيفة، خفيفة وشفيفة، حتى أنّها ـ سبحان الله! ـ تبدو لا مادّة لها أو كالريشة. ومع ذلك فإنّها منبع روحانيّة عالية تنبثق موسيقيًّا من كل مسامها، فتخلق لدى الجلساء آثارًا منعشة ذاتَ نداوات هائلة عجيبة.

زوجها: متموّل صلف، خشن الطباع مضجر، منحطُّ السلوك، خاملُ الذكر، له في الجهالات باعٌ وصوْل.

أثناء أيّام العسل قال لها بقلب مزيّف ولسان مستعار: «محبوبتي، أنتِ يا قيمتي الأكيدة وسهميَ المثمر! يا رقميَ الرابح وعملي المنتج!». لكن ما إن نفد سريعًا ذلك العسل حتى ظهر

الرجل على حقيقته: وغَدًا متأصّلاً ورأسًا للصفع بل للجزّ! وإلاّ فما القول في مخلوق كان في لحظات الألفة الزوجيّة لا تستقيم أوتار حضوره ولا يجد متعته العليا إلاّ في التعاطي للخمر والأكل الكثير، المفضي به إلى تحرير مُحرّكاته البطنيّة حتى تطلق غازاتها الكريهة المدوّية، مصحوبةً بتجشّؤات منكرة وقهقهاتٍ مستهترة، ويحشو الكل بكلام فاحش حقير، من صنف: طزّ ثم طزّ على مسلمي الجزيرة... سأتنصر قبل أن يُطردوا منها جميعًا...

ذاك الوحش كان يقول أيضًا في محيط ندمانه وخلانه: هذه المرأة المزعومة، يومَ أصدِّرها إلى الآخرة، سأسّجل على نعشها ولا شكّ: احذروا.. إنها سلعة هشيشة!

قطر الندى: أبوها ورّاق، عارف بالفهارس خبير، نشأت بيني وبينه علاقة مودّة وتقدير، سببها محبّتنا للكتب والمخطوطات. رجل فاضل متديّن، كريم النفس أبيُّها. لم يكن يعكّر صفو حياته إلاّ كبوات مسلمي الأندلس وشقاوة زواج كريمته الوحيدة. كان إذا حادثني في همومه المقيمة هاته أسرع الدمع إلى عينيه، وسال على لحيته الوافرة الشيباء... وذات يوم بادهني بإعلامي أنّ صهره، من بين الأسماء التي عُرضت عليه للتوسّط بالخير في خلافاته مع زوجته، لم يقبل إلاّ اسمي. وظللت أجهل سرّ اختياره لي حتى أخبرتني قطر الندى لاحقًا أنّه تعلّق بي جرّاء قرعة أجراها لا غير.

وهكذا، طوال شهر كامل، قمت بالمساعي الحميدة بين الزوجين في جلسات ثلاثيّة عاديّة، بمعدّل اثنتين كل أسبوع،

وأخرى استثنائيّة كانت تستدعيها حالات توتّر وشجار يثيرها الزوج على نحو مباغت غريب، إذ غدا يضرب امرأته ضربًا مبرّحًا بدعوى أنّه ينادي عليّ قبل الضرب ولا أحضر. وبعد أن نفد صبري اقترحت عليه أن ينزل عند رغبة المتضرّرة ويسرّحها بإحسان، استشاط الرجل غضبًا وأقسم بالأيمان المغلظة لن يفعل، بل اتّهمني أنّي أريد أن آخذ قطر الندى منه، فآثرتُ التخلّي والانسحاب. وبعد ذلك توفّي والد الزوجة المسكينة بسكتة قلبيّة، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

لم يمض على قراري ذاك شهران حتى علمت أنّ الزوج انهار بفعل مرض الزهري ثمّ أتاني نعيه، فقصدت أرملته أعزّيها بكلمات شحيحة، وهي لا تردّ عليّ إلاّ بنظرات ملؤها الحبور الخفي والحنان. وبعيد العدّة بقليل زارتني وقد عوّضت لباس حدادها بآخرَ بهيٍّ الشكل والألوان، وبرز جسمها وجمالها متحرّرين من ظلمات العسف والعذاب. جلست إلى جنبي بوجه منتعش وضّاء،تشرب من كوب لبن وتسألني بصوت رخيم غنّاء:

ـ كيف، يا ابن دارة، أنّ شخصين، ذكرًا وأنثى، متعارضين أشدّ التعارض وأقصاه، يُكتب لهما أن يصيرا زوجين؟ أجبني.

أجبتها وأنا بدوري أستنطق ذاكرتي وفكري وأقلّبهما، قلت:

ـ لغزٌ هذا، يا قطر الندى، أو قولي مفارقة ضمن مفارقات وجوديّة أليمة أخرى. وسببه، والله أعلم، عجز الناس عن الفهم الحقّ وخرقِ العادات... الهرمونيا، كما قال بها حكماء

الإغريق، توجد في النظام الكوني لا ريب، أمّا في المحشر البشري، فما أكثر المصادفات العشوائيّة التعسة! وما أغلب القراناتِ المأساويّة العاتية!

ـ هذا (قالت) بعض من المساءلات الثائرة التي لن أنسى إثارتها يوم الحساب، إن كُتب ليَ البعث...

ـ حوريةً بكرًا وفاتنةً متجدّدةَ الحسنِ ستبعثين، وأنا إن شاء الله في جنّات الخلد من صحابتك المنعمين.

ما منعني من مواصلة الالتقاء بقطر الندى هو كثر الشغب والتشنيع عليّ، ولو أنّها في ترتيب مواعيدنا وإحاطتها بالستر المطلق مثال في الدقّة والنُّهى، ثم إنّ شكوكًا باتت تخالجني في انتساب مخطوطتي إليَّ على وجه الصحّة والحقيقة، بل حتى بحثي عنها بين الخليلات المشبوهات أمسيتُ بين الفينة والأخرى أحسبه ذريعة لإحياء صلتي العشقيّة بهنّ وتعلة، لكنّي عن ذلك كلّه ضربت صفحًا حتى أسدّ ثغرة الدائرة الأخيرة، والدائرة هي عندي سِفر القرار والمنتهى وأعزّ ما يطلب.

حين زرت قطر الندى، استقبلتني كعادتها بالترحيب والتحنان، وكلماتها إليّ عتاب على انقطاعي عنها وسؤال عمّ أتى بي إلى حضنها بعد غيبة مديدة. جاوبتها ودمع عينيَّ يفضح حزني وحنيني:

ـ قويتِ القيلة عليّ يا حبيبة، وتعدّدتِ العيون المبثوثة، لكنّك في القلب وتحت المقلتين أبدًا مقيمة.

ـ أنت، يا سيّدي، كنت عند أبي يرحمه الله بمثابة الابن البارّ. الأهل والأحباب هبطوا إلى غرناطة أو هاجروا إلى أسفل منها، وأنا ظللت رهينة محبسين: بيت خالٍ إلاّ من أمّ معوقة عجوز، ووقت عمارته الأسى والكروب، لا أدري ما الأقدار فاعلة بي، هل تبقيني هنا قابعة حتى أقضي نحبي، أم تجرفني جرفًا إلى حيث لا أدري...

ـ كلّنا في بلاد الآباء والأجداد، يا قرّة العين، مهدّدون اليوم بالإفراغ، إلاّ أن تحلّ معجزة أو يأتيَ العون والمدد من قوّة توحيديّة جديدة.

ـ إنّي، يا وحيدي، لأسمع النسوة في الحمّام وغيره يتناجين مكلومات باكيات على مصائبهنّ وقتلاهنّ، ومنهنّ من يلهجن بالسؤال متضرّعات: «ربّنا ما ذنبنا حتى تغضب علينا وتتخلّى عنّا؟ هل خلقتنا لنذوق كل هذا العذاب؟»... وأنت هل ذهلك عنّي غير اندحارنا القاسي وفساد الزمان؟!

ـ يذهلني ذلك حتى عن نفسي، وزاد في ذهولي فقدي لمخطوطة صفحاتها كأنّها من وحي أوحي إليَّ، أو من فيض الوجد الروحاني عليَّ؛ كلماتها علويّةُ التكوين، أوجيّةُ التعبير، واردات هي من جنس ما لا يخالج الفكر والنفس مرّتين بل مرّة خَارقة للعادة، متفرّدة.

ذكاء قطر الندى الحاذق يمنعها من أن تستصغر حزني على فقد حزمة أوراق، قياسًا إلى مأساة انتزاع أندلسنا منّا وتناثرها أشلاء

دامية أمام أعيننا المتعبة المفجوعة. لم تنبس إذن بكلمة في هذا المعنى أو تبد إشارة، ولم تسأل حتى عن مضمون أوراقي الضائعة، شعورًا منها أنّ سؤالاً كهذا قد أستوعره أو استثقله، لكنّي قلت لها ما من شأنه أن يطمئنها:

ـ شقّ واحد من المخطوطة، يا لبيبة، أتذكّر فحواه دون مبناه. فحوى والله لا عن غير الأندلس النازفة يحكي، ولا في غير الخلاص من رزايانا ينظر ويفري...

ـ مخطوطتك لو حصلت بين يديَّ لخبّأتها لك بين أضلعي وأنفسِ ما عندي. أوراقها الآن طارت، لكن عقلك الملهم لمّا يزل في موضعه ينمو ويشعّ، وسيأتيك بأحسنَ منها إن صبرت ونسيت.

كلامها الثمين الرائق، بردًا وسلامًا عليّ نزل، فأوّلته تأويل الخير ومدخلاً لليلة عناق وتقبيل، ليلة التحام شديد سعيد حتى مطلع الفجر وصياح الديك. لكن خبطًا عنيفًا أفسد عليّ المبتغى. عيّنت لمضيفتي موعدًا في مقبرة يرقد فيها معظم أحبابنا، ثم قصدت للتو مخرجًا خلفيًّا أعرف مسلكه ومؤدّاه.

في الغد، ذهبت إلى المقبرة في الساعة الأولى من فتح بوّابتها. تصدّقت واسعًا على حارسها، فدعا لي بأوفر الدعاء، ثم توجّهت إلى قبر والد قطر الندى، فقرأت ما تيسّر من الذكر الحكيم، ودعوت للفقيد بالمغفرة والرحمة. وما إن انتهيت من تعديد الدعاء حتى مثلت خلفي صاحبتي تلفحني بأنوثتها العطرة.

من دون أن ألتفت إليها سألتها عن خابط بابها بالأمس. بصوت خافت هادئ أجابتني بكلام أقلقني وعكّر خاطري:

ـ إنّه صاحب الشرطة مع أعوانه أتوا لضبطك متلبّسًا بالزنا. ثارت ثائرتي ودعوتهم إلى تفتيش منزلي شبرًا شبرًا حتى يرجعوا خاسئين.

ـ هو الله سلّم. ألم أقل لك يا قطر الندى: العيون من حولي تكاثرت واحتدّت. عودي إلى بيتك حالاً كيلا يحصل لنا مكروه، عودي الآن وعليّ أن أتدبّر الأمر.

التفتُّ إلى صاحبتي أستعجلها في الذهاب، فإذا ببهلول يحبو نحوها ويتشبّت بأذيالها. أقلت عثارها منه بصدقة، فهرولت مبتعدة بعد أن سوّت خمارها وألقت عليّ نظرة حزينة كأنّها نظرة الوداع الأخير.

خفضت رأس برنسي على جبهتي وقصدت قبر والديّ وقبورًا أخرى، ترحّمت على موتايَ ودعوت لهم، ثم قفلت راجعًا، تقود خطوي علامات الحيطة والحذر. وحين دنوت من البوّابة تعلّقت بي امرأة في متوسّط العمر، جميلة الهيئة والشكل، ترجّتني أن أقرأ على قبرين قريبين منّي، قالت إنّهما لزوجها وابنها الأوحد، اغتالهما قنّاصة قشتاليّون منذ أقل من شهر. لبّيت رجاءها بما يقتضيه المقام، ولمّا ختمت مدّت إليّ يدها بنقود، فنصحتها أن تعطيها غيري وخرجت.

* * *

ـ ١٠ ـ

عنّ لي أن أقضي وقتًا في النزهة المتأمّلة، فمشيت على ضفّة نهر شقورة المنسابة مياهُه بمنسوب فوق المعتاد، ثم منها نفذت إلى الحدائق المتلاحقة المتناسلة رغم ما حلّ بها من سوء وإهمال. شوقي هذا الصباح كان كبيرًا لمعاينة ما بقي واقفًا من أشجار النخيل والسرو والصنوبر، ولإحصائها ما استطعت؛ أمّا أشجار الجوز والرمّان والتّين والزيتون فقد شحّت غلالها، وأضحت كأنّها تبغي الرحيل أو الموت.

بغتة غمرني شعور بالرهبة غريب، حدا بي إلى تقصير نزهتي والرجوع إلى بيتي. لم يكن ذلك مجرّد وهم أو وسواس، إذ ما أشرفت على بابي حتى هبّ إليّ نفر من طلبتي مسلّمين، وأبلغوني أنّ فرسي قد سُرق وسلمان وجدوه في الزريبة مكمّم الفم، مكبّل الأعضاء، فحرّروه ووضعوه في مضجعه يسترجع أنفاسه، ومن الصدمة يرتاح. سألت عبد العلي عن عمرو، قال إنّه ما زال معتقلاً في مخفر الشرطة. سلّمته مالاً كيما يشتريَ لي بغلة، نهاني عن هذا بدعوى احتمال تعرّضها للمصير نفسه من طرف عصابات منظّمة، متخصّصة في سرقة الدواب والمتاجرة بها في مدن أخرى، أو بيع لحومها لمستضعفي الناس من أهل الفاقة. غير

أنّي أعرضت عن نهيه وجدّدت له طلبي، ثم صرفته وصحبه موصيًا إيّاهم بملازمة النهل من كتب كنت عيّنتها لهم بالاسم والمضامين، وأضفت لهم أخرى. وبعد ذاك دخلت على سلمان فألفيته شاحب الوجه منهارًا، كأنّه فقد قريبًا أو انهزم في معركة حامية الوطيس. جلست إلى جنبه أعفيه من التحدّث في الأمر، وأواسيه في غياب فرس خدومٍ أمين كان عزيزًا عليه وعليّ.

في مساء الغد جاءني عبد العلي ببغلة بيضاء، مبرقعة بعض مفاصلها بالأسود كفرسي المسروق، وعليها علامات العافية والصحّة. سلّمها بلوازمها لسلمان وردّ إليّ ما تبقّى من مال شرائها، فشكرته وأجلسته جنبي. سألته وأنا ألمح في وجهه كدرًا وهمًّا:

ـ الأحوال من سيئ إلى أسوأ يا علي! خبّرني عن عمرو.

أجاب وهو يغالب انفعاله وغصّته:

ـ عمرو، يا سيّدي، نُقل بالأمس إلى سجن مُنعتُ من معرفة مكانه. أمّه ذهبت للحج ولم تعد، أخوه الأكبر غادر مرسية ولم يترك أثرًا، وأنا وصحبي لا ندري ما نفعل لتخليصه... يتّهمونه بالاعتداء على شرطي وتحريض الناس على مقاومة القشتاليين وخرق عهد الهدنة بينهم وبين أولي الأمر.

أطرقت مدركًا أن فعل هؤلاء بعمرو إنّما هو نكاية فيَّ واستفزاز لي، حتى إذا طلبت إخلاء سبيله ساوموني وعيّنوا الشرط والمقابل. قلت:

ـ لا عليك. . . سأتدبّر الشأن جهدي حتى يخلوا سبيله. . . وأنت كيف حالك؟

ـ والداي نزحا إلى غرناطة، تركا لي ما أتعيّش به بعد أن يئسا من ترغيبي في مرافقتهما. . . حالي كحال كل من يقاوم تسليم ما تبقّى للمسلمين من هذي البلاد. أحمد الله أن هداني إليك، يا وليّي، ويسّر لي استرجاع همّتي بجلساتك وأقوالك.

ـ وزواجك من راشيل أو فاطمة، كيف هو؟

ـ سهوت عن إخبارك أنّي سرّحتها بإحسان، فجنّ جنونها. ظلّت على إسلامها طمعًا في أن أستردّها أو حتى تتقن الكيد لي. . . منذ أيّام فقط صارت تقول من حولها إنّك أنت الذي صرفتني عنها، فلا تأبه، سيّدي، لتقوّلها الرديء.

أحجمت عن الإطالة في المسألة كيلا أرغم مخاطبي على البوح بما يتستّر عليه، أي تعليل راشيل لتقوّلها بادّعاء أنّي أراودها عن نفسها وأبغي الاستفراد بها. خطر لي أن أسأله عن أختها الكبرى، لكنّي آثرت تغيير مجرى الحديث نحو ما يبدو لي أعمّ وأهمّ، قلت:

ـ آتني متى استطعت ببطاقات عن أصحابك، فيها أسماؤهم ومعلومات عن حرفهم وقدراتهم وأحوالهم. . . البطاقات أنفع للحفظ والمراجعة.

ـ سأفعل ما في طاقتي، ولو أنّ أعداد محبّيك في تزايد

واطراد، حتى باتوا ينسبون أنفسهم إليك باسم السبعينيّة، ويتلهّفون إلى تجديد الجلوس بين يديك.

ـ حبّهم، يا أخي، أبادلهم إيّاه، لا ريب في ذلك، لكنّي قليل الحيلة والحول في إسعادهم به وتثميره. العصر عصيٌّ عصيب، مساجد الله، فضلاً عن المدارس، أغلقها السلطان في وجهي، الشغب المشنع عليَّ لا يفتر فقهاء السوء عن تصريفه ضدّي، فلا سبيل إلى لقاء المحبّين إلاّ خفية، خلف أبواب موصدة أو في الخلاء.

ـ هذا كله لا يزيدهم إلاّ تعلّقًا بك يا معلّم... كلماتك تصلهم من مقرّبيك بالتسامع، فتنفذ إلى عقولهم وأفئدتهم نورانيّةَ المبنى، شيّقة المعنى بليغتَه، فتقوّيهم على مواجهة أكدار هذا الزمان وشائناته...

مثل سلمان فجأة أمامي، أنبأني بصوت مبحوح منهك أنّ أخي الأكبر على الباب يطلبني في أمر مستعجل، وما إن سمع الزائر إذني بدخوله حتى أقدم عليّ مسلّمًا معانقًا، وأنا أرحّب به وأنظر من طرف خفيّ إلى لباسه النفيس المترف. سألته عمّا أتى به في هذا الليل الداجي، تباطأ في الجواب ملقيًا نظرة متحرّجة على ثالثنا عبد العلي. فهِم الطالب الموقف، فنهض وسلّم عليّ وانسحب.

دعوت الأخ الوافد إلى الجلوس حتى يستردّ أنفاسه، سألته عن حاله وحال العيال، فطمأنني شاكرًا. قلت:

ـ من دون لفّ ودوران، تحدثْ، يا أبا طالب، في ما جئتني من أجله متسترًا بجنح الظلام. حيطاني ليس لها آذان، ورائينا الله وحده.

استوى في جلسته وغالب اضطرابه بابتسامة باهتة، قال:

ـ أتيتك أوّلاً لإحياء صلة الرحم والتسليم عليك...

ـ بعد أن قطعت الصلة سنتين ويزيد! وثانيًا؟

ـ أيّستَ أولي الأمر من الدخول في خدمتهم، فأنْ تهادنهم اليوم خير لك وأسلم...

ـ هؤلاء لا اعتراف لي بولايتهم. بيني وبينهم عقبة كأداء، كتلك التي عاينها الولي الزاهد أويس القرني، وقال لا يقطعها إلاّ ضامر. أولياء نعمتك قد قعدوا دون العقبة، إذ أترفوا وتفنقوا حتى عميت أبصارهم وبصائرهم، وغاصوا في العبث والهوان، والعياذ بالله.

نظر الأخ إليَّ نظرة تعجّب واستغراب كأنّه يستعجم ما أعنيه. قلت:

ـ توضيح الواضحات من المفضحات! ما أقوله تعرفه وأكثر... العبث، هو هذا الوباء الذي يعجز الحكّام عن استئصاله وصرعه، أي هذا التفريخ الجرثومي المستشري في نظامهم بالنخر، المتظاهر عبر أعراض عديدة والعلّة واحدة: المحسوبيّة والزبونيّة والتبذير في القمّة، والابتزاز والفساد على نطاق أوسعَ وأشمل، وأخيرًا إعفاء المخرّبين من العقاب تكريسًا

لواقع توالي الصدوع والمآزق. . . أمّا الهوان فانظر من حولك تره بين الساسة والأعيان حالاً قائمًا متفاقمًا. الحرب بينهم مستعرّة، والعدو يستنصر به بعضُهم على بعض، ويهبونه لقاء ذلك ذمم المسلمين ومتاعهم والأرض. أبناء جلدتنا وملّتنا أضحوا خصيان النصارى، وامعتصماه! ويحدث كل هذا وأهول منه، وتريدني، يا ابن أمّي، أن أتكيّف وأسكن، أن ألهوَ وأسكت!

أجاب جليسي وهو يغالب ارتباكه:

ـ السياسة، يا أخي، في وضعنا فنّ الحيطة والحذر، ودفع بالتي هي أحسن. . . الحرب سجال، مرّة لُنا ومرّة علينا.

ـ مع الدافعين بالتي هي أسوأ، الدفع بالتي هي أحسن سلوك ساقط وجبن. صحابك أفسدوا السياسة إذ ركبوها عوجًا، حوّلوها إلى تجارة باطلة خسيسة. أمّا الحرب فلا يراها المدرك البصير إلاّ على أهالينا تعود بالويلات والمحن المطردة. ألا تسمع بالعدو يرهق أحياءهم ومنازلهم بحملات التوغّل والمداهمة والكبس! يسبي النساء وييتم الأطفال، يُكره الرجال بالتهديد على التنصّر والتدجين أو على النفي والرحيل. . .

ـ العدوّ، يا أخي، هو الأقوى، وحديدنا لا يفل حديده. ملوك قشتالة وأرغون وليون لا حيلة لنا للصمود أمامهم إلاّ بالصبر والمناورة. وها نحن أولاء نفاوض اليوم أقواهم وأوفاهم بالعهد، ألفونسو القشتالي. أمّا حربهم فلا قدرة لنا عليها إلاّ أن ينصرنا الله بجند من عنده.

ـ وملوكنا نحن، ملوكنا المنحلّون، المتفرّقة قلوبهم، خاذِلوننا؟! ألهتهم الأزقاق والقيان، أنهكهم بذخهم وتطاحنهم، حتى آمنوا أنّ عدوّهم هو الأعظم من دون الله، وصاروا إذا نازلوه مكرهين فبصفوفٍ ممزّقةٍ مهيضة، وهممٍ خائرةٍ مريضة؛ وإذا فاوضوه رجعوا بصفقات المغبون. تلك حقيقتهم ولن يغير الله ما بهم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

انقبض وجه الأخ فجأة وتنفّس واسعًا، كأنّه يتهيّأ لإلقاء قول ثقيل، قال متحرّجًا:

ـ الأمير بهاء الدولة محمد بن هود وأعوانه مستوحشون منك، يا أخي، وبك ضائقون. يرون أنّك تحرّض أتباعك والناس عليهم وتأمر بالعصيان. ولولا أنّا خرجنا من بطن واحد لما توسّطتُ بينهم وبينك بالخير، توسّطت حتى لا يورّطوك في ما لا يحمد عقباه...

ـ ذكِّر الطغاة أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأنّي لا أخشى في الله لومة لائم ولا مكرَ لئيم...

ـ إذن لا سبيل إلى المفاهمة والصلح؟

ـ إلاّ أن يجتاز صحابك العقبة، أن يتخلّصوا من أوزارهم وأدرانهم ويتطهّروا في نهر العزّة والفضيلة، ونهارِ الحقّ الحرّ والنعماء العميمة؛ ولكنّهم عن ذلك عاجزون.

ـ يريد بعض أكابر الإمارة أن يروك ويفاوضوك...

ـ ليس قبل أن يتطهّروا، فإنّي مؤتمر بأمر ربّي: ﴿*ولا تخاطبني في الذينَ ظلموا. إنهمُ المغرقون*﴾.

لا أدري كيف ومضت بغتة في وعيي كلمة شائقة المعنى، مقامها ولا ريب في مخطوطتي الضائعة، كلمة عن الجهلة الخفافيش الذين وصفتهم على وجه التقريب بكونهم «*الذين تظلم الشمس والكواكب والأنوار الطبيعيّة وغير الطبيعيّة في أعينهم داخل الذهن وخارج الذهن. يتحركون في ميدان سخفهم، ويُظهرون محاربة من يحيط، ويقهرونه بالجملة، ويتحركون في سلسلة جنونهم*»... سعدت بهذه الذكرى فناديت سلمان أن يحضّر لأبي طالب أكلة صوفيّة أو طبق حلويات وفواكه، إلاّ أنّ الأخ اعتذر عن ذلك، بدعوى امتناعه عن الطعام ليلاً، وذلك حتى يخفّ وزنه قليلاً ويعود بطنه المكتنز إلى حجم معقول.

الحقّ أنّ هذا الأخ المسكين، صنوي في الهيكل دون الماهية، لا يتوسّل بالسياسة ويتسوّل إلاّ لكي يُشبع ما يغلب عليه من شهوات البطن والفرج، كباقي أقرانه وأسياده. وكهؤلاء، ليس يأبه لسوء أحوال البلاد والعباد، وليس يقلق لقضايا المصير والمآل. إنّه يحيا كالمخدَّر المنطمسِ وعيُه، ولن ينتبه ولو من الموت على الفراش دنا. شعوري حُياله، كما يعتقد، هو الازدراء الدفين، لا بل الشفقة لحاله هي الأصح عندي...

نحنح ضيفي عساه يخرجني من شرودي، ثم طرح سؤاله الختمي، الذي انتظرته، عن ردّي الثابت على مهمّته ومسعاه، فدعوته إلى فهم أنّ الكفاية في ما قلته. عندئذ استقام واقفًا، وقال

بلهجة من تذكّر بعد سهو أنّه عضو مهمّ في هرم الجاه والسلطة، وأنّه قام في ما مضى بسفارة لابن هود إلى بابا الإفرنج إنوسَنت، تباهى بها وافتخر، ولو أنّه رجع منها بخفّي حنين:

ـ إذن أرباب الدولة يأمرونك بالرحيل إلى عدوة الجنوب أو أبعد منها، لقاءَ تحرير عمرو القرطبي وإيقاف المتابعات عن حوارييك.

تمالكت زمامي ورجّحت عقلي، أجبت:

ـ موفِدوك إليّ يضيّقون الخناق على المسلمين العزّل، مثلما يفعل بهؤلاء حملة الصلبان والسلاح بل أكثر. أنبئهم أنّ العيش في ظلهم مهينٌ مرير، وأنّي لو أُكرهت على هجر مدينة مولدي، فلي أسوة حسنة في سيّد المرسلين والمهاجرين. قل لهم أن يطلقوا سراح عمرو ويرفعوا أيديهم عن أصحابي أوّلاً، ولهم من بعد ما يبغون.

لم يجد الأخ ما يقوله سوى كلمات التعهّد بالتبليغ، متبوعة بالتسليم.

أطفأت القنديل، تكوّمت في فراشي مراودًا نومًا صار عندي منذ مدّة صعب النوال. أطلقت العنان للذهن يسرح حيث يشاء، فيمّم وجهة التأمّل في هذا البلد النازف المكلوم وسكّانِه الهلعين، النازحين قسرًا وكرهًا، وأنا منهم، ولو أنّ من يطردني هم من بني جلدتي وملّتي، والعياذ بالله. . .

عنّ لي والليل حالك أن أخرج متلفّعًا بسدول الظلام، أتفقّد نهر شقورة والجنان على ضفّتيه، كأنّي أروم التوديع. لكن هاتفي الجوّاني نهاني عن ذلك، ونصحني بالخلود إلى الراحة بعد أن قال لي: فسد الزمان هنا يا هذا، وكثر الشغبُ والتشنيع عليك. اهجر مرسية إلى عدوة البحر الجنوبيّة. المغرب موطنك الروحي، قاعدتك إلى طورك الأنفعِ الأرقى. تمغربْ تغنمْ.

* * *

ـ ١١ ـ

ظهيرة يوم الفاتح من ربيع الآخر طلبت من سلمان أن يجمع كل كتبي وأوراقي في صندوق، لم أخبره عن اعتزامي الرحيل حتى لا أستعجل فزعه وارتباكه، ثم أوصيته بالمنزل خيرًا أثناء غيبتي بضعة أيّام في رقوطة. ركبت بغلتي وسرت إلى مقصدي بنيّة تفقّد الأهل هناك وتوديعهم بالتي هي أخفى وأحسن. قطعت المسافة إليهم عبر سبل ملتوية تجنّبًا لجند النصارى في ضواحي مرسية وأعمالها. لم أصادف إلاّ مسلمين نازحين فرادى أو زرافات، وفيهم متسوّلون وبهاليل تائهون بين التلال والوديان، يستوقفني بعضهم فأجود بما أستطيع. أمّا الجوّ ففيه هواء ضاغط كأنّه مشحون بكثير من الحزن وكثير من الخوف؛ حتى الدواب في المرابض والحقول تراها فاقدة حيويّة النشاط والتوثّب! حتى الطيور كانت بين محلّقة عاليًا ومستريحة على الأشجار متوجّسة ومتآزرةً متآنسة!

غمّة أخطبوطيّة الأطراف حلّت بأُمّة أرادها ساستها أمَةً مهانةً مستباحة.

ربّ فرِّج أو اجعل آخر الداء الكيّ!

حين وصولي استقبلتني أختي زينب بالعناق والبشر والترحيب. استفسرتني عن فرسي فأبديت إشارة تعني أنّه مات أو رحل. سألتها عن ميمونة فتنهّدت ثم دعتني إلى الجلوس والاقتيات ممّا على المائدة من المشرب والمأكل. استجبت وشربت من ماء الدخن، قلت:

ـ خيرًا إن شاء الله!

ـ صحّة ميمونة بخير يا أخي، إنّما نفسها!... بعد إقامتك الأخيرة صارت تزور جارتنا اليهوديّة راحيل وتطلب من طبّها الشفاء... راحيل خبرت مرضها وأسرّت لي باسمه.

استفسرتها عنه، تردّدت قليلاً ثم همست لي بأنّه الحب اليائس، أو هكذا سمّته الطبيبة. سألتها عمّن هو المعشوق المبارك، أنبأتني متردّدةً متضايقة:

ـ أقولها وأمري لله... هو أنت يا ابن أمّي... لو رأيتَ ما فعل النحول والسقم بها لبكيت.

أبديت بعض التعجّب ضاربًا يدًا بيد. ظننت من قبل أنّ ميمونة تحبّني في الله، أمّا أن تحبّ ويسوء حالها إلى هذا الحدّ فشيء عصيٌّ عليّ! سألت الأخت عمّا أفعل فأجابت:

ـ الحل ولو إلى حين، تقول راحيل، أن تزور المتيّمة بك في الشهر مرّة أو مرّتين ولا تبخلَ عليها بالودّ والملاطفات، وبعد ذاك لها مدبّر حكيم.

فكّرت أن أخبر زينب أنّي مأمور بالخروج من الأندلس، وما أتيتُ إلاّ لتوفير معاشها وترتيب أمورها ثم توديعها، لكنّي أحجمت مخافة أن أعوّص الموقف أكثر. طلبت منها أن تسخّن ماء الوضوء حتى أؤدّي ما عليّ من صلوات وأخلد إلى راحة مستحقّة.

طال النوم بي إلى صباح الغد، وأحسب أنّي رأيت في المنام ما رأيت، ولا أذكر منه في صحوي سوى الفتات. فتحت عينيَّ على الأنوار، فإذا بميمونة جالسة قرب ركبتي، تضمّ يدي اليمنى بين يديها وتقبّلها ذارفةً عليها دمعًا حارًّا. قعدت محاولاً سحب يدي بلطف فلم أوفّق.

هل هذه ميمونة أم خيالها؟

الشحوب والضمور بلغا منها كل مبلغ، عيناها غائرتان منطفئتان، شفتاها جافّتان ذابلتان، شعرها تشعّث وثار، لباسها غثّ واتّسخ. استنكرت بكلمات ليّنة ما تفعله بنفسها، طلبت منها أن تذهب فورًا إلى حمام المنزل لتغتسل وتسوّيَ هندامها. ردّت عليَّ بصوت ضعيف منهك: طلبك أمر يا حبيب... أقبلت زينب وراحيل مسلّمتين عليَّ ثم ساعدتا العليلة على الوقوف، وحملتاها إلى حيث أشرت.

سبحتُ في تأمّلات حول الحبّ وغرائبه الخارقة، مستحضرًا أقوال الشعراء والناثرين فيه، وهم كثر، وكذلك صفحاتٍ من كتاب الزهرة للفقيه اللبيب ابن داود الأصفهاني، وأخرى أعمق

وأبهى من طوق الحمامة للعالم الفهامة النحرير، درّة عصره ومفخرة أندلسنا، ابن حزم القرطبي، نفعنا الله بأدبه وعلمه. وعجبت لكون الأفئدة تحت سلطان الحب تبقى حرى متّقدة، والأبوابِ إليه متنوّعة متعدّدة، حتى ولو كان الزمان كزماننا هذا يعجّ بالقلاقل الجسام والمحن العظام.

بعد ساعتين ويزيد عادت ميمونة مع رفيقتيها، فجلسن أمامي حول مائدة السوائل والمأكولات. تحسّن هندام المريضة بشكل لافت للنظر، وهبّتْ عليّ من ناحيتها رائحة مسكيّة النفحات. أبدت لي راحيل إشارة بعينيها، فهمت منها أنّي مطالب بترغيب النقهة في الاقتيات، فاستجبت إذ ذكّرت هذه المسكينة أنّ لنفسها عليها حقًّا، وأمرتها بالأكل والشرب قبل نيل نصيبها من الراحة والنوم. نظرتْ إليّ نظرة شوق، ومحيّاها تعلوه ابتسامة رائقة مضيئة. عجبت كأختي حين رأيتها تقبل على الطعام بشهيّة متفتّحة ونهم ملحوظ. أمّا الطبيبة فكانت بعينيها الفطنتين وحركاتها المعبّرة تتلذّذ برجاحة علمها وصواب نصحها. ولمّا أتت الآكلة على قسط مهمّ ممّا حوته المائدة، نهضت من دون عون أحد، وأقبلت عليّ تقبّل يدي، وأنا أقبّل يدها وأنعت لها غرفة فراشها. بخفّة متناهية ونشاط فائق لبّت طلبي متبوعة بالمرأتين، مشدوهتين فرحتين.

قضيت ما تبقّى من اليوم أجمعُ أثمن كتبي في أكياس من الخيش، وبعدها خرجت أنشد بعض الصحاب الرقوطيين، فلم أظفر إلاّ بأسنهم ممّن عجزوا عن الهجرة. تجاذبت معهم أطراف

الحديث، فوقفت على يأسهم من أولي الأمر واعتزامهم المكوث حيث هم على أرضهم، ولو كتب لهم الموت قتلاً. وقبل أن أودّعهم، نهض أحدهم وخاطبني محرّكًا عصاه، ناعتًا بها: «أنا وهذا يهوديّان، وهذا وهذا من قوم عيسى، وهؤلاء مسلمون مثلك. سلهم كيف عشنا وأهلُنا في رقوطة، وأمثالنا كثيرون في القرى والمدن الأخرى... سلهم بربّنا سلهم». تعالت الأصوات شاهدة: «والله كأسنان المشط»، «كأصابع اليد الواحدة»، «نتبادل العون والنصح، نتقاسم الحياة حلوها ومرّها». وأردف العجوز قائلاً: «جذورنا هنا مترامية متشابكة، يرويها ماء التوحيد، لا تقبل الفصل ولا التهجير. أخبرْ بهذا، يا ولدي، أولي الأمر من كل دين، وادعهم إلينا نحن القدوة والمثال المنير».

في الهزيع الأوّل من الليل، دعوت زينب وأخبرتها من دون لفّ ودوران بقرب رحيلي إلى سبتة ثم بعدها إلى الديار المقدّسة. لم أر على وجهها علامات فزع وارتباك، عكس ما توقّعت، بل أمارات جَلدٍ وثبات، عبّرت عنها بكلمات وجيزةٍ رزينة، مفادها أنّ سلامتي حيثما توجّهت هي أعزّ ما ترجوه وتحبّ. سألتها إن كانت ترغب في مرافقتي، فاعتذرت عن ذلك بدعوى تعلّقها بقرية ألفتها ولا تبغي لها بدلاً، فضلاً عن وجوب بقائها إلى جنب ميمونة. شككت في كونها تعلم ما يحدث للمسلمين واليهود على أيدي القشتاليين وحلفائهم من تهجير قسري وتطريد عنيف. لكنّ شكّي تبدّد إذ سمعتها تحكي من ذلك ما عاينَته في رقوطة ونواحيها أو عرفته عن راحيل وغيرها حول مناطق أخرى، ثم إنّها قالت:

ـ فراقك صعب عليّ يا أخي، لكنّه على ميمونة أصعب وأدهى. أنا أملك زمامي وأسلو بالصبر، وهي لا. أنا أحبّك حبّ الأخت لأخيها وهي، الهشّة الرهيفة، تحبّك حبّ الوله والهوى الهائل. وظنّي أنّها تعشقك من وجوه عميقة شتّى لا انفصام لها...

ـ ليتها، يا زينب، اكتفت بمحبّتي في الله، كما كنت أفهم وأرضى... والآن بماذا تعظينني قبل سفري؟

ـ مذ عدتَ، يا أخي، لا رغبة لميمونة إلاّ أن تأخذها على بغلتك في نزهة ولو قصيرة.

ـ ما شاء الله! وماذا بعد النزهة؟

ـ تقول راحيل إنّ عليك أن تترك للمحبّة بعض لباسك وخصلة من شعرك، وتبعث لها من وقت لآخر رسالة فيها كلمات طيّبات، تنزل عليها دفئًا وسلامًا، هذا إذا تعذّرت عليك زيارتها.

أبديت إشارة القبول، قلت:

ـ النزهة أوّلاً. خبّريها بها حتى تنام قريرة العين، وغدًا صباحًا جهّزيها.

انصرفتُ إلى جمع ما تبقّى من حوائجي وكتبي وحزم رزمها، ثم ذهبت أنشد نصيبي من نومٍ لا ارتجاج فيه ولا لبس.

*

في الصباح بعيد الفطور والصلاة خرجت إلى الموعد، فإذا

بزينب وراحيل قد فرغتا من إركاب ميمونة على البغلة وشحن المحمل بقطيفة وسلّة ملأى وأشياء أخرى. استقبلت الثلاثي بابتسامة اليمن والبشر، كان لصدقها وقع حسن عليهنّ، وخصّصت الراكبة بنظرة ودّ وحنان، توهّج بها وجهها وأشرق.

تقدّمتُ البغلةَ راجلاً، وقدتها ماسكًا لجامها، مكبًّا على وجهي كيما أتجنّب العيون وأستبين طريقًا إلى ضاحية تكون بمعزل عن جند القشتاليين والمخبرين. هكذا جزت عددًا من السهول الخُضر والتلال العُفر، وميمونة فوق صهوتها، حين ألتفت إليها، أراها تتنفّس الهواء ملء صدرها حتى تحمرّ وجنتاها، وتُلقي على مفاتن الطبيعة الخلاّبة نظرات مبهورة أو مستنيمة. ولا ريب عندي أنّها كانت تسبح في غبطة باطنيّة طافحةٍ قصوى. عجبت لخلوّ سبيلنا المعروش المعشوشب من أيّ كائن حيّ، ما عدا حلقيّات وحشرات وديدان منصرفة إلى دبّها ودبيبها، تعلوها محلّقةً فراشات مبشّرة بدنو فصل الربيع وتقطير العطور والرياحين.

بقينا وقتًا كلٌّ على حاله، حتى إذا بلغنا قمّة ربوة مشجّرة ظليلة أشارت عليّ بالتوقّف، إمّا رحمة بقدميّ وإمّا لقضاء حاجة أو مأرب ما. استجبت طائعًا، فارتمت عليّ بجسمها الخفيف من دون استئذاني، فتلقّفتها بين ذراعيَّ، بسطت القطيفة وأجلستها عليها مقربًا منها كيسًا نعتته، ثم دعتني بنظرة إلى مجالستها ومقاسمتها الطعام والراحة. وكذلك كان بعد أن حرّرت الدابة من الصهوة واللجام ترخيصًا لها بالرعي من كلأ الله الغني الوافر.

ظلّت صاحبتي لا تكلّمني إلاّ رمزًا، تناولني تمرًا وجبنة وحلوى أو كوب لبن، وتشير إلى زقزقات طيور متخفّية أو هبوب عبير بين النبات والأغصان، وغير ذلك ممّا كانت تتلقّاه مباهجَ مهيّجة ومسرّاتٍ مسكرة. والحقّ أنّي استحسنت نهجها ذاك، وآثرته على الكلام الذي قد يكون في مقامي معها مدعاة لفلتاتِ اللسان أو لتيهانٍ غير مأمون المجرى والعواقب. وظنّي بها أنّها كانت حريصة كل الحرص على تنزيه نزهتنا عن أيّ نشاز ولوثة، حتى يبقى للنزهة الصفاء المجرّد والبهاء كلّه، فلم تكن تعبأ بلاشرعيّة تساكننا ولا تنظر إلى غربان تعبر السماء أحيانًا كجلطاتٍ سوداءَ طائرة؛ وظنّي أيضًا أنّ جليستي كانت تملأ وجدانها وملكاتها بزخم لحظاتنا وثرائها، طمعًا في ادخارها زادًا تحيا بذكره وذكراه ما وسعها ذلك.

توغّلت في تخميناتي مركّزًا نظري على النباتات والحشائش من تحتي، الحافلة أسواقها بحركات الحشرات الكادحة كدحًا إلى أرزاقها، دعوت الله أن يبعد اللاذعات والزحافات السامّة عن رفيقتي وعنّي. وإنّي لكذلك وقتًا حتى شردت وغفوت، تحسبني سكران وما أنا بسكران. ولمّا انتبهت، ألفيت المكان خاليا من ميمونة. قمت مذعورًا أناديها ملء حنجرتي، فلا أسمع إلاّ صدى صوتي، الآيلة حباله إلى الوهن والبحّة. هدأت لحظة أتدبّر الأمر وأميل إلى الشروع في البحث. سرّحت نظري أفتّش الأرجاء المحيطة وأقلب، وإخال أنّي لمحت المختفية تعدو بين أشجار غابة واطئة، وتقفز كغزال مفتون تهزّه أشواق قويّة. . . تُراها تغويني بملاحقتها جريًا على طريقة أهل العشق الأغرار؟ وفيما أنا

أغوص غوصًا في الذهول والحيرة، إذا بباقة ورد من خلفي تلامس عنقي وخدّي، وإذا بصاحبته تخاطبني مطْمْئنة: لا تخف عليَّ يا حبيبي. نمتَ فتأمّلتُ وجهك البهي، وهببتُ أقطف لك ما ترى.

تناولت منها باقة الأقحوان والياسمين مشتمًّا شاكرًا، وتأمّلت وجوه شَبه المُهدية برهافة شقائق النعمان حولي وهشاشتها؛ ثم إنّي أشعرتها بحلول وقت العودة. وافقتني الرأي مكرهةً كئيبة. وبينما أنا أجهّز حمل البغلة إذ رأيت جنديين يبرزان لنا من خلف شجرة ويستنطقانني بحدّة عن وجودي مع امرأة في هذا الخلاء. تظاهرت بعدم الفهم وأبديت إشارات كثيرة معقّدة، لعلّي أوحي لهما أنّي والمرأة من معشر الصمّ البكم، لا جناح علينا إن تنفّسنا الصعداء في أحضان الطبيعة وتنزّهنا. تحيّرا في تأويل حركاتي، فلم تنفع في إقدامهما على إخلاء سبيلنا إلاّ ميمونة إذ أهدتهما باقة ورد وحلوى وأجبان. عندئذ امتطيت بغلتي، وأركبت الخليلة ورائي وانطلقت، فيما أحد الجنديين يدير سبابته في صدغه ويأمر محذّرًا بكلام فظّ فهمت منه: *«أهورا فويرا لا كامبانا بيداسو دي لوكوس»*.

طوال طريق العودة كانت ميمونة تتوسّد ظهري وتحيط بطني بكلتا يديها، متعلّقة بي متشبّثة. حسست دمعها المنهمر يبلّل فرجيتي وقميصي وينفذ إلى جلدي، فلم يلهني عنه إلاّ حرصي على حثّ السير ووقوف بعض حمقى الخلاء وتائهيه على طريقي متسوّلين متضرّعين.

وصلت إلى مستقرّي بُعيد ظهر هذا اليوم العجيب الذي لن أنساه ما حييت. ترجّلت وأنزلت رفيقتي الفرحة الباكية، فسلّمتها إلى زينب التي كانت في انتظارنا وجلةً قلقة. قصدت غرفتي بنيّة تهدئة انفعالاتي وتهيئة أسباب عيش المرأتين بعد غيابي. وفي منتصف الليل أحضرت أختي، فأتتني بعشاء خفيف، وجلست جنبي مسرورة تنبئني أنّ ميمونة تنام مثلما لم تنم قط من قبل. سألتها: كيف؟

أجابت: كرضيع منعّم نال كل ما يحبّ ويشتهي. الشكر لك يا أخي وأجرك ثابت يوم القيامة...

قلت: بل اشكري الله الذي تولاّها برحمته وسكينته، فأعطاها ما ابتغيتُه لها وعجزتُ عنه... حتى أنا لي حاجة إلى الراحة. غدًا بعيد الفجر أسافر إلى مرسية ومنها إلى سبتة بعونه تعالى. خادمي سلمان عجوز لا يقوى على مصاحبتي، رغبته أن يبقى حيث نشأ وعاش. أوصيك به خيرًا لو مرض أو احتاج. هذا شيء من المال يكفيك ومن معك زمنًا أو ما شاء الله. تلميذي عبد العليّ الناصر سيكون واصلاً بيننا لما فيه خيرنا... الآن عودي إلى مرقدك يا أختاه.

* * *

- ١٢ -

في طريقي إلى مرسية، تولاّني التفكير في من تركتهم خلفي مكرهًا: أخت تبكي فراقي، وميمونة النائمة معانقة بعض شعري ولباسي، ورقوطة بأمكنتها وروائحها وأناسها... لحظات من عهد فتوّتي فيها تبدو لي اليوم كأنجم لا يزيدها نأيها إلاّ بهجة ولمعًا.

على مشارف المدينة الشماليّة الغربيّة، لاحظت طوابير الجند القشتاليين يقيمون أحياءهم أو يتقدّمون فرقًا صوب المدينة نفسها. عندئذ أدركت أنّ اتفاقيّة تسليمها إليهم يجري تنفيذها بشروط أملوها على إمارة المفرّطين المغلوبين، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

قريبًا من وسط المدينة، شاهدت أمرًا عجبًا: جنود الجلالقة وأحلافهم يوقفون مارّة ويفتّشونهم، يتقدّم نحوهم رجل متسكّع بهلول، يلحّ عليهم مهدّدًا بعصاه أن ينازلوه و يعاملوه كمجاهد مهمّ في سبيل الله، بينما هم يتضاحكون عليه ويسخرون من مناوشاته وترهاته. ثم رأيت الرجل يدنو من جنديين ويعاجلهما بطعنات خنجر قبل أن يلوذ بالفرار. حدثت جلبة وفوضى عارمة، تعالت أصوات تعلن موت المطعونين، أخذ الجنود يضربون

الناس من ذوي العمامات والشاشيات ويكبسون بعضهم. آثرت الانسحاب مسرعًا كيما أتّقي شرًّا ليس في الحسبان. لكن ما إن ابتعدتُ بميل ويزيد حتى أوقفني عساكر طابور آخر. فتّشوا حملي فلم يجدوا عندي ما يدينني. نظر إليَّ رئيسهم نظرة تفرّس وتفحّص ثم أمرني بالانصراف. . . شيءٌ ما في عينيّ وصورتي يبرئني غالبًا من الشبهات والظنون السّيِّئة، لعلّها أمارات السالك المكابد، والمحقّقِ في مجرّات المطلق والماهيات. وكم مرّة تسنّى لي بها أن أنسلّ كالشعرة من عجائنَ شتّى أو أفلت من ورطات الدنيا! أماراتي مزيج الموهبة والمكسب، لولاها لكنت كُبست في سجن أو مارستان إن لم أُسحق وأُقتل، مثلما يُفعل بالكثير من أمثالي.

سلمان على باب الدار كان في انتظاري. حيّاني مبشورًا وساعدني على إدخال متاعي، أنباني أنّ الطلبة سألوه عنّي مرّات عديدة طوال غيابي. استفسرته إن كان عمرو بينهم فقال نعم، ثم قبل أن يذهب إلى شؤونه سلّمني بطاقة مختومة أرسلها إليّ أخي، يقول مضمونها: «ها قد أطلق صاحب الشرطة سراح مريدك عمرو القرطبي، فارحل عن الأندلس كما وعدت، وإن أقمت في غرناطة عند النصريين أعداء بني هود وأميرِنا بهاء الدولة المعظّم، قبضنا على أتباعك كلّهم وغيّبناهم في السجن».

تهديد لا محلّ له من الإعراب ولا من الذكاء! هل سرت من قبل في ركاب بني هود أو اقتربت من خوضهم حتى أستبدلهم اليوم ببني الأحمر، فأكون كمن يستجير بالنار من الرمضاء؟!

أحضرت سلمان وسألته عن قطر الندى بنيّة أن أبعث لها

رسالة، قال إنّه علم بهجرتها إلى بلد لا يتذكّره؛ ثم إنّي أبلغته خبر رحيلي الوشيك، فتلقّاه مسلّمًا مصابرًا، كما لو كان يعلمه أو يتوقّعه. عرضت عليه أن يخدم أختي ويؤنسها في رقوطة، أجابني بصوت منهك: «السيّدة زينب فوق رأسي وعيني. سأزورها وأسأل عنها. . . إنّما، لو سمح مولاي، أفضّل البقاء في هذا البيت حتى يخرجني منه النصارى أو الموت». بادرت إلى تأمينه والإقرار بما يريد، ثم دعوته إلى تجهيز راحلتي ليوم غد وطلب خفيرين لمرافقتي.

في اليوم الموعود، أتاني سلمان بوجبة فطوري، أخذ يشكو لي ما بات عساكر القشتاليين يصرفونه من شرور في متشرّدي مرسية وحمقاها، إذ يعتقلونهم بالجملة، يهودًا ومسلمين، ويعذّبونهم حتى الإعطاب أو القتل. تذكّرت حادثة الأمس وقلت بصوت مسموع: «جنون الانتقام الأعمى والعقاب الجماعي يصيب عصابات النصارى واسعًا، ولا غالب إلاّ الله». ثم تلا الرجل عليّ تباعًا أنباء ثلاثة: وقوف موكب السفر على أهبّة تامّة، انتظار طلبتي على الباب، مقتل بغلتي ذبحًا. هذه المسكينة كنت أنوي إهداءها لخادمي حتى تُيسِّر له قضاء مآربه، وتخفّفَ عنه مشقّة الدبّ والمشي، لكنّ الآمر بوأدها أبى إلاّ أن يشير عليّ بتعجيل الرحيل قبل أن يستفحل حالي.

أذنت بإدخال الطلبة فلم يمثل منهم أمامي إلاّ عبد العلي وعمرو والصادق. سلّموا عليّ بحرارة وجلسوا حذائي واجمين، ممسكين عن اقتسام طعامي. بادرتهم بكلام ليِّن مطَمئن، عساه يرفع عنهم الحزن والكآبة.

قال عمرو: كثير عليّ ما تفعله من أجلي يا معلّم! تقايض حرّيّتي برحيلك عنّا، ومحبّوك لن يصبروا على فراقك.

وعقّب عبد العلي: والله لن نصبر ولو وعدتنا بلقاء قريب...

وقال الصادق: معظمنا، يا سيّدي، يريدون مرافقتك أينما حللت وارتحلت. علمك ينوّرنا وكلامك يقوّينا في زمن الظلماء هذا والوهن الهائل...

وأردف عمرو: بلادنا على المنحدر تتدحرج كل فصل نحو الأسفل. ساستنا يتجبّرون على بني ملّتهم بقدر ما ينبطحون أمام عدوّنا. فها بنو هود يؤدّون له الجزية خانعين، وها الانفت ألفونسو، ولي عهد ملك قشتالة فرناندو، يجول ويصول في مدينتنا ويفعل بها وبأهلها ما يشاء، حتى لزم هؤلاء أن يُدجّنوا ويُنصّروا إن لم يُهجّروا أو يُقتلوا. والله للسجن أو الموت أحبّ إليّ من حياة الهوان والذلّ.

خفت أن يطول بيَ المقام بين فتيان شقّ وضع البلاد عليهم وأعضل، فلم يترك لهم من منفذ إلاّ التمرّد والغضب. قلت من باب التهدئة وإيثار الرويّة والأناة:

«الحياة يا أحبّتي بحاجة إليكم، وكذلك هذه الأرض، فلا تلقوا بأنفسهم إلى التهلكة، ولا تفكّروا في الهجرة ما لم تُضطروا... الملوك عندنا كان صريخهم بالمرابطين ثم بالموحّدين يقوى لما يطغى عليهم النصارى، ثم بهؤلاء حين ينقلبون على منقذيهم. الأمل معقود اليوم على قوّة الحفصيين

الصاعدة في المغرب الأدنى، ولعلّها تغيّر تلك القاعدة لما فيه خير الأمّة، فلا تبدّدوا حيويّاتكم في التطيّر واليأس، ولا في مماحكة ضعفة العقول وساسة التبذير والخزي، بل اعتصموا بعلوّ العلم النوراني، واسلكوا سبل العمل النافع. . . سبتة عمّا قريب تكون قاعدتي الخلفيّة وخطّي الدفاعي ورباطي، أقلّب فيها الأحوال والمقامات، وأتلمّس أسس السدّ الواقي. . . انهضوا الآن لما أدلّكم عليه، كونوا فيه قوّامين مستبسلين، ادعوا إليه بالحسنى رفاقكم الآخرين».

الرفاق، كما أحسست، كانوا متجمّعين خلف بابي، يسترقون السمع. فما إن تناهت إليهم دعوتي حتى اندفعوا إلى حلقتي مسلّمين معتذرين، يتقدّمهم الطالب عدنان، وتعالت أصواتهم ترجّاني أن أعظهم وأوصيهم. أشرت إليهم بالجلوس، قلت بعد البسملة والصلاة على النبي الكريم:

«ليس لي، يا فتيان، أن أحدّثكم إلاّ بما أحدّث به نفسي وطلاّبَ قربي. . . كم يحدث لي أن أخاطب أناي: تعرَّ يا هذا عن أوهام اللواحق والمحمولات تعزّزْ كدحك إلى فيءِ الكل المحيطِ وعفوه. تكوثر بهويّتك الواجبة تجزْ هويّتك الزائفة. . .

«إيه! أقولها لأناي ما استطعت: اعرفِ الله فقط تعرفْ نفسك وتعلُ به عليها علوًّا كبيرًا. . . اعرفِ الله فقط تقوَ به على قوى الشرّ كلّها، واذكرْه تُضعِفْ بذكره الطواغيت، فيسقطوا من عينيك كجذوع نخل خاوية.

«هذا شيء عن حالي، وإنّ لي فيه سعةً تنمو وإلى ملامسةِ السماء تهفو، وإنّ لي فيه انشراحًا يصل أنفاسي بنبضات الكون ودبدباته، فلا يجنحنَّ أحدكم إلى حاله الذاتي إلاّ من فضاء المعاناة والإبداع، لا من بؤر المحاكاة والإتباع. إنّما أوصيكم بما إن سلكتموه غنمتم وأفلحتم، وكان لكم البذرُ والحصاد.

«أنتم يا أبناء أمّة اقرأ، حريٌّ بكم أن تتلقّوا فردًا فردًا أمر الله ﴿*يا يحيى خذِ الكتابَ بقوّة*﴾ كما لو أنّكم المخاطبون؛ وحريٌّ بكم أيضًا أن تقرأوا كلام الرسل والحكماء رسائلَ منهم إليكم؛ وحريٌّ بكم أيضًا أن ينطق الفرد منكم باسم الحقّ والقيم المثلى، كما لو كان من المقام البكري وأوّل الناطقين...

«الكون اللامتناهي كتاب عرضُه السماوات والأرض، ألا فاقرأوه ما قدرتم...

«الخلق كله كتاب، وكل عهد قديم أو جديد كتاب، وكل وجه عميق كتاب، فانكبّوا على ذلك كلّه وتبحّروا جهدَكم يكوّنكم ويثريكم...

«خبرتُ وما زلت أنْ لا سبيل لنا لتليين وعينا وتثميره بضائقات الدنيا ومحن الوجود إلاّ في عشرة أعمال الإبداع البشريِّ الكبرى، والعيش ما استطعنا في ظلال الكتابة العليّة.

«إيه! ما أسوأ سير العالم والأشياء! يقول المتطيّر السقيم. وما يدركه كعناصر مكوّنة للحياة: المرارات والنكبات والكبوات وهلمَّ

جرّا، ترى المحقّق الفهيم ـ معزّزًا بموهبته ـ يسخّرها كمادّة خام ليحوّلها إلى قصيدة شائقة مُنهضة، أو كتابٍ فذٍّ مضيء.

«إيه... يوم آخر أحياه!" جملة تعجُّبيّة تعطي مقاس الفرق في اللّهجة والمعيش، وذاك بحسب صدورها عن متعبٍ من الحياة منهار، أو عن متحمّسٍ متشوّقٍ مقدام...

«وحقّ حبال السماء الممدودة إلى الأرض، العلمُ إن عرفتم طلبه، ولو بالصين، يكن لأرواحكم أعيادًا وولائم. عُدَّتكم وعتادكم هو، فلا انشراح لكم ولا انتشار إلاّ في رحابه، ولا حول لكم ولا قوة إلا به بعد الحيّ الحكيمِ الحليم.

«ألستم ممّن يريدون أن يكونوا ضمن النشأة الجديدة والطينة الأخرى!».

ظنّ الطلبة التعجّب سؤالاً فأجابوا بصوت واحد: بلى...

قلت مبديًا إشارات اقتراب رفع الجلسة:

«إذن دعوكم من نسخ كلامي، فما منطوقه إلاّ في المنهج والكيف، لا في الفحوى والمتن. أمّا من ابتغى هذا الشقّ الثاني، فعليه بالغوص في نفسه ووضعها على محكّ المرتقيات، كيما يصير في دوائر الإحاطة من العاملين ﴿*والذين لا يجدون إلاّ جهدهم*﴾...

«ألا أخبركم بما حصل لي ذات يوم مع وليٍّ من أولياء الله العابرين، سعيت إلى إتباعه والذوبان في نهره، فبهرني إذ نهرني:

«إيّاك أن تحفظ عنّي ما أقول!». وأطلق العنان للأضداد وحقوق النقض، حتى ارتجّت لسورةِ حشمته أركان المكان، ومالت أوعية الوعي بحضرتهِ إلى الانكسار... ألا فافهموا واتّعظوا...».

وقفنا جميعًا صامتين، ذهبت أرتّب لسلمان أمورًا تخصّ معاشه، فخلع عليّ سلهامي وضمّني إليه ضمًّا شديدًا وأنا أعانقه وأراه لأوّل مرّة يبكي، ثم تخطّينا الباب كلّنا، فلم أستطع حبس دموعي أمام حشد الطلبة والجيران وقد أخذوا واحدًا بعد الآخر يعانقونني متأثّرين، داعين لي بأبلغ الدعاء وأحسنه. وبعد ذاك امتطيت الحصان المهيّأ لي، وسرت في الموكب متوسّطًا الخفيرين، والطلبة من ورائي يتبعونني راجلين، يلوّحون بإشارات التوديع ويصيحون بكلمات الشكر والتكبير، حتى إذا بلغتُ الضاحية الجنوبيّة الغربيّة خفّت خطواتهم وأصواتهم ثمّ تلاشت تمامًا...

* * *

- ١٣ -

وداعًا نهرَ شقورة، يا من نشرتَ على ضفّتيك خُضرةً أبدًا يانعةً بهيّة. . .

وداعًا للنباتات والغلال في الحدائق والعرصات الحافلة الثريّة. . .

وداعًا قرطاجنةَ الساحرةَ التليدة. . .

وللسهول والوديان، وللتلال والجبال المكسوّة بشتّى الأشجار الخصبة المتآخية، أقول الوداع. . .

طفقت أنظر إلى محاسن هذه الأرض ومباهجها، لكن من طرف خفي حتى لا أضاعف من حزني على فراقها القاهرِ القسري، أنا المحكوم عليَّ بإفراغها مع المهجّرين أفواجًا أفواجًا. وأحسب أنّي ظللت على حالي والركب يتقدّم جنوبًا، بل أوغلت في الشرود والسهو طوال بياض اليوم، سواء سمح الطريق بالإسراع أو فرض التأنّي. ومع ظهور أولى سدول الليل، كان لا مناص من الاستجمام والنوم في فنادق ورابطات توجد في السهول أو الحصون، أذكر منها رابطة في بلدة لورقة وفندقًا في وادي آش.

قريبًا من الضاحية الشرقيّة لغرناطة، والوقت إلى المغيب يميل، التحق بركبي فارس سلّم عليّ بحرارة وادّعى أنّه موفد من طرف أخي الأكبر أبي طالب للسهر على راحتي وتأمين طريقي وعبوري. أبديت له إشارة تُفهمه أنّي مدرك لمعنى مهمّته، وآثرت القبول على المشاكسة والنفور. رغّبني في قضاء الليلة برابطة قريبة قال إنّها تلائم سليقتي وطبعي فوافقت. على عتبتها رحّب شيخها بي وبمن معي وخصّني بالقول: سيطيب لك النوم هنا في رابطة العُقاب، يا سيّدي...

حين خلوت إلى نفسي في غرفتي، اعترتني وساوسُ تطيُّر من رسول أخي وبني هود، ومن اسم الرابطة المذكِّر بانهزام المسلمين في موقعة العقاب مطلع هذا القرن الملعون. وفي عزّ الليل هجمت عليَّ هواجس أعلمها، لها في نفسي الباطنة موطئ قدم وانغراس؛ فما كان منّي إلاّ غالبتها بالصلاة والأدعية والأوراد. وبعدها كان لي نصيب من النوم الخفيف الهادئ.

حين أصبحت اقتتت بما تيسّر، وخرجت إلى سطح قبالتي أتملّى غرناطة العامرة بمبانيها وجنّاتها وحصونها، وأخصّ ما تبدّى لي من مآثر إسلاميّة شيّقة بنظرات الإعجاب المشوبة بالخوف عليها وعلى المدينة من غوائل الزمن الآتي ومخبّياته. وبينا أنا أستعيد في ذهني ما أعلمه عن غرناطة ماضيًا وحاضرًا إذا بالمبعوث يتقدّم إليَّ مسلّمًا ويخبرني أنّ متاعي سبقني بالبريد السريع إلى مرفأ الجزيرة الخضراء، وعلّل الأمر باستحسانه التخفيف عنّي وتعجيل وصولي إلى مقصدي. سألته عن

الخفيرين، قال إنّهما عادا من حيث أتيا بعد أن تلقّيا منه ثمن الفرس الذي صار ملكي. دفعت له هذا الثمن وامتطيت دابّتي لاستئناف السفر، فرافقني فارسًا عبر مسالك غرناطة الشارعة، حتى إذا قطعنا الطريق إلى مالقة، ودّعني على أمل لقائي في محطّتي الأندلسيّة الأخيرة، متذرّعًا بمهمّة خاصّة عليه قضاؤها.

فارقت المخبر صاحب المهمّات من دون أسف يذكر، وكذلك تركت ورائي غرناطة وخوضها الذي فيه بنو الأحمر يلعبون. بعد مبيت في مالقة وآخر في اشتبونة كان قدومي إلى مرفأ الجزيرة الخضراء ظُهر يوم من رجب، سنةَ أربعين وستمائة. وهنا وجدت مخبر بني هود ماثلاً أمامي كعفريت. سلّم عليّ وشدّ على لجام فرسي، فقادني إلى سطح عبّارة شراعيّة راسية حيث دلّني على رحلي وأخذ مع بحّار يثبته فوق دابّتي، ثم لحق باليابسة متمنّيًا لي سفرًا ميمونًا.

*

انطلقت العبارة في رحلتها، فيمّمت مكانًا منعزلاً جلست فيه أقدّر النوء تارة، وأخرى استرق النظر إلى وجوه الناس من حولي. كانت أمارات التعب والكدر تطبع معظمها، وقلّة قليلة من الركاب يتضاحكون، إمّا من شدّة الهمّ أو تزجية للوقت. بين الفينة والأخرى، وأنا على مقعد خلفي، كان يمرّ بي متسوّل بمبخرته وأدعيته وآخر بابتهالاته، فأتصدّق بما أستطيع.

قبيل انتهاء العبور، جلست إلى جنبي امرأة في متوسّط العمر،

وأخذت ترضع وليدها وثديها مكشوف. على يميني لفت سمعي شخير رجل عليه سمات التاجر، يغطّ في نوم ثقيل. أغمضت عينيَّ عساني أجد شأنًا جوّانيًا يلهيني عن الثدي والشخير معًا، إلاّ أنّ المرأة المرضعة فاجأتني بطلبها أن أسمع قصّتها ثم أسديَ لها النصيحة، قالت:

ـ المصائب، يا سيّدي، تعرّمت عليّ والهموم هدّتني. أشكو لك بعد الله رجلاً من طريفة، سلّطته عليّ الأقدار. طلّقني ثلاثًا ثم زوّجني رجلاً آخر حتى أحلّ له ويرجعني؛ غير أنّ شكوكه فيّ عاودته أكثر من ذي قبل. أقول له هات الدليل على اتهامك لي بالزنا، لكن لا دليل إلاّ ما يرى عن ذلك في المنام، وتؤكّده له عرّافة مبتزّة يتستّر عن اسمها. ولمّا تنصّر وأنكر نسب هذا الوليد إليه، طلبت فكاكي منه، فقبل شريطة أن أعبر البحر بلا رجعة. وها أنذا، كما يراني سيّدي، معدمة لا أجد ما به أسدّ رمقي وأكفل حاجاتِ رضيعي...

سحبت من شكارتي قدرًا من المال سلّمته لها مصحوبًا بكلمات طيّبة مؤازرة، فاندهشت لسخائي وابتهجت. وكان أعجب ما حدث، والعبّارة ترسو بنا، أن شهدت جاري يقطع شخيره وينتفض واقفًا ويصيح بالمرأة مندّدًا:

ـ هذه الفاجرة، يا مولاي، تذهب وتجيء مع العابرين، وفي كل مرّة تستدرّ عطفهم بعرض نهدها ووليدها واختلاق حكايات كثيرة، كلّها والله كاذبة موهومة!

أخذت الرّجل من ذراعه إلى ركن مهدّئًا روعه، قلت:

ـ يا عبد الله...

قاطعني مدهوشًا:

ـ وكيف عرفت اسمي؟

ـ نحن جميعًا عباد الله...

ـ صح... إيه! منذ أسبوعين حكت لي هذه النصّابة قصّة، فتصدّقت عليها كما فعلت. وفي موفى الأسبوع المنصرم أسمعتني قصّة أخرى أنستني الأولى، مفادها أنّ بعلها طريح الفراش جرّاءَ إصابة تلقّاها في معركة ضدّ القشتاليين، وأنّه أوصاها بجمع قدر من مال المسلمين يمكّنهما ووليدَهما من الهروب بإسلامهم إلى سبتة. وفي هذه المرّة كان عليّ أن أنهر المفترية على مرأى ومسمع جمهور الراكبين.

كانت المرأة قد انسلّت كالشعرة من العجين، واختفت تمامًا في زحمة النازلين. التفتُّ إلى الرجل وقلت:

ـ بئس ما فعلت يا هذا! لو أنبأتني بقولك في المتسوّلة المسكينة وقتَ كانت بيننا، والله لضاعفت لها الأجر وزدت. تلك الأَمَة تخرج على الناس والفقر شاهرة سيفها، وسيفُها خيالها، وخيالها عدّتها الوحيدة ومصدر رزقها، كما الحال عند الشعراء والقصّاص وكتّاب المقامات والأزجال. سمعتُ منها حكاية، ولو روت لي الكثير غيرها لتصدّقتُ عليها أكثر، لا يهمّني إن صدقَت أم ابتدعَت، وربّنا واسع الجزاء والمغفرة.

سألني الرجل مغالبًا استياءه وعجبه:

ـ لا أظنّك، يا عبد الله، من أهل التجارة أو السياسة، ولا قاصدًا سبتة للإقامة.

ـ ظنّك الأوّل صائب، يا أخي، وظنّك الثاني قد يصدق أو يخطئ بحسب الأحوال والأقدار.

تردّد الرجل لحظة وقال قبل أن يودّعني على عجل:

ـ السبتيّون، يا ولي الله، إمّا تجّار السلع مثلي، وإمّا تجّار السياسة، والبقيّة من خاصّتهم فقهاء يستبدّون بمذهب مالك ويتاجرون. ألم يأتك خبر هروب الشريف الإدريسي وحتى الفقيه القاضي عيّاض من مدينتهما هاته! أمّا إن كنت من أهل الخرقة والطريقة، فبقاؤك في المدينة، ولو تيسّر، لن يدوم. وانظر في حالة وليّ الله أبي العبّاس السبتي وفراره إلى مراكش لاجئًا، أنظر لعلّك تفهم وتعتبر...

لمّا ركبت فرسي متفقّدًا حملي، سرّحت النظر من حولي، فإذا بي أرى عن بعد امرأة الحكايات تستقلّ عبّارة على أهبّة مخر عباب البحر نحو الجزيرة الخضراء... قصدت خلاء قريبًا فجلست إلى جذع شجرة أنظر في أمري ومبتدى وجهتي. لكنّ غفوة قاهرة أخذتني فأرتني العبّارة تتقاذفها الأمواج تحت سماء مرعدة ممطرة، وامرأة الحكايات بين الركاب تقصّ أهوال البحر ونوائبه، وبعض الرجال يحاولون عبثًا إسكاتها؛ ورأيت التاجر السبتي يرفعها ورضيعها بيديه ويرمي بهما إلى الأمواج العاتية.

وما هي إلاّ لحظات وجيزة حتى مزّقت الرياح أشرعة المركب وأفقدته توازنه وقلبته رأسًا على عقب، فتساقط الجميع في المياه مذعورين مستغيثين، وأنا منهم. حاولت المساعدة ثم النجاة بالعوم فما قدرت. ولما عاينت الموت محدقًا بي أسلمت زمامي لله وأخذت أغرق.. أغرق.. أغرق...

الفصل الثاني

سبتة
رباط حبّي وتوحيدي

والعلم للعلوّ علامة والسلم للعدوّ سلامة، والصلح مع جملتك صلاح، والدعاء بالإخلاص سلاح. وإيّاك من الأمل المهدوم، ومن العمل المعدوم، ومن الأمور التي تفسد حكمة العادة وأصول السعادة.

ابن سبعين، **شرح عهد ابن سبعين لتلاميذه**

والعزلة الصادقة إنّما هي في فرار النفس عن القبيح المهلك لها لا البعد عن الأهل، بل العارف النبيه هو الذي لا يكون تحت قسمة النوع وهو نَوْعٌ وحده، ويكون من الناس وهو واحد من الناس.

ابن سبعين، **رسالة النصيحة أو النورية**

- ١ -

سبتة، ذات الجبال السبعة، قاعدتي الخلفيّة، خطّي الدفاعي ورباطي، أقلّب فيها الأحوال والمقامات، وأتلمّس أسس السدّ الواقي!

قلت ذلك لتلامذتي يوم ودّعتهم في مرسية، وشرحته لهم كلّما جاؤوني فرادًا أو جماعات من غرناطة ونواحيها حيث هاجر معظمهم.

سنتان تقريبًا مرّتا على إقامتي السبتية، راجت أثناءها بين الناس أنباء غوص مدن الأندلس في اندحارها، ونمت إليّ أخرى تخصّني عن تمادي أخي الأكبر في لعب السياسة البئيسة، وعن وفيّات شملت رجالاً عرفتهم وخادمي سلمان وبعضَ طلبتي ممّن قُتلُوا، وكذلك مؤخّرًا أختي زينب التي أرسلت إليّ بطاقة قبيل وفاتها تنعي فيها ميمونة، وممّا تقوله: تذكر، يا أخي الأعزّ، يوم أنبأتك أنّ ميمونة بعد عودتك من نزهة معها نامت مثلما لم تنم قطّ من قبل. سألتني كيف؟ قلت: كرضيع منعّم نال كل ما يحبّ ويشتهي. . . وأدركتُ ساعة بعد رحيلك أنّ النائمة أغمضت جفنيها إلى الأبد، ولم أخبرك بموتها وقتذاك حتى لا أزيد همًّا آخر إلى همومك. . .

أمّا منزلاي بمرسية ورقوطة فقد علمت أنّهما صارا ملجئين لأرهاط من العجزة والمرضى وأبناء السبيل، كان الله في عونهم أجمعين.

أمضيت السنتين قاطنًا في زوايا وفنادق، مرتادًا الشاطئ والأسواق والمرسى وأماكن أخرى كالحمّامات والمساجد. وكنت خلالها أخالط بعض الصوفيّة والطلاب، وأعقد لهم ما تيسّر من حلقات التعليم المناسبة. حتى إذا اشتدّ شوقي إلى الانقطاع للعلم أكثر، انتقلت إلى زاوية بجهة سبتة الشرقيّة على جبل موسى، كان الحاجب محمد بن أبي عامر ابتنى عليه مدينة بقصد تنقيل السبتيين إليها، إلاّ أن الموت منعه من ذلك، فلم تبق منها بعد مرور قرنين ويزيد سوى أسوار وما دونها خرابات وأطلال.

قرب الزاوية عين مباركة كريمة، توفّر لكل النزلاء والعابرين ماء الشرب والاغتسال. ومن الجبل شمالاً، للمطلّ أن يرى زقاق البحر، وجنوبًا بحر بسول ومرساه المحجوبة عن هجمات الرياح العاتية. وللمطلّ أينما ولّى وجهه برًّا أن ينظر جبالاً صغارًا أخرى، معمورة من سفوحها إلى ذررها بالأشجار المتنوّعة الكاسحة والنباتات الزاخرة المتناسلة.

الزاوية وقف على الزهّاد المنقطعين، وعابري السبيل، والقاطنين الموسميين، ذوي الدواعي والمآرب المتعدّدةِ المتنوّعة. وهي تحتوي على غرف فرديّة أو جماعيّة، وجناحٍ للصامتين، وفناء مفتوح على السماء للمتكلّمين، ومن مرافقها

حمّام وجامع صغير؛ وخارجها على بعد نصف ميل توجد دار قيل لي إنّها للحمقى والمعتوهين. . . القيّم على الزاوية، واسمه عبد البر البرادعي، رجل فاضل، ينفق عليها من مال ولاية سبتة ومال المحسنين، كل حسب سعته وجهده، وأنا من هؤلاء أعطي ما أستطيع.

أوقاتي أصرفها في الصلاة والتأمّل والدرس والتحصيل، ولما يخلو لي وجها الجبل والشاطئ أرتادهما مشيًا واستنشاقًا؛ وحين يصفو الجوّ ويقوى حنيني إلى أندلسي، أسرّح الطرف نحو الجزيرة الخضراء ثم صوب جبل طارق قبالتي، وأعتلي متوهّمًا صخرة الفاتح الأبرك، فأتملّى صفحات العزّ والسؤدد.

زهاء سنة مرّت على إقامتي الجديدة، جماعة الثابتين على مريديتي اتسعت من تلقاء ذاتها، كنبتٍ متنامٍ، ولو أنّ وجوهًا منها اختفت لأسباب قاهرة لا أعلمها. نواتها الصلبة ظلّت على الرباعي تقوم: عبد العلي وعمرو وعدنان والصادق، وهؤلاء كلّما زاروني مع ثلّة من أصحابهم وسألتهم عن أحوالهم الخاصّة طمأنوني، ربما حرصًا منهم على بقائي ناشطًا بين صفاء عزلتي واتّقاد قريحتي. كنت أصف لهم نتفًا من حالي في الزاوية، عسى أن يتفهّموه ويتدبّروه، وممّا قلته ذات يوم مشرق في صحن الجامع قبل صلاة الظهر:

«هنا في هذا الربع، يا أحبّتي، الجوّ حافل بالرؤى واللطائف. بعضها يأتيني في المنام، وبعضها في اليقظة. ولا ريب أنّها تتنزّل من مقام علوي بديع، وغيبٍ منتشرٍ مكين. ولا سبيل لي في ذلك

إلى قطع الأنفاس عن مصاعدها، وكسر السهام في أقواسها إلاّ أن أضلّ وأظلِم، إلاّ أن أبذرَ القبح والخسيس، أعوذ بالله من ذلك.

«في أيّامي السائلة المتدافعة، أرقى أوقاتي وأحلاها هي التي أمضيها هنا في هذا الجبل وزاويته، محرّرًا من العلائق والمواعيد، إلاّ ما كان لي منها مع المطلق الطليق، الخليقِ وحدَه بأن أتخلّق بأسمائه وأتجوهر. وليس عن عيٍّ أو هرم اهتديت إلى ذلك وسعيت، بل عن نضج مختمر، وهبة لدنيّة ابتغيتها وكددت في نيلها».

ثم إنّي أجبتهم باقتضاب عن أسئلة شتّى من بعضهم. ودعوتهم في متمها إلى النهوض فنهضوا، وعلامات الانفعال والتأثّر على وجوههم تشي بأنّهم فهموا واتّعظوا. سلّموا عليّ بالعناق واحدًا واحدًا وانصرفوا، ولم أستبْق منهم هذه المرّة أحدًا، ولو من القرباء.

في عرصة الزاوية حيث الكلام مباح، أذكر جلسة أخرى كانت لي مع الجماعة نفسها وقد زاد عددها، جلسة بدأتها بالاعتصام بالصمت ساعةً ويزيد؛ ثم تلتها ساعة رأينا مجذوبًا يجتازنا مخاطبًا نفسه بصوت مسموع: «صمتٌ صاخب، وتفاؤل ثاقب، وشوق هائم، ولو أنّ الكل مشوب بالأكدار والمخاطر، وحياتي أكاد أفنيها في محاولات قطع الشكوك باليقين...». ومرّ بنا فقير آخر لا يتكلّم إلاّ بالرموز والإشارات، فخرجت عن تلقّيها أؤولها، قلت:

«هذا الولي ما إن يتوفّق في ربط الاتصال بالمتعالي حتى تروه ـ كما الآن ـ من فرط الغبطة يهيج، وتروه يضرب على صدره، ويأمركم أنتم الفضوليين بالانفضاض عنه وعمّا لا تبصرون ولا تدركون. . .».

وأردفت: «المأساة، يا أحبّتي، تثوي في عزوفنا عن معرفة الخلق أو اكتفائنا بصَلبه في صور خاطفة عجلى. أمّا العلائق القائمة على التواشج والحبّ، فالزمان كما يُصرّف يتولاّها بالتآكل حتى النخر، حتى النحر.

«الفقراء المعدمون نرهقهم وندميهم بنأينا عنهم وتعالينا. نغضّ عنهم الطرف، حتى نقطع دابرهم من محيطاتنا ومداركنا، حتى يستكينوا في غيران النسيان والترك؛ وذلك، وحقّ الحقّ، عين الضلال لو فكّرتم. . . قال موسى عليه السلام: *ربِّ أين أبغيك؟ قال: عند المكسرة قلوبهم؛ وقال سيّد المرسلين: إياكم ومجالسة الموتى، قيل ومن الموتى يا رسول الله؟ قال: الأغنياء*».

«اللّهمّ اجعلنا في قربك بالدارين مع أوليائك والفقراء إليك، آمين».

وقال الجمع آمين، متضرّعين، ثم تلقّوا منّي أجوبة عن بعض أسئلتهم وراحوا.

أمّا في جلسة أخرى بالفناء المفتوح على السماء، أذكر أنّ رباعي المقرّبين أخبروني أنّ سؤال الغربة عند الطلبة بات يشغلهم ويؤرقهم، فكان ممّا قلته في الجمع:

«صحيح أنّ فكري يُمضي أوفر وقته في مصارعة العناصر العاتية، التي تقاومه وتنفيه. فهل سأغدو ذات يوم كالحلاّج والتوحيدي والمعرّي والسهروردي، ومن قبلهم المسيح ابن مريم، وغيرهم ممّن كانوا يتقرّبون من الحقّ وهم يئنّون؟

«ما أعلمه هو أنّي كلّما قلّبتُ الوجود غرقتُ في متاهات المعنى، وابتعدتُ عن الطرق المطروقة والأقوال المكرورة. . . كلُّ محقّقٍ متعمّق عليه أن يزهد في نيل الشهرة وذيوع الصيت.

«في وسط يشكو من سقم فكريّ حادّ، وأمِّيَّة متعدّدة الأشكال والأبعاد، ليس للمحقّق التوّاق إلى الهواء الطلق إلاّ أن يختار تعلّمَ الغربة المبدعةِ الهائلة. فلربما في هذا تكمنُ طريقته الخاصّة للقدح في الغباوة الزاحفة، والعملِ على لقاءات القمّة بين الغرباء.

«الغرباء؟ أعني منهم المتجاذبين نحو الأعلى، كما تخيّل منهم نماذج مثل ابن باجة السرقسطي وابن طفيل القادسي: نماذج هي عبارة عن هويّات ممكنة، حقيقة اليوم بالتمثّل والإثراء.

«لا تلوموا إذن شاعرًا أو فيلسوفًا أو صوفيًا على اعتزالهم في بروج عاجيّة؛ لكن في المقابل حاسبوهم بل ذمّوهم إذا لم تتمخّض عزلتهم عن أيِّ شيء فذٍّ مفيد، ولم يخرج من أبراجهم ما يعجبُ النفسَ ويكونُ فتنةً للناظرين.

«حياتنا، أيّها الإخوة، تشكو حقًّا من عجز فكري بيِّن، أعني من غياب التحقيق في معنى وجودنا وجدواه أمام امتحانات الدنيا والزمان.

«لمغالبة ذلك، يلزم بدءًا أن نرصد نقط ارتكاز واستدلال، أن نحوش نصيبنا من نار بروميثيوس، ونكشفَ عن عطائنا كخلق متجدّد لدلالة حضورنا في التاريخ.

«إنها مهمّة صعبة بقدر ما هي بُدِّيّة؛ مهمّة لا يقدر عليها الوسطاء والجمّاعون بل المكتشفون والمبدعون.

«المكتشفون والمبدعون، عليكم بهم اقتداءً وتشبّهًا. هم بَوْصلاتكم ومصابيحكم في مساعيكم ومراقيكم، والله المستعان».

وأمّا في جلسة أخرى قرب حائط خربٍ بزريبة خلف الزاوية، أذكر أنّي قلت للجمع كلامًا مخصوصًا في النحو السلوكي، قاصرًا إيّاه على ذاتي حتى لا أعظ وألزم؛ وممّا قلت:

«في زمان التزمّت والجمود هذا، كم نصحوني، يا صحابي، بالمطاوعة والتكيّف: أن أكون دومًا متأقلمًا متناسبًا مع الوقت والمكان، لا متأخّرًا ولا قبل الأوان. وفي كل شيء: أن أغلّف أفعالي وإشاراتي بالمداهنة والمواربة، وباللغة العسليّةِ الريائيّة.

«لكنّي، أنا مُكَسِّر أصنام العادات، كأيِّ حرٍّ لبيب، لم أكن أعوّل في كل شأن إلاّ على وعيي الحادّ بواجب قول الحقّ والشهادة. نضالي ضدّ الضحالة الذائعة المستشرية، كنت أخوضه وما أزال بهمّة وإقدام، من دون تخاذل ولا هوان. ذلك أنْ لا خلاصَ حقيقيًا عندي إلاّ في مقاومة الميت الجاثم على أنفاس الحيّ، إلاّ في مصارعة الأنساق التي أقيس عسفها وتقادمها في رحاب الحيويّات الوجوديّة الصاعدة. وفوق هذا وذاك، شغليَ

الأثير بل معنى كينونتي أن أجعل من حياتي تحفةً رائقة وبالطبع غير مكتملة... لذا رجائي، كل رجائي، أن لا يفسد المنهارون الآفلون عليّ عرسي بكبح جموحي وبما أتأبّاه رغم كل شيء: أي الرمال والرياح العاتيةِ الجارفة، التي قد يدّعون أنّها ستأتي، ولا ريب، لتفنيَ تحفتي تلك وتحيلها إلى محض هباء...».

قلت ما قلت وزيادة ناشطًا ثم سقطت بغتة في صمت استحال إلى حجاب، حدّثتُ خلفه نفسي بكلام استصعبتُ نقله إلى حلقتي، قلت: «قضيت وقتًا، وأكثر ممّا يلزم، لفهم أنّ الأبديّة ليست في آخر المطاف سوى فرضيّةِ عمل وحياة، وفكرةِ أصيلةِ دافعةٍ رافعة، تقدر أن تُسكت البلاغات العازفة على أوتار الشكوك واليأس، أن ترجئ علائم الأفول إلى أجل غير مسمّى أو ربما غير آت، أن تقيَ المحقّق ما أمكن كبساتِ مَلكِ القبض وتجريفات النّسْيِ والصرم... وعلى ضوء ذلك وبناءً، كل نتاج يتوق إلى أمل في البقاء أو بعض الدوام لا يستقيم إذا لم تغذّه وتدعمْهُ رغبة في الخلود طليقة...».

مغمضَ العينين، همهمت بكلام لم أعقله. وإخال أنّ صحابي المقرّبين حملوني إلى مفرشي، وأنا نائم أو في حالة انخطاف بليغ وسكر. ولمّا أصبحت تذكّرت جلسة الأمس، وحتى فحوى همهماتي الأخيرة التي، لا ريب، كانت من فيض الوجد وغلبته عليّ، ولها من دون شكّ نسبٌ ما بمخطوطتي المفقودة.

* * *

ـ ٢ ـ

ستّة شهور مرّت وأخبار تلامذتي منقطعة عنّي. لعلّ جلستنا الأخيرة أشعرتهم أنّي في خلوتي غدوت استثقل زياراتهم وأرغب عنها، أو لعلّ تصاريف الحياة وبلايا هذا الزمان شغلتهم عنّي. لكنّي موقن أنّ رباعي المقرّبين لا شكّ سيعود إليّ ولو تعدّت غيبتهم السنة أو يزيد.

طوال أيّام وأسابيع انصرفتُ إلى إعادة قراءة كتب في التصوّف والعلم الإلهي كانت في حملي، وأخرى منسوخة مكّنني منها قيّم الزاوية وشيخٌ اسمه إسماعيل التادلي كان كثير الاعتصام بجناح الصامتين. وهكذا، فضلاً عن *رسالة القشيري* و*إحياء علوم الدين* للغزالي، تهيّأ لي الاطلاع المتأنّي على *منازل السائرين* و*زاد العارفين* لعبد الله الأنصاري الهروي، و*دلالة الحائرين* لموسى بن ميمون، و*فصوص الحكم* وفصول متيسّرة من *الفتوحات المكّيّة* لمحيي الدين بن عربي. . . والواقع أنّ هذه الذخيرة السَّنِيّة كان عبق مفاتنها الرفيعة يشملني حتى حين أقوم بحقّ نفسي عليّ، فأتنسّمه وأسعد به في نومي ونزهاتي.

كان البحث إذن يأخذ منّي معظم أوقاتي، تتخلّله صلواتي الخاشعة وتقييدات نافعة. محبّة العلم عندي هي المحفّز الأقوى

ولا شكّ، ولكن ما زاد في إذكاء جذوتها أنّ نتفًا من مخطوطتي الضائعة باتت تتوارد عليّ لمعًا بين فينة وأخرى، فأسجّلها على الفور لعلّي أظفر منها بنصيب متى تيسّر.

النزهات مرّةً في متمّ كل أسبوع كانت أيضًا تشحذ ذهني وترطّب خاطري. من أفضلها عندي تلك التي تقودني إلى جبل موسى بن نصير من جهة الغرب، فأقطع مسافة مشيًا لأدخل في رحابه جنّاتٍ وحدائقَ ترويها مجاري المياه، وتعمُرها أشجار الرياحين والغلال؛ هنا أقطف الفواكه الناضجة والورود اليانعة مع القاطفين، وقد أصادف زاهدًا لا يقطف بل يرقب مبهورًا حجرًا، وآخر لا يقطف بل يترقّق مفتونًا تفتّق برعم عن زهرٍ أو ثمر، فأتذكّر منفعلاً أيّام كان أعزّ ما أشاهده خروجَ وليد من بطن دابّة، فأصيح مردّدًا: سبحان الحي! سبحان الحي! وأيضًا قد أسأل في طريقي درويشًا عن أقرب المسالك إلى مكان أسمّيه، فيستفسرني إن كنت من السالكين، وإذ أجيبه أي نعم ينصحني أن أسلك ولا أبالي...

ومهما أنس فلن أنسى زاهدًا، لعلّه يهودي، كان يواجه جدارًا ويناجيه بصوت مسموع، وممّا التقطته: لا يهمّني يا ربُّ أن يجلوَ الجوّ أو يكدر، ولا اعتراض لي على سقوط الأمطار أو طغيانِ القدر، وإنّما مُناي كلّه أن تبدّد حيرتي بعيدًا عن كلام محرّفي التوراة ومستغلقات ابن ميمون.

الزهّاد، أهل الاضطراب والاضطرار، لا جنوح لي إليهم ولا ميل. إنّما أفهمهم وأعذرهم إذ تتسلّط عليهم الأحوال، فتنطقهم

بالشطحات والخطرات، وهم يمتطون صهوات الجذبات والخطفات الوجديّة.

في جولة أخرى بجنان جبل موسى الفائضة بنعمها وزخارفها، قرب شجرة وافرة الظلّ والزينة، وردت عليّ خاطرة لم أشكّ أنّها من سليل مخطوطتي الغاربة ودوحتها، فسجّلتها بما تهيّأ لي من الكلمات:

«الزهّاد لست منهم ولا على طريقتهم. ذلك أنّي أهتمّ بالقوام والهندام، وأبدع بالصورة والفكر قدر الإمكان، وأثبتُ الخيالات والمتون الجديرة، وأحرّر دلالاتها بدمي وفيضي، وغيرِ ذلك كثير ممّا أنا مطالب به حتى أعبر من دون أضرار بليغة جسر الحياة المرتجّ، فلا أسقطَ ولا أتدحرج... الذين يكدّون في ذمّ التوهّمات والمجازات القياسيّة لا يفهمون شيئًا عن القوى الاصطناعيّة والمولّدات الطاقيّة، التي تستمدّ منها الحياة نوابضها المنشّطة وسيولتها المنعشة».

صبيحة اليوم التالي، استعرت من عبد البرّ فرسه وقصدت طنجة زائرًا، وفي نيّتي أن أنظر في رفوف ورّاقيها. وما إن بلغت مقصدي حتى أخذت أتفقّد رحاب المدينة وأحياءها، واعدًا نفسي بالعودة إليها مرّات أخر. وهكذا ارتدتُ صعودًا ونزولاً ما صادفته من أسواق الحرفيين والصنّاع ومحلاّتهم، وعرجت على مرسى المراكب والحراريق، وهو أعمر وأنشط من مرسى سبتة؛ ثم إنّي وقفت على أعلى منظرة حيث يرى ملتقى زقاق البحر الكبير بالأوقيانوس الأعظم، فتذكّرت ما أورده الشريف الإدريسي وغيره

من قصّة احتفار فَعَله الإسكندر ذي القرنين للزقاق البحري بين طنجة والأندلس بعد أن كان يابسة جافة. . . وهذه قصّة خرافة، لا محلّ لها من الإعراب العقلي ولا من الإمكان الماديّ، مثلها مثل قصّة نزول الإسكندر نفسه إلى قعر البحر في صندوق زجاجي بقصد تصوير الدواب الشيطانيّة ـ التي زُعم أنّها صدّته عن بناء الإسكندريّة ـ ثم وَضعِ تماثيل على شاكلتها حتى يسلّطها على الدواب ويطردها. . . ونعوذ بالعقل من هذا الهراء المحال، الذي لا أعدّه سوى من بدائع الخيال وطرائفه.

حين قدّرت أنّ وقت الأوبة إلى سبتة قرب، وقعت عيني على وراقة، دنوت من صاحبها وسلّمت، وشرعت أتصفّح بضاعته بالنظر واللّمس، فلم أطالع غير عناوين في فروع الفقه المالكي وبعض شروح المتأخّرين لكتاب إمام المدينة المنوّرة، الموطأ. ولمّا رآني الكتبي محجمًا عن الاقتناء، زيّن لي ما عنده مقسمًا أنّ علمها نافع وأجرها ثابت، وأنّ الوراقين الثلاثة في المدينة ليس لهم من الكتب إلاّ أتفهها وأضرّها للبصر. سألته إن كان وراءه غيرها، تفرّسني قليلاً ثم قال:

ـ فراسة المؤمن لا تخطئ، وأنا مؤمن أرى أنّك من حفظة الأسرار، العافين عن الناس. . . عندي كيس من كتب نصحني فقيه ورع بحرقها، لكن عزَّ عليّ أن أفعل، فأخفيتها عن أنظار الرقباء داخل الصندوق الذي أجلس عليه. . . لو شئت تخلّصني منها جملة وبالثمن البخس، إذن لذهبت بالكيس وما فيه على أن تفتحه في بيتك لا هنا. . . إيش قلنا؟

ناولته ضعف الثمن الذي حدّده، وأقبل فرحًا على تثبيت البضاعة ضمن رحلي، فانصرفت على فرسي، ودعوات الرجل تتبعني إلى أن غبت عنه.

قطعت نحو ستة وعشرين ميلاً، ارتأيت اتّباع طريق جبلي عسى أن أختصر مسافة العشرة المتبقّية، فأُشفي غليلي بتصفّح الذخيرة المحكمة القفل. لكن على بعد بضعة أميال، حدث لي مكروه لم أتوقّعه، إذ اعترض طريقي ثلاثة من قطّاع الطرق، وأخذوا منّي مهدّدين الفرس وما عليه علاوة على ما بقي لي من مال. استعطفتهم أن يتركوا لي الكيس، فأقدم كبيرهم على شقّه وفحص ما فيه، وقرّر أن يتنازل لي عما أسماه «كومة أوراق لا تستحقّ تعب النقل»، وأمرني بحملها والإفلات بروحي مسرعًا قبل أن يغيّر رأيه، وكذلك فعلت.

عزائي في ما حصل لي أنّي نجوت بنفسي، وسلواني أن أعثر في الكيس على زاد جديد نافع.

اقتتت بما تيسّر، أدّيت ما عليَّ من صلوات، ثم جلست على فراشي أتأمّل البضاعة وأدعو لها بالخصب والخير، وذلك قبل أن أقبل على فضّ أختامها. كان محتواها أحد عشر كتابًا، حالة بعضها لا بأس بها، وحالة بعضها الآخر يُرثى لها؛ في الصنف الأوّل كتاب *قاطوغورياس* وكتاب *الكون والفساد* وكتاب *الآثار العلويّة*، وكلّها لأرسطوطاليس، وكتاب *ايساغوجي* لفورفريوس، وكتاب مبتور من *تفسير ما بعد الطبيعة* لابن رشد، وكتاب *الجمع بين رأي الحكيمين* للفارابي، و*منطق المشرقيين* لابن سينا؛ أمّا

الصنف الثاني فيشمل رسائل ونصوصًا لإخوان الصفا والمبشّر بن فاتك والسهروردي. ومعظم هذه الكتب كنت اطّلعت عليها من قبل في مرسية، وبعضها يوجد الآن محفوظًا في صناديقي. حمدت الله على ما طاب من المغنم وصحّ، ثم استسلمت للنوم طائعًا.

في الصباح، لم يكن لي همّ إلاّ الغوص، أكثر ممّا فعلت سلفًا، في خبايا كلام أرسطو ومضمراته، وعزمي مع هذا العالم المفلق أن لا أتركه يسلبني لبّي، خلافًا لما حصل لفلاسفتنا المشّائين عامّةً. طريقي في ذلك ليس التقليد وحذو النعل بالنعل، على شاكلة أبي الوليد، وليس التقصير المعرفي والاختزال المتهافت والتعصّب المذهبي، على غرار الغزالي، بل إعمال العقل والنقد، وفي كل شأن خطير أو عويص أن أستفتي ذاتي المجرّبة المفكّرة. ألم أقلها لطلبتي مرارًا: «إيه ومن انصرف إلى نفسه نُفّسَ عنه!»

كذلك أمضيت ما شاء الله من الأيّام في اعتكاف شبه متّصل على مصنّفات المعلّم اليوناني، أعقل مبادئها ونواصيها، وأساير تدرّجها وتسلسلها إلى مؤدّياتها وخواتيمها. وبدا لي أنّ تلك المصنّفات ذات نسقيّة محكمة وإفادات جمّة في المنطق كما في معرفة عوالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان، وإلى حدّ ما عالم السماء، فلا عيوب تشكو منها إلاّ في جزئيّات أو في مقدّمات وفرضيّات اعتباطيّة لا ضروريّة، وظنّيّة لا شموليّة. أمّا الإلهيّات فقد احتقن فيها فكر المعلّم وأعضل، وشتّت مسائلها، وعوّق المنهج والمقصد، وضلّ كثيرًا وأضلّ.

دوّنت ما تهيّأ لي في تلك الشؤون، حتى إذا توقّف المدد أمام أمور وعرة شائكة، استحسنت طلب انقشاعها وجلوها من جولة في الخارج. وفيما تعدّيت بابي، أبصرت القيّم عبد البرّ، كما لو كان في انتظاري. تسالمنا وأنا أقدّم له بيدي اليسرى صرّة نقود قلت له إنّها تعويض عن فرسه المسروق منّي، فأقسم ثلاثًا ألاّ يأخذ غرامة من صديق عزيز، وطمأنني على رجوع دابّته إليه بعد أن تهرب من سارقيها إن لم يقدموا على ذبحها. دعوت الله أن ييسر ويفرّج، ثم سألت صاحبي عن أحوال الزاوية ومرافقها، قال:

ـ أعداد المقيمين مستقرّة، يا قطب الدين، لكنّ العابرين يتكاثرون، ووالِيّ سبتة ابن خلاص ضاعف من مساعداته العينيّة والنقديّة، وأوكل إلى بعض أعوانه إدارة دار الحمقى التي لم أقدر عليها، وأمرهم بتلبية حاجات مرافقنا هنا.

ـ رجل خيّر حقًّا!

ـ خيّر وكريم، إنّما شرطه الأوكد أن تخفّ المدينة من أعداد الشحّاذين والمجانين وأبناء السبيل... الرجل قويّ العريكة والبأس، ذو غيرة على بيضة الإسلام، لا همّ له إلاّ أن تسلم سبتة من عواقب انتصارات النصارى في مدن وأقاليم من الأندلس عديدة... جالسته أكثر من مرّة، فأدركت صواب أعماله وصدق نواياه... الغالب على ظنّي أنّ خبر هويّتك وحلولك هنا قد نمي إليه، فلا تعجب إذا طلبك يومًا إلى مجلسه ومناظرته، كما هو دأبه مع أهل العلم والدين...

صمت القيِّم فجأة كأنّه فهم تبرّمي من الحديث في شأن ليس يحرّكني ولا إليه أميل، ثم أردف متحرّجًا:

ـ طلبني الوالي في أمر لا أستطيع ردّه... أن أسلّمك تقييدًا جاءه من السلطان الموحّدي الرشيد، وفيه مسايل من عظيم الروم، الملك فردريك، أرسلها طالبًا الأجوبة عليها إلى حكماء المسلمين من أقطار مشرقيّة كثيرة، فلم يفلح بشيء، ثم وجّهها إلى المغرب الأدنى ولا طائل، وإلى الأندلس والمغرب فأُعلم باسمك وعنوانك وبطول باعك فيما يسأل فيه ويبغيه... فهلاّ قبلت النظر في هذا التقييد رحمةً بي وبمورد عيش الناس في هذا الجبل؟

استلمت من صديقي الطيّب ما جاءني به، فطمأنته مبتسمًا على فعل ما أستطيع، شريطة أن يحمل هو نفسه أجوبتي إلى الوالي، من دون أن أُكره على مقابلة أيّ كان من أهل الجاه والسلطة. لم أتمالك عن إلقاء نظرة على أسئلة عظيم الروم، فاستشعرت أنّ الإجابة عنها ـ بعد تصحيح ارتباكها وركاكتها ـ لأهون عندي من شرب الماء أو حمل حمامة. خاطبت القيِّم مبديًا له علامات التيسير والأمان:

ـ يسألني الملك، يا عبد البر، عن العالم، هل هو قديم أم محدث، فما ردّك؟

ـ لا دراية لي بعلم البراهين والأقيسة، لكنّي أؤمن أن لا قديم إلاّ الله، وأن العوالم كلّها من إحداثه وخلقه. هذا ما تنبّئنا به ملّة التوحيد وتدعونا إليه.

التحق بنا حارس ضخم الجثّة، يلوي على ذراع شاب معتوه ويريد القيِّم في شيء، فاستمهله هذا وهو يترقّب كلامي. قلت:

ـ جوابك، عبد البر، عين الصواب، لا يحتاج إلاّ إلى تدقيق العارف وتحقيقه، وهذا ما سأنجزه بعون الله في هذه المسألة، كما في المسألتين حول العلم الإلهي من حيث مقدّماته ومقاصده، والنفس وطبيعتها والدليل على بقائها بعد الموت. أمّا قضيّة المقولات وتحديد أرسطو لعددها في عشر، فالجواب عليها عندك أيضًا لو فكّرت.

أبدى القيّم دهشة واستغرابًا، قال:

ـ لا، لا شيء من ذلك في جعبتي، إنّما تريد تحميلي ما لا أطيقه، يا معلّم. . .

ـ بل فكّر معي قليلاً: كلانا موجود، وكذلك هذان الرجلان، وكل من يشاركنا في الآدميّة له ذات، وهي المقولة الأولى التي تقوم مقام الأساس القابل لحمل الأوصاف والإضافات، وهذه تسع: فأنت وأنا وهذان لنا كمّ وكيف ونسبة ووضع وحالة، وكلّنا نوجد في مكان وزمان ونفعل وننفعل. سُمّيت هذه المقولات بالمحمولات أو الأعراض، نظرًا لتغيّرها بين ذات وأخرى بل وحتى في الذّات الواحدة. هذا علاوة على تدقيقات تفصيليّة سأسطّرها لعظيم الروم كيما يعلم ويستوعب. . . تُراني بلّغت؟

ـ بلّغت وأحسنت، يا معلّم، حتى لمن هو مثلي من صغار الأحلام والباع!

ـ وأنت إذا جمعت تلك المقولات التسع إلى المقولة الأم صار عددها عشرًا، كما عيّنه أرسطو، فلا نقصان فيه ثم وبالتأكيد لا زيادة.

أطلق الشاب المعتوه ضحكة منكرة، وأتبعها بقولة مدوّية: «الزيادة من رأس الأحمق»، فعقّبت:

ـ وهذا أيضًا سأكتبه للنورمندي زعيم الروم، لعلّه يدرك ويفهم... يا عبد البرّ، أنبئ الوالي أنّي عمّا قريب باعث إليه بأجوبتي على أسئلة الملك، والله المستعان... والآن اطلب الطبيب في أمر هذا الشاب المسكين، وطالبه أن يرفق به ما استطاع.

انتفض الحارس غاضبًا وصرخ:

ـ الشابّ المسكين! بل قل الأحمق الخطير، يا سيّدي. هذا المعتوه يعيث فسادًا في برج المجانين، يسرق ويضرب، يتعرّى أمام الجميع، يهدّد المقيمين بالإبادة الجماعيّة، مقسمًا بأغلظ الأيمان أن يتوّج الإبادة بالإقدام على قتل نفسه شنقًا أو ذبحًا.

تصدّى الشابّ للقابض عليه فصاح:

ـ الحمق وصمة عار في جبين العقل. الحمقى عبء على الناس قبيح، عراقيل في سير الدنيا وأكدار. دمارهم شفاء لهم وخلاص للعالمين. أليس غير الحقّ أقول يا ناس؟

نبّهت الحارس إلى أنّ الشاب يجتاز حالة هذيانيّة لا ينفع معها

إلاّ المراقبة والانتظار، فإذا ارتفعت عنه أُخبرَ أن لا أحد من صنوانه يريد أن يموت قبل الآخرين. . .

سأل عبد البرّ:

ـ وإذا لم تنفع الحيلة، يا معلّم؟

بعد تأمّل وتروٍّ أجبت:

ـ الفتى يرى في كل عشرائه مرايا تبثّ إليه على الدوام صورة تصدّعه ونقصانه، لذا تراه يتوهّم أنّ امّحاء هذه الصورة يكون بكسر تلك المرايا. فليوضع إذن ـ ولو على سبيل التجريب ـ في جناح الصامتين وبين العابدين، فلعلّ وعسى أن يأتيه الفرج في أمد قريب. . .

نصحت بالصفح والصبر، ثم سلّمت وانصرفت.

*

بين النزلاء شاع من حيث لا أدري خبر كوني أفهم الطبّ وأداوي، فصار القيم عبد البرّ يعرض عليّ عند الحاجة والضرورة القصوى بعض المرضى الآيلة إلى السوء أحوالهم، وأكثرهم من الموغلين في حرمان نفوسهم من حقوقها في النظافة والتغذية والوقاية، فشرعت آمرهم بقضاء هذه الحقوق رعايةً لآيات وأحاديث في الموضوع أسردها عليهم سردًا، وأرفقها بلقمات وسوائل نافعة أغذّيهم بها ولو قسرًا. وأحسب أنّي توفّقت في دفع البلاء عنهم، ما خلا عجوز وكهل، أصرّ الأول أن يبقى على

طريقة الزاهد بشر الحافي الذي كان لا يأكل إلاّ الخبز، ويذكر العاقبة جاعلاً منها إداما؛ وتشبّث الثاني بتقليد البسطامي القائل عن نفسه: *«دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني فمنعتها الماء سنة»*. وظلّ الرجلان على عنادهما حتى ماتا. أمّا الأعراض العاديّة التي تصيب المقيمين والعابرين كالزكام والحمّى والحصبة والإسهال والإمساك وما إليها، فكنت أعالجها بعون الله وفضل طبخاتي النباتيّة وتركيباتي العقاقيريّة. إنّما من بين النزلاء كلّهم، كيف أنسى واحدًا آثر الوجع حتى الموت على أن أفحص سوّته المصابة بالبواسير، حالته ذكّرتني بأخرى مماثلة هي للإمام إدريس الشافعي نفعنا الله بذكره... وحالة ثانية من صنف مختلف مخصوص، حالة نفس مهووسة غير مطمئنة، كيف أنساها! جاءني عبد البرّ صبيحة هذا اليوم، فحدّثني متحرّجًا عن صاحبها، قال وهو يقاسمني فطوري:

ـ هذا العليل، يا سيّدي ابن سبعين، رجل غريب الصنف لا يدين بدين، يرى أنّه خُلق في أسوأ تقويم، وحجّته ما يسمّيه شبهه الفظيع بالقرد. ذهب به الوسواس كل مذهب بحيث بات يهرب من كل حديقة أو غابة بها قردة، بل وحتى من الرسوم لهذه المخلوقات التي يسمها بالشاذّة الوقحة المستهترة... إيه! لكن ما العمل ضدّ تبدّيها، المتقطّع بدءًا ثم المُلحّ، في رؤاه المناميّة كما في نظرات الآخرين إليه، التي يتعذّر عليه غضّ الطرف عنها؟ وأدهى من هذا وأمرّ، ما السبيل إلى مجانبة المرايا التي تدلي بدلوها لإطلاعه بصريًا على قرابته الفادحة بالقردة؟ مع انصرام

الوقت، بلغ هوسه حدًّا اضطره إلى طلب الشفاء من العرّافين والصوفيّة، فكان أن نصحه هؤلاء بالصلاة ونشدان النفحات الإلهيّة، وقرّر له أولئك اعتزال الناس والمرايا حتى يلغي حيوانيّته بالإدمان على معاشرة الكائنات الروحانيّة. ولقد مضت عليه هنا في هذه الزاوية سنة وهو يتابع الوصفتين، فلم تعرف حاله تحسّنًا حاسمًا، إذ ظلّت متأرجحة بين الانفراج والاستفحال؛ كما لم ينفع ترغيبي له في تعلّم القراءة حتى يعتصم بأنوار أمّهات الكتب السماويّة والبشريّة.

أنهى القيِّم كلامه ونظر إليَّ نظرة من يطلب حلاً أو العون. قلت:

ـ حالة غريبة حقًّا! إذا لم ينفع في صاحبها ما رويت، فلا علاج له إلاّ من عند الله.

ـ من عند الله، يا معلّم، ومن عندك.

ارتعدت فرائصي من شدّة استغرابي لكلامه، فسمعته يوضح:

ـ حالات الانفراج، يقول لي هذا المريض، لا تأتيه إلاّ وهو يسترق النظر إلى وجهك، وطلبُه أن يكون في زمرة زوّارك ورفقائك، ووعدُه أن لا يشوّش عليك ولا يثقل.

رحّبت بالطلب وأمارات الدّهشة لم تبرحني. أبدى القيّم ارتياحه وصفّق مرّتين فإذا برجل كهل يمثل أمامنا خجلاً مرتبكًا. كان في هيئة بشر لا قرد، أحلج الرأس، أفطس الأنف، مشقّق

الشفتين، قصير القامة، ضيّق المنكبين. قمت أسلّم عليه وأهدّئ من روعه. سألته عن اسمه وحرفته، أجابني وهو يرمقني من طرف خفيّ أنّه عيسى الأفطسي ويزاول مهنًا صغيرة شتّى.

سألته: هل القرد يعلم أنّه يشبهك؟ وهل له أن يعلم؟

أشار بالنفي.

قلت: وحتى لو افترضنا جدلاً أنّ ذلك في مقدوره، تراه يشقى لذلك مثلك ويغتمّ؟ تُراه يناظر أنداده في الأمر، كما نحن الآن نفعل؟

أشار بالنفي.

عقّبت: إذن فأنت أنت، وهو هو، ولا تلتقيان إلاّ في الحيوانيّة، وليس في ما خصّك الله به من نفس ناطقة وعقل وفكر، ككل من خلق وكرّم.

أشرق وجه الرجل وانفرجت أساريره، ثم استأذنني في الانصراف، فخرج متبوعًا بالقيّم الضارب يدًا بيد، المردّد: ما شاء الله!

* * *

ـ ٣ ـ

في الربع الذي أنا حِلٌّ به، يمرّ الوقت عندي خفيفًا لطيفًا، وتتوالى الأيّام إيجابًا لا سلبًا، وترقّيًا لا اندحارًا. حتى الطيور صارت تهاجر إليه ناشدة نصيبها من هدأته ونعمائه، منشدةً مع ساكنيه بلاغة مزاياه وبهائه. . . نزولي من الربع إلى سبتة للتجوّل وقضاء المآرب يكون لي في الغالب كل شهر مرّة أو مرّتين: أرتاد قصبتها وجامعها وأقتني من مرساها وسوقها عقاقير وطيوبًا وسمكًا وخبزًا. . .

المدينة تتّسع أرجاؤها وأحوازها وتمتدّ بسبب سيول الوافدين عليها من مسلمي الأندلس وبعض يهودها، خاصّتِهم وعامّتِهم، مترفيهم ومعوزيهم، وكلّهم، ولو بقلوب حزينة وأفئدة مكلومة، لا يجدون حرجًا أو لأيًا في مخالطة السبتيين والانصهار في العيش بينهم آمنين مكرمين.

ذات يوم وأنا في المرسى أتنقّل بين باعة خيرات البحر، أبغي شراء قدر من القرش والبوري والشبّوط، إذا بنظري يقع على امرأة ترمقني بعينين لامعتين وسط خمار أسودَ شفيف. سهوت عمّا حولي وطفقت أتملّى كمال حسنها وأوصافها وأبادلها النظرات

المتغلغلة العميقة، فلم أنته حتى نبّهني بائع كنت أمسك إحدى أسماكه.

قال: سبحان الله! هل أعجبتك؟

سألت: من؟

قال: أحسنت اختيارها... ذات الحسن والطراوة!

كرّرت: من؟

قال: التي تقبض عليها...

أدّيت ثمن السمكة وأسماك أخرى أصغر منها، وامتنعت عن عرض مرجانه عليّ، وحين جزته كانت المرأة ما تزال في مدى بصري، فحثثت السير نحو وجهتها، غير أنّ درويشًا ثقيل الظل أوقفني وأقسم أن لا يخليَ سبيلي حتى أشرح له لماذا سميَ الفولُ والحمص بلحم الفقراء، وما الحكمة في تفضيل السمك على اللحم. وفيما أنا ألفّق لهذا الأحمق جوابًا على قدّ فهمه، أدركت أنّ متبوعتي اختفت تمامًا، فآثرت على الكدّ في البحث عنها اللياذ بالله والإياب إلى مستقري.

لمّا عدت إلى غرفتي بالزاوية كان المساء وشيك الحلول. جلست أحدّق في سمكة الشبّوط دون غيرها. مفتّحة العينين كانت، رقيقة الأنف والشفتين، دقيقة القسمات، بهيّة الشكل والنفحات، تختال بجسمها الفاتن الطريِّ في هالة نورانيّة اللون والحواشي. وإنّي من فرط اشتياقي لها واشتهائي بادرت إلى

تهييئها وشيّها حتى يعود عليّ أكلها بالخير والبركات. وكذلك كان. وبعدما فرغت حمدته تعالى، وتمدّدت منصرفًا بفكري كلّه إلى ذات العينين الكحيلتين اللامعتين. كنت أوّل ما رمقتها خفضت طرفي، فحدثت لي حلاوة الناسك المتعبّد؛ ثم أبصرتها مليًّا، فشعرت بحلاوة أنفذ وأعظم، كالتي تحصل للمحبّ من الدنيا الطيبَ والنساء، على سنّة خاتم الأنبياء، الذي قال أيضًا «*لا رهبانية في الإسلام*». وتلك الحلاوة الأنفذ والأعظم تعتريني الآن، وأنا هنا وحدي أستحضر وجه تلك المرأة النضر الريّان.

عجبًا أن يعاودني شغفي باللائي هنّ نصف خلق الله!

عجبًا أنّي لم أنس مَن هُنَّ شقائق الرجال، إذ لم تَحُلْ مدّة خلوتي بهذه الزاوية بيني وبين مؤونة النساء!

لا، لست من الزاهدين فيهنّ ولا في نصيبي من الدنيا... لست من الزهّاد ولا من الرهبان، المغالين في ادّخار الخصاصات والكبوتات، المفرّطين في حقوق الحياة عليهم.

في غمرة الذكرى وتداعي الخواطر والواردات، طلعت عليّ صورة امرأة نسيت اسمها وكل شيء عنها، ما خلا ملامح من محيّاها وكونها كانت تكره الرجال كثيرًا، وتُمضي أعزّ وقتها في نصب الفخاخ لعشّاقها للإيقاع بهم والضحك على أذقانهم. وما إن هداني الله مبكرًا إلى فهم مقاصدها حتى بادرت إلى هجرها هجرًا جميلاً.

وامرأة ثانية طواها نسياني باستثناء شيء واحد هو أنّي فاتحتها

بالقول، وهي تخرج من شاطئ العوم: هذا بحر عفنٌ غير مأمونِ الجانب، وأنت في الحسن آية، تستحقّين أحسن منه وأبهى.. هل أدلّك عليه؟

أجابت ضاحكة ساخرة: وهل لك حاجة أخرى غير الحومِ حولي ببحر نزواتك!

لا أتذكّر بما تفوّهت، فكان ذلك الكلام مدخلاً لعلاقة عميقة بيننا قصّر أمدها تاجر غني، أغرق صاحبتي في بحر أمواله وهباته، ودجّنها تحته دميةً بين أمتعتهِ وأملاكه...

لو أنّي مدّدت أمد الاستذكار لأتتني صور أخريات، متآكلة بل متطايرة شظايا وأشلاء. لذا قرّرت أن لا أفكّر في شيء... أيِّ شيء!

حيَّ على الوضوء فالصلاة!

وبعدها راودتُ النعاس بإتمام قراءة فصوص الحكم، فكان أن ختمت بالفص الأخير: «فصّ حكمة فرديّة في كلمة محمّديّة»، ووقفت متأمّلاً عند فقرات مدهشة بليغة، منها:

«وقال في باب المحبّة التي هي أصل الموجودات «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث» بما فيه من التثليث ثم ذكر النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة. فابتدأ بذكر النساء وأخّر الصلاة، وذلك لأنّ المرأة جزء من الرجل في أصل ظهور عينها، ومعرفة الإنسان بنفسه مقدّمة على معرفته بربّه، فإنّ معرفته بربّه نتيجة عن

معرفته بنفسه. لذلك قال عليه السلام: من عرف نفسه فقد عرف ربّه».

وهذه اللطيفة: *«فكان محمد ﷺ أوضح دليل على ربّه، فإنّ كل جزء من العالم دليل على أصله الذي هو ربّه فافهم. فإنّما حُبّب إليه النساء فحنَّ إليهنّ لأنّه من باب حنين الكل إلى جزئه»*.

وهذه الأخرى: *«ولمّا أحبّ الرجل المرأة طلب الوصلة أي غاية الوصلة التي تكون في المحبّة، فلم يكن في صورة النشأة العنصريّة أعظم وصلة من النكاح»*.

وهذه الأخيرة وليست الآخرة: *«فشهود الحقّ في النساء أعظم الشهود وأكمله. وأعظم الوصلة النكاح، وهو نظير التوجّه الإلهي على من خلقه على صورته ليخلفه، فيرى فيه نفسَه، فسوّاه وعدله ونفخ من روحه الذي هو نفسُهُ، فظاهره خلق وباطنه حقّ...»*.

وما إن أكملتُ الفص قراءة وتأمّلاً حتى استسلمت لنوم ناعم سعيد، أدركت مع اليقظة أنّه حصل لي فيه ما لم يكن منه بدّ: حلم بمراقصة سمكة الشبّوط وقد تحوّلت إلى جنّيّة البحر، لا أحلى منها ولا أشهى؛ ثم حلم بمفاكهة الأبكار على الأرائك فمجامعة حور العيون فاحتلام مقدور... ذلك من فضل أحلومة جنيتها من جنان محيي الدين المشكور.

حيَّ على الطهارة والصلاة فالذكر الموصول!

*

طرق خفيف متقطّع أوقفني عن الذكر، أذنت للطارق بالدخول، فإذا بي أمام رباعيِّ المقرّبين. وقفت أبادلهم العناق مرحِّبًا، سائلاً إيّاهم عن سبب غيبتهم، متمنيًا أنّه خير.

قال عدنان يؤيّده عليّ: خير والحمد لله. إنّما هي متاعب الأيّام شغلتنا، وأنت، يا حبيبنا، في صدورنا أبدًا مقيم.

وأردف عمرو: عزلتك أردتَها صافية، فخفّفنا عنك حتى لا نكدّرها.

وأضاف الصادق: لكنْ لم نصبر على طول الفراق، فجئناك مع محبّيك المتكاثرين، ولن نمكث أكثر ممّا يجب.

قلت فرحًا منبسطًا: أنتم وهم على الرحب والسعة! أدخلوهم.

ضاقت غرفتي بالوافدين، الرابي عددهم على الثلاثين. دعوتهم إلى جولة بجبل موسى، حتى نمشي الهوينى، نتنفّس الهواء الحُرّ ملء خياشيمنا، متأمّلين في ما تقع عليه أبصارنا وينفذ إلى بصائرنا من آيات الخلق الإلهي العظيم. وفعلاً انطلقنا بعد أن تعرّفت عليهم واحدًا واحدًا، وسرت أتقدّمهم تارّة وأتوسّطهم طورًا، لا أنطق إلاّ بما قلّ، وأرخي العنان للغة الإشارة والنعت.

قطعنا غابة مترامية الظلال، متشابكة الخمائل والأغصان، تعمرها القردة والغزلان وكذلك حيوانات شتّى تُسمَع أصواتها ولا تُرى أجسامها؛ ثم نفذنا إلى منطقة الحدائق والعرصات، ذات الغدائر الرقراقة والأشجار الخصبة المعطاء، فكانت الطيور من

كل الأصناف فوق رؤوسنا تتنافس في الشدو والغناء، كأنّها تحتفي بمقدمنا إيناسًا وإمتاعًا. . . نعتّ للطلبة المنبهرين الزاهد الذي ينقل نظره مدهوشًا بين كبد السماء ولوح حجري ينقش عليه. اقترب منه بعضنا، فتأبّط الرجل لوحه وفرّ. ثم نعتّ لهم آخرَ يترقّب مفتونًا تفتّق برعم عن زهر أو ثمر، ثم آخر ـ لم أره من قبل ـ عاريًا إلاّ من مئزر يتمرّغ في الترائب والماء مردّدًا: «هو الله. . . هو الله»، فأوصيت بعدم الدنو منه وإلاّ غاب كلمح بصر.

أثناء تجوالنا صادفنا بحيرة ـ لم أعرفها من قبل ـ تصبّ فيها جداول كثيرة، فاستأذنني نفر من الفتيان في العوم، قلت: «الماء ماء الله، وهو لمن يلجه مكبّرًا باسم الحي». . . تعرّوا وثبّتوا المآزر وكبّروا ثم قفزوا في البحيرة تباعًا، وفعل مثلهم آخرون، فكثرت بين السابحين حركات الغطس فالتلاعب والتراشق بالماء. ومن فرط الفرح غنّوا موّاليّات من الأزجال والموشّحات، وأصوات قويّة تتخلّلها صادحة: يا الله يا الله! فتردّ أخرى: هولي هولي!

رأيت رباعيَّ المقربين لم يغطسوا، دنوت منهم مستغربًا عزوفهم، سائلاً عن السبب، فعاجلني عمرو بجواب تواطأ أصحابه على تأييده بالإشارة، قال:

ـ هل اللّهو في البحيرة، يا معلم، هو ما يواتينا؟! لا أحسب أحوال المسلمين في العُدوة يخفى عنك تفاقمها، وأنت تبخل علينا بالدرس والنصح ولا تحدّثنا إلاّ لمامًا. . .

دعوت المقرّبين إلى الجلوس حذاء شجرة نارنج، بعيدة قليلاً

عن صخب العائمين. قلت متوخّيًا توضيح الغامض وتيسير المعسّر:

ـ هؤلاء الفتيان، يا عمرو، لا حرج عليهم أن يمرحوا ويفرحوا إن كان في ذلك ما يهيّئهم لأخذ الحياة والكتاب بقوّة وجدّ. قلتها لكم من قبل: هزيمة النفس مدخلها الهمّ المقيم والانتكاس، وخلاصها رافعةُ التوثّبِ والحماس... أمّا أندلسنا التي لم يبق للمسلمين منها سوى إمارات مهزوزة في الحواشي الجنوبيّة، فما تفكيري حين ترونني صامتًا إلاّ فيها. وحسب ظنّي وحدسي، لا أرى انفراج الأزمة، كما سبق أن زعمت، إلاّ في تحصين سلاحنا الروحي وقوامنا النفسي أوّلاً، أي الحؤول دون وَهْي بنيتنا وخور نوابضنا الذاتيّة وعزائمنا؛ ثم التعويل ثانيًا على قوّة بني حفص، حين يستتبّ لهم الحكم في بلاد المغرب، وهم ورثة الموحّدين الأوائل... الأملَ الأمل! قال نبيّنا عليه السلام: *«إنّما الأمل رحمة من الله لأمّتي، لولا الأمل ما أرضعت أمٌّ ولدًا ولا غرس غارس شجرًا»*... بدّ العارفين الأمل والعمل، بدهم العمل والأمل. ألا هل أفصحت؟ إيه! وأكرّر أنّي لست إمامًا ولا داعية. اطّلعوا على الكتب التي أوصيتكم بها خيرًا، ثم آتوني بأسئلتكم ومسائلكم وقد اختمرت زبدتها، ولاحت جدارتها، فنتدارسها جميعًا بالنظر المستطاع والمجادلة البنّاءة... كلامي هذا بلّغوه لأصحابكم، الحاضرين منهم والغائبين، ولا تعودوا إليّ إلاّ وقد وعيتموه وأنجزتموه... وأنت يا عبد العلي، لِمَ لمْ تعم؟

ـ في جيبي (أجاب) كاغد لا أفارقه. هو عقد شراء لمنزليك في مرسية ورقوطة، يعرضه عليك يهودي ادّعى أنّه يعرفك، اسمه أبو زكريا بن عزرا.

ـ نعم أعرفه. باعني سابقًا كتبًا نادرة بثمن باهظ... إنّما القاطنون من المعوزين وأبناء السبيل، أين يذهبون؟

ـ اختلط بهم حثالة القوم من الصعاليك واللصوص، ثم طردوهم وعاثوا في الدارين فسادًا. وبن عزرا تعهّد على رؤوس الأشهاد برعاية المنزلين لما فيه مصلحة من أوصيتَ بهم خيرًا، مسلمين ويهودًا.

ـ إذن هات العقد أوقّعه، ثم وزّع مردود البيع على الفقراء والمحتاجين... قوموا بنا نلحق بأصحابنا، فقد فرغوا من الماء قبل حين.

تقدّم إليَّ بعضهم فرحين، استأذنوني في الأكل من أشجار الفواكه بعد أن جوّعهم النشاط والعوم، فما إن تمنّيت لهم أكلاً هنيئًا مريئًا حتى أقبل الجميع على القطف، كلٌّ حسب شهيّته. ولمّا انتهوا أشرت عليهم بالجلوس حتى يأخذوا من الراحة قسطًا، ومن النظر في أنفسهم قسطًا.

ساد بيننا صمت، استحليت فيه خشخشاتِ العشب، ومنطقَ الطيور، وحفيفَ أوراق الغصون. بعد ساعة تقريبًا، قمت أدعو الجمع إلى أن يفكّروا في ما عاشوه اليوم وعاينوه، عسى أن

يدركوا دروسه وآياته. قلت قولي هذا وودّعتهم واحدًا واحدًا، ثم ذهبت أتابع جولتي وحدي.

وحدي أطوي المرتفعات والوديان مشيًا. والمشي، حسب الأطبّاء والحكماء، رياضة تجلب للنفس في الجسم نفعًا، ويقوّيها على مقاومة الانقباض والعسر. . . ألا أيّتها النفس انتعلي آلتك وسيحي ما استطعت في أرجاء الأرض، سيحي واتخذي موقف السعي.

العناصر كلها، متناسخةً أو متغايرة، كأنّي بها تصحب بل تخاطب خطوي. والخواطر ـ يا الله! ـ تأتيني متقاطرةً أو مزدحمة، فألوي على أجدرها وأشقّ بها دربي. أناظر في شؤون شتّى وأداول وحدي. أعرض النقائض والأضداد، أنزع عنها المحمول والمألوف، فأهتف بائتلاف هويّتها في مدى امتدادي ووجدي؛ ثم إنّي أراني، حين أفعل ذلك، أضرب عن الغفلة والخسيس، فيشرئبّ شوقي وحنيني إلى الحقّ، الجاري منّي مجرى الدم، المُجلى عندي في الذرّة والكون. . .

أهي إذن أنوار الإحاطة تعبرني؟

أهي إذن رحى الوجود الواحد تلوح لي؟

وحقّ الحقّ ما السالك أنا من بهاليل الخلاء، ولا أنا بمجنون. . .

لم تكن بوصلتي معي، فخفت لو تابعت المشي أن أهيم وأضلّ. قرّرت الرجوع من حيث أتيت قبل أن ينزل الليل،

ويلتبسَ السبيل عليّ إلى البيت. وأثناء اجتيازي لغابة الجبل، لمحت زاهدًا يتمرّغ في الماء والترائب، لعلّه هو ذاته الذي رأيته مع الجماعة من قبل. حثثت الخطو في طلبه، فما إن دنوت منه حتى مرق هاربًا، ثم وأنا أجري خلفه رأيته يتسلّق سنديانة سامقة، ويستقرّ في أعلاها. عبثًا حاولت الصعود إليه. جذع الشجرة العظيم لم أعتله إلاّ بفضل كومة من النفايات والأحجار نصبتها، لكنّ الأغصان الغليظة الرطبة كانت تصدّني صدًّا. وبعد أن أعيتني محاولاتي، ناديته أن ينزل إليّ ويقول لي من هو. كرّرت النداء وسمعته يقول بصوت ينفذ إلى أذنيَّ كالريح المصفرة: «أنا من لمحته يحنُّ إلى حضن الحقّ. وحقّ الحقّ لن تدركني حتى تزيح العوائق عنك وتخفّ». . . ثم اختفى عن بصري، كما لو أنّه استعار ممرّات هوائيّة وعبرَ الأشجار بالوثب والقفز.

تابعت سيري متدبّرًا ما شاهدت وسمعت. من حيث لا أدري عرجت على سفح الجبل فالمرسى. وهنا فقط وعيت صورة التي قادتني خطواتي بحثًا عنها، فآثرت الصعود إلى مكمني على اللوذان بمكان لا بيع فيه ولا شراء، يستقبل المساء ودبيب الصيّادين والمتسكّعين. حين بلغت الزاوية كان السكون سيّد الجوّ والمكان. دخلت غرفتي فغسلت أطرافي وتوضّأت وصلّيت، ثم انسللت إلى فراشي مضربًا عن الأكل وحتى عن قراءة كتاب التوهّم للمحاسبي البارز أمامي، وذلك طمعًا في نوم لطيف الجناح، خفيف المتن، هادئ المعبر.

* * *

ـ ٤ ـ

في الصباح، بينما أنا أقتات وأرتّب أوراقي وأقلامي تهيّؤًا لتحرير صفحات من رسائلي، إذ سمعت قرعًا خفيفًا على بابي وصوتَ القيّم يعتذر عن إزعاجي لسبب قاهر. فتحت له الباب مرّحبًا، فقال مرتبكًا على غير عادته:

ـ سيّدي سامحني. عيسى الأفطسي رحل عن بكرة أبيه إلى أهله بغرناطة، لم يجرؤ على إيقاظك، ترجّاني أن أبلّغك آيات شكره وامتنانه لما عرفه على يديك من شفاء. تصالح مع وجهه في المرآة، وآمن أنّ الإنسان أرفع قدرًا وماهية من القرد، فلم يعد يخاطب هذا الحيوان: يا أنا، بل إنّ الأمر ذهب به إلى تبنّي قرد يتيم، وأضحى ينبّهه: أنا أنا وأنتَ أنت، ولا نلتقي إلاّ في المؤانسة والملاعبة...

ـ هذا (عقبت) من فضل الله وعفوه.

ـ وفي بابك الآن شابّ لم أنجح في صدّه، يدّعي أنّه رسول إليك...

مثل الفتى أمامي محييًا وتباطأ في الكلام، فودّعني القيّم وخرج. دعوت الزائر إلى الجلوس وإظهار ما وراءه، أجابني بلهجة وحركات لا تخفي تخنّثه، قال:

ـ مولاتي أمرتني بنقل رسالتها إليك دون الكلام.

سلّمني إيّاها مختومة ثم غاب كلمح البرق.

فضضت ختم الرسالة متشوّقًا منفعلاً. كانت من ورق نفيس ذي خطّ مغربي رقيقٍ رفيع. تقول صاحبتها بعد الحمد لله والشكر:

«وقعت عينايَ عليك وعيناكَ عليّ. كان لي السبق وبالتالي حلاوتان، وكانت لك واحدة، والثانية لك عندي عوضٌ عنها. فمتى رغبتَ فيها يهديك غلامي إليّ. كن لو تفضّلت في المرسى غدًا أو صباح أيّ يوم. وإن دار الأسبوع ولم ترغب، فاشهد يا ذا الحسن والهمّة أنّي قد بلّغت».

أعدت قراءة الرسالة جملةً جملة وكلمةً كلمة، كفعلي مع لآلئ الحِكم والأحاديث، وأمّهات الفصوص والنصوص، حتى إذا عقلت لبّها وعقدت عليه، وضعتها على عينيَّ وأرخيت العنان للنظر في نازلتها، كما لو أنّي ممتحن بمشكلة فقهيّة أو رياضيّة وعرة. سطّرت للنازلة مقدّماتها وحدودها، وشغّلت دماغي في جعلها تتسلسل حسب قواعد المطابقة والوضوح، وذلك للخلوص إلى نتائج عقليّة، أقرّر على ضوئها موقفي وفعلي. والحقّ أنّي بعد بذل جهد جهيد في تقليب النازلة من كل وجه، وعرضِها على محكّ فكري ومداولاتي، لم أهتد في شأنها إلى الإدراك الأمثل والحلّ الأنجع، فثبت لي مجدّدًا أنّ ما من أمر تعلّق بالإنسان وشاكله الشوق والوجدان إلاّ واستعصى على صرف المنطق

الخالص ونحوه. ولعلّ في هذا يقول تعالى ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾.

سهلٌ عليَّ تصوّرُ أنّ رسول المرأة تبعني من المرسى إلى جبل موسى، فتعرّف على مكمني؛ سهلٌ كذلك أن أتمثّل مخاطِبتي بلا بعل يرعاها ويحرسها ويسائلها؛ لكن من يوقنني أنّها تبغي شيئًا آخر غير الإيقاع بي؟ جراءتها في مبادأتي بالنظر والمراسلة صفة لا أستغربها من نساء قطرنا وزماننا، غير أنّ المتّصفات بها على صنفين: صنف الحرائر الأبِيّات، وصنف الكائدات العاهرات. فمن أيّ صنف هي شاغلتي الآن وصارفتي عن أعزّ ما أطلبه في هذا الجبل العاصم؟

قمت للصلاة فأدّيت ما عليّ. حاولت الكتابة فلم أفلح، وراودت القراءة فأعوزني التركيز والحزم. خلاصي ممّا يعتريني رأيته في التنزّه بين مناظري الأثيرة، عساها بمداها وغناها تغزوني وتسلبني لبّي. نهضت أنشد ما رأيت، لكن لا التنزّه لذّ لي وطاب، ولا المناظر سحرتني وشفت ذهولي. قفلت راجعًا وفي نيّتي أن أخالط بعض الناس وأكلّمهم، لعلّي أجد فيهم وسيلة للسلو والنسيان. قطعت أبهاء وممرّات، لم أصادف منهم إلاّ قلّة قليلة، وتجنّبت جناح الصامتين قاصدًا الجامع لأداء صلاة العصر مع الجماعة. وكذلك كان، على أنّي هذه المرّة سلّمتُ على كثير من المصلّين، لكن من دون أن أجد سبيلاً إلى محادثة أيٍّ كان، فتأكّد لي أنّ معظمهم، كما أنبأني القيّم عبد البرّ من قبل، إنّما نزلوا بهذه الزاوية العالية لتدبّر أحوال أنفسهم، والانقطاع إلى

العبادة، وقطع الشهوات، والإكثار من الصوم عن الأكل والكلام.

في طريق أوبتي إلى غرفتي رأيت عبد البر يهرول نحوي لاهثًا، أخبرني عن نصرانيّ حلّ صباح اليوم بمنزل العابرين، يطلب، قبل استئناف سفره، أن يستفتي أحد النزلاء النبهاء من المسلمين في ما حصل له بأرضه، ثم نظر القيِّم إليّ نظرة تعيِّنني لذلك. هل كان لمحتاج مثلي إلى النَّسي والسلوان أن يعرض عن هذا التعيين ويرغب! أشرت لطالبي أنّي في انتظار ضيفه ببيتي، وأن يبعث لنا بعض القوت والسوائل.

بعد مضيّ ساعة أو أقلّ، سمعت طارقًا يستأذنني في الدخول. قمت أستقبله بالسلام والترحاب وأدعوه إلى مجالستي. كان الرجل مثلي في الثلاثين تقريبًا، له لحية أكثف من لحيتي ويرتدي لباسًا قشتاليًّا باليًا. عيناه اللافتتان للانتباه ترسلان نظرات حرى متّقدة، وصوته المبحوح يتأرجح بين الفوران والخفوت. اسمه كما أفصح، بيدرو ديلكاستيو، جندي مطرود من الخدمة، لا زوجة له ولا أطفال، قليل الأهل في مدينته الأصليّة طليطلة، كثير التنقّل والارتحال بين مدن الممالك النصرانيّة والإسلاميّة.

جاءنا غلام بإبريق لبن وصحن فواكه متنوّعة. عرضت على جليسي أن يقتات قليلاً فلم يفعل؛ وحتى يخلوَ له وجه التحدّث، شغلت فمي بالأكل.

قال: إنّي، يا سيّدي، حمّال أمراض تنهك نفسي دون

جسمي. تزوّجت ثلاث مرّات وطلّقت. أخذني القشتاليّون في طوابير مشاتهم، فلا الموت قدرت على إعطائه ولا هو اجتاحتني كبساته. وذات يوم، وأنا في كنيس بقرطبة الداخلة في حكم بني ملّتي، قابلت الراهب المرشد، الأب بابلو، فبحت له بما يشقيني وينوء به صدري. قلت له: لا أخفيك سرًّا، أيّها الأب، أنّي لا أليق لشيء. حياتي مسلسل متواتر من الكبوات والإخفاقات. أُراكمُ الفرصَ الضائعة، وأخطئُ الأهمَّ في الأغراض والأهداف. بالطبع لست فخورًا بكل هذا، لكنّ الواقع لا يرتفع ولا طاقة لي بتغييره. لذا رجاءً، أيّها الأب، كُفَّ عن تبليغي أنّ الربّ خلق الإنسان على صورته وشاكلته. ذلك أنّ هذا الخلق لو صحّ في حالتي لكان الأحرى بالموقّع عليه أن يخجل من صنيعه ويعضّ أصابعه ندمًا. . أمّا الراهب الذي لم تقلقه البتّة أقوالي ولم يستفحشها، فقد أتى بجواب ميسّر مُطَمْئن، قال: كل شاة ضالّة، يا ابني، تفكّر مثلك؛ غير أنّ الزمن إذ يدور ضدّك وضدّ كلّ المخلوقات الضعيفة الأخرى، فستؤوب إلى القطيع من فرطِ إشفاقك على حياتك الدنيا. هكذا هي الأمور منذ بداية الخليقة ولقرون وقرون، ومسالك الربّ لا تُعرف ولا تسبر. . بثبات وخطو واثق، انسحبت مهمهمًا، حادجًا بنظرة الأرض من تحت قدميّ. ومنذئذ لم تعد تفارقني الرغبة في مقابلة الله بغية محاورته (ولو دردشةً وفي المنام) حول مسائل شائكةٍ عويصة، وذلك رأسًا لرأس، على طاولة في كهف أو تحت شجرة في الهواء الطلق، من دون كُلفة ولا وسيط ولا ترجمان. وأخيرًا أتت ليلة، لعلّها الواحدة بعد المائة، رأيت خلالها في حلم كائنًا مكلّلاً بالأنوار،

لم أتردّد في نعته بأوصاف الربّ. استنفرتُ وتشجّعت تهيّؤًا لتدشين الحوار، لكن ما إن فتحت فمي حتى حاصرني بعنف صوت صادع مسنون، يكرّر حرفيًا نفس الردّ الذي تلقّيته سابقًا من الراهب بابلو. ولمّا رأيت ـ مرعوبًا ـ هذا الأخير يدنو منّي بوجه متهكّم ماكر ثم يبتعد في ضوضاء التراتيل والنواقيس، استيقظت قافزًا من فراشي بعينين زائغتين، ولسانٍ متدلٍّ، وجسمٍ متهدّلٍ سقيم. وما هي إلاّ أيّام حتى أتممت تصفية أمور تربطني بالدنيا والناس وأخذت عصا التسيار، فجزت الموطن وزقاق البحر، وها أنذا أمامك، يا سيّدي، بأسمالي وهمومي، أسأل العون من ربّك بعد أن قنطت من الأب المذكور ومن ربّي.

ناجيت على الفور نفسي: أستغفر الله الواحد الأحد، العلي العظيم، إلٰه الناس أجمعين. ماذا أقول لهذا النصراني التالف التائه؟ تراه يفهمني لو حدّثته بما لم أقله لطلبتي إلاّ بالإشارة والرمز؟

كلمات قصار رأيت أن أبثّها إليه، لعلّ بعضها يطمئنه ويحسّن من حاله.

قلت: بالنظر والتجربة، الحاصل عندي، يا أخي في الإيمان، أن من لا يتطوّر إلى مباهج الأرقى يتدحرج إلى الدرك الأشقى. إكسير الكمال في طلب الكمال... سبل الربّ: وعرة هي لأنّها معراجيّةٌ علويّة، لكنّها ليست مستغلقة ولا على الوطء والعلم مستحيلة. السالك الكادح إليها كدحًا يُؤمر: تعرّ من هواجسك وأوهامك يا هذا، وانشدِ الارتقاء تبدّدْ به العوز وتستدرجْك أنوار

القرب. مارس السعيَ الدؤوب والافتراض القويّ تنخرطْ في سلك الأطوار وإحاطات الحي، ولعلّك بالمعرفة والكشف تصل إلى سؤدد الحقّ.

فجأةً ذكّرني قولي هذا بمثيل له لربما مخطوطتي الضائعة تحويه، وهو: *إذا كان الله في غاية الغموض أو في غاية الوضوح لما كانت هناك حاجة إلى العلم.*

انتفض الرجل واقفًا وعيناه تلمعان ببريق مَنْ فتح الله عليه. سكت برهة كأنّه يتدبّر أو يتذكّر، ثم خاطب نفسه بلغته ففهمت أنّه يسألها شيئًا.

قلت: عمّ تسأل يا ضيف الله؟

قال: غابة الزهّاد! هل أنا قريب منها؟

قلت: على بعد ميلين تقريبًا.

قال: ما متّعتني به من كلام، جزاك الله، يرغبني فيها. إنّي ذاهب إليها وإلى ساكنيها.

قلت: اذهب إليها، لكنْ لن يرضى عنك من فيها إلاّ أن تطّرح زوائدك وأدرانك، كما هم فعلوا. وإذا رأيتهم مفكّرين في الملكوت، عابدين قانتين فلا تكلّمهم؛ وإذا كلّمتهم وفرّوا منك، فاعلم أنّ رائحتك تبعدهم عنك. عندئذ ابدأ يا بيدرو كما بدأوا ولا تستعجل. تمرغ في الترائب، تطهّر بالماء حيثما وجدته، تدفّأ بالشعل الموقدة وتنشّق الهواءَ الهواء، وأينما حللت أو ولّيت

وجهك فثمّ وجه الله. قل اسمه فقط تره ينظر إلى نفسك الموحّدة التوّاقة.

قمت أودع الضيف، فضمّني إليه فرحًا منشرحًا، ودعا لي وعيناه يبلّلهما الدمع، ثم هرول نحو الخارج.

ربِّ إنّي نصحت عبدك الضالّ بما لم أفعله كما يجب وأقوَ عليه، فاعف عنّي وعافني، وإلى القصد الأسنى والمحبّة الأسمى حرّكني.

أدعو لنفسي بالرقي والطهر، ونفسي مشغولة عنّي بالتي باتت تتخلّلني في الصحو والنوم، وتطالعني بين الأضلع والحشى وبين السطر والسطر... امرأة لا أعرف عنها شيئًا! نظرتها إليّ في المرسى فرسالتها، وها أنذا منجذب إليها بنحو لم أعهده من قبل. فهل تكون بلوى سلّطتها عليّ الأقدار لامتحاني، فإمّا الخلاص والفتح، وإمّا السقوط في درك الصفر؟ هذا في الحاضر القائم سؤاليَ الأبرز بل أسُّ الأسئلة وقطبها الأجدر.

في بقيّة هذا اليوم متّسع للتحصيل بالمراودة والقطف، وغدًا أمره بحول الله بحثٌ وسعي.

* * *

ـ ٥ ـ

في الصباح قمت نشطًا وذهني ما زال رطبًا برؤى مناميّة امّحت متونها مخلّفةً شظايا باهتة متنافرة. توضّأت وصلّيت ثم لبست وتطيّبت، وفي نيّتي أن أنزل إلى المدينة لتجديد مؤونتي وتفقّد ما تيسّر من أحوال الخلق. وكذلك فعلت.

أوّل مكان قادتني إليه قدماي كان المرسى. في مدخله لمحت رسول المرأة كما لو كان في انتظاري. أومأ لي بحركات وغمزات أن أتبعه، فأحجمتُ اتّقاءَ شرّ الشبهات والرقباء. توغّلتُ في سوق الحواتين، اشتريت من السمك أصنافًا إلاّ الشبوط؛ عرّجت على سوق العشّابين فسوق العطّارين، اقتنيت من بعض هؤلاء وأولئك ما كنت في حاجة إليه. وفي كل مرّة ألتفت من حولي ألحظ الفتى نفسه يرقبني ويبعث إليَّ إشاراته الخليعة. قصدت سوق الخضّارين فملأت ما بقي فارغًا في قفّتي ببعض البقول والفواكه.

وإنّي لكذلك إذ شعرت بمن يلامس ظهري بخفّة وكياسة. التفتُّ فرأيت متسوّلة حبلى ذات أطفال تنبئني أنّ بها وحم الحامل، وشهوتها العظمى في السمك المنبعثة رائحته من قفّتي. لبّيت رجاءها بأن أفرغت في كيسها ما عندي منه؛ وبعدها

اعترضني أحد نزلاء الزاوية المسنّين، أعرف وجهه ذا اللحية الكثيفة الشيباء، وربما كنت كلّمته في الجامع من قبل. بادلته التحيّة والسلام، ثم سمعته يشكو فساد الزمان وأهله، وسوء الأحوالِ والعيش، وتجهُّمَ الوجوه وانقباضها. وما لبث أن نعت شخصًا يضحك فقال إنّه إمّا مفرط الهمّ أو مجنون. دعوت الرجل أن يعديَ من ذلك ويطلب من الباري الفرج للناس في هذه المدينة كما في غيرها. وفيما هو يعدّد مساوئَ الدنيا ومساءات البشر إذا بالفتى متعقّبي يدنو منّا، فيخاطب العجوز متلطّفًا: «مولاتي تحبّ أولياء الله. رجاؤها أن تزورها في بيتها أنت وصاحبك حتى تتبرّك بكما». أبدى الشيخ توًّا موافقته، فاختطف منّي الشاب قفّتي وسار أمامنا فرحًا نشطًا.

قطعنا أزقّة شارعة وأخرى ضيّقة، تارة طلوعًا وطورًا هبوطًا، ومرافقي يقبض على ذراعي، يعرّفني لاهثًا بمدينة مولده ونشأته، مكناسة، يحصي لي محاسن تربتها ومائها وهوائها، ويسمّي صلحاءها واحدًا واحدًا، ذاكرًا مناقبهم وكراماتهم. أردت إراحته من الكلام، فسردت له معلومات عن مدينته لم يذكرها، لكنّه سرعان ما طالبني أن أسأله عن سبب هجرته إلى سبتة فيما مدينته تحفل بالخير والبركة، فأجاب:

ـ أطلبُ الفتح من الله في أيّ بقعة من أرضه. ويوم يأتيني أعود إلى مسقط رأسي ولا هجرة بعد ذاك. السبب الآخر أقصّه عليك الآن أم في الجبل؟

كنت سأرغبه في إرجاء ذلك لو لم أر مرشدنا يفتح باب دار في

زقاق ويهيب بنا أن نرافقه. تبعناه عبر ممرّات وأبهاء تفضي إلى حديقة داخليّة فيحاءَ غنّاء، تعلوها قبّة خضراء وتحوطها أبواب سامقة مزيّنة منقوشة، مفتوحة على بيوت مؤثّثة مفروشة. . . دعانا الغلام إلى واحدة من هاته حتى ننتظر فيها قدوم سيّدته، ثم غاب.

جلسنا فلحظت صاحبي يقلب عينيه في الفرش والأرائك والطنافيس الوثيرة وكل الأثاث، ويقول متعجّبًا: «امرأة ذات رياض كهذا وخيرات وتحبّ الصلحاء! لغز لا بدَّ لي أن أفكّه». نصحته بخفض صوته فمال عليَّ يحثّني على سماع السبب الآخر. استعجمت حثّه، فذكّرني أنّه السبب في هجرته من مكناسة إلى سبتة. نهيته عن ذلك إلى أن يحل وقت أنسب. كان العجوز خارجًا عن طوره، مفتونًا بما حوله، كأن لم ير مثله من قبل، توّاقًا إلى الكلام فيه أو في أيّ شأن آخر.

وإنّا لكذلك حتى عاد الغلام مصحوبًا بخادمتين تحملان مائدة زاخرة بالمأكل والمشرب، فوضعتاها أمامنا وانصرفتا. عدلت عن مدّ يدي إليهما، بينما انكبّ رفيقي على الطعام كأنّه يقطع صومًا مديدًا أو يلهو بالمضغ والبلع عن الكلام. ألحّ عليَّ الغلام في الاقتيات، فاكتفيت بتمرة وكأس لبن، ثم أخذ يتنقّل بيني وبين جليسي هامسًا في أذن كل واحد على حدة. وفيما هو يكدّ ويثابر إذا بالعجوز يجهر وفمه مملوء: «والله ما أنا خارج من هذا الرياض إلاّ مع من جئت. . . ولا تعاد إلاّ الصلاة على النبي». أمّا أنا فممّا همس الفتى به إليّ: «عرضت على هذا الجوعان أن يأخذ من الزاد ما يبغي ثم يذهب، وها أنت تراه يرفض. . . حضورك هنا دبّرته بالحيلة من دون علم سيّدتي، وهذا الشيخ

الثقيل يفسد ما فعلت... مولاتي في الحمّام وتريد حين مقدمها أن يخلوَ لها وجهك... بماذا تنصح؟».

بماذا أنصح؟ هذا المكناسي حمى ظهري وأنا ألج هذي الدار، فمن العيب أن أطرده أو أتخلّى عنه الآن. همست في أذن سائلي بما يفيد ذلك، ووعدته بالرجوع إلى مولاته وحدي متى تيسّر، فتنفّس الصعداء وهرول قافزًا كغزال نزقٍ جذلان.

«أولاد اليوم... لا حياء ولا حشمة! قل لي بالله عليك... هل رأيتَ قطًّا... يهرب... من دار العرس؟». كان العجوز يتلفّظ بكلماته بين لقمة وأخرى ويزفر زفرات، فطمأنته على حاله وآمنته من خوف.

سهوت لحظة عمّا حولي، تركت خاطري يسبح بين مدارج التذكّر والتفكّر، حتى استقرّ على أنّ انتظاري الذي أنا فيه لم أعرف مثيله من قبل: الصبر فيه اشتهاء وحلاوة، والصحو رؤى وأحلام، والوقت الذي ينساب زاخرًا بي أقيسه لا بجزيئاته بل بخفقات قلبي ورجّات انفعالي، فأنجذب خارجه خفيفًا لطيفًا نحو فتح يباركني وترقٍّ أرتجيه. وفيما ذهبت حثيثًا في استكناه حالي، حسست بيد المكناسي تضرب فخذي، وسمعته ينبّهني بصوت خفيض: «هل وليَّ الله ترى ما أراه؟ أيُّ لسان يفي الوصف حقّه؟ أيُّ الكلمات تليق وتفيد؟ حسبي أن أقول سبحان خالق الحسن والكمال، ربِّ العالمين!».

سرّحت طرفي فتعجّبت مثلما تعجّب صاحبي بل أكثر: امرأة في منتهى النضارة والحسن تقطع ممرّ الحديقة نحونا، يحفّ بها

غلامها والجاريتان. وحين دنت منّا وقفت لها، وفعل مثلي صاحبي وهو يمسح فمه بكمّه مرتبكًا، فسلّمت علينا ودعتنا إلى مجالستها.

جمالها - يا الله! - دليل آخر على وجود الصانع ومدعاة للتسبيح بأسمائه النورانيّة الحسنى. بصوت ناعم رخيم قالت:

- معذرة عن تأخري... داري تسعد دومًا بنفحات أولياء الله... أولياء ألقاهم بقلب مكاشف ووجه مكشوف، فهل الحرج مرفوع؟

ضغط العجوز على قدمي من تحت المائدة، فأجبت منفعلاً: «لا حرج». ضغط ثانيةً يحثّني على الكلام، قلت:

- مشيئتك، سيّدتي، تُرضي الله بحسب الوضع والحالة.

ردّت عليّ سريعة الفهم والفطنة:

- كان المرحوم زوجي يطاوعني في ذلك، وليس لأحد أيًّا كان أن يمنعني منه... مجالسة الفضلاء مفتاح نيل الفضيلة، ومكالمة الأتقياء مدخل التحلّي بالتقوى.

- عين الصواب ما ترين، سيّدتي، ولو أنّ السعي قد يخيب أحيانًا.

- وهبني الله حاسّة ترشدني إلى الصالح دون الطالح، وتعرّفني على الفاضل التقي بعبيره وسيماه.

- متّعك الله بما وهبك إيّاه، ووقاك في هذه الدنيا شرور الغثّ والرديء.

رفعت السيّدة كفّيها وقالت متضرّعة:

ـ اللّهم يا رب تقبّل دعوة هذا الوليّ، ولا تخيّب رجاءه ومسعاه. . .

كان العجوز كمن بلع لسانه، ينصت إلى حواري مع مضيفتنا، مترشّفًا كأس لبن، ومن حين لآخر يلقي نظرات الامتناع على الغلام الذي يشير إليه باتباعه خارج البيت. ولمّا رأيت الموقف يشتدّ عليه، استأذنت ربّة المقام في الانصراف، فاستجابت سيّدة الإدراك والفطانة، ونهضت تشيّعنا إلى الباب بعد أن أخذت منّا وعدًا بالدعاء لها في صلواتنا وخلواتنا. . .

أثناء مرورنا بالأبهاء والردهات، كنت والمرأة الرائقة الشائقة نمشي خلف المكناسي المتأبّط ذراع الفتى، وهذا ينصحه بالنظر قدّامه حتى لا يعثر. أمشي معها الهوينى، نتلامس، نتجاذب، أتملّى من طرف خفي روعة صدرها الناهد المتألّق نحوي، أتنفّس هبوب أنفاسها عليّ، عطرةً زكيّة، فتتهيّج حواسي وترغب لو يطول الطريق ولا ينتهي. وحين بلغنا عتبة باب الخروج وضعتْ يدها في راحتي مسلّمة، وفمها قريبًا من أذني يهمس: «الدار دارك يا سيّد الناس»، والتفتتْ إلى مرافقي وقالت: «غدًا تصلك منّي هديّة يا شيخ»، فشكرها ودعا لها ـ وعيناه ترمقان وجهي ـ أن يكتب الله لها زواجًا بابن الحلال. ابتسمت والغلام يقول آمين، فيما صاحبي يجذبني من كمّي لحثّي على الانصراف. سألته ما إن ابتعدنا قليلاً عن سبب لزومه الصمت في حضرة السيّدة. توقّف قليلاً يستردّ أنفاسه، قال:

ـ هذا يوم مشهود لن أنساه ما حييت. . . جمال الأميرة الباهر أخرسني أنا الثرثار. اشترطت والله لساني. . . أمّا أنت: الشغل معاين باين، وفي النهار الجهار. نحن أهل مكناسة نعسف على الزبيبة وتطلع فينا حلاوتها. حتى لو كنتُ أعمى لحسست وشممت. . .

سألته ضاحكًا:

ـ حسستَ وشممتَ ماذا، يا ولي الله؟

ـ كل كلامك معها، على قصره، تعدّيتُ فهمه، ولو أنّ ذاك الولد كان يشوّش عليّ. هذا الشيطان المسلّط شهوتي أن أستطيبه يومًا بالضرب والقرص.

ابتسمت منتشيًا، وأردف قائلاً:

ـ والله ثم والله لو كنت في سنّك لزاحمتك عليها بالبُنية أو بالسيف. فإمّا ربحة وإمّا ذبحة. لهذا أنا المهزوم بعجزي ورذالة عمري أقول لك: الله يكمّل بالخير ويسخر!

ـ لكن الذي وعدته بالهديّة هو أنت ليس أنا. . .

ـ وتزيد على تفوّقك الاستهزاء بي! لي هديّة منها وهي كلها لك هديّة. يا سعديك! وُلدت في خرق بيضاء، ونفعك رضا الوالدين.

وصلنا إلى سهل المدينة قريبًا من الساحل، والشمس الأرجوانيّة تحمرّ في أفق البحر وتتهيّب للغروب. مال الشيخ على أذني هامسًا: «لن يزيل جنابتك إلاّ الغطس والعوم. ومن بعد عد

إلى حبيبتك طاهرًا، واطلب منها قُفّتك التي نسيتها عندها أو ما شئت. أمّا أنا فصاعد بحول الله إلى مستقرّي أتملّى مسرّات تيك الجلسة الفاخرة».

صدق العجوز في ظنّه: الجنابة حاصلة لي لا غبار عليها. قفّتي نسيتها بل تناسيتها، أمّا نصحه لي برجوعي إلى التي فتنتني فيحسن إرجاء اتباعه إلى يوم تعود فيه فورتي إلى ميزان العقل وعاطفتي الجامحة إلى عقالها. ودون ذلك اليوم أو خارج مناطه، غبطتي في لحظاتي هاته لا تعدلها غبطة، ولو كانت كالتي قد تغمرني جرّاء عثوري على مخطوطتي الغاربة. غبطتي الآن مجنحة فائضة طليقة، ما أحدٌ من الصوفيّة وفلاسفتنا المشائين خبرها قبلي. أمامها تنهزم الكلمات في فمي، يشحب المجاز والتشبيه ووجوه البلاغة الأخرى: فيا شعراء الجزيرتين وبلاد الشام والرافدين أعينوني. غبطتي لو أوتي مثلها رجال الأندلس لاستردّوا بزخمها ودفعها مدنًا ضائعة وحصونًا، لأنجزوا أعمال هرَقل وغلبوا السّباع حقًّا.

صيحتي الآن لا نظير لها إلاّ عند أرخميدس يوم اكتشف قانون طفو الأجسام في الماء، فصاح: إفريكا.. إفريكا، وأنا الآن، ممتطيًا براق الشوق العرمرم والتحليق الأقصى، أقولها لنفسي صائحًا: وجدتها! وجدتها!

هي بعد المسجد الحرام قبلتي الأخرى!

هي بعد الله قطبيَ الجذّابُ والأحلى!

هي من لو عاشرتها صرت بها أجملَ وأذكى!

هي آيةُ سعدي وانبعاثي في كدحي إلى من تشرئبّ إليه النفوس المثلى وتتوق، ونحشر ونعود.

اسمها أذهلني بهاؤها عن طلبه، لكن نصيبها معتبرٌ من الأسماء الحسنى...

حيَّ على العومِ في بحر لا خوف منه للعاشق الحرّ مثلي!

حيَّ على البحرِ وقد لامست سطحَه شمسُ الأصيل، ناشرةً حشاشة أشعّتها سلامًا ودفئًا.

آويت إلى ركن من الشطّ لا بشر فيه، خلعت لُبسي واتّخذت عمامتي مئزرًا، قصدت المياه مهلّلا مكبّرًا، تقدّمت فيها غير هيّاب، تارة أعلوها برأسي، وطورًا أتركها تحضنني وتغمرني. وإخال أنّ أسماكًا ونباتات ولعةً خليعة أخذت تستقبلني بالتلويحات والتحايا، فأردّ عليها صنيعها بأريحيّة وسخاء. عمتُ راقصًا مصفّقًا للموج وفيه، وناجيت نفسي وما حولها: الصحو صحبةَ هذا البحر ما أوسعه وأحلاه! والسكر في حضرته ما أعقله وأتقاه!...

أبي، يرحمه الله، علّمني السباحة وأحسن تعليمي. كان يوصيني بها خيرًا ويقول: «مثلُ ساكن الجزيرة لا يسبح كمثل قاطنِ جنّةٍ لا يمرح». أمّا بلوغي الآن في المياه منزلة الوئام الطروب ونشوة الآه، فإنّي مدين به إلى التي أدعوها دمي حين أفتح صدريَ لروائع الكون، فأغدو لتعالي المكوّن نعتًا وإشارة.

ها أنذا أجذّف بأعضائي كلّها ذاتَ اليمين وذات الشمال،

وأسبح باسم الذي جعل من الماء كل شيءٍ حيّ. ولمّا عييت استلقيت على ظهري بلا حراك، أسلمت أمري لمشيئة الموج، يهدهدني كأم حنون، يترنّح بي ويتأرجح، ناشرًا حولي لحن الحلم بالتمكين والسكينة. كنت أغمض عينيّ بين حين وآخر، وكلّما فتحتهما لاحظت أنّ المساء ينسج سدوله ويعمّ الأرجاء رويدًا رويدًا. وفجأة، دون سابق إنذار، هزّني فيض مائيّ إلى الأعلى ثم طوّح بي في أحشاء اجتياحه وغشيني من كل صوب.

قلت: الثباتَ الثبات!

حبيبتي تحبّني حيًّا معافى ومن أجلها أصيح متحدّيًا: لا ثم لا للهلاك. تذكّرت نصيحة الوالد: «مع البحر لا تغلل يديك إلى عنقك، ولا تمددهما واسعًا كل المدّ، وإن حصل طغيان العمق على سطحه وأنت فيه، فاذكرِ الله في نفسك حتى تقوى على قطع أنفاسك والعود إلى الاستواء فالنجاة». وكان ذلك ما صنعت بعد صبر وجهد جهيد. وتبيّنت إذ انطرحت على الرمل منهكًا أنّي، من حيث لا أدري، تجاسرت على البحر كثيرًا وتوغّلت فوق الحدّ. استقمت مفتّشًا عن لباسي فلم أعثر له على أثر، كأنّ الموج أتلفه أو اللّيل. شعرت ببرودة الجوّ تدبّ في جسمي رعداتٍ مرفقة بالعطس. رأيت أن أتلحّف بالظلام وأعيد بعض الدفء إليّ بالقفز والجري، وكذلك فعلت؛ حتى إذا بلغت الجبل تسلّلت إلى مستقرّي سالمًا معافى. وقد يسر الله المسعى وبلور المرمى، ولو أنّ كلابًا ضالّة، عديمة الخطورة والشغل، صاحبتني بالمناوشة والنبح.

* * *

- ٦ -

غرفتي ها أنذا فيها حيًّا أتنفّس. غسلت أطرافي وتوضّأت، لبست الصوف وتناولت عشبًا وسوائل ساخنة، ثم صلّيت قبل أن أنشد النوم.

في الصباح أفقت مصابًا بما لم أستغربه: زكام بيّن الأعراض، بالغ الحدّة. سمّيته من باب القبول والتخفيف: زكام المحبّ. استحليت حالي وأهملت التداوي، واعجباه! بالمخاط والشقيقة وتناوب الحرّ والقرّ عليَّ لم أعبأ وأبالِ؛ أو قل إنّ التي استهوتني وفتنتني صرفتني عن مكامن أوجاعي وكل جسمي، حتى أمسيت فكرًا أثيريًّا مجرّدًا لا مادّة له ولا هيكل، أحلّق في سماء لا وجود في جهاتها إلاّ لامرأة واحدة لا شريكة لها، فكأنّ حسناوات الدنيا قلّدنها شارات التميّز والإمارة، أو كأنّها تحوش إليها رحيقهنَّ ونسغهنّ.

نقر خفيف على الباب. صحت بالناقر أن يقدم، وظنّي أنّه الشيخ المكناسي، فإذا به قيّم الزاوية يدخل عليّ مسلّمًا ويضع إلى جنبي قفّتين مليئتين بالمؤن، قال إنّه وعد غلامًا بتسليمهما إليّ بعد أن منعَه من إزعاجي. سألته عفويًا بصوت مبحوح منهك:

ـ وهل قال شيئًا بعينه؟

ـ لا أذكر... ما عدا وصيّته لك بالبحث في القفّتين عمّا يسرك.

ـ ثم ماذا؟

ـ لا شيء... إيه، هديّة أتى بها إلى الشيخ عبد الكامل المكناسي... هذا النزيل استعصى عليّ فهمه هذا الصباح. لا يبرح فراشه ويهذي بكلام غريب ما سمعت مثله من قبل. فحصت جسمه مفترضًا أنّه معتلّ، فألفيته معافى... أمّا أنت، يا مولاي، أرى علامات المرض بادية عليك.

ـ لا تعبأ يا أخي. زكام خفيف لن يقيم...

ثم إنّه أنبأني أنّ سمعتي الطيّبة بين المقيمين ترغّب أكثرهم في مكالمتي، ومنهم على وجه الاستعجال عجوز مريض يجهر بإلحاده، وكهل تحت الحراسة يضرب عن الأكل والطعام ويبغي قتل نفسه. وعدت القيّم بزيارة الرجلين بعد صلاة العصر، فوقف مسلّمًا وذهب.

قرّبت القفّتين وشرعت أفتّش في المهداة إليّ. أقوات نفيسة متنوّعة أخرجتها يداي، وفي القاع لامست رسالة مختومة، بادرت إلى فتحها وقراءتها، تقول:

«من فيحاء السبتي إلى الحبيب في كل شيء.

«لولا زكام ألمّ بي لدعوتك إليّ الآنَ الآن. انصراف قلبي

وجوارحي إليك يشفيني بل ينعشني ويقوّيني. . . أدعو لك وأتصدّق ما استطعت حتّى يحفظك الله لي ولما تعشقه وترضاه، يا ذا الخُلُق الكريم والوجه المشرق الريّان».

هذه امرأة تشفيني!

تناولت بعض رغائفها، أكلتها بنهم مغموسةً في عسل الحبيبة الحرّ، أتبعت الرغائف بشيء من تمرها الهندي وثريدها ذي السمن والسكّر، ثم من فواكهها العطرة اللذيذة، وأرفقت ذلك بجرعات مصوتة من سوائلها ونبيذها الحلال. . . شعرت بشبع ما بلغته من قبل، فحمدت الله على عودة الشهيّة إليّ، ومعها العافية واعتدال المزاج وسريان الدّم.

هذه المرأة تنهضني!

نهضت، وزكامي يلفظ أنفاسه الأخيرة، توجّهت إلى القيّم متوثّبًا نشطًا، فاستقبلني دهشًا. قال: هذا فرسي الذي سُرق منك قد عاد إليّ، والشكر لله. اركب ورائي نقرّب المسافة إلى دار الحمقى حيث نُقل الرجلان اللذان حدّثتك عنهما. نبدأ بعدوّ نفسه الراغب في حتفها ثم نعرج على العجوز الزنديق.

فرحتُ برجوع الدابّة إلى مالكها، وحمدته تعالى أن يسّر، ثم لبّيت طلب صاحبي راضيًا مطاوعًا. بعد اجتياز فرسنا طريقًا وعرًا بين هبوط وصعود، حطّ بنا في سطح جبلي أجرد، كأنّ أشجاره اقتُلعت أو أتلفتها نيران مستعرة. ترجّلنا وقصدنا بناية واسعة واطئة، على بابها حارس لقينا بالحفاوة والترحيب. قطعت خلف

القيّم ساحة داخليّة فسيحة، يرتادها آدميّون بهيئات وحركات غريبة، تشي كلها بتقلّب وجودهم في دهاليزَ وشعاب منفلتة من ضوابط العقل، ولا سلطان عليها للدين. أمثال هؤلاء صادفتهم أيضًا في الأفنية والأبهاء، وعاينت عن كثب طغيان الشرود والتلف في نظراتهم وقسمات وجوههم.

كلّمت مرافقي متعجّبًا: أكل هؤلاء الناس فقدوا عقولهم!

قال: أي نعم.. كل واحد بقصّة قادته إلى هنا، وبعضهم أتوا مناكر أو حلّت بهم مصائب، فأضاعوا أزمتهم واندحروا...

قلت: عهدي بدور المجانين يقوى فيها الهرج والمرج، ويعلو الصراخ والعويل، ولا شيء من هذا هنا!

قال: إنّه من فضل ذلك الناسك الواقف على جناح المحروسين. كل الحمقى في هذه الدار يخافونه ويتّقون غضباته. تراه يقبض على قضيب زيتون، له فيه بركة وأيّ بركة! إذا ما لوّح به أو ضرب، تحوّل أعتاهم إلى كلب طائع وديع بل خروف. ولهذا لُقّب بحاكم الحمقى، وشاع لقبه وذاع.

مررنا بالناسك فوقفتُ قريبًا منه أتعرّف عليه، فإذا بي أستيقن أنه الزاهد المتمرّغ في الترائب، الهارب منّي ذات يوم إلى شجرة عالية لم أستطع تسلّقها. حين لحظني وشعر برغبتي في تكليمه، قال: «اصعدها أوّلاً فلعلّ وعسى»، ثم ترك موقفه واختفى.

جناح المحروسين عبارة عن زنازن متجاورة يديرها ستّة رجال

شداد وقهرمان. سلّم القيّم على هؤلاء وفعلت مثله، ثم تبعته إلى زنزانة قصيّة، فدعاني إلى دخولها ووقف منتظرًا على الباب. كان المقيّد بسريره رجلاً نحيفًا، غثَّ المظهر، أشعثَ اللحية والشعر. جلست قريبًا منه مرحّبًا مؤانسًا. حدجني بنظرات زائغةٍ نافرة، ما فتئتْ أن تلطّفت ولانت حين ابتسمتُ له ووضعت راحتي على جبهته أقيس حرارته. حالته الصحِّيَّة سيّئة ولا شكّ، ولو أنّ تغذيته، كما أخبرني عبد البرّ عن القهرمان، تتمّ بالعسف والإكراه.

ملت على وجه المريض، سألته عمّ به ولِمَ طلبني. أشار إليّ أن أقرّب أذني من فمه، فهمس مطولاً بكلام كثير مُوَقَّعٍ بحشرجاته ولهاثه. عرفت أنّ اسمه حمدان الباديسي، مطلّق، لا ولد له، فقد والديه في بحر الزقاق، ونجا هو في عبوره إلى سبتة بأعجوبة. فهمت أنّ الذي دلّه عليّ هو ذاك العابر الذي ظنّ أنّي عالجته من هوس شبهه بالقرد، واستخلصت نتفًا، منها أنّه مستديم الإحساس بحمله لرأس إنسان حديث العهد بالطرد النهائي من جنّة عدن أو من موطئ قدم في أرض ساحرة خلابة. وعليه، فبالنظر إلى الوجه الذي أمسى يقابل به الناس، كان غالبًا ما يعطي الانطباع أنّه يخوض في داخله حربًا ضروسًا، لا تمهله إلاّ ليحصي جروحه الروحيّة البليغة، ويضمّدها ما استطاع... وأيضًا كان كثيرًا ما يكفهر بغتة ويكلح، من دون سبب بيّنٍ أو مسمّى، وذلك حتى لو كانت الطبيعة فاتنة تحت سماء صافية، تلمع بطراوة زرقاء لامتناهية وبلطائف فاخرةٍ عليّة. ولمّا يرجع إلى نفسه، يكون عليه

في الأرجح أن يحدج الكواكب والنجوم أو أن يشوّش على حشرات النهار، كيما يتلهّى ويقاوم الدوار. وبعد إخفاقات وشقاوات شتّى، أمسى يلامس القعر وهو يخسر في الحبّ وفي القمار. . . فاقدًا كل نابض باطني لصعود العقبة، لم يعد في وسعه إلاّ أن يسكر ملء رأسه بأقوى خمور اليهود والنصارى. «وحين يبلغ السكر منّي منتهاه، كما قال، أميل على أذن أقرب نديم لا أعرفه، فأبثّ فيها ما أبثّه في أذنك: كل يوم، خويا، أغرق في غمّي وتعلوني أوحالي».

كيس عقد عويصة هو هذا الرجل وكومة مأساة! فكيف السبيل إلى التخفيف عنه يا ربّ؟

أين بذرة جرحه الدفين وناصية قصّته وقطبُ رحاها؟

أنّى لي أن أعرف ما لا يعرفه هو نفسه ولا يعلمه إلاّ خالقه؟!

سألته إن كان الشفاءَ يبغي أم غيره.

أجاب: الشفاء. . . الشفاء الحقّ لا وهم الشفاء. . . هذا الوهم حصل لي مرّات، ثم أعقبه الكبو الشديد وطلب الهلاك.

قلت: عِدني تقوم بحقوق نفسك عليك وتميل إلى التعافي، وبعدها حالتك وما ملكت يداي، ولها مدبّرٌ حكيم.

وعدني وأقسم. أحضرت القهرمان، التمست منه أمام القيّم فكّ قيود المريض والإتيان له بالقوت. تلكّأ وتباطأ ثم نفّذ طلبي ما إن صحت به: هل الدار مصحّة أم مهلكة! بعد حين استقام

الرجل في جلسته وتحسّس يديه ورجليه مغتبطًا، ثم أقدم على الأكل بتمعّن وتؤدة. نصحته بالمشي في الساحة بعد ساعة، ووعدته بزيارته في يوم آخر. انقضّ على يدي يقبّلها فسحبتها وحنوت عليه أعانقه قبل أن أشير إلى القيِّم الدهش بالسير معي إلى زنزانة الرجل الثاني. أوصلني إليها وقال لي إنّ له أمورًا يقضيها في مرافق الدار، فأبلغته أنّي بعد إنهاء الزيارة أؤثر الرجوع إلى الزاوية راجلاً وودّعته.

دخلت على النزيل العجوز فهبّ لتحيّتي ودعاني إلى مجالسته على قطيفته. كان هرمًا حقًّا، لا شعر ولا أسنان، لحيته البيضاء وافرة شعثاء، عيناه الغائرتان تنمّان عن بقيّة بريق وسط وجه متجعّد متقادم، جسمه النحيف عظام مكسوّة بجلد معروق ذابل. عرّفني بأسمائه بحسب اعتناقه الأديان وخروجه منها، وقال إنّ آخرها مستعار من زعيم مذهب الإرتيابيين اليونان، بيرون الشكّاك. أكّد لي ملحًا أنّه لن يأخذ من وقتي إلاّ القليل، لا يبغي سوى رأيي فيما انتهى إليه فكره الوجودي، وهو الموقَّعُ عليه ـ خلافًا لما يظنّه الناس ـ متمتّعٌ بكل ملكاته ومالكٌ لزمام عقله، قال:

«كنت دومًا، يا ولدي، أعد نفسي ومَن حولي بتخصيص كلمة الختام لله، إذا لم يمنعني الموت الفجائي من ذلك؛ إنّما قبل حلول إنجاز الوعد، كانت لي مهامٌّ أخرى أتقلّدها وعقدٌ شائكة عصيّة أروم فكّها. لكن ـ والوعتاه! ـ لا المهام قضيتها ولا العقد حللتها. أمام إخفاقاتي المتلاحقة، شعاري المكرور على الدوام

أمسى: «يلزم طيُّ الصفحة»... وفي آخر المدار لم تكن حياتي إجمالاً سوى ركام من الصفحات المطويّة.

ـ «والآن وقد أشرف عمري على ختمه، أدعي مطْمئنًا، وأنا ألوك عشبًا لامرئيًا، أنّ الحياة تحوي نشازات بل مقوّضات تجعل الخروق والعُجوز أكاليلَ المحصلات والحسابات. وعليه، فبكثير من الاقتناع والحماس، أجهر صائحًا لمن أراد سماعي: لا حجاج أنّ الحياة عديمة المعنى، وعلى كل واحد أن يمتح منطقيًّا كلّ العواقب من هذا المعطى...

«إني المخترم بالشكوك في إيماني، وأنا في أرذل العمر ـ وهذا أمر غريب ونادر حقًّا ـ أقول لخصومي ووعّاظي: يوم أرى جثّة طريّة تومئ إليَّ ولو جزءَ ثانية بغمزة، أو حتى ـ إن آثرت ـ بإشارات نابية، إذّاك أقسم لكم على قبر أمي أو بأوليائكم الصالحين إنّي سأستعيد إيماني توًّا ومن دون إبطاء... فهل من رافع لهذا التحدّي؟

«وإنّي هنا، على فراش احتضاري، أقول من باب التأكيد والإصرار:

«بقدر ما أزدري الذين يتزيّنون بإيمانهم الديني ويتبجّحون وهم في سنّ طاعن مهزوز، فإنّي أُعجب بالذين يكتشفون الله بأنفسهم وجهدهم والحياةُ لما تزل أمامهم. فهؤلاء، وأنت ولا شكّ منهم، يعيشون قصّتهم مع المتعالي كمغامرة روحيّة كبرى، وتجربة وجود ضاجّة أو هادئة؛ بينما يمسخ أولئك قصّتهم معهُ إشفاقًا

ذاتيًا وتوبة خاسئة كتوبة الغرغرة، أي إلى وديعة ربويّة وتأمينٍ على الحياة الأخرى».

أمّا مسك كلام العجوز فقد صاغه في سؤال ألقاه عليّ مباشرًا، من دون لفّ ودوران، وقال لا يرى له جوابًا ولا يبغي عليه شكرًا.

«أما كان يجمل بدنيانا أن تُخلق وماؤها وطينتها بأقلّ ما يمكن من الأضجار والآلام، ومن العبث والأضرار؟ وكما تساءل شاهد عصر تدمع له العين، أبو حيّان التوحيدي: *«ما الحكمة في عذاب الأطفال ومن لا عقل له من الحيوان؟!»*؛ أو كما قد تسأل بعد أن تتفقّد الأحوال في هذه الدار: ما الحكمة في عذاب المعتوهين والحمقى؟ *والباديسي*، هذا الكائن الكئيب المختلّ، أمثاله من النزلاء كثر لو تعلم، فلو تحرّيت قصص الآخرين واحدة واحدة في هذا المعتقل للزمك التفرّغ لهم شهورًا بل سنوات، وقد لا تسلم من جراثيمهم وعدواها لا قُدّر لك. فاذهب يا ولدي سالمًا بعقلك، ولا تحمل من عبء الأسئلة إلاّ ما خبرتَ واستطعت. عد أدراجك واتركني أقضي نحبي بشكوكي، حشراتي السوداء... حشراتي هاته لا الغطس في المياه خلّصني منها ولا الغوص في الأشياء، ولو شاء ربّكَ أن ينفضني منها لفعل... اذهب رجاءً، لا حلّ لي عندك ولا عند أيٍّ كان».

قبّلت رأس العجوز من دون أن أنبس بكلمة، قال مبتسمًا: «هل شممت فيّ ملح الإلحاد يا عبد الحقّ!» فأومأت أن لا، ثم غادرت غرفته داعيًا له مسلّمًا. وفي البهو اعترضني نزيل كهل

وخاطبني بصوت وهن يائس: «حتى أنت يا حكيم ستنصحني بالصبر في مقاومة الشرّ. لكن ماذا يقول مخلوق مثلي تفانى في خرمه ونهشه الشر والصبر معًا!». قال هذا وغاب زاهدًا في جوابي وحكمتي. خرجت من الدار دائخًا مدهدهًا بما عاينته، وهو غيض من فيض، وبما عانيت من عجز وقصور باع أمام صور من بؤس البشر...

وعدت *للباديسي* بالرجوع إليه وما الجدوى في أن أفي بالوعد، وخطر لي أن أحضّ المكنى بيرون على الشكّ في شكوكه، لكنّي أحجمت من باب الحياء ومطاوعة عزوفه عن كلام الجدل والوعظ. وكيف لا أقف هذا الموقف والفرق بين الرجل وبيني في هذا الفصل قد يكمن فقط في كون منحنى حياته ورجاتها رجّح عنده كفّة الاعتقاد أنّ المخلوق من تراب يؤوب إلى التراب، كما المركّب يعود إلى الانحلال، بينما كنت أنا وما أزال، في مدارج تحليقاتي الشعوريّة وتأمّلاتي الفكريّة وشطحاتي الصوفيّة، أرى الروح مستثناة من ذلك المآل، وأراهن على فكاكها وبعثها بعد الممات.

حين بلغت الزاوية عرجت على مكمن الشيخ المكناسي، فألفيته مستلقيًا على سريره. جلست حذاءه مسلّمًا، وشرعت أحكي له ما عاينته هذا اليوم في دار الحمقى، لكنّه كان ساهيًا عنّي، شارد الذهن، يغمض عينيه تارة، وأخرى يهذي بكلام غريب مبهم. زعزعته قليلاً كأنّي أوقظ نائمًا، ونبّهته إليَّ بأن سألته مصوّتًا عمّا أذهله. التفت نحوي بعينين غائمتين وقال:

«ما أذهلني؟ ذلك اليوم المشهود يا هذا... نوره كشف لي هباء حياتي وخورها... تلك المرأة، سبحان من خلقها وجعلها على حُسن عظيم!... لو قدّرها الله لك فأنت السعيد حقًّا أنت السعيد...

قلت: حسبتك يا شيخ زاهدًا في الدنيا.

قال: لا زهد ولا هم يحزنون! هل فاقد الشيء يزهد فيه! رأيت الدنيا تبلي الإبلاء الأكبر في الإعراض عنّي، فتظاهرت بالزهد فيها من باب لمزها والثأر البئيس منها. بالله عليك هل بالمترهّلات والدميمات وُعد الداخلون الجنّة؟ هل بالحصائر والمرقّعات والخبز المغموس في الإدام والماء؟ أم هل وُعدوا بغير ذلك من صنف ما هو أجمل وأرقى! صور من هذا الصنف بدت لي عند تلك المرأة في رياضها. وأنا اليوم لا أبرح مربّعي هذا، أصوم ما استطعت وأصلّي ولا دعاء لي إلاّ أن يعجل الله لي الرحيل إلى جنّة النعيم والخلد...

قلت مازحًا: ترحل قبل أن تذكر لي السبب الآخر؟

قال مقطّبًا: أيّ سبب تقصد، يا ابن دارة؟

قلت: ذكرت لي سبب واحدًا لهجرتك من مكناسة الزيتون إلى سبتة، ووعدتني بإيراد سبب آخر.

أجاب مستنكرًا: أحدّثك في طلبي هجر هذي الدنيا، وتسألني عن شيء نسيته بالجملة! أم تراك تهزأ بي؟

قاطعته: لا، حاشا حاشا... وهديّة السيّدة الكريمة؟ يا عبد الكامل؟

قال: ألبسة من أثواب باذخة لا أعرف أسماءها، لو ارتديتها لضحك عليّ البعض أو قال البعض سرقتها... هي هنا تحت لحافي، ويوم موتي ضعها معي في كفني، حتى إذا استيقظت في الجنّة تزيّنت بها وسرت أزهو كالطاووس وأختال... نعم كالطاووس! كفى ما عشته في الدنيا من حرمان ومهانات. كفى ما كان لي فيها من ظهور خائف متمسكن، كأنّي به أعتذر عن وجودي ومروري بين الناس.

قلت وأنا أكتم ضحكة غازية: أمّا الجنّة فمضمونة لك ولا ريب!

قال مستغربًا كلامي: الجنّة للأتقياء والمحرومين، وأنا من هؤلاء وأولئك. إذا لم أدخلها بين الأوائل فلمن تكون إذن؟!».

أشرت إليه بما يطمئنه على رجحان زعمه، قبّلت رأسه واعدًا إيّاه بزيارة قريبة، وانصرفت.

* * *

- ٧ -

في غرفتي قمت بأعمال اعتياديّة، سجّلت ما شاهدته وسمعته أثناء تفقداتي اليوم، قرأت في ديوان عشّاق العرب ما تيسّر لي، تعشّيت من زاد الحبيبة واسعًا، وعزمي معقود على زيارتها في الغد. . .

نومي حافلاً كان حقًّا. حلاّه حلم تذكّرته ما إن أفقت: على قمّة السنديانة التي عجزتُ عن صعودها طالبًا لحاكم الحمقى، تتربّع فاتنتي ومالكة مهجتي، تناديني أن أطلع إليها وأقطف منها ما أشاء. ألبّي النداء موفّقًا، فنتلاحم ونتفاعل إلى أن تنكسر الأغصان من تحتنا. نهوي كذلك على الأرض التي أعدّت لنا فرشًا من الحشائش اللّيّنة والتبن الوفير، نتوغّل في التوحّد الأمثل الألذّ، نستطيب وصلة النكاح، وبها نسعد حتى السحَر فمطلع الأنوار.

تنهضني تلك المرأة! ترقيني! تحييني!

وقفت مستنفرًا، تطهّرت، أقمت الصلاة، لبست أحسن ما عندي وتعطّرت، أفطرت من قوت المحبوبة ثم خرجت أطلب ديارها متحنّنًا مشتاقًا. وصلت إلى حيّها من دون أن أبطئ أو

أتلف. لمّا بلغت بابها، رأيت زنجيًا عملاقًا يقف عليه ويرصد غدوي ورواحي منزعجًا ثم يشير إليَّ أن أذهب، فما كان منّي إلاّ أن أذعنت، لاسيّما أنّ عيون فضوليين وفضوليّات أخذت ترمقني متفحّصة مستفسرة.

نزلت إلى وسط المدينة، اختلطت بالناس ثم اقتعدت مصطبة قبالة ساحة غاصّة بهم. شرعت في مزاولة هوايتي السرِّيَّة، طمعًا في تهوين شكوكي ودواري. فلو كنت في البادية لغلغلت النظر كلّه في عبور الطيور أو قطعان الماشية، حتى أغدوَ منها طائرًا أو دابّة؛ أمّا وأنّي في الحاضرة، فالحيلة عندي أن أرى الخلائق يمرّون، وأتخيّل حول هذا المارّ أو ذاك قصّة لربما لم تكن ولن تكون أبدًا قصّته... على سبيل المثال لا الحصر: هذا الرجل له، على ما يبدو، رأس مجرم أو قاتلٍ أجير أو مصّاصِ دماء؛ وذاك هو أشبه ما يكون بمحكوم عليه بالشنق مع وقف التنفيذ، أو بحيٍّ ذي رِجل غاصّة في قبر؛ وذاك له وجه يُخفي آخر تحت ألف سرٍّ وسر، ولعلّه محبّ ولهان، ينسج وجده وشوقه بخيوط الأوهام، وينشئ أحلامه على أحزمة الرياح وصفحات الرّمال... الذي يقدر أن يفعل مثلي ويقودَ مركب الخيال على النحو الأحسن لن يكون مؤرّخًا محترفًا بل قاصًّا واعدًا، حارثًا للهوامش والمغارات.

راجعًا إلى الجبل، قلت الاحتكام إلى السنديانة هو الحلّ. قصدتها، والمساء ينجب سدوله الأولى، لا ألتفت يمنة أو يسرة، ولا إلى الجماد والنبات والحيّ، حتى إذا بلغتها شمّرت على

ساعديّ متنفّسًا ملء رئتي، حرّكت عضلاتي المفتولة، كبّرت واستعنت بالعلي القدير قبل أن أبدأ في تسلّق الشجرة. تخطّيت الحدّ الذي وصلته في المرّة الفائتة، فاستبشرت خيرًا؛ ثم رويدًا رويدًا اعتليت الأغصان الواحد تلو الآخر، وكلّي حذر وحيطة؛ نظري أصرفه عن الأسفل حتى أتّقي الدوار، أركّزه على الأعلى، وهو الغاية والمبتغى. وبعد جهد جهيد ومثابرة معتبرة، تمكّنت هذه المرّة من التربّع على عرش السنديانة، ولو برونق ووثوق أقلّ من تربّع حبيبتي في رؤيايَ بالأمس، ولكنّه أحسن وأريح من تربّع ملوك الطوائف على عروشهم المهزوزة... تربّعت فرأيت في توفيقي، بالرّغم من لأيه، فألاً حسنًا وطالع يمن، وقد يرضى عنه نسّاك الغابة وحاكم الحمقى.

ظللت لحظات أستريح من تعبي وأتمتّع بالمناظر الممتدّة أمامي وديانًا وغاباتٍ وربى، تعمرها خلائق شتّى، ظاهرةً أو خفية، ناطقةً أو بكماء، ولله في ملكوته عجائبُ وعجائب. طيور تنزل من الفضاء إلى أشجار من حولي، تأوي إلى أوكارها، وبعضها يحلّق فوق رأسي، تُسمعني زقزقاتها وحفيفَ أجنحتها، كأنّها تستغرب وجودي وتحضّني على العودة إلى وكري. وكيف لا ألبّي مطلبها والليل آخذ في اكتساح المكان بظلامه ورطوبته وطقوسه المعلومة!

ليلٌ لا ككل الليالي!

متربّعًا على فراشي، أعدت قراءة كلام الحبيبة في رسالتيها، والغاية أن أبدّد بسهله وبيانه شكوكي ووسوسات الشيطان

الرجيم، أن أؤول ألفاظه ورموزه تأويلَ الخير، مؤيّدًا معزّزًا بحُجيّتها الماديّة التي بتّ أكنزها وأضمّها إليّ ضمًّا.

قلت: من باب أدب اللياقة واللباقة بل من باب الخير بالخير والبادئ أكرم، يتوجّب عليّ أن أرسل إلى ذات الحسن والخلق القويم بطاقة أعلن لها فيها حبّي واستفرادَها بجوارحي وقلبي.

هيّأت للبطاقة في ذهني عناصرها. أولاها أنّ كل نساء الدنيا، الرائقاتِ الشائقات، يفضين إلى حبيبتي بالتشوّق الطبيعي والالتفاف الجوهري؛ وثانيها أنّ هيامي بها يعصمني بعد موتي من السقوط في النسيان، إذ ستذكرني الأجيال تلو الأجيال في إيوان الحبّ الخالد التليد وديوان المحبّين والعشّاق؛ وثالثها... ثالثها؟ إيه! أن أصف لها ما أتخيّله الآن: فرس مجنّح، يرفل في فراهته وهمّته وبياضه، ليس كبراق سيّد الخلق في إسرائه ومعراجه، حاشا حاشا حاشا، فرس بلا صهوة ولا لجام، يأخذني إلى سطح بيت المعشوقة، حيث تركبه خلفي، محتكّة بي، فيطير على علوٍّ معتدل، كما آمره، تجنّبًا للعيون في التضاريس الأرضيّة، كما لاضطرابات الأعالي ودوارها. نشرع، والصبح منبلج، في قطع مقامات طقسيّة ومناخات، نتهادى التحايا الحارة السخيّة مع الطيور العابرة أسرابًا أو فردانًا. والحبيبة الملتحمة بي، إذا ما رفعت يدها اليمنى عن حزامي، فلكيْ تصافح غمامة أو تقطف دررًا وأنسامًا، أو لكي تنعت، فرحة متعجّبة، اليابسة من تحتنا أو بحرًا لعلّه الأوقيانوس أو بحر الزقاق.

يعنّ لي أن أدعو طيّارنا إلى اجتياز المضيق وإجالتنا في ما تيسّر من سماء الأندلس المكلومة، حتى أهب للرفيقة صورًا جوّيّة عن مرسية، مسقط رأسي ومرتع شبابي، مع وقفات فوق قريتي رقوطة ونهر شقورة والحدائق الوارفة الفيحاء، الممتدّة حتى قرطاجنة وسفوح جبال الثلج وكل الفضاء...

يعنّ لي ذلك، لكن عقلي ينهاني عنه بحجّة خوفه على اللصيقة بي وعليَّ من البرد وتقلّبات أحوال الطقس، ومن قنّاصة النصارى المهرةِ القتلة ونبالهم الطائشة أو المصوّبة. آمرُ الفرس بإجراء العودة إلى قاعدتنا سالمَين، ولو أنّ النفس مع الشاعر تشدو *«وإذا ما هبّتِ الريحُ صبا/ صحتُ وا شوقي إلى الأندلسِ»*. وأثناء عمليّة الهبوط، أغيّر هيئتي، إذ أواجه جليستي القليلة الكلام، الكثيرة الانفعال والافتتان، ثم يستدرجنا الحال إلى التداني فالتشاكل فالخوض في لجج الأشواق واللذات، ولا نرجع عن ذلك وننتبه إلاّ بعد أن يصهل الفرس مرّتين معلنًا عن نهاية الجولة الجويّة وحسن المآب.

أعددت العناصر الثلاثة تلك على توهّم، وثبتتُها في خاطري وبلورت، عساني أحوّلها موادَّ لأحلومة أمهّد بها لرؤيا مناميّة، شيّقة المبنى والمعنى، منقطعة النظير؛ رؤيا أذيّل بها، لو حصلت، بطاقتي الموعودة.

أدّيت ما عليّ من صلوات، وزكّيتها ببعض النوافل والأذكار، ثم نمت ببطن خالٍ وذهنٍ متوهّجٍ حافل.

*

لا أدري كم وقت استغرقه نومي الذي أيقظني منه في الصباح صهيل متقطّع لحصان قريب من بيتي. غير آبه بالصهيل، قمت بحركاتي الاعتياديّة وجلست أفطر وأنا أجهد في تقليب ذاكرتي، لعلّها تنبئني بما قد أكون رأيته في سباتي، وغاب عنّي الآن أو أنساني الشيطان أن أذكره... لا شيء! لا أريان ولا خيطها، ولا حتى شظايا أو بعض الفتات.

قلت فليكن التعويض والعزاء في تحرير البطاقة. لكن ذهني شرد، والكلمات جفّت واستعصت، أو ما بدا منها وحضر كان دون علوّ المقام وجلال المطلب. استفحل الأمر واعتاص لما أن تواتر الصهيل واشتدّ، فما كان منّي إلاّ أن خرجت أستقرئ الخبر. فتحت بابي مشرّعًا، فواعجبا ممّا رأيت! حصان فاره أبيض، حسن الطلعة والتجهيز، سكن ما إن لمحني، وقريبًا منه زنجي عملاق سبق لي أن صادفته حارسًا مدخل دار الحبيبة. بادر الرجل إلى الدنوّ منّي، حيّاني بإشارة، ناولني رسالة مختومة حدستُ للتوّ هويّة صاحبتها. فتحتها بيدين مرتعشتين وقلب خفّاق. قرأت:

«إلى سيّدي عبد الحقّ...

يا مالكَ مهجتي وفؤادي!

يا المهيمنُ اللطيفُ على قيامي وقعودي، وعلى أيّ جنبٍ تقلّبت!

يا الكامنُ في أحلام يقظتي ونومي ، يا أنت!

هلاّ شرفتَ مقامي وأقبلت؟

لي عندك مطلبٌ أبثّهُ إليكَ شفاهةً لو تكرّمت».

كيف لا أستجيب لداعيتي إليها في هذا الصباح الأغرّ!

طلبها أستقبله حبًّا وكرامة، وهو الأسبق الأولى وهو الأهمّ الأعزّ.

أمهلت خادمها ريثما أتنظّف وأحسّن هندامي وأتطيّب. لم تمض ساعة حتى كنت على أهبّة التلبية والمسير. اقتربت من الحصان فهشّ لي وبشّ، ونقر بحافره الأرض نقرات هي في لغته حفاوة وترحيب. ركبته سعيدًا مبتهجًا، فتناول العملاق لجامه وقاده راجلاً، لا يلتفت يمنة أو يسرة ولا خلفًا. كان الفضاء حول الزاوية خلوًا من المقيمين والعابرين، كأنّما إجماعهم انعقد على تركي وحيدًا أنعمُ بما يحصل لي والتذّ.

النزول من الجبل سهلاً كان وليّنًا، شبيه انغماس في طيّبات لا عهد لي بها من قبل. الحصان يمشي الهوينى، مطاوعًا متهاديًا؛ الخادمُ القائد لا ينبس ببنت شفة، كأنّه أبكم أو مأمور بالسكوت أو في صمته صَلاتُه. السبيل إلى التي تيّمتني، سبيلي، ازدان بحلّة ربيعيّة قشيبة، وأينعت عناصره وتأنّقت، فأراه وأدركه بوعي تغمره سعادةٌ لا تعدلها إلاّ سعادة عريسٍ ميمون ليلةَ زفافه.

على باب داعيتي المجيدة ترجّلت. تلقّاني الفتى المخنّث فرحًا طروبًا. صاحبني إلى ردهة الدار المضاءة بالفوانيس حيث وجدت سيّدة المقام، بهيّةَ الطلعة، في انتظاري بين الجاريتين، واحدة

تحمل بين يديها طبق تمر، والأخرى صحنًا عليه كؤوس لبن. دنوت من داعيتي محييًا فردّت التحيّة أهلاً وسهلاً، وبادلتني نظراتي بأحرّ منها، ثم أشارت إلى التمر فتناولت واحدة، وإلى اللبن فشربنا معًا من كأس مفردة وتراءينا. وبعد ذلك قادتني عبر الحديقة الداخليّة وممرّين إلى بيت استقبال أفسح وأثرى من الذي عرفته بمعيّة الشيخ المكناسي في زيارتي الأولى. أجلستني حذاءها قريبًا من مائدة عليها من المشرب والمأكل ما شاء الله.

كانت علامات الحياء والانفعال تغزو محيّاها، وإذا حاولت الكلام انتابتها تأتأة فلا تتفوّه إلاّ بكلمات الترحيب، أو تصفّق فينادي الفتى من وراء حجاب: «هات الطيب يا عبلة... هات الطست يا حفصة»، فتتقدم الأولى، تجدّد العود القماري في مبخرة عظيمة، وترشّني بماء الزهر؛ ثم تأتي الأخرى فتعرض عليَّ طستها كي أغسل يديَّ فأفعل.

قلت بعد أن خلوت بسيّدة المقام: «هذي حفاوة بل حلاوة لا أدري هل أستحقّها»، فنطقت بحروف متقطّعة عنت إذ ركبتُها أنّي أستحقّ الخير كلّه. دعتني بإشارة إلى الأكل فأصبت منه شيئًا وأنا أنبئها بما مفاده أنّي أقنع من القوت بلقيمات الصوفي. سألتني عن الولي المكناسي، قلت لها إنّه حيٌّ يرزق، يصرّف الأيّام ما بقيَ له منها في النوم والعبادة، ورجاؤه الأوحد أن يلاقيَ ربّه مطهّرًا ويدخل الجنّة عاجلاً، وأضفت مستدركًا أنّه يدعو لها في صلواته كلّها، فتنهّدت وأسبلت جفنيها الظليلين، كأنّما هي تخشى التعثّر في الكلام أو تنتظر منّي المباداة والفتح.

فكّرت، وأنا أمسح يدي، أن أحدّثها عن عناصر البطاقة التي أنوي إرسالها إليها بعد أن أحرّرها، لكنّي خفت أن أضاعف انفعالها فأحجمت.

فكّرت أن أذكّرها برسالتها الأخيرة، مرغبًا إيّاها في الإفصاح عن مطلبها منّي حتى ألبيه، لكن خشيت أن أحرجها فأعقد لسانها أكثر.

ربّي ما العمل؟

هذي امرأة كان لها قصب السبق في أمور تعجبني وتنهضني، أمور آخذة في تغييري وترقيتي نحو الأحسن: دعْوتها لي في البدء وكلماتها المجازية الشيّقة، رسالتها الأولى الناضحة شغفًا وهوى، والثانية في إعلان حبّها عليّ واستعجال قدومي إليها، وهذه إشارات تخلّلتها أخرى، بل هذه خيرات على خيرات لا بدّ لي أن أطبعها وأباركها بقبلات على ثغر مبدعتها وواهبتها. وفضل هذه القبلات، كما تمثّلتُها، مضاعف وأجرها كذلك؛ فمن جهة أثبتُ أنّ لي في السبق والمبادرة بعض الباع والاستطاعة؛ ومن جهة ثانية ـ لعلّها الأهمّ والأمتع ـ أن أحلّ بها عقدة لسان جليستي حتى ينساب الكلام بيننا أثيريًا خالصًا أو كوثريًا زلالاً. . . ولي في هذا الشأن الأخير سابقة أسوقها اقتضابًا، من باب أنّ الشيء بالشيء يذكر:

ففي سالف أيّام الطيش والنطق في الهوى بمرسية، عرفتُ حسناء كانت تشكو من تأتأة تعيق حاجتها إلى الوصال

والمحادثة؛ طلبت مني الدواء فعيّنته لها في مغالبة التوتّر والانقباض بالتنفّس الإرادي المتواتر، مع كسر التركيز اللفظي باستعمال المرادفات وإعمال الكناية والمجاز والحركات اليدويّة المساعدة. دوائي هذا لم ينفع إلاّ بقدرٍ هيّنٍ غير دالّ، وأجدر منه وأشفى كان في إقبالي عليها بالبوس والتحنان كلّما تعسّر عليها الكلام وأعضل، فيصير ترشفي من فمها رشفاتٍ آيةَ التخفيف ومفتاح الفرج.

نسيت ذاتَ تلك المرأة وصفاتها، ودوائي لها لم أتذكّره إلاّ عفوَ الخاطر وبالمناسبة. فهل أطبق على فيحاء العلاج نفسه بالقياس والمماثلة؟ وبينا أنا أفحص الجواب من كل وجوهه إذ خرجتِ الجليسة عن صمتها بتصفيق أحضر الجاريتين، فشرعت واحدة في تمكيني من غسل يديّ وفمي وتخليص المائدة ممّا عليها، وقالت الثانية بصوت مسموع: «المقصورة مهيّأة كما أمرت مولاتي».

مولاتها ومولاتي ـ واللهِ مولاتي! ـ دعتني إلى مصاحبتها فلبّيت فرحًا طائعًا.

المقصورة عبارة عن غرفة صغيرة، أنيقة الأثاث والفرش والستائر، تضيء جنباتها قناديلُ خفيضة، وتتوسّطها مائدة ملأى بأشربة متعدّدة الأنواع والألوان. غرفة فائقة الحميميّة والألفة، تصلها متجاوبةً متناغمة تغريداتُ طيور الحديقة، القاطنة منها والزائرة؛ تغريدات في غمرتها المسكرة أهدتني فيحاء كأس جلاّب، وقدّمتُ لها مثله، فشربنا بتؤدة وتذوّق على نخب تجالبنا

وتجاذبنا، فيما نغمات عزف على العود تنبعث من غرفة مجاورة. سألتها من العازف، فمالت عليّ متأتأة: «إنّه غز... غز... لان... هل... هل... يعجبك؟» أشرت أن نعم.

كيف لا يعجبني هذا العزف وتيك الأغاريد!

وهذا الجلاّب المسكر ولو أنّه حلال!

ومنهضتي مرقّيَتي نعمةٌ من الله وكنزٌ روحيٌّ تليد!

وأنا! أنا ابن ملّة لا رهبانيّة فيها، آخذ نصيبي من الدنيا، وبما عندي أجود.

في غمرة هذه اللذائذ، لا ينفع التحفّظ، ورباطة الجاش لا تليق، بل الأحق أن أحرّر العواطف الجيّاشة، وأهتبلها فرصة عزيزة لأمسك بزمام المبادأة، وأعيد إلى لسان الحبيبة طلاقته وذلاقته. توكّلت على الذي لا وكيل سواه، فحزتُها إليَّ وضممتها ضمًّا حتى جلبني قربها وطيبها إلى ختم قبلات خفيفة على وجنتيها، وإذ لحظتُها تلين وتروم تقصّدت فمها الرائق الشائق، وتعمّقت في رشفه وملامسةِ لسانه ما وسعني الشوق والحنين. وفجأة سكن العود والطير، فساد صمتٌ لم توشِّهِ إلاّ خفقات قلبينا الجامحين المتعالقين. ولولا خوفي من سوء الطوارئ وتعدية حدود اللياقة والكياسة، لدفعت بأمد البوس والتعنيق إلى قطوف الشهوة العظمى والخير العميم. وخطر لي أن أعاين أثر فعلي على المتأثرة المضمومة فسألتها:

ـ مطلبك في رسالتك، يا قرّة عيني؟ قوليه أحقّقْه لك.

أجابت بلعثمة أقل:

ـ حالي الآن.. يمنعني.. من البوح والجهر.

ـ قوليه إذن بالإشارة والرمز.

أخذت جليستي تنعت صدرها ثم تنعتني بسبابتها، ثم تلصق هذا بأصبعها الوسطى وتبرزهما متّحدين أمام عينيّ؛ وإذ رأتني أستعجم الأمر، والحقُّ أنّي كنت بالأحرى أتغابى، أخذتْ يدي اليمنى وشابكت أصابعي بأصابع يدها، فما كان منّي إلاّ أن سألتها إن كانت تطلبني للزواج، فكان ردّها من دون لفّ ودوران بالإيجاب، وأردفت:

ـ للقلب لغة لا يضبطها العقل. قلتُ ما بنفسي ولا جناحَ عليّ. أنت في لغتي مخيّر لا مسيّر، فانظر ما ترى...

عجبًا كيف أنّ لغتها سلِست بقدرة قادر وتسلسلت عذبة مرحة! فإمّا أنّ دوائي نفع فيها، وإمّا أنّها كانت تفتعل التأتأة وتناور. ومهما يكن من أمر، فعرضها يزيد في إنهاضي وترقيتي، وإنّي لأتلقّاه مبتهجًا على الرحب والسعة. وحتى لو لم تبادئني به لكنت انتهيت إلى صياغته وإعلانه. قلت من هذا الباب ومن باب توخّي الإفصاح والإيضاح:

ـ طلبك يشرّفني، يا مولاتي، ويعليني... لكن...

ـ لكن ماذا يا عبده؟

اسم ما سمعته من قبل، ينضاف إلى أسمائي الأخرى، متبوّئا الصدارة إذ واضعته الناطقة به تأخذ بمجامع أشواقي وقلبي. قلت:

ـ إنّي، يا قرّة العين، رجل حُبّب إليّ العلمُ والفكر، وكُتبتْ عليّ حياة التجرّد والخلوة.

عضّت بالبنان واحمر محيّاها حياءً أو شوقًا، قالت:

ـ سأكون لك أريح من الخلوة وأحلى. ولو شئتَ بنيتُ لك في داري زاوية لا لغوَ ولا ولوج لي فيها. جوارك عندي هو المطلب الأعزّ وقربك المبتغى.

آهٍ من هذه الكلمات السهلة الممتنعة! وآهٍ ثم آهٍ من حلولها بين حشايَ وأضلعي ومن وقعها السعيد على نفسي. قلت وأنا أبحث عن تعلة أخيرة قبل أن أفوّض إليها أمري وأسلّم:

ـ تبنين لي زاوية قلتِ؟

ـ وحتى برجًا تأوي إليه متى شئت...

ـ لكنّ سبتة، يا سيّدتي، ليست موئلي الأخير، قد اضطر إلى الرحيل عنها، كما رحلت عن مرسية مسقط رأسي.

ـ والي سبتة، يا عبده، شيخ خيِّر يحبّ الصالحين. لن يلحقك بأيّ أذى. للمرحوم أبي فضل عليه يدركه ولن ينساه، وزوجي المتوفّى كان يدير ديوانه ويرعاه.

كلامها هذا تلقّيته بالقبول والبشاشة، فلم أطالبها بتفصيله ولا بتحديد ترتيبات الزواج وحيثيّاته، كيلا أميل بموقفي إلى التمنّع والعسر، أو أكون كمن يفاوض ويساوم، فأنزع عن اللحظة بهائها وعن المقام جلاله، لكنّ الحادسة الليبية بادرت إلى القول:

ـ مزايا والي سبته، يا عبده، لو تفضّلت بمعرفته يومًا للحظتها بنفسك؛ أمّا قراننا إن عزمت، فبما قلّ ودلّ يتمّ، بين ما تبقّى من الأقارب، لا بهرجة ولا بذخ، ولا ما تأباه أنت وتأباه أرملة.

فجأة أخذت نغمات العود تنفذ إلى مكمننا، مؤجّجةً لهيب شوقي إلى الواضعة رأسها ذي الشعر الحريريّ على صدري. ومن دون أن تلتفت إليّ، سألتني بصوت خفيض عاودته التأتأة: «يا... عبده... هل تُ... تُ...». أوّلت هذا على أنها تطلب دوائي، فأدرت وجهها نحوي وغمرتها بقبلات أحرّ وأوفى من الأولى، كان لي فيها قصبُ السبق وإبلاءٌ حسن، وكانت تبادلني بعضها بتفان وحياء، ثم إنّ لسانها تحرّر وانتعش، فقالت: «يا عبده، هل تُحبّني؟»، فأتى جوابي لا بالكلام بل بالفعل المفصح عن مضمرات الوجد بين جلدي وباطني، أتى بفيض من الضمّات والقبلات الصادقة البليغة... ومرّة أخرى خفت أن تتولاّنا الشهوة واسعًا فننزلق إلى مدارج التوغّل والاستغوار، ولعلّها شاطرتني شعوري، فتملّصت منّي برفق ما إن توقّف العزف العودي وسمعنا صوت غزلان خافتًا ينبئ بانتظار الخالة أم هنيّة في قاعة الاستقبال. انتفضت واقفًا وهمست في أذن المحبوبة الفرحة:

ـ هيّئي زواجنا بالتي هي أحسن، وليكن الرسول بيننا من تشائين، وبالله التوفيق وعليه نتوكّل.

طبعتْ موافقتها بقبلة خفيفة على حنكي، وانصرفتْ سعيدة جذلى بعدما برز الفتى العوّاد من حيث لا أدري، فصاحبني من باب خلفي إلى ممرّ يفضي إلى إسطبل عامر، هنا قال لي وعيناه تغليان بشتّى المعاني: «هذا الفرس المسوّم تهديكه سيّدتي مع أطيّب الأماني وأزكى السلام. تفضّل بركوب من باركْتَه بحملك إلى هنا يا أسعد الناس». طلبت من الفتى أن يبلّغ مولاته شكري وامتناني ثم امتطيت وانطلقت.

هذا الفرسُ المبارك لم يخف فرحه بي، يهشّ لي ويبشّ، كأنّما مالكته أوصته بي خيرًا، يقودني في اجتياز المدينة من تلقاء نفسه وبالوقع المواتي، حتى إذا بلغ بي ضاحيتها نحو الجبل طفق يركض مسرعًا ليظهرني على قوّته ومواهبه. وفي مواجهتي المسالمة لهبّات الريح الليّنة الطيّبة، كم زركشت الفراغ بالبوس الغضّ والتحنان! وأثناء ذلك شعرت أنّ حاملي مجنّح بي، وأنّي مجنّح بزخم ما عشته في كنف الحبيبة من لحظات شوقيّة مثلى، لا قِبل لي بالتعبير عنها، بل ولا قدرة لشعراء النسيب الأفذاذ على ذلك ولو اجتمعوا له. فكيمياء الدبدبات الكيانيّة والخفقات الروحيّة المرافقة للغبطة الغراميّة لا سعة لها في الكلمات ولا رحابة، وفي هذا تحدّث النفري والتوحيدي وغيرهما من الفطاحل عن ضيق اللفظ مع اتساع المعنى. . . تلك اللحظات، لو كانت للشيخ المكناسي عليها إطلالة لأسلم الروح تأثّرًا وانفعالاً.

حين بلغت مأواي في أوجز وقت، طلبت عبد البر ورجوته أن يجد من يرعى مقام فرسي، فطمأنني على ذلك ثم أنبأني حزينًا بموت الشيخ عبد الكامل المكناسي عصر هذا اليوم، وأنّ المحتضر كان يلهج باسم الله ورسوله وباسمي، ويقول بين الفينة والأخرى كلمات غريبة من صنف: «هذي دجاجة بكمونها يا ابن دارة... أعطاك الله... هذي هي التمخميخة وإلاّ فلا...». كتمت ضحكة وتواعدت مع القيّم على اللقاء في مراسم الدفن ليوم الغد. قصدت غرفة الميت، تلوت آيات على رأسه وألقيت عليه النظرة الأخيرة داعيًا له مودّعًا.

في الغد قبل صلاة الظهر، وكان يوم سبت، أقمت مع الجماعة صلاة الجنازة على كفن المتوفّى، ثم ووريَ التراب تحت سيل من الأدعية له، دشّنتُها بالتي كانت أعزَّها لديه قبل موته، أن يكرم الله مثواه في فسيح جنّاته، ويغدق عليه من مدد خيراتها وطيّباتها بلا انقطاع ولا حساب...

*

بعيد أداء صلاة الظهر في المسجد، دعاني عبد البرّ إلى مقاسمته غداءه في بيته، فلبّيت دعوته مطاوعًا. دار كلامنا بعضه في الممات والدار الأخرى، وبعضه في أحوال الناس وأتعابهم في هذه الدنيا. شعرت أنّ مضيفي به حاجة يتردّد في قولها، سألته بوجه منشرح بشوش عمّا وراءه. عبس قليلاً وزفر فأخبرني عن أوضاع مرافق الزاوية الصعبة، خصوصًا وضع جناح العابرين، وأصعب منه وضع دار الحمقى. فهذه الدار لم يبق فيها من

المطبّبين والأعوان سوى خمسة من المثابرين الصابرين، القانعين برواتب زهيدة. وقال إنّ أخوف ما يخافه أن يموت حاكم الحمقى، فتؤول الدار إلى التصدّع وأسوأ فوضى، ثم ذكر تضاؤل عدد المحسنين، وأثنى على الوالي ابن خلاص الذي لولا إعاناته الماليّة لذهبت الزاوية ومرافقها أدراج الرياح.

انتهزت ذكره لهذا الوالي بالخير للمرّة الثانية فسألته:

ـ حكام هذا الزمان، يا عبد البرّ، من طينة متشابهة ووادٍ واحد. قساةٌ عتاةٌ متسلّطون، كل منهم يلهج في السر صبحَ مساء: أنا وتختي أوّلاً وبعديَ الطوفان. وإن لان بعضهم وتعقّل لأجل مسمّى، فإنّما لحاجة في صدره يريد قضاءها... هل ابن خلاص هذا استثناء لهؤلاء ومغرّدٌ خارج سربه؟

أجاب وفي صوته نبرة براءة وصدق:

ـ إنّي، يا سيّدي، أحكم بالظاهر وأوكل ما في الصدور إلى علاّم الغيوب. الرجل وصفتُه لك من قبل كما عرفته. له في تدبير شؤون المدينة باع، ويجتهد في فعل الخير قدر المستطاع. ولو كان من طينة الولاة الذين تحفل بهم أعمال البلاد لتسلّط عليك منذ حلولك بسبتة ونظمك قسرًا في بطانته وسلكه؛ إنّه، كما حدّثني بذلك، يحرّم على نفسه إزعاج المنقطعين إلى التصوّف والخلوة، السالكين خفافًا نظافًا إلى الله. وهذا موقف ما أبعد السلاطين أنفسهم عنه، ومنهم الرشيد، السلطان الموحدي لهذا العهد.

لم أعلّق على إثبات جليسي بل أطرقت مفكّرًا، كأنّ بي حاجة أتردّد بدوري في ذكرها، فسألني متلطّفا عما ورائي، قلت:

ـ هل تعرف السيّدة فيحاء السبتي؟

ـ لم أرها بعد، إنّما أعلم أنّها من أسرة عريقة وأرومة طيّبة. أبوها وزوجها يرحمهما الله عملا في ديوان ابن خلاص، وكانا مجبلين على الفضيلة ومحبّة العلم ومساعدة المهجّرين إلى سبتة من الأندلسيين...

ـ قل لي، يا عبد البرّ... هل تَراها لي زوجة؟

ـ السعيد وابن حلال من تكون تلك السيّدة له. توكّل على الله وانوِ الخير في التي تهاجر إليها... إيه! الآن أفهم كلام المرحوم عبد الكامل المكناسي على فراش موته، هي ذي إذن «التمخميخة» التي تحدّث عنها. لله درّ هذا العابد المرح! رحل عنّا وأنت ستهجرنا، وأخيار آخرون بيننا لا أدري أيّ منقلب ينقلبون؟

لمحت في عيني القيّم حزنًا، فطمأنته على بقاء صلتي قائمة به وبالزاوية. نهض متثاقلاً وانصرف وهو يدعو لي.

* * *

ـ ٨ ـ

الآن عزمت . . .

شهادة هذا الرجل الورع وشهادة الشيخ المكناسي لا يمكن أن تجتمعا على ضلالة!

أنا في انتظارك يا فيحاء، فأشيري أمثلْ، ومُري أستجبْ. وريثما تهيّئين لنا من أمرنا رشدًا، لا مناصّ لي من غطسات، ولو خاطفة وجيزة، في مربّع ميسور من بحر علوم الدين والدنيا.

عيّنت لهذا اليوم ولما يليه كتبًا، بعضها كان منذ مدّة في انتظاري، يناديني ويغريني للاطّلاع عليه مجدّدًا أو لأوّل مرّة. وهكذا وضعتها على مائدتي وتحت مخدّتي، موطّنًا قراري على النهل منها ما قدرت، لعلّي أعوّض عن تقصيري في رعايتها منذ فترة. وكدأبي في التحصيل النافع، نظرت في المصنّفات الماثلة أمامي من زاوية محوري القائم وشغليَ الشاغل في أيّاميَ هاته، فلم أجد بدًّا من إعادة قراءة باب من إحياء الغزالي في «آداب النكاح»، الذي أجاد فيه الإمام وأفاد من جهتيْ التحليل والتركيب، والشرح والتعيين. ففي هذا الباب كما في «باب آداب العزلة» أراني على مذهبه في ردّ اختلاف الناس إلى اختلاف الأحوال والأشخاص، ولو أنّ الميل عندنا معًا هو الجمع الحسن

بين العبادة والنكاح، كما بين العزلة والمخالطة بحسب الإمكان والاستطاعة. لكن من لزم شقًّا دون آخر فعلّته في نفسه وحجّته بين يديه، لا جناح عليه ولا لوم. *«قيل لمالك بن دينار: لو تزوّجت، قال: لو استطعت لطلّقت نفسي»؛ أمّا كلام بن أدهم: «من تعوّد أفخاذ النساء لم يجئ منه شيء»*، فيلزمه التدقيق والتخصيص، ويحتمل أكثر من تأويل، فافهم.

من وجهة حالي ووجودي العيني، لا يسعني إلاّ أن أطويَ صفحة عزوبتي والنطق في الهوى، حتى أُرَشّد بالزواج غلمتي ونهضاتي الشهوانيّة، حتى أكون عند حسن ظنّ النبيّ الأكرم، أسوتي في هذا الركن وسواه، الذي رأيته أكثر من مرّة في منامي يقول لي: *«النكاح سنّتي، فمن أحبّ فطرتي فليستنّ بسنّتي»*. فعلى بركة الله وسنّة نبيه ليكن زواجي بعد أن أوفيت شرط النظر إلى الحبيبة حقّه وزيادة، روى الأعمش: *«كل تزويج يقع على غير نظر فآخره همّ وغمّ»*؛ كما أنّي عملت بوصيّة سيّد المرسلين إلى معشر العشّاق والمحبّين، إذ قال: *«لا يقعنَّ أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة، وليكن بينهما رسول. قيل وما الرسول يا رسول الله؟ قال القُبلة والكلامُ الحلوُ الودود»*. لا فضّ فوك يا قدوتي والآمر بالسعة واليسر! وهل مع التي تنهضني وترقيني فعلت غير الذي تنصح به، يا متني ويا سندي!

المباحات ترويحات واستراحات. فما أثبت هذا المبدأ وما أجدره في ملّتي النافرة من الملال، الحاضّة على المؤانسة والإمتاع! فلا خوف عندي من غوائل الزواج وأراجيفه، والحال

أنّي اهتديت إلى امرأة حلال، ذات همّة وجمال، لا يستحقّها إلاّ من كان ذا جسم سليم وعقل أسلم.

وقعت عيناي على *محاسن المجالس* لابن العريف الصنهاجي الأندلسي، فارتأيت أنّ مقالاته في التجرّد الأقصى والزهد المطلق لا تناسب مقامي، أو هي خارج طوري وسنّي؛ ثم رمقتُ كتاب خلع النعلين لابن قسي، فأعدت الانكباب عليه للتحقيق في علاقة هذا الصوفي البرتغالي بابن العريف وتأثّره به في ثورته على المرابطين بمعيّة مريديه. وإن أنسأ الله في أجلي وهيّأ الظرف فسأسائل الصوفييْن وأقابل كتابيهما حتى أستصفي قدر الجهد لُباب أفكار معلّمهما الأوّل، ابن مسرّة، وليد قرطبة ونزيل جبلها، الأفلوطيني المعتزلي الباطني، الذي ضاع مصنّفاه *كتاب التصبر* و*كتاب الحروف*، ولم يبق منهما إلاّ الفتات في طيّ كتب الإخباريين والتراجمة.

خطراتي وأفكاري تلك وأخرى من وحي قراءاتي، دوّنتها كما اتّفق، على أن أعيد في مستقبل الأيّام صوغها وسبكها لغرض الدرس أو النشر.

تذكّرت أنّ كتاب *خلع النعلين* أهدانيه عمرو القرطبي في طبعة ناقصة سيّئة، فتساءلت عمّا يكون حلّ بهذا الفتى وبطلبتي الآخرين. شعرت بانقباض غريب، ولو أنّي عزوت انقطاع أخبارهم إلى كثرة شواغلهم وغلبة كدورات هذا الزمان، كما أنّي طمست ما استطعت هوسي من اقتران طالع السعد عندي بطالع نحس يزامنه أو يليه.

ما تبقّى من المساء صرفته في الاغتسال والصلاة؛ ومن دون أن أتعشّى، انطرحت على فراشي مراودًا النوم بقراءة صفحات ممّا حصلت عليه من *الأغاني* لأبي الفرج الأصفهاني، وأحسب أنّي طالعت كثيرًا، إذ استيقظت صحبتها وجهًا لوجه مع «حكاية عَمر مع البنات اللائي ينظرن إليه من ثقب المضرب».

إلى الحمّام تاقت نفسي أكثرَ من أيّ مرّةٍ سلفت، بكرت إليه قبل أن يقوى فيه الهرج والزحمة. رحّب الدلاّك بي واختار لي، كعادته معي موضعًا معتدل الحرارة، أحاطني بسطل ماء ساخن وبلوازمي، ثم شرع يفرك أطراف جسمي ويدلكها بمهارته المعهودة، حتى إذا تفصّد العرق منّي غزيرًا وانتعشت عضلاتي ومفاصلي تركني أستريح مستلقيًا على ظهري ودعا لي بالصحة والعافية.

عجبًا كيف في هذا الحمّام، بعيد لحظة كهاته، تأتيني فراشات النعاس مرفرفة فوق عينيّ، فأردّها بصب طاسات مائيّة على وجهي كيما أنتبه وأصحو، وبين صبّة وأخرى كنت كمن يتّقي شرود الذهن ورخاوة الأعضاء فهدوء نوم مرتج أو غيبوبة. لم يأت شيء من هذا، إذ تجهزت بأحسنَ منه: يقظًا طفقت أستذكر أحبّتي الغائبين، ثم أحيّنُ أحلامي وأبوّبها وأرصد لوائحي ومحاضري، فأرى أنّ المتربّعة فوق ذلك كله إنْ هي إلاّ التي سأسكن إليها بعون الله وتيسيره، وأنسى في عشرتها وحماها غصّة ضياع مخطوطتي الثمينة.

سرحت في تصوّر صحبتها وجوارها وسعيِ الوقت بيني

وبينها. استبشرت خيرًا بهذا الوقت وبالجوار والصحبة. رأيت أنّ زواجي بها، هي الواحدة لا شريكة لها، عربون دخولي الراسخ طورَ التوحيد الأشمل وعلامة. رأيت ذاك الزواج جامعَ لحمتي وحميتي، ترياقًا لتسيّبي بين السبل المتفرّقة وتيهي بين أفخاذ النساء وأحضانهنّ. إنّي بين قُوتِها وقوت العلم العلي موعود إلى استبدال السطوح بالأعماق والقشور بالألباب، فلا جزء إلاّ بالكل، ولا فرع إلاّ بالأصل، ذلك لأنّ صحّة ممكن الوجود تكمن في إفضائه إلى واجب الوجود، الذي هو جاذب الموجودات جميعها إليه، الذي هو الله فقط..

أيقظني من سهوي أو نومي لغط آت من الخارج، لمحت الدلاّك ينحني عليّ ويستأذنني بلهجته المغربيّة في أن «يصوبنني»، جلست وأشرت إلى ظهري وأنا أسأله عن الهرج، قال إنّه بسبب منع صاحب الصندوق لثلاثة حمقى من ولوج الحمّام اتقاءً لعبثهم وأضرارهم؛ ثم إنّه تركني وهبّ على عجل، فلم أره مجدّدًا إلاّ حين أخذت مكاني في بيت الاستراحة، حيث سلّمته أجره وأخذت أتابع الحوار الصاخب بين ربّ الحمّام والحمقى، هؤلاء يلهجون بحقهّم في «التحميمة» بالماء الساخن، ككل الناس، وذاك يحتجّ عليهم بكون الحمّام لا يدخله إلاّ العقلاء. وجرى بين هذا وأولئك كلام عجيب غريب في تعريف العقل والحمق والفوارق الفاصلة بينهما. وحين بلغ بهم الاختلاف حدّ التلويح بالنعال والأيدي المعقودة، قصدني الدلاّك يحكّمني في ما شجر بين القوم، وقدّمني إليهم بصفتي من أهل التقوى والورع والحلّ والعقد. قبلوا بي قاضيًا، فتجرّد كبير الحمقى للكلام، قال:

ـ قبل القيل والقال عرّف لنا، يا ولي الله، العقل وحدَّه.

نشّفت شعري ووضعت عمامتي على رأسي، مفكّرًا في أبسط حدّ، يفهمه الحمقى والدلاّك وربّ الصندوق، أجبت:

ـ العقل، أيّدكم الله به جميعًا، ميزان من نور، يميّز به الإنسان الحقّ من الباطل، والخير من الشرّ، والحسن من القبيح. وقيل موضعه الرأس، وقيل القلب، وقيل هما معًا.

خاطبني صاحب الحمّام بنبرة التقدير والشكوى:

ـ هؤلاء، يا سيّدي، لا عقل لهم في أيّ طرف من أجسامهم. يريدون استباحة هذا الحمّام بالمجان، والعبث بما فيه كما لو أنّهم شياطين أو شرار الصبيان. تغاضيت مرّة، أمّا هذه فلا.

قال ثاني الحمقى:

ـ لو رزقنا الله فلوسًا لأدّينا، ولو سخّنوا الماء لنا في دارنا لاغتسلنا...

وأضاف الثالث مقاطعًا:

ـ فقال لنا عقلنا: هذا الحمّام حمّام الله، يدخله من يشاء من عباده.

وتوجّه إليّ صاحب الصندوق مستغيثًا:

ـ فكّني من هؤلاء الملاعين، يا ولي الله. افصل بيننا بالعقل...

أجبت بلهجة الحكيم الذي لا ينطق عن هوى:

ـ أوْدّي عن هؤلاء الفقراء ويدخلون الحمّام فردًا فردًا، كل ونوبته. هذا حلّ بالتراضي، فلا ضرر ولا ضرار.

أستقمتُ واقفًا ودفعت المستحقّات بسخاء. وإذ بدا لي صمتهم علامة رضاهم انصرفت مسلّمًا، تاركًا للجماعة مهمّة إنجاز فتواي، بينما أشخاص على الحمّام يتقاطرون.

حين رجوعي إلى بيتي عثرت على رسالة مختومة تحت بابي. فتحتها لهفًا، فطالعتني الحبيبة بخطّها النيّر الشفيف، تلقي عليَّ السلام، ناعتة إيّاي بقرّة عينها، وتنبئني أنّ يوم الخطبة يكون بمشيئة الله بعيد عصر أوّل جمعة من شهرنا هذا ربيع الأول، وأنّ كل الترتيبات هي على أحسن ما يرام... وختمت رسالتها بكلمات المحبّة والاشتياق.

كانت تفصلني عن الموعد السعيد ثلاثة أيّام أو أقلّ، ولو كان أقرب من ذلك لَلَبَّيْتَه هرولة لفرط ما يستخفّني الفرح والهوى، ولانتشيتُ بالتحابّ معنىً للحياة وكنهًا. قمت مسرعًا بأعمال اعتياديّة، ثم اعتصمت بفراشي أنشد الثبوت والفكرة، علّني أرسم لحاضري مرساه، ولمستقبلي المنظور مجراه. أدركت بادئ ذي بدء أنّ جسمي بأعضائه كلّها يخفق بالرغبة في التي أحنّ إليها وتحنّ إليّ، وإنّ هذه الرغبة لواقع، لا ريب فيه ولا غبار عليه؛ رغبة هي في مقامي هذا ذاتُ سيادة وسؤدد، فلا حاجة إلى التشويش على قوامها وجموحها بمقالات العازفين عن الدنيا،

المنفّرين منها، لا ولا بتمثّل العواقب السالبة وفعل الدهر بالخلائق.

حبيبتي قبلتي الأخرى وملجئي!

وحقّ ربِّ الكعبة، إنّها ليست عندي دمية لتزجية الوقت بالتلهّي وإشباع الشهوة.

هي الوجه الناعم المفدى، ظليل اللحظ، خصيب الدلالة والمجد، سآخذه بين يديَّ قارئًا مشتاقًا، أتملاّه وأسيح في طلعته وشذاه، أستضيء به وأُسبِّح في سلوكي بين الناس موحّدًا، وفي مسلكي إلى كبري في عين الله.

هذا هذا، وليس سواه ينهضني ويقوّيني في سبتة التي أنا حلٌّ بها، قاعدتي الخلفيّة ودار هجرتي. من حاججني في مسعاي فقد ترهبن ولغا، وعن سديد الفهم تاه.

غليان بداخلي عارمٌ أغالبه بلزوم بيتي وثبوتي، حتى لا أخرج عن طوري، حتى لا أخرج على الناس شاهرًا بهجتي، والزمان هذا عزّت البهجة فيه، وناءت بأثقالها الرزايا الزبّاء على الهمم والهامات. فلو فعلت ذلك لقال الحمقى: هذا واحد منّا بالصنف والطينة، لا يهمّنا أن يقبل أو يأبى، ولقال العقلاء من الفقراء وأهل التقوى: فرحك يا ولي الله زائد عن حدّه، زائغ عن مناط هذا العصر الذي يحزننا ويدمينا، فاهرب بنفسك الفرحة بعيدًا عن انكسارنا وحدادنا، بعيدًا ثم بعيدًا . . .

قول كهذا أو ذاك متهافت، مجانب للدقّة والصواب، لأنّه يسيء الإنصات فالإدراك. فأنا ما ادّعيت لفرحتي السيادة كلّها والإطلاق، ولا أخليتها من كل حزن على أندلسنا الآفلة أو من أي قلق على الحال والمآل، بل إنّي رأيت فيها آيةً تنهضني وتعضدني أمام النوائب والمحن، رايةً خفّاقة بجَلَدي وبأسي وبإقدامي وعزمي. وإنّي هكذا، قويٌّ الشكيمة، عاليَ الهمة، أحلّي استماتتي وصمودي بالفرح المفلح المكين، فأصعُبُ على الهزم والحتف وأستعصي. ووسوس لي موسوس فقال: ألم تقرأ في الكتاب المبين: ﴿لا تفرح إنّ الله لا يحبّ الفرحين﴾ أجبت: بل قرأت القول في سياقه لا مبتورًا ولا منتزعًا، إذ هو لقوم موسى إلى قويهم قارون، الفرحان حتى العجب والخيلاء بكنوزه العظمى. وأنا فرحي من منبع مغاير وطبيعة أخرى، فافهم.

* * *

- ٩ -

ضرب خفيف على بابي، متبوع بصهيل خافت، أخرجني من خطراتي. فتحت الباب فإذا بي وجهًا لوجه أمام فرسي، كأنّما أتى ليستفسرني عن وضعي ويطمئن عليّ. ضممت رأسه إليَّ مداعبًا، همست في أذنه كلمات المودّة والخير، مفاد بعضها أنّه عمّا قريب سيقلّني إلى مولاته ومولاتي، فأبدى إشارات الاستيعاب والموافقة، ثم عاد أدراجه مبشورًا طليقًا. بدا لي أن أتبعه حيث مربضه ومرعاه، واغتنامها فرصة لملاقاة الناس والتحدّث مع بعضهم في جناح الناطقين، لكنّي آثرت الاعتصام بخلوتي، وإرسالِ العنان لوارداتي ولما تيسّر من أحلام يقظتي.

انكببت على قراءة فصول من الكتب التي سيّجت بها فراشي، وحين تلمع في ذهني أفكار وتنزلات أقيّدها في أوراقي قبل أن تمحي أو يشطبها الشيطان من ذاكرتي. ظللت على هذه الحال، لا ألتفت إلى بطني إذا طلب القوت ولا إلى المؤذّن إذا نادى للصلاة، وأقول لهذا وذاك على رسلكما. صمدت في هذا الوضع، لا أمزجه إلاّ بوقفات تأمُّليّة في ما أقرأ وأكتب، حتى إذا تقدّم بي الليل إلى هزيعه الأخير، بين مصباح محتضر وشموع متآكلة، تناولت من جديد *كتاب التوهّم* للحارث المحاسبي عند

المقطع الذي أزعجني وأنكرته على كاتبه المتصوّف السني، المشهود له بالورع والفضيلة، يقول مخاطبًا المؤمن الموعود بالجنّة، وما فيها من الحور ذوات *«الأبدان الرخيمة الرعبوبة والخريدة الناعمة»*، المقيمات الخالدات، الناعمات، النديمات في معاطاة كاسات الخمر وأكواب العسل والألبان والماء:

«فتوهّم نعيم بدنها لمّا ضمّتك إليها كاد أن يداخل بدنك بدنها من لينه ونعيمه. فتوهّم ما باشر صدرك من حسن نهودها، ولذّة معانقتها. ثم شممتَ طيب عوارضها، فذهب قلبك من كل شيء سواها حتى غرق في السرور، وامتلأ فرحًا لِما وصل إلى روحك من طيب مسيسها، ولذّة روائح عوارضها».

إلى هذا الحدّ فبها ونعمتِ، إذا اقتصر الأمر على الضمّ والتداخل، والمباشرة مع الواحدة وما يستتبع ذلك من لذّة وانتشاء عظيمين. أمّا ما أعرضُ عن توهّمه وأتأبّاه لما يحويه من خلاعة مكشوفة وتهتك فاضح، فهو:

«فبينا أنتَ كذلك، إذ تمايعن عليك، فانكببن عليك يلثمنك ويعانقنك، وملأنَ صدرك بنهودهنّ، فأحدقنَ بك بحسن وجوههن، وغطّينَ بدنك وجلّلنه بذوائبهن، واستجمعتَ في مشامكَ أراييحَ طيبِ عوارضهن».

كلام كهذا له نظيره في ما أسماه قدماء الإغريق أورغييو، ودعا إليه إله الخمر والمجون الجماعي ديونزوس، وقلّده فيه أحد أرباب الروم، باخوس. وتلك أمم لها ما لها ـ أخذنا نحن

الموحّدين منها الحكمة ضالّتنا ـ وعليها ما عليها في شِركها وأساطيرها، فلا يعقل أن نجد لهذا الشقّ في وصف جنّة المؤمنين أثرًا ولو عرضيًا أو غير مقصود. وعندي أنّ الحارث المحاسبي في هذا الباب، باب القصف والخلاعة، قد أساء الحرث في ربوع الخيال، ولم يدرك المعنى والمراد، حتى أنّي ناجيت نفسي عن الجنّة إذا كانت على هذا الشكل والوصف، فلن أُجَرَّ إليها إلاّ بالكبس والإكراه، مفضّلاً عليها تلك التي هي من صنف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولربما نلتمس للمحاسبي العذر في كونه إنّما قصد العوام وصغار الأحلام، وخاطب حشود المحرومين والمكبوتين في الدنيا بما يلائم قصر خيالهم، وغلبة المحسوس عليهم دون أنوار التحقيق والمجازات، لا جعلنا الديّان في شعاب هواجسهم ووساوسهم، آمين.

وضعت كتاب التوهّم جانبًا بذلك العذر المخفّف، وطفقت أتوهّم ذلك النعيم الخضل، القريب إلى الأخذ في كنف الحبيبة يوم الخطبة وليلة الدخلة. أطفأت الشموع والمصباح، ناجيت نفسي، مغمضَ الجفنين:

توهّم يا هذا استيقاظك في اليوم الموعود، خفيفًا طربًا، نطِقًا بالكلام الحلوِ البهي، فتوضّأتَ لأداء ما وجب من الصلاة، ثم اقتتت بما يسدُّ الرمق، وتسوّكت كثيرًا واغتسلت في الحمّام بماء دافئ ينعش النفس والأطراف، ثم قصصتَ لحيتك وشعرك وارتديت لُبسك الأنيق الأجمل، وسوّيت هندامك وتطيّبت. وأثناء

صلاة الظهر مع الجماعة، ها العيون ترمقك معجبة متسائلة وتحدس، وأنت تمتطي فرسك الوفيَّ المبارك، أنّك ذاهب إلى أمر عظيم.

وتوهّم أنّك ارتأيت قبل ذهابك ذاك أن تُجريَ في الجبل الذي آواك جولةً للتفقّد لا الوداع، فتوجّهتَ نحو القمّة حيث مررت بدار الحمقى، وتناهت إلى سمعك أصداء هرجهم وصياحهم، ثم عرّجت نزولاً على غابة الزهّاد حيث لا ترى بعضهم إلاّ عرضًا ولمحًا، ومنها إلى الوادي الخصيب الظليل، ذي الغلالَ الوفيرة، فإلى البحيرة حيث يستحمّ رجال وفتيان، يتراشّ بعضهم بالماء ويتلاعبون. وبعدها همستَ في أذن فرسك أن يقلّك على مهل إلى مولاته ومولاتك، فحمحم موافقًا، واتخذ شِعبًا خلفيًّا ملتويًا أفضى بك إلى وسط الطريق المعتاد، وهنا بدت لك الأرض حافلة بأبهى بُسطها وأينع ألوانها، والأشجارُ مزدانة بأزهى حللها وأرق تمايعها، بينما الطيورُ تنشد صادحةً مغرّدة، والهواءُ عليلاً ينساب بين العناصر، يحرّكها إلى تناغمها وتآخيها.

فتوهّم تلك المحاسنَ كلّها مسلكًا لك إلى المدينة، حيث عبرتَ الساحات والأزقّة، ترنو إليك العيون بنظرات التوقير والتجلة، ظنًّا منها أنّك من بطانة ملوكيّة وطبقة عليّة. وتوهّم نزولك إلى باب الحبيبة بين الخدم والحشم، ودخولك الدار معزّزًا مكرّمًا، تحفُّ بك الجواري مسلّماتٍ مغنّياتٍ مزغرداتٍ ما وسعهن ذلك، حتى إذا أحللنك في بيت الضيافة بين موائدَ فاخرةٍ شهيّة، أطلّت عليك الحبيبة من وراء ستار بوجهها النضر الوضّاء،

وقالت لك بصوت رخيم خفيض: «عمّا قريب يحضر رجال وعدلان، فتتمّ لنا الخطبة كما ترتضي، يا قرّة عيني، وبما يُرضي الله». قالت قولها النفيسَ وغابت. وما هي إلاّ لحظات حتى أقبل عدلان فسلّما وجلسا، ثم توافد على البيت خمسة رجال عليهم سمات الرزانة والوقار، فقمت للسلام عليهم واحدًا واحدًا، أكبرهم قال إنّه ولي أمر العروس، واثنان يظهر أنّهما من صحبه، واثنان آخران لربما كنتَ تعرّفتَ عليهما ذات يوم ولا تتذكّر من هما.

كلمات الودّ والمجاملة بينك وبين هؤلاء الرجال توهَّمها، وكذلك إقدامَ عدلٍ على نسخ عقد النكاح بالجمل والطريقة المعهودة، وسؤال الآخر لك عن هويّتك وقبولك الزواج من المصانة فيحاء بنت المرحوم الحاج العربي السبتي والمرحومة عائشة الصنهاجي؛ ولمّا طلبَ تعيين الصداق جاوبه الولي بمقدار استصغرته وأعلنت أضعاف أضعافه. وتوهم فرحكَ الجامح بختم العقد والمصادقة الشرعيّة عليه، ثم قراءةَ الجماعة للفاتحة وأدعيتهم لك ولقرينتك بكل خير وبركة. وتلا ذلك مشاركتك لهم الشراب والطعام وتبادلك معهم كلامًا طيّبًا يليق بالمقام، والنساء بين الفينة والأخرى تُسمع أصواتهن المكبّرة أو المنشدة وزغاريدهن. وبعد ذاك قام العدلان مسلّمين مهنّئين، فانصرفا مسرعين بدعوى كثرة الشواغل القرآنيّة. ومال عليك الولي يسألك إن كان يرضيك أن تكون ليلة الزفاف في منتصف شهر ربيع الأوّل الجاري، فوافقته الرأي بحجّة أنّ خير البرّ عاجله. وخطر لك أن

تستأذنه في العودة إلى زاويتك، لكنّك سمعته يدعو الجماعة إلى صلاة المغرب خلفه فلبّيت، وبعدها حادثكَ وصحبُه في أمور الدنيا والدين، فنطقت بما قلّ ودلّ، ونلتَ استحسانهم وقبولهم، وأيّدوا مثلك واجب الجهاد في الأندلس كيلا يعظم خطر الحلف المسيحي إلى حدّ تهديد سبتة ومدن المغرب وثغوره على الساحلين. وظلّ الحديث بينك وبينهم ذا شجون حتى الانتهاء من تناول وجبة العشاء. عندئذ قصدتَ مع الجماعة المسجد الكبير حيث صلّيت في صحبتهم، ثم ودّعتهم للأوبة على فرسك إلى مستقرك.

وتوهّم ليلة زفافك وما حالفها من أفراح هي بالذات والصفات مثيلات التي شاهدتَها بمرسية في شبابك؛ أفراح ذات ولائم وطرب وغناء، للنساء باعٌ وأيُّ باع في إقامة طقوسها وإذكاء شعلها بفناء جناحهن، وكلّها تفيض موجاتٍ وأصداء على جناح الرجال. وهؤلاء، وقد ارتدوا ألبستهم القشيبة، يأكلون ويشربون، يتبادلون الطرائف والمستملحات، يغدقون عليك التهاني والعبارات الحسان، وأنت لذلك مستقبل بالشكر والوجه المشرق البشوش. ولمّا اقتربت ساعة اختلائك بالعروس وضعك فتيان شداد على طيفور، حملوك على أكتافهم، طافوا بك مبرّزًا في فناء جناح الذكور، منشدين مكبّرين، يصحبهم النفخ في الغيطة والضرب بالدفوف. وبعد ذلك استلمتك عجائز من النسوة، فقُدنك مهلّلاتٍ مزغردات إلى غرفة منتظرتك المنشودة، فولجتها سكران من التأثر والسرور، وغلقت الباب دونك وأرخيت

الستائر، وعن وصف محاسن حرمك وذكر مباهج ليلتك أمرت نفسك بالتستّر والسكوت، حفظًا للسرّ ولما يجل عن الكلام المباح. فالطور الذي دخلته منذ الآن لم يعد طور الطيش والنطق في الهوى، بل إنّه طور التوحيد والزواج بالواحدة.

*

لمّا أفقتُ في الصباح، كان ذهني ما زال رطبًا بذكرى توهّماتي، فلعلّ هذه حدثت لي قبل نومي وخلاله، فاختلطت خيوطها وتناسلت بين اليقظة والرؤيا المنامية حتى انزاحت الفواصل وأمحت الفوارق، فكيف لا أفترض أنّ أيّام الحياة إنّما هي أحلام؟

قمتُ لأتطهّر من الجنابة وأتوضّأ حتّى أردَّ ما عليّ من صلوات، ثم سددت الرمق بشيء من الطعام. وحين خرجت أتفقّد حال فرسي، رأيت القيّم يهرول نحوي كأنّ له خبرًا مستعجلاً أو حاجة ما. بادلته التحيّة سائلاً إيّاه عمّا وراءه، لم يجب من فرط تردّده ولهاثه. أخذته معي في جولة قصيرة حتى أمهله ويستردّ أنفاسه. قلت:

ـ بالأمس لم أخرج من بيتي. اعتصمت وطاب لي الاعتصام!

أجاب وقد انحلّت عقدة لسانه.

ـ لهذا منعت على نفسي إزعاجك.

ـ وهل كان ما يوجب ذلك؟

ـ لا . . لا . . أردت فقط أن أعيد إليك وديعتك عندي. قد تحتاج إلى صرف بعض مالك على زواجك المبروك.

ـ صدقت يا عبد البر! ناولني نصفها فقط واترك الباقي أمانة عندك. . . هل من شيء آخر؟

تردّد قليلاً ثم بحركة رأسيّة متراخية أجاب بالنفي. لم ألحّ عليه حتى لا أعاكس تفضيله التكتّم وعدم الكشف. فكّرت في دعوته إلى حفل زفافي، لكنّي أرجأت الأمر إلى وقت مناسب. استفسرته عن أحوال الزاوية ومرافقها، فطمأنني عليها بكلمات شديدة الاقتضاب. وفيما هو يستأذنني في الذهاب إلى قضاء أغراضه، لحق بنا خادم الحمّام وخاطبني بصوت مستهزئ فظّ:

ـ بارك الله فيك وفي فتواك يا مولايَ الزين! الحمقى، قلتَ، يدخلون الحمام فرادى لا جماعة، وغاب عنك أنّ الأحمق الواحد فيه يقلب أسفله على أعلاه. كيف غاب عنك هذا يا فقيه!

فانبرى له القيّم موبّخًا:

ـ سدّ فمك يا وقح. أتعلم من تكلّم؟

ـ أكلّم من يزيد في الطين بلّة. . من يأتيها في العين العوراء. . .

ـ اخرس وإلاّ شكوتك إلى مستخدِمك.

ـ معلّمي هو من ألغى الفتوى بمنع الحمقى من الحمّام ولو باللطم واستعمال العصا.

قال هذا ومضى مستخفًا مقهقهًا. أطلعت عبد البر على القصّة وما فيها، فضرب يدًا بيد وقال:

ـ في هذا الجبل كم عاينت من عجائب وغرائب! لو حكيت لك أهونها لأنستك قصّتك هاته. . . اللَّهمّ عفوك وسترك.

سلّم عليّ ووعدني بلقاء قريب وانصرف.

*

مع حلول موعد الخطبة فالزواج، مرّ كل شيء تقريبًا ـ سبحان الله! ـ كما توهّمت وتخيّلت، إلاّ من تغييرات وتدقيقات أتى بها الواقع ومجراه، من أهمّها: ولي العروس هو خالها، الحاج حمزة السراج، تاجر ميسور بمدينة طنجة؛ الرجلان من الشهود هما القيّم عبد البرّ البرادعي وعكاشة الخلطي حاكم الحمقى! كما أنّ ضيف الشرف في حفل الزفاف كان والي سبتة الحسَين بن خلاص، ومنشطَ الحفل بلا منازع كان الغلام غزلان، وكلاهما لم يبدوا لي في توهّماتي. الأوّل هنّأني واسعًا ودعا لي بصدق وحرارة فبادلته كلمات مجاملة وود وجيزة؛ والثاني يُسمع صوته في جناح النساء مغنّيًا، ويظهر أحيانًا بين الرجال محرّضًا على مصاحبة الجوق السوداني في أدائه وإنشاداته، فيرقص قائلاً: إيوا يا الرجال. . سخّنوا ليَ الطرح. . هذا زواج للاالفيحاء وسيدي عبد الحقّ. . . إيوا غنوا معي:

عبّاها عبّاها والله ما خلاها!

عبّاتو عبّاتو واللهِ ما خلاتو!

واتــاهــا وتــاهــا واللهِ واتــاهــا!

واتــاتــو واتــاتــو واللهِ واتــاتــو!

[. . .]

حامية حامية

واللي ما حماها

تقطع يده . . .

وكان الفتى النزق الخارج من طوره لا يقطع هتافاته إلاّ ليشارك الجوق أغانيه، منشدًا معه بصوت رنّان رخيم موشّحًا أظنّه لأبي الحسن الششتري:

يـا لـيـلُ طـلْ أو لا تـطـلْ فـرضٌ عـلـيَّ سـهـرك

لـو بـاتَ عـنـدي قـمـري مـا بـت أرعـى قـمـرك

[. . .]

* * *

ـ ١٠ ـ

ها إنّي إذن تحت سقف الزوجيّة، وأنا والحبيبة سمن وعسل. أقضي في عشرتها أوقاتًا عذابًا، نتناجى بالكلام الحلو ونتهادى المتع الحلال. وبعضَ الوقت أمضيه في محادثة أعوان الدار، كما في التعرّف على إقامتي الجديدة ومرافقها، وأرتاد منظرة في السطح تطلّ على البحر وأخرى تواجه الجبل وسفوح المروج والغابات، وأفتّش في خزانة المرحوم حموي، العامرة رفوفها بكتب الحساب والتفاسير والفقه. والخزانة والسطح موصولان بدرج يفضي نزولاً إلى الزاوية التي وعدتني بها الحبيبة، وتمّ بناؤها على قدم وساق في أجل قصير؛ وهي بالرّغم من صغرها الذي أوصيت به، توفّر للمقيم شروط الخلوة والاستغراق في الفكر والتحصيل. الهدوء بين أرجائها بالغ أوجه، لوازمها وأثاثها لا يتعدّى الضروري، نافذتها، المفتوحة على السماء وجنينة غروس، تستقبل من الأنوار النهاريّة والليليّة ما ينبغي ويكفي.

كنت في أوقات فراغي أنقّب في كتب الخزانة عمّا لم أقرأه ويفيدني، أو أرتّب في ذهني خطابات لكتاب حملت مضامينه وأغراضه منذ أواخر إقامتي الأندلسيّة، وعقدت العزم على وضعه وتحريره بعنوان أثيرٍ لديّ: بدُّ العارف. وللبد عندي مرادفات: بيت القصيد، قطب الرحى، الركن الركين، أو قلها وأندادَها

الأخرى ممتخضة، مؤدّية إلى معنى واحد، هو المثال الأعلى الذي لا هو إلاّ هو، الأول والآخر، الظاهر والباطن، الذي لا سبيل إليه إلاّ باكتشاف أسراره وآياته في ذات الإنسان الكادح المثابر، فمن عرف نفسه عرف ربّه، كما جاء في الحديث. والعارف من عرف أنّ اللواحق والإضافات أعراض بل أوهام، والزمان مُدد ولحظات، والمكان جهات وتحيّزات، وكلّها مائلة آيلة إلى ما دون الوحدة والإحاطة؛ العارف من عرف هذا وخبره فكسر دوائر العادات وأصنامها، ووقف موقف السعي إلى ماهية الماهيات وهويّة الهويّات وكمال الكمالات، وذلك بفضل قوّةٍ نزوعيّةٍ جاذبةٍ رافعةٍ يؤثلها ذاك العارف وينمّيها بين جوانحه وملكاته. وهنا لعمري يكمن المعنى الحقيق للمجاهدة المتوخّية تصورَ الفيض الربّاني، وتجريبَ السرمد الحاضر الكثيف، ودنوَ ممكن الوجود من واجب الوجود حتى الفناء فيه بالبقاء تحت جلاله وجماله. أليس الله يقول ﴿*وإليه تحشرون*﴾ و﴿*إن إلى ربك الرجعى*﴾ و﴿*إنّ إلى ربك المنتهى*﴾! فافهمْ هذا الكلام الروحاني الجلي يسهلْ عليك شرحي ويتيسرْ به لو أشكل.

فاللّهم اجعلني في كنف الحبيبة متجرّدًا إليك، توّاقًا مشتاقًا.

اللّهم أعنّي، والتي هي في عنقي، على تحويل نفسي وطبيعتي وهيأتي إليك.

اللّهم أرني بعض نور وجهك في جمال وحيدتي، منهضتي ومقربتي إلى حضرتك وملكوتك. . . آمين.

*

في بداية الشهر الثاني من زواجي، استأذنت حرمي في التوجّه إلى زاوية الجبل حتى آخذ كتبي وأنقلها إلى زاويتي الجديدة. وكذلك كان، إذ صاحبني بلال السكيت ببغلتين، فثبت إذ وصلنا صناديق ذخيرتي على ظهريهما وثبّتها بحنكة منقطعة النظير. ولمّا قابلت القيّم تركت له ألبستي وبعضًا من مالي على أن يتصرّف فيه كما يحسُن. وكان الفراق صعبًا على عبد البرّ وعليّ، ولو أنّي وعدته بزيارته متى سنحت الفرصة وعاودني الحنين إلى موطني الجبلي. وفي زحمة المشاعر الجيّاشة، قال إنّه قبيل زواجي علم من عابر يثق به خبرًا سيّئًا أحجم عن إطلاعي عليه في حينه مخافة أن يفسد عليَّ فرحي ومسرّتي. ولمّا ألححت عليه بالكشف عنه، نعى لي واحدًا من طلبتي قُتل بضواحي غرناطة في اشتباك مسلّح مع طابور من القشتاليين، وهو عمرو القرطبي. شقّ على الخبر المفجع وشعرت بوجهي يتربّد من الحزن، فاكتفيت بكلمات الترحّم على روح الشهيد والدعاء له. طلبت من القيّم أن يهدي إلى عنواني أيّ سائل عنّي من صحابي الأندلسيين، ثم أشرت إلى مرافقي باستباقي، مؤثرًا أن أسيح قليلاً على فرسي حتى أخفّف عنّي من ضيق عارم ألمّ بي!

هو ذا إذن الحدث الذي استشعرت وقوعه ملازمًا لصفوِ زواجي وبهائه، كشائبة لاعجة ونشاز منغّص! فهل لي أن أغالبه بسوى القول الدامغ القياسي: كل نفس ذائقة الموت، وإنا لله وإنا إليه راجعون؟

لا، ليس لي غير ذلك وقد وطّنت النفس على الكدح إلى

الوجود المطلق وعُليات الحقّ، لا عليَّ إن لم أبلغ التجوهر في المنتهى، والراجح المؤكّد أنّي لن أبلغ ذاك ما دمت حيًّا ممتحنًا بالإحنِ والمحن والأغيار، أو قل بالوجود المقيّد والمقدّر، وإنّما العبرة في التوق وتكثيفه، والشوق وتأجيجه، حتى لأقولنّ مع أبي يزيد البسطامي: «شربت الحبَّ كأسًا بعد كأسٍ/ فما نفد الشراب وما رويتُ».

ومهما أطوِ من أشواط في التجرّد عن هيوليّتي وهيكلي العظمي فلن أقدم على القول: *«سبحاني سبحاني... أنا الحقّ... وما في الجنّة إلاّ الله»*، على نحو ما فار به لسان أبي منصور الحلاّج، قدس الله روحه وغفر له شطحه وجموحه.

عن الحلاّج، ورابعة العدويّة من قبله والسهروردي من بعده، وغيرهم ممّن كانوا يجبهون الناس والحكّام بالحقّ، لا يفصلني مقام الإقدام والجراءة، بل دوائر ومسافات لن أجتازها حتى لو عمّرت حياتين وزيادة. قوام الفكر عندي يطلّ عليّ مشيرًا منبّهًا كلّما علاني شوقي واندلاعي، ومال رأسي إلى السَّيْب والافتتان. وهو اليوم أكثر من ذي قبل يحضرني ـ ذاك القوام ـ وقد أضفت إلى سياسة ذاتي سياسة منزلي، مع أنّي في هذه الأخيرة أبدًا لن أستبدّ ولن أمسك من زمامها إلاّ ما تيسّر، مفوّضًا مفاتيحها ومقاليدها إلى سيّدة المقام، ربّة الأمر والنهي والتدبير الحسن.

سيّدتي وحبيبتي، أناديها أو أرسل في طلبها أثناء نزوع النفس إلى السلو والأنس، فتمثل باسمة مستبشرة. تقبّل يدي وأقبّل يدها، تغسل قدميَّ وأغسل قدميها، وقد نأكل معًا ونصلي، وقد

أطلعها على ما تيسّر من قواعد الدين أو أعلّمها لعبة الشطرنج فأتركها بعد حين تهزمني، ولمّا تدرك خديعتي تأخذ في لطم صدري صائحة: يا غشّاش يا غشّاش! ثم إنّها قد تتوسّد ركبتي أو أتوسّد حجرها، فنمضي، بحسب ما يسمح به الوقت، في كلام ذي شجون. تحدّثني عن عائلتها في سبتة وطنجة، وما يفعله أعضاؤها، يتقدّمهم خالها، من أجل الأسر المستضعفة، الوافدة على المدينتين من الأندلس؛ كما تعبّر لي عن ولعها بالطرب والموشّحات والعزف بالناي. . . أمّا أنا فأكلّمها بوجيز اللفظ عن نتف منتقاة من حياتي الماضية في مرسية، وعن طلبتي القائمين مقام أهلي، وعن مقتل عمرو القرطبي على أيدي الأجناد القشتاليين. لكن عن شواغلي الصوفيّة الفلسفيّة، كنت أؤثر السكوت المطبق، تاركًا للفطنة اللبيبة حيّز الحدس والالتقاط. وما عدا ذلك كلّه فيدخل في حديقة الحياة الزوجيّة الحميميّة التي تمتنع عن النشر والرواية.

وكذلك مرّت بي شهور أستمرئ العيش في كنف الحبيبة وفي زاوية العبادة والدرس والتأليف، كما أسعد بلحظات انخطاف وجداني كثيف وتألّق فكريٍّ بيّن، لعلّها ذرّات مباركة من الخُلد الموعود.

وذات يوم، إذ استعصى عليّ ختم فصل من كتابي بدّ العارف، خرجت أتمشّى في ربوع الدار، كما هو دأبي في مثل هذه الحالة، فتناهى إلى سمعي طرب وغناء، والوقت مساء. هرعت إلى المأتى، فإذا بي أنظر من ثقب باب إلى فيحاء جالسة تنفخ في ناي، يصحبها على العود غزلان وعلى الدربوكة حفصة، بينما

عبلة ترقص وتغنّي موشّحا عذبًا رقيقًا لا أعرفه. وحصل لي أن تابعت المشهد نفسه خفية مرّات، كان آخرها ممّا لم أستطع السكوت عنه، إذ استرقت النظر إلى زوجتي وهي تتناوب مع غزلان على أكل تفّاحة، ثم تعزف بنايها بينما الفتى يتوسّد فخذها ويغني غناء شجيًا. لم أتمالك نفسي. فتحت الباب عنوةً وصحت مستنكرًا: «ما هذا؟!». استقام الفتى مرتبكًا مذعورًا وهرب؛ أمّا فيحاء فنظرت إليّ نظرة استغراب أعقبتها بضحكة مغرّدة لم تسمعني مثلها من قبل. سألتها علامَ الضحك، فترزّنت وقالت كلامًا مطمْئنًا، نزل عليّ بردًا وسلامًا: «غزلان يا عبده بمثابة ابني أو ابنتي. ألا ترى أنّه ولد أشبه بالأنثى؟ فلم تغار وتحمش!»؛ ثم ما فتئت سريعة الدمع أن أجهشت ببكاء مبرّح، تخلّلته شكواها من عقرها وكلمات الرضى على مقدورها والشكر لله أن مكّنها من تبنّي غزلان اليتيم وجعل لها فيه السلوان والعزاء.

استسمحتها في التوّ وزدت في طلب عفوها على فراش الزوجيّة، لاعنًا إبليس ووسوساته؛ كما همست لها أنّي أتبنّى بدوري فتانًا وأسميه باسم محمد على أن تحتفظ له هي باسمه المعتاد، فوافقت وارتاحت قائلة: «وهو كذلك يا أبا محمد». وفي الصباح أخبرت الفتى بالأمر ففكّر قليلاً، وقبّل يدي منفعلاً وقال: «بل سيّدي سمّني حمادة!».

وذات يوم آخر، سمعت ملَك الشرّ مجدّدًا يوسوس لي: خروج السيّدة يومي الاثنين والخميس، وسفرها في الشهر مرّة أو مرّتين إلى طنجة، وأنت تبقى هكذا في دار الغفلة!

كانت عقيلتي قد أخبرتني من قبل أنّها وثيقة الصلة بأسرتها في سبتة وطنجة، وتستجيب لواجب إحياء صلة الرحم وإسعاف المسنّين والمتعبين. ورغم ذلك قرّرتُ ـ من باب دحر تحرّشات الشيطان اللعين ـ أن أقطع كل شكّ باليقين، فأخذتُ أقتفي أثرها متنكّرًا كلّما اضطرت إلى الخروج من دون إخباري ـ وعلّتها في هذا حرصها على عدم إزعاجي ـ. ففي سبتة انتهت تحرّياتي إلى أنّ المتبوعة كانت تقصد إمّا عمّتها المسنّة أم هنيّة، وإمّا بعض الخيريّات كدار العجزة ومأوى الأيتام وملجأ للمهجّرين المعدمين من الأندلس؛ وعلمت من مصادر بهذه المرافق أنّ السيدة الكريمة كانت، متسترة، تأتيها بما تستطيعه من مساعدات عينيّة وماليّة. . . أمّا عن رحلة لها إلى طنجة، أعلمتني بمدّتها ومقصدها، فقد قامت بها في موكب صحبة الخادم بلال والفتى حمادة ومسافرين آخرين، وسرت في أثرها فارسًا، فتهيأ لي من بصي وترصّدي أن استيقن من إقامة الحبيبة مكرمة مصانة بين أهل خالها الحاج حمزة السراج. بعدئذ قصدت مسجد المدينة وقت المغيب، وصلّيت المغرب مع الجماعة، وأتبعتها بالنوافل، ولا دعاء لي إلاّ أن يغفر لي الله إثم ظنّي ويحول بيني وبين وسوسات الشيطان الرجيم، ثم إنّي قفلت راجعًا إلى سبتة على طريق واطئ يغشاه بعض المسافرين.

* * *

ـ ١١ ـ

حين ولجت الدار، لم أجد في معبري إلاّ الجارية عبلة التي استلمت منّي حملي ورافقتني إلى زاويتي. ومن دون أن تلتفت إلى علامات تضايقي، استأذنتني في غسل قدميّ وتدليكهما، فلم أجبها بلا أو بنعم، وإنّما جالسًا أسلمت أمري لعمل يديها بقدميّ الطائعتين، ولمائها الدافئ الممزوج بالريحان الأخضر. ودامت الفعلة وقتًا صرّفتُه تارة بتركيز نظري على السقف، وتارة بإغماض عينيّ عن مفاتن هذه البيضاء البضّة. ولمّا أشرت إليها بالانتهاء، جفّفت قدميَّ بفوطة ثم أخذت ماعونها وسألتني إن كنت أرغب في العشاء الآن حتى تأتيني به، ادّعيت أنّي شبعان وودّعتها متمنّيًا لها نومًا سعيدًا. لكنّها، وهي على عتبة الغرفة، عثرت فسقطت وتوجّعت زاعمة أنّ التواء حاق بقدمها، سارعت إلى إسعافها بما طلبت منّي، فاستحلت دلكي حيث دلّت، وحين مكّنتها من الوقوف انصرفت شاكرة متمايعة.

ما إن اختفت الجارية حتى بادرتُ إلى إزالة الجنابة في الحمام، واغتسلت طمعًا في التيقّظ والتخلّص من تعب السفر ثم توضّأت، يلازمني الشعور أنّي أذنبتُ في حقّ التي فتحت لي صدرها ورياضها، وآمنتني من شتات وطيش، فصلّيت مغالبًا وخز الضمير، طالبًا من الله الغفران والصفح، وبعد ذلك نمت.

في غرّة الليل، فتحت عينيَّ في الظلام على إثر إحساسي بنفس تشاركني فراشي. سألت: «فيحاء؟ متى عدت؟»... جاوبني صوت الممتدّة حذاء قدميّ: «أنا عبلة»... أوقدت شمعة وجلست أفكّر في طريقة صدّ الفتاة بالتي هي أحسن. متمالكًا نفسي ومصطنعًا الرفق قلت:

ـ عيب ما تفعلين يا بنت!

أجابت بلسان خافت متحنّن:

ـ ليس في الدار سوانا...

ـ لا بل الله ثالثنا، فاخشيه...

ـ هل تعلم، يا سيّدي، أنّي بكر، لم يمسسني رجل من قبل!

زهدت في استيضاحها عن السبب في ذلك والمانع، خوفًا من تيهان اللسان وعثراته، فجزمت بنبرة أدهشني جفافها وجفاؤها:

ـ لن أكون ذلك الرجل أبدًا، فأنا متزوّج وأخاف الله.

ردت عليّ مترجّيةً متضرّعة:

ـ غسلت قدميك منذ قليل ودلكت، رغبتي أن تفعل لي فقط مثلما فعلت.

أبديت إشارات التبرّم والرفض، وأمرتها بالعودة إلى مضجعها، فما إن انسلّت من لحافي وقصدت الباب حتى تمدّدتُ وأطفأت الشمعة، لكن سرعان ما ولّت وانقضت عليَّ كلبؤة جائعة

ظمأى، وأخذت تخدش عنقي وصدري بأظافرها الحادّة، وأنا من تحتها لا أقاوم هجمتها وإنّما أعظها بالكفّ عمّا تقترفه وباتّقاءِ خالقها. وفجأة، خلّصتني من قبضتها، وجلست على حافة السرير تبكي وتشهق، قالت:

ـ دعاء وليّ صالح مثلك مقبول. ادعُ لي ربّك بالزواج من ابن حلال... ادعه أن يرفع عنّي قهر من يحجر عليّ...

أشعلت الشمعة واستفسرتها عن فاعل الحجر عليها وعن فحوى فعله، فصمتت لحظة ثم أعلمتني أنّها مقيدة بقسم على المصحف ألاّ تفشي أمره واسمه. أفتيت بارتفاع حرج اليمين عنها إن كان أُخذ منها قسرًا. انتصبتُ وانتحت ركنًا قريبًا من الباب، وجلست على مصطبة تسترجع أنفاسها وهدوءها. قالت:

ـ انس، يا سيّدي، هذا الذي أومأت إليه، واجعل همّك كله في الدعاء لي.

ـ سأدعو لك يا عبلة في صلواتي كلّها...

قاطعتني بنوع من الحدّة:

ـ إنّما في انتظار أن يستجيب ربنا، لنتعاهد على أن أستمرّ في غسل قدميك وتفعل لي مثل ذلك متى تمكنّا. هذا إذا فضّلت أن أسكت عنك.

ـ تسكتين عنّي؟

ـ علامات الندوب على جسدك دليل على مقاومتي لاعتدائك...

ـ هذا افتراء وبهتان. . .

ـ روايتي أقرب إلى الصواب، وروايتك ينقصها الرجحان. ثم إنّي لا أسألك سوى شيء من اللمس الخفيف، بلا تعمّق ولا همس. توهّم أنّي جاريتك المطيعة، وأنت طبيبي الطيّب. . . هذا عهد بيننا إلى أن يفرج الله عنّي. ماذا تقول؟

ـ سأنظر في الأمر متى تيسّر ثم أخبرك.

ـ لا، يا ولي الله، عهدنا بِرّ، وخير البرّ عاجله.

انتابني شعور حادّ أنّ الفتاة أمامي إنّما أنا ممتحن بغوايتها في استقامتي وإيماني؛ سلّطها الشيطان عليّ ليصدّني عن دخولي طور التوحيد والزواج بالواحدة، ليرجعني القهقرى إلى طور الطيش والنطق في الهوى، فصحت بها أن تغرب عن وجهي وتنأى. لم تأبه لأمري، بل قالت بلهجة الوعيد:

ـ تدلكني فأسكت عنك وتسكت عنّي. وإن رفضت صرخت في جوف هذا الليل وولولت. ويا ويلنا من الجيران وأصحاب الشرطة!

تلبية طلب هذه الطائشة، ولو بمقدار، ولا الفضيحة!

اقتربتُ منها وقعدتُ حذاء رجليها الممدودتين. أخذتْ يديّ وقبّلتهما ثم دهنتْ راحتيّ بطلاء دبق، وعبّتِ الهواء وتنفستْ واسعًا، مترقّبة ما أنا فاعل. شرعتُ أدهن قدميها الواحدة بعد الأخرى وأدلكهما حتى الكعبين، وحين حاولتْ جذب يديَّ إلى

ساقيها، زفرتُ وامتنعت. ثم إنّي لمحتها تطبن أصابع إحدى يديها بين فخديها وتحرّكها، فغضضت الطرف غضًّا؛ كما إنّي سمعتها تطلق أنّات خافتة متعاقبة، استعجمتها بدءًا قبل أن أفطن إلى فحواها. وفيما رفعتُ يديّ عن الدلك، وتهيّأت لنهر جليستي وتوبيخها، إذا بها تشهق شهقة وتفر خلف الباب كسهم يمرق من الرمية.

الطهارة والوضوء! ثم تلاوة سورة يوسف في انتظار أداء صلاة الصبح. وبعد ذلك سأغلق بابي ونافذتي طمعًا في إكمال حصّتي من النوم.

في الصباح، ما إن فتحتُ عينيّ حتى رأيت عبلة شاخصة أمامي باسمة، تقرئني «صباح الخير والربح». استغربت وجودها، فسألت:

ـ كيف ولجت وقد أغلقت الباب والسرجب؟

ـ من يهده قلبه (أجابت) فلا ضالّ له، ومن عشق صادقًا كان عشقه مفتاح الموصد... في انتظار أن تفيق طبعت على وجهك قبلات خفيفة، ثم أعددتُ لك ما ترى، وكلّه من عجيني وطبخي.

التفتّ إلى مائدتي، فإذا بها ملأى بمأكولات وجبة الغداء. أدركت أنّي نمت الصباح كلّه. شكرتها على اهتمامها بتغذيتي وطالبتها أن ترجع إلى مسكنها. أنبأتني أنّ مولاتها عائدة عمّا قريب، فانفرجت أساريري وأبشرت. وحين استفسرتها عن وقت ذلك قالت:

ـ ليس قبل ظهر يوم غد. . . إذن، أيّها الحبيب، لنا ما تبقّى من النهار، وليل الغد وصباحه لنا!

أجبتها بلهجة حازمة كالحة:

ـ اتقي الله يا بنت، وإلاّ شكوتك إلى مولاتك.

ـ لو فعلت يصحّ عليك المثل: ضربني وبكى وسبقني وشكا. . . الخدوش على جسمك تشهد لي عليك. . . لا مفرّ لك من الإيفاء بالعهد.

أطرقت مفكّرًا في الفكاك من شيطانة ماكرة عنيدة. وأبصرتها تتقدّم نحوي بطستها وإبريقها، وتجلس على الزربية قرب فراشي. رأتني محجمًا متبرّمًا، فقالت بصوت متحنّن خفيض:

ـ تنكر عليّ فعلاً ما حرّمه الله، وتجافيني وأنا أهواك!

ـ كفّي يا بنت عن هذا الهراء، وعيك غائب عنك وكذلك عقلك.

ـ ما حيلتي وربّك خلقني كما ترى! قلبي يسوسني ولا إمام لي سواه. . .

ربِّ لا نفع ولا جدوى من مجادلة هذه الكاعب البكر، فارزقني عونك على قهر شهوتي ومغالبة التي صراخها سلاحها ولا منطق لها. وإن أطعتها في ما تفرضه عليّ فلا تؤاخذني، يا رحمان يا رحيم، بما ليس في نيّتي وأفعله مكرها مضطرًّا.

مددت رجلي في طستها، وعيّنت لها العرقوبين لا تتعدّاهما، فشرعت في شغلها تتقنه بمهارة عالية وتفان أكيد، تارة بإعمال

الدهن وأخرى بالدلك والغسل. كانت أحيانًا تستبيح ساقيَّ، فأسهو عن ذلك كلّه بإطلاق العنان لخواطري تسرح وتمرح في حقل الذكرى أو في شؤون نظريّة شائكة عويصة. ولم يرجعني إلى ما أنا فيه إلاّ صوتها يشدو مقطعًا من موشح أظنّه لابن بَقِيّ الأندلسي: *«عبث الشوقُ بقلبي فاشتكى/ألمَ الوَجدِ فلبّتْ أدمعي/ أيّها الناسُ فؤادي شغِفُ/وهو مِنْ بَغْيِ الهوى لا يُنصَفُ/كم أداريه ودمعي يكِفُ»*. *وزادت في انتقائها لما يناسب حالها ومقامها، فرددت مقطعًا من موشّح لابن زهر (الحفيد): «كبدي حرّى ودمعي يكِفُ/يعرفُ الذنبَ ولا يعترفُ/أيّها المعرضُ عمّا أصفُ/قد نما حبكَ عندي وزكا/لا تقلْ في الحبِّ إنّي مدّعِ»*.

في حديقتي الصغيرة ذات الغروس وشجيرة الآس، حتى الطيور صاحبت مطربتي بما لم تعوّدني عليه من زقزقات وتغريدات. وحين فطنتُ إلى ميل الغواية إلى الاشتداد، سحبت قدميَّ وجففتهما بفوطة قبل أن ألتمس من عبلة التفضل بالوقوف والمُضي. وإذ تفرّستُ وجهها ألفيتها محمرّة العينين من شدّة البكاء. نهضتْ حاملة ماعونها وقالت وهي تقصد الباب:

ـ غسلت قدميك بالماء ودمعي. ترقَّبني الليلة، النوبة نوبتي، وإن حرمتني يا ويلتي!

مرّة أخرى قمت أزيل الجنابة القهريّة وأتوضّأ تهيّؤًا للصلاة وطلب المغفرة، ثم سددت الرمق بما تيسّر وطاب.

* * *

- ١٢ -

حاولت الانكباب على أعزّ ما يطلب من علم الأوائل، لكن عبثًا. ذهني مشتّت لا يلوي على نواصي النصوص ولا على أنسجتها، وبالي مشغول كلّه بالشيطانة التي تبتزني وتشوش عليّ. ارتأيت أن أقضي الليلة القادمة في مسجد أو فندق وأسيح بعد ذلك في المدينة ريثما تعود حاميتي فيحاء، فألوذ بها وأسكن إليها آمنًا.

عند دنوّ المغيب، تسلّلت من زاويتي إلى باب الدار فوجدته موصدًا محكم الإقفال، وصعدت إلى باب السطح فألفيته كذلك. لم يكن لي بدّ إذن من الأوبة إلى مستقرّي حيث شرعت أخندق على نفسي بإغلاق بابي ونافذتي خلف كل ما أوتيت به من ماعون وأثاث. ظللت وقتًا في حالة تربّص واستنفار، أعزّز بوزني فراشي وبصناديق كتبي وأوراقي. تلوت ما تيسّر من الأوراد؛ ثم، والليل ينشر وشاحه، تناهى إلى سمعي صوت عبلة يترجّاني أن أفيَ بالعهد وأمكّنها من الدخول. استعصمتُ وصمتّ، فإذا بها تهدّدني بالعويل والصّياح، وتتوعّدني بأوخم العواقب، لكنّي ثبَتُّ في موقفي وصمدت. وفعلاً أخذت تطلق صرخات هي أشبه بالأنين، ترتدّ إليها ضعيفة خاسئة، كأنّما هي لحيوان جائع أو

جريح. وفجأة سكنت تمامًا وخيّم هدوء غريب من صنف ما ينذر بالعاصفة. وكذلك كان الأمر، بعد مرور لحظات كالرصاص ثقيلة، عشتها مزعزعًا مرعوبًا، إذ ما لبثت الفتاة أن عادت محدثة صخبًا وخبطًا، فشرعتْ بمعول أو ما شابه تحفر في حائطي الأمامي ثقبًا سرعان ما أتاح قطره للعين الرؤية ولليد الولوج. نهيتها عمّا تفعل، فتوقّفت قليلاً تستردّ أنفاسها، ونظرت إليّ بعينين زائغتين دامعتين. سألتها أن تتّقي الله في نفسها وفيّ، فسألتني السؤال نفسه ثم استفسرتني لِمَ يحرمها خالقها من حقّها في لقيا من تهواه، لِمَ يستكثر عليها فرح الحب والوصال. نبّهتها إلى أنّ حبّها للحبّ قبلة فارغة لن يعمّرها إلاّ فارس لا حبيب له ولا زوج، ويتشوّف إلى أن يجد من تحبّه وترعاه. عاد إلى عبلة رشد لم يدم طويلاً، إذ أخذت بآلتها توسع من نطاق الثقب، حتى إذا اعتراها عياء قالت:

ـ الآن، يا سيّدي، أرى وجهك الوضّاء كله. حدّثني عن الفارس الأعزب متى يطرق بابي ويخطبني. هل موعده قريب أم بعد أن أظفر الشيبَ وأشيخ؟

ـ علم ذلك يا عبلة عند الله وحده. توجّهي إليه بالدعاء ولا تقنطي. انشغلي أيضًا بأمور أخرى، فقد يأتيك الفرج من حيث لا احتساب ولا توقّع.

ـ دعاؤك لا دعائي هو المستجاب. ادع لي ربك أن يرفع عنّي ضيم من يحجر عليّ. ادعه أن يعجّل بلقائي مع من ينكحني ويُحسن إليّ. . .

ـ سأفعل ذلك في الصبح والإمساء. . . والآن عودي إلى مرقدك.

لم أنتبه إلاّ وكفّي في كفّها، تجذبه إليها، تقبله من الوجهين، تبلّله بدمعها الدافئ المهمار؛ لم أنتبه إلاّ وهي تلعق كل أصبع من أصابعي وتمصّه، تشدّد على الإبهام، تطلق أنّات تلذّذ وانتشاء. أردت سحب كفّي من الثقب، فأعجزتني القابضة عليه. فكاكي لاح لي وتمّ فقط بعد أن سمعتها تصوّت تصويت من أدرك البلغة ونال المراد ثم تهرول في حلكة الليل، بعيدًا عن فضائي وهوائي.

تركتُ غرفتي على ما هي عليه من تجهيز الدفاع الذاتي استعدادًا لكل طارئ، وأوقدت بعض شموعي قبل أن أنهمك في ترميم ثقب جداري بما حضر وتيسّر. وحين انتهيت توضّأت وصلّيت ثم قصرت أدعيتي كلّها للتي تبغي النكاح من ابن حلال.

نومي الليلة متقطّعًا كان، تخلّلته رؤى كابوسيّة خاطفة لم تخلّ لي سوى هول وقعها دون فحواها. استرسل اضطجاعي على تلك الحال حتى بعد أن غمرت غرفتي أنوار النهار. وعند الظهيرة سمعت نقرًا خفيفًا على بابي، فصحت بصوت خشن حادّ: «أنا اليوم صائم يا عبلة»، فأجابتني الطارقة: أنا فيحاء، يا عبده، فيحاء. . .».

سارعت إلى إعادة سريري حيث موضعه، وأخفيت عنقي المخدوش بذؤابة عمامتي، ثم فتحت الباب لمحبوبتي ومنقذتي. ضممتها إليّ وقبّلت ما استطعت. بادلتني إشارات المحبّة

والشوق؛ استغربت فوضى المكان، فادعيت أنّي بصدد تنظيفه وإعادة ترتيب أثاثه. قالت: هذا شغل المرأة. قلت: وشغل الرجل أيضًا. النساء والرجال في أمور شتّى سواسية وشقائق.

أجلست عقيلتي على الفراش جنبي، سألتها عن أهلها في طنجة وعمّا فعلته، عساني بهذا أغيّر مجرى الحوار وأشوش على حدسها وفطنتها. أجابتني أنّ الجميع بخير، يسلّمون عليّ ويتشوّفون إليّ. وأنبأتني عن مآرب قضتها في المدينة، منها تحديدًا شراؤها لمقتنيات منزليّة ولألبسة قالت إنّ لي منها نصيبًا. لكن، لا كلمة واحدة نبست بها عن عملها الخيري لفائدة المعوزين والأيتام، على غرار ما تقوم به في سبتة...

لحظات ألفة قضيتها معها، أجذب رأسها إلى صدري حتى لا تتراءى لها ندوب عنقي، وأحدّثها قليلاً عن بعض مشاغلي وعن قلقي على طلبتي المنقطعة أخبارهم عنّي. بثّت في أذني كلمات طيّبة مطمْئنة، ثم قامت للذهاب قائلة: «ريثما يحلّ وقت إفطارك يا عبده، عبلة ستكنس غرفتك وترتّبها، ومن بعد نأخذ قسطنا من الأنس والراحة».

لو لم تذكّرني حرمي بصوميَ الذي ادّعيته تقيةً لكنت فعلت معها ما يحلّله الله ورسول لزوج متشوّق ظمآن... لم يمرَّ على انسحابها حين حتى مثلت أمامي عبلة بعينين مسبلتين، وعليها كل علامات العفّة والحياء. من دون أن تكلّمني شرعت تكنس غرفتي وتنظّفها، لكن فجأة أقدمت الجارية حفصة، فطردتها من ربعي بإشارة نابية، وأتمّت عمل المسكينة، ورتّبت أثاثي ومتاعي بسرعة

فائقة ومهارة معتبرة، لا تلتفت إليّ إلاّ لتحدجني بنظرات شزراء مكابرة. ولمّا انتهت انصرفت من دون كلام ولا سلام، وأغلقت دونها بابي بعنف مسموع.

الجارية حفصة ما شاهدت مثلها من قبل: فارهة القامة، قويّة الجسم، واطئة الصدر، مقصوصة الشعر، بُنَيّة اللون، كثيرة الكلح والحَوَل. لو سلّمت لها أمري لقدرت على رفعي إلى السقف وخبطي على الأرض. هذه العملاقة، تأكدت لي الآن أكثر من ذي قبل فظاظتها وخشونتها في معاملتي. وحمدت الله أنّها لا تحبّني وأن وهب لي في ذلك درعًا واقيًا ضدّ حماقات عبلة وتحرّشاتها بي. حفصة هي من سأطلب بقاءها في خدمتي لو مجدّدًا سافرت زوجتي.

وقتَ أذان المغرب، سمعت فيحاء تناديني للإفطار، فلم يسعني إلاّ أن ألبّيَ النداء. مائدة المأكولات في انتظاري بالمقصورة كانت حافلة بكل ما تشتهي النفس ويرضيها. قسمت الصوم بالدعاء المعتاد وأنا في نفسي أطلب من الله التوبة والمغفرة، ورغّبت زوجتي الجالسة جنبي في مشاركتي الأكل ففعلت بمقدار. سألتها عن حمادة، قالت إنّه سيعود قريبًا بعد أن يقضي بعض الأغراض كلّفته بها. كانت حفصة هي التي تخدمنا، فاهتبلتها فرصة للتنويه بفضائلها وعلوّ كعبها في تدبير شؤون الدار ورعايتها. أصدقتني زوجتي الحكم وأيّدته، وقالت خلافَ ذلك عن عبلة التي لم تصقلها التجارب بعدُ وتعلّمْها الحكمة والرزانة، والتمست لها العذر في حداثة سنّها؛ ثم روت لي أنّ هذه الفتاة

صارت من الأسرة منذ أن تولاّها المرحوم أبوها بعد أن كانت حتى سنّ العاشرة تعيش في دار لليتامى. أمّا حفصة الأربعينيّة فقد علمتُ من زوجتي أنّها امرأة محنّكة، شديدة البأس، قويّة الشكيمة، لم تنل من عريكتها عنوستها المستديمة، وأنّها أيضًا من تركة أبيها التي أوصى بها خيرًا؛ كما علمت منها أنّ بلال ينتمي هو أيضًا إلى هذه التركة، بعدما أعتقه المرحوم من مالك ظالم أخرق، قطع لسانه بدعوى تناوله للكلام من دون إذن ولا حاجة. وهذا العملاق المسكين يجد هناءته وفرحه، كما ألحظ، في خدمة سيّدته ودارها بتفان عزّ نظيره، وأيضًا في الجُمع والأعياد حيث يزور باكرًا قبر ريحان الأسود بحجر السودان، ويعود إلى زقاق الرياض ليستعرض مهارته وسلطته في تنظيم طابور الضعفاء المحتاجين، وتوزيع ما نستطيعه من صدقات وزكوات.

منذ أوبة محبوبتي إلى قربي، استرجعت اتّزاني العاطفي، ومعه استطاعتي في التركيز على أعزّ ما يطلب في علوم الدين والدنيا. أمضيت ما شاء الله من الأيّام والأسابيع ليس في التحصيل وحسب، وإنّما أيضًا في تحرير رسائلَ وإغناءِ كتابي بدّ العارف بالإضافات والتنقيحات المضيئة المفيدة.

* * *

- ١٣ -

مذ حلّت السنة الرابعة لإقامتي السبتية، تسارعت الأخبار والأحداث واطّردت. فهذا الوالي ابن خلاص يكتب إليّ أنّ ملك الروم فردريك أُعجب بأجوبتي على مسائله وأرسل إليّ هديّة ثمينة أخرى، بعد أن امتنعت عن أخذ الأولى، وأنّه يحقّ لي استلامها من ديوان الولاية متى أحببت. ردّي بعثته مكتوبًا إلى الوالي على الفور: إحجامي عن أعطيات الملوك ما زال قائمًا، وتعليلي لزعيم الروم لم يتغيّر، وهو الوارد في قوله تعالى ﴿*قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاّ المودةَ في القربى*﴾، وإن تغابى عن الفهم، فالقربى، كما أشرت له من قبل، هم مسلمو الأندلس، والمودّة المرجوّة هي مساعدتهم بالعتاد ضدّ القشتاليين وأحلافهم من حملة السلاح والأحقاد... وأخبرت الوالي أنّي سأمكّن الملك الرومي من رسالة أشرح له فيها وجوه العون المطلوب منه، وبالله التوفيق.

وخبر الحدث الثاني الذي نوّرني وأثلج صدري: إقبال جمع من طلبتي عليّ زوال يوم الأحد، بعد أن أذنت لعبلة بإدخالهم. قبّلتهم واحدًا واحدًا، وحادثت القدامى قليلاً وتعرّفت على الجدد، ثم دعوتهم إلى مجالستي في زاويتي على القطائف

والحصائر والنيلِ ممّا كانت الخادمة الشابّة تعرضه عليهم من صحون ملأى بالمشروبات والحلوى والرغائف، وهي بينهم، بخمارها الشفيف، تتنقّل كطائر نزق وتهشّ لهم وتبشّ. وبينما كان عبد العلي والصادق وعدنان يهنّئونني همسًا بزواجي وإقامتي الجديدة، إذا بالجارية حفصة تمثل في الباب وتأمر عبلة بالخروج من وسط الرجال واتباعها في الحال، فما كان من المسكينة إلاّ أن سمعت وأطاعت.

مال عليّ عبد العلي، الذي لم يأبه للمشهد، وأنبأني أنّ زيارة الجمع إنّما هي لإحياء صلة المريديّة والاطمئنان عليّ، وأضاف أنّ الطلبة الحاضرين يعرفهم بمروءتهم وحسن سلوكهم، وكلهم مثل الثلاثي يقطنون غرناطة، عبروا إلى سبتة لمجالستي والأخذ عنّي في حصص معدودة قبل أوبتهم إلى أعمالهم بمدينتهم. ونبّهني الصادق إلى أنّ طلبة آخرين، وهم من سبتة، بقوا دون الحيّ في انتظار أن أخبرهم بموعد استقبالي لهم في مسجد المدينة. وعلمت من المقرّبين أنّ أقوالي سرت بين هؤلاء وأولئك، فتعلّقوا بها وتمنّوا منها المزيد.

لمّا لاحظت أنّ الجمع فرغوا من الأكل والشرب، خاطبتهم بكلمات محبّة ومجاملة، أوصيتهم خيرًا بالعلم النافع والعمل الصالح، ودعوت لهم بالنُّجح في ما يرضي الله وأمّة المؤمنين. تلقّوا كلامي فرحين مباركين، ثم قاموا مسلّمين عليّ، وانصرفوا بعد أن وعدتهم بلقاء في عصر يوم غد الاثنين بالجامع الكبير.

استبقيت الثلاثي، واستأذنوني في استبقاء شاب سمّوه خالد

الطنجي، ابن مولَّد من أصل قوطي. تناوبوا على ذكر مناقبه، منها دماثته واستقامته، ومنها معرفته بلغتي القشتاليين واللاتين، ولم يعيبوا عليه في محضري إلاّ عزوفه عن الزواج وإدمانه على السفر والجولان. وأخذ الشاب ـ وكان قويَّ البنية، أسمر اللّون، جميل الطلعة ـ يبرّر إدمانه المذكور بكونه لا يحلّ بربع شهرًا إلاّ وتتوق نفسه إلى استبداله بآخر، وقال «في تغيير المنازل الراحة»، موضحًا أنّه سيظلّ على هذه الحال إلى أن ينهي طوافه عبر البلدان بالإقامة في جوار الكعبة. وقع قوله هذا منّي موقعًا حسنًا، فكان مدخلاً إلى أن أتبنّى صاحبه، وليد طنجة، وأعدّه في زمرة المقرّبين.

سألت أوّل ما سألت عن ظروف مقتل عمرو القرطبي، فأكّدوا لي ما علمته من قبل، وأضافوا أنّهم سهروا على مراسيم دفنه في المقبرة الوحيدة التي بقيت للمسلمين في ضواحي مرسية، ومساحتها لم تعد تتّسع لموتاهم المتكاثرين. قلت في حقّ الشهيد كلمات رثاء ودعوت له بخير دعاء.

استفسرتهم عمّا جد في حياتهم فأعلموني أنّهم، عدا خالد الطنجي، الأعزب الصامد، حسّنوا دينهم بالزواج الحلال، وأنّ لكل واحد منهم ذرِّيَّة. وعلّق عدنان ـ وكان معروفًا بميله إلى المزاح ـ: «في غرناطة، كل شاب تجاوز العقدين ولو بقليل، لا بدّ له من فتاة يتناوب معها على ازدراد الرمّان في ضفتيْ نهر شنيل، أو في الغياض والبساتين والمرج الجميل، ويحسن أن يكون معها على سكّة الحلال».

أصدقت عدنان القول وتجنّبت الخوض في الموضوع نفسه مع عبد العلي حتى لا أحرجه في الكلام على زواجه الأوّل باليهوديّة راشيل، السيّئة الدخول في الإسلام. وعوضًا عن هذا ملت بالحديث معهم إلى أخبار الناس والساسة في غرناطة. ذكرت بإيجاز ما أعرفه منها: كون الحكم استتبّ لبني الأحمر على تلك المدينة وألمريا، لكنّ الناس لا يستطيبون الحياة ولا يأمنون من خوف. فالنصارى ما شُغلوا عنهم إلاّ بما هم فيه من منازعات ومعارك داخليّة، لن يطول بهم العهد في حسمها للعودة إلى محاربة المسلمين في غرناطة وآخر ثغورهم الجنوبيّة. سألت جلسائي أليس الأمير ابن الأحمر مواليًا لفردينان طاغية قشتالة؟

أجاب عبد العلي:

ـ بلى! ويؤدّي له الجزية ويجزل الهبات والأعطيات، لقاء أن يقويَ عضده ضدّ أبناء أرومته وملّته.

وأضاف الصادق:

ـ أميرنا لم يتلقّب بالأغلب إلاّ لأنّه قهر منافسيه من الأمراء المسلمين، أمّا مع فرندينان فكان السامعَ الطائعَ المغلوب على أمره.

ثم إنّ المقرّبين تناوبوا على إبلاغي نتفًا من أخبار أهالي غرناطة، فطابقت ما تصوّرته عن ضائقاتهم المتفاقمة وفقدانهم أسباب الأمل والرجاء في دنياهم الدنيّة المارجة، كلٌّ يتدبّر حاله بأيّ وجه اتّفق، مترقّبًا قيامًا للساعة وشيك، أو معتزمًا على

الهجرة والرحيل. وبدوري وصفت لهم أحوال سبتة والمغرب، مبرزًا أنّ استتباب الأمر للنصريين ـ ولو إلى حين ـ يفسّره يقينًا نزاعات النصارى في ما بينهم، ولكن كذلك ضعف السلطان الموحّدي مع متأخريه من صنف عبد الواحد الرشيد، غريق إحدى بركات قصره، وخلفه لهذا العهد علي السعيد. وذكّرتهم أنّ الأمل ـ علاوة على الرعاية لحقوق الله والقيام بها ـ لعلّه يكمن في حكم بني حفص بتونس، التوّاق إلى إحياء قوّة الموحّدين الأوائل في بلاد المغرب. وبعد تردّد ألمحت للرباعي إلى مصدر رجاء آخر، عيّنته في ميل ملك صقلية فريدرك إلى المسلمين وحبّه لعلومهم ضدًا على بابويّة روما واستكبار حملة الصليب. وحدّثتهم باقتضاب عن مراسلتي مع زعيم الروم ذاك وظروفها، وأظهرتهم على أنّي ما جاوبته على أسئلته السيّئة الطرح إلاّ لترغيبه في نصرة مسلمي الأندلس والمغرب بالعتاد والخبرة، وحتى بالعساكر والعدّة إن هو وقومه وفّقوا للإسلام وبأنواره اهتدوا. وفعلت ذلك، كما أوضحت، معرضًا عن كل هداياه وهباته...

تعجّب الطلبة لما سمعوا وابتهجوا، واستفسروني عن خاتمة سعيي الميمون، فأنبأتهم أنّ الملك لم يصلني بعد ردّه على مطلبي، وأنّي قد أشدّ الرحال إليه إن بدا لي في الاجتماع به ما يصلح لبلادنا وعباد الله فيها.

قال عبد العلي:

ـ وحقّ المعبود، يا معلّم، ما صرفنا عن لقياك طوال الشهور الماضية إلاّ شواغلنا الصغيرة وظروف إقامتنا الجديدة في غرناطة،

وكذلك حرصنا على أن تنعم بعزلتك في جبل موسى وتندر نفسك للعلم والعبادة.

وأردف عدنان:

ـ ولا تنسَ يا علي تقصيرنا في الانكباب على الدرس والتحصيل، كما يحبّ مولانا ويرضى. وظنّي أن نهاجر إلى سبتة حتى يعود علينا القرب من معلّمنا بنفع أكبر وخير أعمّ.

أجبت على الفور معترضًا:

ـ لا يا عدنان، بل تبقى وصحبك حيث أنتم. فلا تفكّروا في الرحيل إلاّ إذا دعتكم إليه، مثلي، الضرورة القاهرة والحاجة الماسّة. أمّا المسافة بيننا فتقطعونها إليّ بيسر متى تمكّنتم، ولولا منعي من العبور إلى الأندلس لقطعتها إليكم بدوري متى قدرت.

قال علي والصحاب يؤيّدونه بالإشارات والإيماءات:

ـ بل نحن نجيء إليك. العسس وأصحاب الشرطة يتسقّطون أخبارك، يا سيّدي، ويجمعونها. فالخير لك ولنا في أن تبقى هنا حيث أمانك وأهلك.

كان خالد وقتذاك مطرقًا كأنّه يفكّر في شيء مخصوص الأهمّيّة. سألته عمّا أذهله فطلب منّي تمكينه من أجوبتي إلى ملك الروم. سلّمته تقييدي ففحصه بعينين ثاقبتين، مركّزًا على بعض فذلكاتي ثم على خاتماتي، وقرأ بصوت جهوري مسموع:

«وهذه المواضع التي خالف الاسكندر فيها الحكيم أرسطو قد

ذكرتها لك على الوجه الصناعي وتقدر أن تنظر ذلك من كتب القوم. ولمّا علمت أنّ الأمر مشهور بنفسه تركت التنبيه على ذلك والتطويل، مع أنك لم ترِدْ إلاّ القول المقبول في ذلك، فمشيت معك بحسب ما طلبتَ منّي. وعند الاجتماع بك يقع الكلام على ذلك المواضع مشافهة وهو الأصحّ، فاعلم ذلك كلّه والله يوفّق بمنّة ويمنه وكرمه. انقضى الكلام على المسائل الصقلية...».

استخلص خالد من كلامي هذا أنّي شوّقت الملك إلى الاجتماع بي كيما ينهل من علمي مشافهة وينظر إليّ حيًّا أتكلّم... سأل عن التقييد متى تمّ إرساله، أجبت: منذ شهور تناهز السنة، ثم استوضحني إن كنت على يقين أنّ تقييدي وصل إلى المرسل إليه. قلت أن نعم. تدلّ عليه بطاقة منه إليّ بختمه وكذلك هداياه التي التمست من والي سبتة ردّها عليه. ضرب خالد يدًا بيد وصاح مدهوشًا:

ـ هل يعقل، يا ناس، أن يكون الملك محبًّا لعلماء المسلمين ويصله من أعلاهم شأنًا وكعبًا طلب بالاجتماع به فلا يجيبه إلى ذلك؟!

ـ شواغل السياسة (قلت) قد تكون أذهلته أو مصاعب مع رجال الدين أو طوارئ قاهرة لا نعلمها.

ـ هل يأذن لي سيّدي بعرض تأويلي في حدود فهمي، والله أعلم؟

ـ هاته يا خالد، على الرحب والسعة.

ـ تقييدك إلى فريدرك حصل فيه ولا ريب بتر وشطب على يد من تكفّل ببعثه إليه. والراجح عندي أنّ والي سبتة وأعوانه قد حذفوا في ما حذفوا طلبك الاجتماع بالملك. . .

قلت معترضًا:

ـ ابن خلاص رجل طيّب الصيت والسمعة، لا أتصوّره فاعلاً لما تظنّه. أقول هذا ولو أنّي لم أره بعد وأقابلْه.

حدجني عليّ بنظرة استغراب، قال:

ـ مثلك، يا معلّم، يحسن الظنّ بهذا الوالي ولم تخبَره وتقف بنفسك على صحّة ما يشاع عنه!

وأيّد الصادق رأي عليّ بالجزم:

ـ صح! تثق يا سيّدي، برجل لحقك المكروه والأذى من أمثاله وممّن يفوقونه جاهًا وسلطة!

وعلّق عدنان:

ـ والله لأهل السياسة في العدوتين من واد واحد وطينة لا تتبدّل. . .

صمتُّ قليلاً متأمّلاً جواز رأي الجماعة في تقييدي إلى ملك صقلية وما تكون أيدٍ خؤونة قد بثّت فيه من شطب أو تحريف، فارتأيت أن أسلّم لطلبتي أصله حتى ينسخوا نماذج منه ويوزّعوها على أقرانهم ومن يهمهم الأمر. استطابوا العرض وأيّدوه،

ووعدوا بنشر التقييد في غرناطة أيضًا وألمريا وما جاورهما. أمّا خالد فذهب أبعد من ذلك، إذ تطوّع للسفر إلى صقلية، متى تيسّر له، بغية التحقيق في الشأن، وربما لطلب مقابلة كبير الروم ومساءلته بلغته. رحّبت باقتراحات صحابي، ولو أنّي استصعبت بعضها في نفسي.

نقر خفيف على الباب نسبته لامرأة. سألت: من؟ فنفذ إليّ صوت فيحاء رخيمًا ناعمًا. أذنت لها بالدخول فقدّمتها لطلبتي الواقفين وعرّفتها بهم، وهي من تحت خمارها الشفيف تهلّ وترحّب، وهم يرمقونها من طرف خفي ويشكرونها ويباركون لها ولي زواجنا السعيد. قالت: «هؤلاء الشباب، يا عبده، هم من حدّثتني عنهم وتشوّفتَ إليهم. الحمد لله أن جمعك بهم هنا تحت هذا السقف الميمون!». ثم دعتهم للبقاء حتى يحين وقت العشاء وقضاء الليلة في غرف الضيافة، لكنّهم اعتذروا عن ذلك آسفين ثم مضوا مسلّمين، فصاحبتُهم إلى باب الدار حيث لمحت عبلة واقفة دونه تترقبّنا. وحين اقتربنا منها والتقت عيناها بعيون الفتيان لحقت بها حفصة، فلوت على ذراعها وذهبت بها بعيدًا وهي تنهرها وتقرّعها. ودّعت طلبتي على أمل اللّقاء بهم في جناح الحلقات بالمسجد الجامع، ثم عدت أدراجي متوخّيًا مجالسة زوجتي ومحادثتها في شؤون شتّى، متفاوتة الشأن والأهمّيّة.

* * *

ـ ١٤ ـ

يوم الاثنين بعد صلاة الظهر، توجّهت إلى مكان موعدي، فألفيت حشدًا غفيرًا في انتظاري. استقبلني رباعيُّ المقرّبين، أجلسوني على منبر صغير، ولا علم لي بما يحسن أن يكون عليه الدرس ولا بما يطلبه منّي الحاضرون. ملت على أذن عبد العلي أسأله في الأمر، أنبأني أنّه لا يعرف من الطلبة إلاّ بعضهم، ويجمل أن أخاطبهم كما لو أنّهم في العلم هواة أغرار، يؤثرون النحو الواضح والمتن الميسور، وما عساه يرفع عنهم شيئًا فشيئًا التباس السبل والطرائق في التحصيل والفهم.

بإشارة منّي هدأ الجمع، واشرأبّت أعناقهم، وانفتحت عيونهم نحوي، فصاروا بكنانيشهم وأقلامهم على أهبة الإنصات والتقييد. بسملت وحوقلت، وحييتهم ثم قلت:

«قال تعالى في سورة الزمر، الآية التاسعة ﴿*قلْ هل يستوي الذينَ يعلمونَ والذين لا يعلمون إنّما يذكر أولو الألباب*﴾، صدق الله العظيم. الذين لا يعلمون هم سواد الناس وعامّتهم، وهم صنفان: صنف يعلمون أنّهم يجهلون ويرجون رفع قيود الجهل عنهم، وصنف لا يعلمون أنّهم يجهلون فيقعون في براثين التقاعس والجهل المركّب، نعوذ بالله وأنواره من ذلك؛ أمّا الذين

يعلمون فهم أيضًا صنفان: صنف يتباهون كثيرًا بما أوتوا به من علم، ولو قليل، وصنف علمهم مبارك غزير، يتواضعون لله في عرضه وينفعون الناس به ما استطاعوا. . .

«أسواق الكلام والفقه ما أضعفها في هذا العهد المنكسر العصيب! كلٌ فيها بما لديه فرح؛ يأتي ببضاعته ويصرفها في خدمة عادته المقيمة، وفكرته الثابتة، وهوسه الدفين؛ أسواق تستتبع المجادلات العقيمة والمماحكات البليدة، يطغى الجزء فيها على الكل، والفرع على الأصل، والزبد على اللب، ويضيع الحقّ في حرث حقول الحجر والرمل، وينسلخ الوجود عن عمارته ووحدته، ويتطاير شظايا أو ينشطر قددًا وأشلاء. هذه الأسواق ألا فاهجروها وأديروا لها ظهوركم وغضّوا عنها أبصاركم. وعليكم في ضفاف أخرى بالبحث عن أهواء جديدة، وقيم متطوّرة منهضة، تفضي بكم خارج الأعداد والتقسيمات إلى معمار الإحاطة، وما به تنالون خيرًا عميمًا وفرحًا مكتملاً. ولن يقع لكم هذا ويحصل بغير الشوق والكدح إلى دوائر القرب والتحقيق.

«عليكم بأنموذج المحقّق المبدع، الذي يروم خلق شيء من أشياء، أي جرّاء إيقاظ همّته للعلم وصقل موهبته وثقفها. وفي أداء هذا الفرض بالحماس اللازم والجديّة المرجوّة، يتهيّأ لكم أن تسيروا في طريق يحفزّكم على إعطاء أحسن ما لديكم، ويوجد في حالة سبات وكمون.

«على طريق المحقّق المبدع، درّبوا الذاكرة، ونشّطوها في

حفظ نصوص نثريّة وشعريّة، منتقاة من سهلها الممتنع ومقدراتها البلاغيّة والفكريّة. فبذلك تكتسبون ملكة اللغة التي هي هواء هويّتكم المتنامية وقاعدتها المتحرّكة.

«لكنّ اللغة من دون فكر وعاء فارغ، وهيكل عار من لحمه وأعصابه. اللغة لا تمكّنكم من فهم العالم وقوله إلاّ بالفكر.

«والفكر طاقة مبدعة تُطلب بها الحقائق في شكلها النسقي أو الشَذريّ المقطعي، وذلك بوسائل مخصوصة يستظهرها عليكم مساعدي عبد العلي».

قام المساعد المعَيّن بالاسم وقال:

«أولاها، صياغة الأسئلة ووضعها. ففاتحة الفكر الباحث الحيّ وتوليده يقومان في السؤال، الذي من سماته الرافعة: الأصالة والخلق والعمق. وعلى هذا النحو يكون السؤال منشئًا للقضايا والموضوعات الداعية إلى إعمال الفكر المميّز بين الجوهري والعرضي، والطالب للأصل والكل والمفهوم.

«ثانيها، بناء الفرضيّة كعمليّة ذهنيّة مرتكزة على المعرفة ونزوع معقول إلى تحريك السواكن وتشغيل الخيال.

«ثالثها، المعالجة الفكريّة بالوسائط المنطقيّة المعتبرة: الاستقراء والاستنباط، ومقابلة قضيّة بأخرى بعد تحليلهما ثم تركيبهما في قضيّة تعلوهما بالحفاظ على نصيب الحقيقة فيهما؛ هذا في مرحلة تعلّم وتجريب لا غنى عنها، لكن بعد الارتواء

والاختمار، يكون بذّ العارف في المبادرة والكشف والابتكار، خارجَ منطق التضادّ ومناطق التوفيق والتلفيق والدوران. . .».

فجأة سكت عليّ، فيما كنت أرتّب للطلبة في ذهني أمثلة حيّة محسوسة تجلي ما قد غمض عليهم في أقوالي. وحين انتبهت أبصرت رجلاً كهلاً شديدًا يقصدني رفقة اثنين مثله، فينحني عليّ ويخاطبني بلهجة العتب واللوم:

ـ أنا ناظر هذا الجامع والقيّم عليه. الدرس في هذا الجناح من دون ترخيص لا يصح، يا شيخ.

ـ المسجد بيت الله (أجبت)، وتعليم الناشئة فرض عين على من له علم.

ـ صح يا شيخ، لكن ليس من دون إذن أولي الأمر. حضرة الوالي يأمر بالنظام وينهي عن الفتنة والسّيب.

وقع كلام الناظر في آذان الرباعي، فوقفوا مستنفرين، وقال الصادق بصوت حادٍّ مسموع:

ـ ألم تقرأ في الكتاب المبين، يا رجل، آيات الحضّ على العلم والتعلّم؟ ألم يصلك قول سيّد المرسلين: *العلم خزائن، ومفتاحها السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنّه يؤجر فيه أربعة: السائل، والمعلّم، والمستمعُ، والمحبُّ لهم؟*

وأضاف عدنان مسندًا معاضدًا:

ـ رواه أبو نعيم عن علي. . . نحن نأتمر في تحصيل العلم بأمر الله ورسوله، ولا حاجة لنا بترخيص من والٍ أو سلطان.

انتصب جميع من في الحلقة واقفين، وردّد أكثرهم كلمات عدنان بالهتاف والتأييد. كاد الوضع ينقلب إلى هرج وفوضى ويعمّ أرجاء أخرى. وسمعت الناظر يلهج بالتنديد والتهديد: «وتحثّ الأولاد على العصيان، يا شيخ، إمّا تتفرّقوا أو أحضر الشرطة والأعوان». عندئذ وقفت، وأشرت على الجمع بالهدوء والذهاب إلى صحن الوضوء. وكذلك فعلوا.

اقتعدت الحصير والرباعي من حولي يتأمّلون الموقف مثلي ويتدبّرون. ناجيتهم بالقول:

ـ حصولي على الترخيص بالدرس ليس بالأمر الصعب. الوالي ابن خلاص يعطيني إيّاه مسرعًا مبتهجًا لو طلبت. لكن أخشى أن يكون لي في هذا فخّ وانصياع.

لمعت عينا خالد، قال بلهجة المكتشف الواجد:

ـ طلب الترخيص من ابن خلاص لن يأتي منك، يا معلّم، بل منّا في عريضة يوقّع عليها طلبة سبتة دون غيرهم، ويرفعونها إلى الوالي. هذا ما أرى فعله ولو أنّي لا أضمن حسن العاقبة.

أثنى الصادق على رأي خالد وأردف:

ـ يستحبّ أن نبقى نحن الثلاثة خارج العريضة، حتى لا نُتهم بالشغب والتحريض ونرحّل إلى حيث مسكننا، وهذا ما لن يكون لنا صبر عليه.

أيّدنا جميعًا فكرة خالد وتطوّعه لإنجازها، ثمّ هببنا للتوضّؤ

حتى نصلّي المغرب. وبعد ذاك أقنعني الصحاب باستحسان عودتي إلى مستقرّي، فرافقوني إلى بابه. عرضت عليهم تناول وجبة العشاء معي، لكنّهم اعتذروا وسلّموا ومضوا.

حين دخلت الدار، وكلّي عزم على إخفاء ما جرى لي في الجامع عن زوجتي، أنبأتني حفصة بوجه مقطّب كظيم أنّ مولاتها ستبيت عند عمّتها التي ألمّ بها مرض طارئ. سألتها عن عبلة، فاستغربت سؤالي واستهجنته. أوضحت قصدي:

ـ هل رافقت مولاتك؟

أجابت بنبرة متهكّمة مستهترة:

ـ عبلة غارقة في النوم. أوقظها تحضر لك الأكل؟

اعترضتُ بحركة من رأسي وهرولت إلى زاويتي.

* * *

ـ ١٥ ـ

رقادي الليلة اضطربت حلقاته وتأرجحت بين أرق شديد ونوم متقطّع خفيف. وفي الحالتين معًا كنت أراني أصحب وجوهًا وأحاورها: خالد وعبلة، الملك فريدرك والوالي ابن خلاص، عبد البر البرادعي وعكاشة الخلطي حاكم الحمقى، فيحاء وعمّتها وخالها... كلامي معهم كنت ألوي على شتات منه وأضيّعه ما إن أستفيق أو أتنبّه.

في الهزيع الأخير من الليل، قطعت اهتزازات انطراحي بيقين النهوض للوضوء والصلاة وقراءة ما تيسّر من صفحات الأوّلين. ثم بدا لي أن أفزع إلى جولة في رياض الدار، لعلّها مع البكر تنشّط حواسي وتشحذ قريحتي فأعود مسرورًا إلى إتمام كتابي *بدّ العارف* وتنقيحه. وحين مررت بسطوان يفضي إلى مقصدي تناهى إلى سمعي من باب الجارية حفصة أنّات متواترة، كنت أحسبها لجريح لو لم تشاكلها آهات اللذّة والشهوة. تسمّرت في مكاني حينًا، حتى إذا انبلج الصبح أكثر استرقت النظر من ثقب الباب، فيا لهول ما رأيت: حفصة عارية ومهيمنة كوحش، ومن تحتها عبلة كفريسة، وكلتاهما في اختلاء سحاقي لا ريب فيه: الرهز والنهز على أشدّهما، وكذلك الشخير والنخير والشهيق.

استفحشت هذا، لكنّي عن نهي الأنثيين ونهرهما أعرضت تجنّبًا لعواقب سيّئة ليست في الحسبان. قلت: التريّث التريّث! وهرعت إلى زاويتي أتفحّص الأمر وأفكّر فيه. سمعت من قبل عن السحق والمساحقات، ولكن رؤية ذلك رأي العين لم تحصل لي أبدًا من قبل. تذكّرت أنّ عبلة أشارت لي أنّ هناك من يحجر عليها ويقهرها، وأخفت اسمه حتى انكشف لي هذا الصباح. كراهة الرجل عند حفصة حقيقة لا غبار عليها، وعبلة مكرهة على فعلها مجرورة إليه، وإلاّ لما توسّلت إليّ مرارًا أن أدعوَ لها بالنكاح. ظهر الخيط الأسود من الخيط الأبيض، وصدق حدسي البدئي وظنّي، فلم يبق إلاّ أن أروم فكّ الارتباط بين المتوحّشة والغزال، بل إنقاذ الغزال من مخالب المتوحّشة، بما يلزم من سرِّيَّة وحذق وإتقان. وما التوفيق إلاّ بالله.

أمضيت النهار نصفه في مغالبة هجمات النعاس، تارة بالكتابة، وتارة بالمشي في مربّعي وأنا أتضرّع بالدعاء إلى الله أن يكتب لعبلة قرانًا قريبًا ميمونًا. بعيد الزوال أحضرتها وأمرتها بالذهاب إلى سيّدتها تساعدها في البرّ بعمّتها، ولا تعود إلاّ صحبتها، فلبّت الأمر مطاوعة، وحفصة البارزة لنا على حين غرّة تميز من الحنق والغيظ، وترمينا معًا بنظرات شزراءَ ساخطة. وبعد انصراف عبلة، اقتربت منّي المتغوّلة الحولاء، وحدجتني بعينيها الزائغتين كأنّها تبلغني إدراكها لما فهمت. وفجأة ابتسمت وتلطّفت، سألتني إن كنت أبغيها في شيء، فدعوتها مترفّقًا إلى إحضار الطعام في المصريّة، ونيّتي أنّي من الآن فصاعدًا لن آكل من عجينها وطبخها، ولو جعت.

قبيل العصر خرجت لأداء الصلاة في مسجد زغلو قرب سماط العدول، فألفيت صحابي عدا خالد في انتظاري بمعيّة نفر من الشبّان المتزايد عددهم من حولي وأنا في الصحن أتوضّأ. أخبرني عليّ أنّ عريضة المطالبة برخصة الدرس هي الآن في طور الإعداد. سألته عن خالد فقال إنّه منصرف إلى أمر ينسيه ما سواه، ولم يوضح.

بعد صلاة العصر، قضيت لحظات معتصمًا بالصمت وسط حشد غفير من الطلبة، عليهم بوادر التعطّش إلى كلامي.

ارتفع صوت الصادق بالسؤال:

ـ أستفتيك، يا سيّدي، في أمر شاب كان حتى الأمس القريب يلعن الزواج ومشتقّاته، لا عن خبرة بل عن اختيار وفكرة، فصار منذ أمد وجيز على شاكلة من أحبّ من نظرة واحدة، واستوفى أمارات الحبّ، كما وصفها ابن حزم القرطبي لله درّه، حتى أنّ صاحبنا يصحّ عليه قول الشاعر:

يا قومُ إن الهوى إذا أصابَ الفتى
في القلبِ ثمَّ ارتقى فهدَّ بعضَ القُوى
فقدْ هوى الرجلُ

سألت من غير أن أبدي تعجّبًا أو دهشة:

ـ هل فتاك تعشّق محبوبته في النوم أم بعد أن رآها رأي العين؟

ـ نعم رآها وكانت من لحم ودم. عرف مسكنها في دار ذات شأن وحرمة، لكنّه والله لم يكلّمها أو يشر إليها مثقال ذرّة.

سألت وقد عبر خاطري حدس مباغت:

ـ وهذا المحبّ ما نيّته ومراده؟

ـ على فراش ولهه وانهياره سمعته يلهج برغبة لا شريك لها، أن يطلّق عزوبته الطلاق الثلاث، ويتزوّج محبوبته من دون إبطاء.

ـ فتواي، يا الصادق، أن يطلب صاحبك يد الفتاة من أهلها، فإن قبلته ليتوكّل على الله ويعقد عليها.

علامات انفراج وفرح على وجوه الثلاثي لم تخف عن بصري وإدراكي. عمّمت كلامي في فرض الزواج فقلت:

ـ وأنتم يا مجمع الخير، لا يتعدّى الواحد منكم العشرين بقليل إلاّ طلب النكاح الشرعي، واحتمى به من الموبقات المتلفة، وضائقات الشمل الصديع والحشا الوجيع، وما أكثرها في زماننا هذا. إنّ الزواج كالصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر.

رفع طالب سبابته وأخذ يسرد في ما حضضت عليه آيات وأحاديث، فشكرته على تذكيره، ثم شرعت أفسّر ما تلاه لغةً واصطلاحًا، وأسوق عند الاقتضاء بعض الدقائق واللطائف.

ارتفع صوت بالسؤال عن أيّهما أسلم وأفضل: الزواج بأكثر من واحدة أم بواحدة لا شريكة لها. أجبت:

ـ جاء في الآية الكريمة من سورة النساء، وذكرها بنصها من دون بتر أهدى إلى الصواب: *﴿وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا من النساء مثنى وثلاثَ ورُباعَ فإن خفتم ألاّ تعدلوا*

فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا﴾ . وأنتم لو فكّرتم وتدبّرتم لاستخلصتم أنّ تحليل تعدّد الزوجات ليس فرضًا أو أمرًا بل رخصة أملتها شروط وضرورات وقتيّة، منها تخصيصًا فتوحات الإسلام الأوّل وما كانت تحدثه من تناقص في أعداد الرجال من العائلين والعزّب. أمّا القاعدة الثابتة فدليلها التعجيزي وعنوانها الأوضح قائمان في هذه الآية الكاشفة الجازمة: *﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾* . والعدل هنا ليس في النفقة وحدها وإنما أيضًا في ميل القلب والقسط العاطفي؛ والعدل بهذا المعنى الثاني، وهو الأجدر والأوكد، استعصى على محمّد سيّد المرسلين، فما بالكم بمن لم يؤتَ مثله مكارم الأخلاق والعصمة!

سأل طالب في جواز ضرب الرجل زوجته، تاليًا من سورة النساء آيتيهما المخصوصتين في هذا الباب، فبيّنت أنّنا هنا أمام حالة حدِّيّة قصوى، هي النشوز أي النفور والجفول، وقد تشمل مواقف شاذّة معيبة تفسد فضائل الزواج ومقاصده كما هي مثبوتة في أكثر من آية. وأبرزت كون الأمر بالمعروف في الزواج كما في الطلاق، *أبغض الحلال إلى الله*، لهو الركن الركين والشرع الأكيد في ملّة التوحيد والدين الحنيف، مصداقًا للآية الكريمة من سورة البقرة *﴿الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾* . أمّا جواز الضرب كما في الآية المشار إليها، فلنقف على ما يُهمله الغلاة والحشوية، ولا يولونه كبير أهمِّيَّة، أي على وضعه مسبوقًا بما يفضله ويتقدّم عليه، وهو الوعظ والهجر، وإن

حصل الضرب ولا بدّ فبشرط أن يكون خفيفًا غير مبرّح وقيل بالكُمّ أو حزام حرير، كما نصّت عليه بالحرف خطبة حجّة الوداع، وهي مسك كلام أشرف الأنبياء، وقطب لازم في دستور المسلمين. هذا والحال، كما ألححت، أنّ نبي الإسلام، وهو الأسوة والقدوة، لم يضرب أبدًا زوجة له، ولو في أصعب اللحظات وأحرجها، كما في قصّة الإفك مع عائشة أم المؤمنين. . .

تردّدت في عرض تلك القصّة وشرحها، لما أن سمعت عبد العلي يصدع بالقول:

ـ في أمر المرأة المثلى علينا نحن أبناء هذا الجيل أن نغلّب على الظنّ ما ورد في حقّها على لسان أصدق المرسلين: *«خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء»*، ويقصد عائشة الطاهرة المجيدة؛ وفي حديث آخر: *«لو كنت مفضّلاً أحداً لفضّلت النساء على الرجال»؛ وفي آخر: «ما أكرم النساء إلاّ كريم وما أهانهنّ إلاّ لئيم»*.

برز طالب في مؤخّرة الصفّ وقال بصوت ينمّ عن احتجاج وضيق:

ـ عمري، أنا زيد المصمودي، يتاخم الثلاثين، وكل ما قاله سيّدنا عن فرض القران الحلال أفادني بأنواره، لكن قضيّتي، وتعني من هم أمثالي، ليست في تفضيل الزواج بالواحدة على غيره، بل في عجزي عن نيل ولو نصف الواحدة. العين، يا

معلم، بصيرة إنّما اليد قصيرة، ولا مسلك إلى قضاء فرض الزواج لمن نضب رزقه وعضّته أنياب العطالة. . .

أجبت الطالب القلق المأزوم ومن هم في وضعه:

ـ العطالة، يا أخي، لعنة ضدّ كرامة الإنسان، طعنة ناسفة للرغبة في العلم والتعلّم، تصرِّف أضرارها في الحال والمآل. ونحن عصبة نتّقي شرورها بالتآزر والكدّ في طلب الرزق الحلال. أمّا من نوى الخير في الزواج وعزم عليه، فلن تقصر يده عنه إذا عاضدته أيدينا، ويد الله مع الجماعة. فاعملوا وتضامنوا حتى تكبروا في عين الله.

وانبرى طالب آخر بالسؤال:

ـ ما نصحُ معلّمنا الأجل في حالة إنسان به حاجة إلى الزواج أو غيره، فلم يجد معينًا ولا من يقرضه من دون ربح، فهل يظلّ محرومًا إلى أن يهرم ويقضّي أم يقبل بما تفرضه الضرورة ولو كان الربّا؟

صمتُّ قليلاً حتى أعد الطلبة للاستماع الجيّد ثم قلت:

ـ الآية حول الربا من الآيات المتأخّرة، أسفَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه لكون النبي الكريم لم يسعه الوقت لإبانتها وشرحها. . . رأيي في ما تثيره أنّ الأمر كلّه متعلّق بحالة الأسعار وكلفة العيش وقيمة المال، فإن كانت جميعها في الزمن بين أخذ السلف ورده مستقرّة، فالربح هنا ربا، وإن آلت خلاله إلى التغيّر

أو إلى السوء، فالقدر المضاف إلى القرض المردود تعويض عن خسارة وجبر للضرر. . . تصوّر، يا أخي، أنك قرضت شخصًا مبلغًا ماليًا مهمًا واستردته منه بعد بضع سنوات، فرأيت أنّ هذا المبلغ لم يعد يسدّ إنفاقًا كان يكفله من قبل، فماذا عساك تفعل؟

سكت الطالب وأطرق مفكّرًا، فيما سأل شاب عن حدّ قطع يد السارق والسارقة ووجوب تنفيذه في كل الأحوال والأزمان، قلت:

ـ الآية المفردة في ذلك من سورة المائدة إنّما أتت من باب التخويف والتعميم، فلا بدّ إذن عند التخصيص والنظر في الحالات العينيّة من مراعاة مبدأين معتبرين: الأوّل هو درء الحدود بالشبهات. قال عليه الصلاة والسلام: *«ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلمين مخرجًا فخلوا سبيلهم، فإنّ الإمام لئن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة»*. وإيجاد «المخرج» ـ على غرار ما فعله عمر الفاروق رضي الله عنه ـ واجب على القضاة المجتهدين وولاة الأمر أيّام الشدائد والضائقات، التي ما خلا منها عصر، ومن أشدّها الجوع والاحتياج والفقر. جاء في الأثر *«كاد الفقر أن يكون كفرًا»*، وقال أبو ذر الغفاري: «عجبت لمن لا يجد قوتًا في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه»؛ أمّا المبدأ الثاني فهو سدّ الذرائع بمعرفة جنحة السرقة من أجل قطع أسبابها واقتلاع دواعيها وليس بقطع أعضاء السارق والتمثيل به. فهذا الحدّ، حتى حين تطبيقه، لم يكن رادعًا كافيًا للقضاء على السرقة واجتثاثها. والحاصل هو

تقديم معالجة علل هذه الآفة وسنُّ عقوبات زجريّة أو حبسيّة، بحسب الظروف والمقادير، والله الموفّق للصواب.

واستأذن طالب آخر في السؤال عن وجوب استصحاب حكم الشرع على المرتدّ بالتوبة أو القتل، فقلت:

ـ في زمن الفتوحات الأولى يا إخوة، كانت الردّة عبارة عن نفاق بل خيانة عظمى تتهدّد عود الدعوة الإسلاميّة الفتيّة، ومن هنا يجد الحكم الشرعي المعروف ما يسوّغه ويبرّره. أمّا وقد قويت تلك الدعوة المباركة، وترسّخت دعائمها وشاعت أنوارها، فلا خوف عليها من حالات الردّة المعزولة، التي تحصل في الغالب الأعمّ تحت الإكراه المسيحي المسلّط، وبدافع التقية والحفاظ على النفس، كما هو الشأن في أندلسنا السليبة لهذا العهد. ومهما يكن من أمر فالعبرة في ما يقوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿*فذكّر إنّما أنت مذكر لست عليهم بمسيْطر*﴾؛ وفي سورة يونس: ﴿*ولو شاء ربكَ لآمنَ من في الأرض كلهمُ جميعًا أفأنتَ تكرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين*﴾.

ارتفع صوت عدنان بالتنبيه:

ـ يكفيكم يا شباب ما نلتم وسجّلتم في هذه الجلسة من ذرر معلّمنا وإحالاته. وإذا ظهر المعنى فلا فائدة في التكرار، كما أنّ وقت صلاة المغرب أراه قد حان.

بدت على الوجوه علامات انشراح بيّن، فأذنت بالانصراف. تقدّمت الجمع وسرنا خفافًا مطمئنين نحو المسجد الجامع،

والسماء تجود بمطر رذاذ. في الطريق، ملت على الصادق أسأله متغابيًا عن صديقه المحبّ من يكون، فقال إنّه خالد. وتردّد قليلاً قبل أن يكشف عن هويّة المعشوقة في شخص الجارية التي استقبلت جماعة الطلبة في زاويتي وخدمتهم. همهمت: إنّها إذن عبلة تدنو من قطف ثمرة أمنيتها وأدعيتي...

قلت وآذان عليّ وعدنان ممدودة إليّ:

ـ متى يريد خالد الزواج من عبلة؟

سارع عليّ إلى الجواب:

ـ لو سألناه لقال غدًا. ونحن نترقّب بفارغ الصبر عودة العافية إليه من أجل العريضة إلى عامل سبتة وإيصال رسالة سيّدي إلى ملك الزوم...

ـ أشاور التي يعنيها الأمر (قلت)، فإن قبلت تكون الخطبة يوم الأربعاء بعيد العصر بمشيئة الله.

* * *

ـ ١٦ ـ

حين عودتي إلى الدار ليلاً، وجدت زوجتي في انتظاري. سألتها عن حال عمّتها فقالت حزينة متنهّدة:

ـ ليست بخير يا عبده. نقلتها إلى دارنا حتى أرعاها وأكون في قربك.

ـ قومي بنا إليها... وغزلان بل حمادة هل رجع؟

ـ إنّه في صحبتها، لا يفارق مضجعها.

ـ وعبلة؟

ـ مع العمّة تخدمها.

ـ وحفصة؟

ـ في غرفتها... مريضة أو تتمارض!

حين مثلتُ أمام العمّة، هبّ حمادة للسلام عليّ وكذلك عبلة. كانت العليلة بالغة الشحوب، خائرة القوى، هزيلة الجسم. تغمض عينيها كثيرًا، متنفّسة بصعوبة، ولمّا تفتحهما تهمهم بكلمات غامضة ولا تتعرّف على أحد. همس الشابّ في أذني أنّ

طبيب العمّة يائس من شفائها، مفوّض أمرها لمن يحيي ويميت، وأجهش ببكاء حارّ انتقلت عدواه إلى زوجتي وعبلة. لم أر ضرورة في فحص جسم أنهكه الهرم، وانطبع ببوادر انسلال الحياة منه. قرأت على رأسها بعض الآيات ثم انصرفت إلى بيت النوم معرضًا عن الأكل، معتزمًا النظر في جواز خطوبة خالد وعبلة قبل وفاة العمّة. بعد التحاق حرمي بي خاطبتها في الأمر والليلُ داجٍ، فناجتني بكلمات فرح بالخبر وترحيب، وأصدقتني الحكمة في أنّ خير البرّ عاجله.

في زاويتي وقت الصباح، أتاني حمادة وعبلة بوجبة إفطاري، أنبأتهما من دون مقدّمات بقضيّة الخطوبة، قال الأوّل: «لولا مرض العمّة لزغردت وغنّيت ورقصت»، وانقضت الثانية على كفّي، تارة تضعها على قلبها، وتارة تقبّلها وتبلّلها بدموع فرحها العارم، ثم أخذت ترفع كفّيها إلى السماء متضرّعة متوسّلة: «دعاؤك يا سيّدي مستجاب. أفرحتني أسعدتني وأبغي من الله يعطيك ويزيدك». وأغدقت عليّ أدعية أخرى كثيرة، حتى إذا سألتها متى تريد رؤية طالبها قبل عقد الخطوبة، قالت:

ـ لا وليَّ لي غيرك. بيدك أمري أحكّمك فيه.

ـ لكن هل يكون عرسك وعمّة فيحاء على فراش الموت؟

ـ لا، أعوذ بالله! إنّما يعقد الشاب عليّ، ويأخذني معه من دون وليمة ولا حفل.

من باب توقي ما ليس في الحسبان استعجلتها في الاستعداد

ليومٍ بعد غد، فوافقت وانتشت، وأرسلتُ مع حمادة بطاقة بهذا المعنى إلى خالد الطنجي بعد أن دللته على عنوانه، وأمرته بالإحجام عن أيّ كلام. وما إن ذهب حتى عبست عبلة واكفهرّت وناولتني من جيدها قارورة وقالت:

ـ خذها وادهن بها أوتاد سريرك العالي تبعدْ بها العقارب السامّة.

سألت ضاحكًا:

ـ أيّ عقارب، يا بنت؟

ـ لو حفصة علمت أنّك تسبّبت في زواجي لأصابها السعر، وحاولت إيذاءك بحشراتها القتّالة؟ حذارِ حذارِ، يا سيّدي، من هذي الساحرة الشريرة!

ـ حفصة هي إذن من يحجر عليك يا مسكينة!

أومأت بالإيجاب، فصرفتها وأنا أهدّئ روعها وأطمئنها على خلاصها القريب وخلاصي.

يوم الأربعاء الأوّل من شهر رجب الذي نحن فيه، أعلمت زوجتي بما عزمت عليه، فأحضرت إلى زاويتي بعيد العصر خالدًا وثلاثي المقرّبين. أخذت من الخاطب يمين الله على وجوب الإحسان إلى التي يريدها زوجة، ومكّنته لبعض الوقت من مقابلتها والتحدّث معها على انفراد. بعدئذ حضر عدلان رفقة حمادة، فتمّ تحرير عقد زواج العروسين على سنة الله ورسوله.

أثناء المراسيم وما تبعها من أكل خفيف وشرب، كان الخاطب يبدي علامات فرحه وبهجته، ويميل عليّ شاكرًا لي صنيعي، كما كان يتلقّى تهاني الصحاب الثلاثة ممزوجة بكلمات المفاكهة والمزاح.

بعد انصراف العدلين، سارع خالد إلى القول:

ـ الآن وقد استرجعتُ عافيتي وكل قواي بفضل زواجي المبارك، أذكّر سيّدي وليّ هذه النعمة بالوعد الذي قطعته على نفسي.

لم أنس فحوى وعده بحمل رسالة منّي إلى ملك صقلية، لكنّي استوضحته عن عجلته في إنجاز المهمّة وهو ما زال حديث العهد بالزواج، قال:

ـ في اجتماعي القصير مع عبلة، اتّفقنا على أن يكون دخولي بها ليلة الجمعة القادمة. وبعدها بيومين نهيّئ رحلنا للسفر إلى صقلية حيث أؤدّي مهمة سيّدي، ثم نقصد بقاعًا أخرى كثيرة. عبلة متشوّقة أكثر منّي إلى التنزّه والتجوال في أرض الله الفسيحة الرائعة.

تهامس ثلاثي الصحاب بكلام وصلني بعضه: «خالد يريد أن يشرك في عرسه مناظر الطبيعة الخلابة! يريد إشهادها ورقصها...». أمّا أنا فبادرت إلى تأييد رأي العريس، ثم دعوت عبد العلي إلى نسخ إملائي بخطّه الشيّق الدقيق، قلت:

«الحمد لله الواحد الأوحد.

«من عبد الحق بن محمد بن سبعين إلى عظيم الروم لهذا العهد.

«السلام على من وحّد الله الأكبر، وبعد:

«قد أجبتك من قبل إلى أسئلتك في قضايا فلسفيّة معتبرة، وقسوت عليك في بعض الألفاظ لا استحقارًا لك بل دفعًا بهمّتك إلى الإجتهاد والتحصيل، وتوخّي العمق في السؤال والتحقيق، فما من متعلّم تقاعس أو قصّر إلاّ وركب العلم عوجًا، وظلّ دون المسلك والمقصد.

«أمّا كتابي الوجيز هذا، ففي مسألة مفردة، ما كنت أسوقها إليك لولا علمي بخصال حميدة حباك الله بها، من مروءة وكرم وشجاعة ونجدة، وهي العزيزة القيّمة عند المسلمين؛ هذا علاوة على اشتهارك بين هؤلاء بما تظهره من حبٍّ لعلومهم وتقدير، وبما تعلنه من ميل إلى حضارتهم، ولو كره أكابر جلدتك وملّتك. وبناءً على هذا، تعلّم، وفّقك الله، آية من القرآن الكريم، خاطب بها محمّد الرسول الأمين هرقل عظيم الروم في مطلع دعوته النورانيّة المباركة: ﴿*قلْ يا أهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ بهِ شيئًا ولا يتّخذَ بعضنا بعضًا أربابًا من دونِ الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون*﴾. صدق ربّ العالمين. هذه الكلمة السواء تجمع تحت سماء التوحيد كل من ابتغى الإسلام أو سواه دينًا، وابتغى السلام نهجًا وغاية؛ هذه

الكلمة السواء هي التي سعى المسلمون، والذين معهم من أهل الكتاب، إلى إرساء أسسها والذود عن حماها، بالإبداع والعطاء والتشييد، وذلك في ربوع أندلسنا، أرض التعارف والتلاقي والمثال المجيد.

«لكن حملة السيوف والصلبان لهذا العهد، يتقدّمهم القشتاليّون، أبوا إلاّ أن يهدموا صرح التوحيد الخلاّق واغتيال أحلام الحضارة والسلام، فاجتمعوا على حرب المسلمين والإيقاع بهم، وعاثوا فسادًا في الديار والحرث والبناء، وبطشوا بمن عارضهم، وشرّدوا وهجّروا الأهالي والجموع، وفسخوا المواثيق والعهود، لا يصدّهم عن ذلك وازع الدين، ولا صحف الأوّلين من الرسل والنبيين.

«وأنت، أيّها الملك، لو استخبرت عن أحوال الجزيرة لهذا العصر لطالعتك صور الحيف الأقصى والقساوة الهوجاء، ممّا يدمي الضمائر ويقطّع الأكباد، صور يصقلها أولئك الأقوام بالتعصّب الأعمى وقوّة الحديد والنار. فانظر في الأمر مليًّا وقلّبه من أوجهه كلّها، معملاً في تشخيصه ميزان العقل والعدل، حتى إذا قذف الحقُّ نورًا في صدرك مكّنتَ فِرق الرجال الشداد الأتقياء بالعدوتين ممّا يحتاجونه من عرادات ومجانيق ونفاطات، وهي موفورة عندك. فبادر، رعاك الله، إلى تلبية هذه الحاجة فتُجزى جزاء الحسنى على مؤازرة أنصار الكلمة السواء، وتُذكر في سجلّ العاملين على جعل الأندلس موطنًا لكلّ ديانات التوحيد والإخاء، والأنموذجَ المحتذى والمنارةَ المثلى.

«أنتظر جوابك مكتوبًا، تسلّمه لحامل كتابي هذا إليك. انتهى.

«والسلام عليك وعلى من اعتبر واهتدى. والجناس الرئيس بين السلام والإسلام لا يغفل عنه إلاّ الأغبياء أو من في قلوبهم غلّ وسخيمة».

وضعت على الرسالة ختمي، بينا الصحاب يتبارون في التنويه بمنطوقها والثناء عليّ. طلبت من عبد العلي نسخ نموذج منها وتسليم الأصل إلى خالد. بعيدئذ سمعنا أذان المغرب فقمنا وصلّينا في مكاننا ثم، من باب الاحتفاء بقران العروسين، أقبلنا على الأكل من صحون كان حمادة يأتينا بها مادحًا إيّاها، آمرًا العريس: «إيوا يا عنتر المختنر.. كلْ من طبخ للاك عبلة».

لما فرغنا تجاذبنا أطراف الحديث، أبرزها دار حول موقف الملك فريدرك من حروب النصارى الممتدّة حملاتُها في المشرق الإسلامي، ولو أنّ انتصار جيوش صلاح الدين المظفرة قد حدّت من ضراوتها وأضرارها، موقف اتسم بالإعراض عن غلواء ملوك الفرنجة وكبراء كنيستهم، كما بالتعاطف مع المسلمين المنتهكة ديارهم وأراضيهم. ونبّهت الصحاب إلى أمرين: الأوّل في ذكر استقواء الملك الكامل بفريدرك على أخيه الملك المعظّم المتآمر عليه، حيث مكّنه لقاءَ ذلك من حكم صوري على القدس وبعض المدن الأيوبيّة في فلسطين، على أن تبقى الأماكن المقدّسة والإدارة الفعليّة للمسلمين، فجعله كمن يدهن من قارورة فارغة؛ أمّا الأمر الثاني ففي أنّ شوكة القشتاليين وأحلافهم قد تقوت بفلول الإفرنج المهزومين، العائدين أفواجًا أفواجًا من المشرق،

ونفوسهم تغلي بنوازع أخذ الثأر من المسلمين ولو على أرض الأندلس. وأقررنا جميعًا أنّ خطر النصارى الداهم هنا لا يقدر على ردّه إلاّ الموحدون وقوّة الحفصيين المتنامية ومساعدات ملك صقلية، علاوة على عون من الله الواحد الجبّار.

بعيد أداء صلاة العشاء افترقنا على أمل أن تتمّ الأمور كما رسمنا. غير أنّ وفاة العمّة صبيحة الجمعة التالية حال دون ذلك. مراسيم الجنازة والدفن، وما تخلّلها وتبعها من تقاطر المعزّين، ملأت ذلك اليوم عن آخره. أمّا خدمة الوافدين، فآلت إلى حمادة وبلال بمعيّة مساعدين من الجيران. كانت زوجتي الشديدة الحزن محاطة في جناح النساء بجموع المعزّيات، وكنت أنا، صحبة خالها الحاج حمزة السراج، أستقبل المعزّين فرادى وزرافات، منهم رباعي المقرّبين وطلبة كثيرين وثلّة من أكابر سبتة، يتقدّمهم واليها ابن خلاص، الذي لم يلبث وحاشيته بيننا سوى بعض الوقت؛ وقبيل أن ينصرف معهم مال عليّ متودّدًا وقال: «تزهد، يا ولي الله، في لقائي، وأنا لا أكنّ لك سوى المحبّة والتقدير. يوم الجمعة القادم بعيد العصر، هل يأتيك من يرافقك إلى بيتي؟». أومأت له بالقبول وبادلته السلام.

بعد تضاؤل الحضور من حولي، كلّمت زوجتي قليلاً ثم هرعت إلى زاويتي. فحصت سريري وقلبته بعد أن حرّكته إلى وسط الغرفة، فبرز لي قط شرس من تحته، لعلّه الذي لم يترك أثرًا لأيّ حشرة سامة. قمت بأعمال اعتياديّة وبعدها نشدت حصّتي من الاسترخاء والراحة. لكن ما إن خيّم اللّيل على

الأمكنة حتى تناهى إلى سمعي عويل أنثى متقطّع أفسد عليّ نومي. ناديت على عبلة وحمادة أستخبرهما فقالا إنّها حفصة. اعتقدت أنّ سبب فعلها هو موت العمّة، لكن عبلة فاجأتني بالكشف عن سبب آخر، قالت:

ـ مذ علمت حفصة بعقد قراني جنّ جنونها ولاذت بفراشها، لا طعام ولا شراب! تُمضي معظم وقتها بين الأنين والصراخ. مولاتي فيحاء تظنّ مثلك، سيّدي، أنّ ذلك بسبب مرض العمّة وموتها، والحقيقة هي ما ذكرت.

ضربت يدًا بيد وحوقلت، ثم رنّ صوت الشاب خافتًا مضطربًا:

ـ هذه الغولة لا يقدر عليها إلاّ سيّدي، أنت الخبير بدواخل النفوس، العارف بالحلول.

أوصيت عبلة والفتى بكتمان الأمر ريثما أنظر فيه وأقضي، ثم أذنت لهما بالذهاب.

في الصباح بعد نوم سيّىء، أحضرت زوجتي وشاورتها في أمر حفصة، ففهمت من جوابها أنّها لا تستطيع ردع الجارية عن البكاء على وفاة العمّة، وأن الدواء في الأناة والصبر. صعب عليّ مواجهتها بالحقيقة، لذا آثرت ترك الحبل على الغارب في انتظار فرجٍ ربّاني قريب.

مساء اليوم نفسه رافقت مع صحابي العريس خالد إلى حمّام

الحي حتى نسهر على تطهّره واستعداده لليلة الدخلة. مرّ كل شيء على ما يرام في جوّ نشط ساخن وبيت لم يغشه بعد المستحمّون، ولو أنّ الدلاّك وهو يحكّ رجلي تفوه بكلام بذيء رديء في حقّ المتصوّفة المتفلسفين الوافدين من الأندلس، وذكرني بالاسم زعيمًا لهم في سبتة وسائسًا، وحذّرنا جميعًا من خطرهم وبلواهم، فنهره خالد موبّخًا: «الذي تعنيه يا ألكع يا جاهل هو من تغسل قدميه، معلّمنا وإمامنا». فقام الرجل مذعورًا وهرول نحو الخارج. أراد الصحاب اللّحاق به لزجره وتأديبه، لكنّي أوقفتهم ونهيتهم عن ذلك نهيًا...

في ليلة الاثنين كان ذهاب عبلة إلى بيت الزوجيّة، ومعها متاعها وهدايا حرصت زوجتي على أن تكون خفيفة بقدر ما هي نفيسة. كان فراق العروس صعبًا، وأصعب منه في اليوم التالي حين ودّعناها وزوجها صحبة ثلاثي المقرّبين وزمرة من الطلبة. عواطف جيّاشة، وعيون محمرّة وأخرى دامعة، ووعود باللقيا متى شاء ربّنا. وفاجأني خالد، وهو يجهّز بغلة ويُركب عليها حرمه، إذ أنبأني أنّ نسخة من كتابي إلى ملك الروم أرسلها مع من يثق به إلى الأمير عبد الحق المريني وطالبه بمكاتبتي في موضوعها. لم أعبأ بهذا الأمر أو لم يكن لي متّسع من الوقت للنظر فيه، لأنّ الشاب كان قد امتطى فرسه وشدّ على لجام البغلة وذهب للحاق بقافلة في شرق سبتة، تتبعه وزوجتَه كلماتنا الطيّبة وتحايانا.

حين عودتي إلى البيت قبيل منتصف الصباح، ألفيت فيحاء في حالة اضطراب بيّن. أخبرتني أنّ صحّة حفصة تسوء، وألمحت

إلى شكّها في أن يكون السبب موتَ العمّة. طمأنتها على عودة الأمور إلى نصابها عمّا قريب، وصرفتها إلى الاهتمام بزائراتها، بعد أن أكّدت لي أنّها أخذت لخدمة الدار امرأتين عاقلتين في منتصف العمر.

اعتصمت بزاويتي للنظر في حلّ عقدة الجارية بالتي هي أحسن، ومنيتي أن تتخلّص ممّا هي فيه وتؤوب إلى سبيل الاستقامة والرشد. فتّشت في فراشي وأركاني عن عقارب أو حشرات سامّة، فاستبشرت خيرًا لكوني لم أجد لها أثرًا يلحظ. أجريت أعمالاً اعتياديّة قبل أن أصلّيَ وأتغدّى، ثم طمعت في شيء من النوم لعلّي أعدل مزاجي وأبلور خاطري، لكنّي لم أفلح.

لم تمض لحظات حتّى سمعت الجارية تعاود النواح والبكاء بصوت يبلغ أحيانًا حدّ الصراخ المبرّح. قصدت خفية غرفتها وأغلقت الباب دوني. كان المكان يعبق برائحة الرطوبة والعفونة، جرّاءَ انحباس الهواء وأشعّة الشمس. لم تأبه المريضة لوجودي أو لم تشعر بي. جسمها الطويل المنطرح على الفراش بدا لي غاية في الهزال والضمور؛ وجهها الشاحب يشي بالسقم والذبول؛ عيناها الفاترتان تلقيان على السقف والحيطان نظرات غائبة جوفاء. . . أطلقتُ نحنحات متتالية فلم توقظها من سهوها السادر المتّصل. عندئذ جلست على حافة سريرها ولمست يدها اليسرى أقيس دقات قلبها، ففتحت عينيها عليَّ هلعة مرعوبة، وصاحت صيحة نكراء تصمّ الآذان، ثم بغتةً همدت. اهتبلتها فرصة

فرجوتها بصوت متحنّن مسموع أن ترفق بنفسها وترجع إلى الله راضيةً مرضيّة. وعدتها أن أجعل طبّي وفقهي في خدمتها حتى تستعيد حِلمها وصحّتها. أدارت وجهها نحوي وحدجتني بنظرات ثاقبة شزراء، قالت:

ـ تداويني وأنت دائي!

ناشدتها الإفصاح، قالت:

ـ مذ حللتَ بهذي الدار وأنت تحفر قبري، أفسدت مقامي عند مولاتي، وصرفت عبلة عنّي. وعبلة، كما أدركت، هي روحي وكلُّ حياتي. تريد علاجي ومصيبتي منك أتتني!

كلمات تصدر عن امرأة متشنّجة شاذّة، كيف أواجهها، وبأيّ قياسات شرعيّة أو منطقيّة؟ قلت:

ـ أنتِ ما أنتِ عليه من خروج عن الجادة، أمرك يا امرأة يفصل فيه الخالق وحدَه. لكن ما كان من حقّك الحجر على فتاة عزلاء بالقهر والإكراه، ما كان هذا من حقّك في الشرع أو بالعقل!

انتصبت المرأة واقفة ولو بصعوبة ملحوظة، ونهرتني بالسؤال:

ـ تريدني أن أبرأ؟

ـ أي نعم!

ـ شفائي في رجوع عبلة. أتعيدها إليّ؟

ـ عبلة، يا امرأة، تزوّجت بشاب أحبّها وأحبّته...

ـ هراء، هذا هراء! بل أنت الذي زيّنت لها الزواج فزوّجتها. تريد علاجي؟ إذن طلّقها من صاحبك وأعدها إليّ...

ـ هذا عين المحال، يا حفصة.

ـ الله يرحم ويغفر، وأنت تستميت في رميي بالشرّ. اغرب عن وجهي يا ولي الشيطان. اغرب وإلاّ قتلتك وقتلت نفسي.

لم يكن لي من حيلة لتهدئة المرأة وإخماد فورتها، سيّما وأنّها أخذت ترميني بكل ما تقع عليه يداها من أثاث وماعون، وتولول وتستغيث. هرولت نحو الباب وفتحته فإذا بي أمام بلال والخادمتين وخلفهم زوجتي بوجه قلق شاحب، وحمادة جنبها يرتعد ويبكي. قلت للجمع: «أسكتوا هذه المريضة ولا تضربوها»، ثم خرجت ماشيًا بين الدروب والساحات، تارة مكبًا على وجهي أسائل نفسي وأحاسبها، وطورًا رامقًا كتل الدور والجدران وأجسام القاعدين والمارّة، وكلّها لا شكّ تخفي من الأسرار والألغاز والشقاوات ما لا يعلم عددها وكنهها إلاّ الله.

قطعت مسافات على الساحل فلم أنتبه إلاّ وأنا في ظاهر المدينة أرصد ما يعتور الفصل الربيعي من شذوذ وكدورة: ريح عجاج، سماء ملبّدة بسحب دكناء، بحر متوتّر الأمواج، رماديُّ اللون، يرمي عين مبصره بالقذى والشؤم. لكن حتى لو كانت الطبيعة ذات حلل رائقة قشيبة لاعترفتُ بما ليس لي منه بدّ: آهٍ من النفس المثخنة بالأخلاط الرديئة! وآهٍ ثم آهٍ من رجحان عجزي عن سبر أغوارها وإصلاح أعطابها!

قصدت الجامع والليل ساجٍ، فتوضّأت وصلّيت المغرب والعشاء وحدي في ركن شاحب الضوء، ثم أتبعت ذلك بالنوافل تلو الأخرى، وهمهمت بما تيسّر لي من الآي، وفكري كلّه منجذب إلى الله الصمد، الواحد الأحد، علاّم الأسرار والغيوب، الذي بيده الملك وإليه نؤوب. ولمّا نظرت من حولي، لمحت ثلاثي المقرّبين على يميني ينتظرون أن أفرغ. دعوتهم إلى مجالستي فلبّوا محيين. حدست أنّ وراءهم شيئًا فسألتهم عنه. أنبأني الصادق أنّهم مضطرون للعودة إلى غرناطة في فجر الغد، وقدّم كعذر وجوب قيامهم بشؤون الأطفال والأهل. سألتهم عمّا فعلوه بالأمس واليوم، فتحدّثوا عن مقتنيات وكتب اشتروها، وعن شباب سبتيين وثّقوا العلاقة بهم، وكشف عبد العلي عن عمل تلكّأ الآخران في الإفصاح عنه: حضورهم في المسجد الجامع حلقة درس للفقيه إدريس التادلي، أقنعتهم أنّ الرجل لا علم له ولا منهج، يهرف بما لا يعرف، يغتاب أهل الدراية والعقل، متّهمًا إيّاهم بالمروق والزيغ، منتدبًا نفسه للدفاع عن بيضة الدين وهو أضعف من أن يحمي بيضة الدجاجة. قالوا إنّهم تجرّدوا له، فسألوه في مسائل نقليّة وأخرى عقليّة، فلم يكن له من جواب سوى أن هاج وماج، وأرغد وأزبد، ونعتهم بنعوت مقذعة شتّى، وكلّل غضبته بأن نسبهم إلى أشياع السبعينيّة، وهي عنده كما صاح: «هرطقة وزندقة، يقيم صاحبها في سبتة السنية المالكيّة، يفسد شبابها الأغرار، ويشهّر بأولياء الفقه والملّة وأولي الأمر والدولة»... وقالوا إنّه هذى بكلام سقيم أرعن، آثروا عدم نقله وروايته.

استغفرت الله وعذت به من ظلم المتحيّفين وإفك الناقمين الحاقدين، هو متولّيهم، والحاكم بيني وبينهم في هذه الدار أو في الأخرى. ارتأيت الفرصة سانحة لاستشارة الصحاب في سعي ابن خلاص إلى لقائي، قلت:

ـ فقهاء التعصّب والسوء، يا أحبّتي، يضيّقون عليّ الأرض بما رحبت، يستغلظون بالسلطان في مطاردتي أينما حللت وارتحلت. وهذا والي سبتة يدعوني إلى الاجتماع به ومحادثته، وأنا ما زلت أتردّد وأرتاب.

انبرى للكلام الصادق بلهجة جادّة حازمة، قال:

ـ لا يا سيّدي! تبرّمك هذا بات في غير محلّه. تآمر فقهاء من سبتة عليك يقضي بأن تجيب الوالي إلى دعوته. فإن وجدت فيه الرجل العاقل والمؤمن التقي والحاكم بالقسط فبها ونعمتِ، وإن ظهر لك على عكس ذلك، تدبّر الأمر بفهمك الواسع ودرايتك المعتبرة.

أبدى عبد العلي وعدنان إشارات الموافقة والتأييد، فما كان منّي إلاّ أن فعلت مثلهما، ثم وقفت أودّعهم وأتمنّى لهم سفرًا مريحًا وعودة ميمونة إلى الأهل والأحباب، وهم يعانقونني ويعدونني بزيارة أخرى متى استطاعوا.

حزن على فراق هؤلاء الفتية ورحيل خالد وعبلة، وحزن على سوء حال حفصة، وحزن لكيد الفقهاء ودسائسهم، ولا عون لي

للتخفيف من وطأة هذه الأحزان إلآك يا فيحاء، يا من تمكّنينني من الصبر الجميل ونشدان قوت الروح والأفكار.

على باب الدار، لقيني بلال بابتسامة عريضة لم أرها على وجهه من قبل، أرفقها بإشارات فهمت منها أنّ حفصة طغت واعتدت فتمّ نقلها إلى الماريستان، وأكدت زوجتي وأنا أضمّها إليّ صحّة ما فهمت، وطمأنتني إذ أضافت أنّها أوصت القيّمين بالمريضة خيرًا.

داخل الدار كانت الغرف والرحاب قد خفّت من الزوّار، ومالت الأمور إلى الهدأة والانفراج. عبّرت لي فيحاء وقت تناول العشاء عن ارتياحها لعمل الخادمتين الجديدتين، ونوّهت برزانتهما وخُلقهما. قلت هذا فضل من الله ورضوان. ألمعتُ إلى عجبي من سلوك الجارية الغامضِ الغريب، لعلّي أستدرج زوجتي للكشف عمّا قد تعلمه وتخفيه، لكنّي لم أفلح إلاّ بكلمات لومٍ وعتب في حقّ الجارية ظلّت دون ما أعلمه وأخفيه.

على فراش الزوجيّة جنحت لنوم عميق كثيف، فلاحت لي بوادره ما إن نلت من السحر الحلال حصّة، وتلحّفت بالأغطية الدافئة والظلمة. وأحسب أنّ نومي كان ممزوجًا بحليمات لم أتذكّر منها حين أفقت سوى لمع وبوارق.

* * *

- ١٧ -

في يوم الغد، اعتصمت بفضاء زاويتي، منقطعًا إلى قراءة كتب ومساءلة أخرى طامعًا في تنقيح مؤلّفي بُدّ العارف ووضع رسائل ظللت أحملها في صدري ردحًا من الزمن. أمّا النوم فحرصت على الاقتصاد فيه والاكتفاء منه بما قلّ ونفع، حتى لا ينتصب لي شركًا للهواجس والرؤى المرعبة؛ وأمّا الصلوات فقرنتها في جوف الليل باستثارة فيض الواردات عليّ وسياقة وجداني وعقلي إلى عليّات الحقّ.

لم يخرجني ممّا كنت فيه بعيد الظهر إلاّ صوت فيحاء تخطرني أنّ فارسًا على باب الدار يطلبني لمرافقته إلى منزل الوالي. نسيت والله موعد ابن خلاص ليوم الجمعة هذا، فما كان منّي إلاّ أن قمت على مضض أغيّر لباسي وأحسّن هندامي، ثم خرجت فسلّمت على الرسول وسرت خلفه راكبًا حصاني. أثناء السير لاحظت أنّ مرشدي يتوجّه بي إلى ظاهر المدينة على الساحل الشرقي. ولمّا ترجّل فعلت مثله فكنّا أمام منزل منعزل مطلّ على البحر. على بابه استقبلني الوالي نفسه بالحفاوة والترحيب، وقادني إلى بيت الضيافة حيث عرّفني على جليسه الضرير، سمّاه الأعمى الصقلي ونعته بـ «عضده الأيمن». استغربت النعت في نفسي وجالست الرجلين، فإذا بالضرير، حادجًا السقف بعينيه،

يقول في حقّي كلمات مجاملة وتقدير. أقبلت جارية في سنّ عبلة فقدّمت لي بعض ما في المائدة من أطعمة وأشربة، وفعلت الشيء نفسه مع سيّدها، الذي تناول مثلي ما قلّ، ثم أومأ لها بالانصراف، فقام الأعمى مودّعًا وذهب وراءها يربت بيد على مؤخّرتها ويقبض بالأخرى على عصاه. بعدئذ مسح مضيفي فمه ولحيته، وخصّني بنظرة تودّد وانشراح، قال:

ـ هذي أوّل مرّة، يا قطب الدين، تشرّف مجلسي، بعدما مضت على إقامتك بسبتة بضع سنوات... لا أعتب عليك هذا، حاشا حاشا... أولياء الله المنصرفون إلى العبادة والعلم لا يحقّ لأيّ كان إزعاجهم. إنّي، كما ترى، أستقبلك في بيت متواضع، أخلو إليه لطلب السكينة والراحة، ولولا المنصب وأعباؤه لاعتصمت به واعتزلت.

سمّاني الوالي بلقب قطب الدين الذي يخصّني به طلبتي وثلّة من العارفين، وصوّرني على نحو يصدق بعضه لا كلّه، فصوّبت له الصورة إذ قلت:

ـ مجالسة الأخيار، يا سيّدي، نعمة وأيّ نعمة! لا يقدّرها إلاّ من خلصت نيّته وصلح عقله. غير أنّ زمر ولاة الأمر في هذا الزمان المتصدّع العصيب، وظنّي أنّك لست منهم، ميّالون إلى مجالسة فقهاء السوء وأهل الزلفى، يقدّمونهم على الباحثين في الحقّ، الناطقين به من باب إيقاظ الضمائر واستنهاض الهمم. أمّا قبلة التعبّد والخلوة، فإنّي أقف فيها موقف الوسط والاعتدال، عملاً بقول سيّد المرسلين: «لا تغلوا في دينكم».

ـ لا يخفى عنّي ما لك من طلبة وأشياع. . . إلى هذه المدينة سبقك صيتك في الذود عن بيضة الإسلام، على الرغم من صعوبة الأحوال والرياح المعاكسة.

ـ لم يخل عصر من المصاعب والمحن، وأولو الأمر حيثما وجدوا ممتحنون بها. فقوم يغالبونها بقوّة الإيمان والعمل حتى النصر، ومنهم المسلمون الأوائل ومن المتأخّرين الأقربين إلينا الأميران زنكي وصلاح الدين ورعيل الموحّدين الأول؛ وعلى نقيضهم هناك قوم خرّت قواهم والعياذ بالله، فوهنوا واستكانوا، وهم أمراء ما تبقّى من الأندلس لهذا العهد. ومن هؤلاء بنو هود الذين طردوني من مرسية قبيل زوالهم؛ ومنهم أيضًا النصريّون في غرناطة؛ وكلّهم تراهم لا همّ لهم سوى التشبّث بكراسيهم ولو إلى حين، لا يهمّهم من أمر المدن والأعمال المفقودة شيء، وإن ذكّرهم مذكّر بواجب الجهاد والمدافعة تنكّروا له أو نفوه خارج الجزيرة. . .

ألقى عليّ الوالي نظرة تعاطف وتصديق وقال:

ـ سبتة، يا قطب الدين، استقبلتني أنا البلنسي، واستقبلتُ فيها وفي ديواني وحاشيتي علماء وكتّابًا، كابن البنا وبن عميرة وبن الرميمي، وغيرهم. واليوم، سبتة أكثر من كل هؤلاء تشرُف بك وتزهى، وأنت بها على الرحب والسعة.

أغضيت عن كون الرجل لم يذكر في قائمته الشاعرين ابن سهل الإسرائيلي الخليع اللواطي وابن طلحة المتهتّك الإباحي. قلت:

ـ جوزيت خيرًا يا سيّد سبتة المحروسة. هذه المدينة منذ هاجرتُ إليها أكرمَتني بكرامات ثلاث: زواج موفّق ميمون، وقريحة متوقّدة في تحصيل العلم والتأليف فيه، وقرب من الأندلس يمكّن أحبّتي هناك من زيارتي والاجتماع إليّ... سبتة مكان ميلادي الوجداني ونموّي الفكري: هكذا أسمّيها وأرسمها بين جوانحي وفي مساري.

استقام مضيفي واقفًا، ودعاني إلى متابعة الحديث في المنظرة المشرفة على البحر. هنا أكملت كلامي متحمّسًا بفعل نداوة الموج والحنين إلى الأرض السليبة:

ـ كرامات فضلى! ألهمتني الصبر الجميل، وقوّت أملي في ترقّب الفرج من الله، ومن محبّي الكلمة السواء والتوحيد وبقاءِ ألويتها مرفرفة خفّاقة على مسلمي الأندلس وأهل الكتاب فيها.

ندّت عن ابن خلاص ابتسامة رقيقة، وتنهّد ناعتًا صخرة طارق وقال:

ـ يشهد الله أنّي مثلك أحزن وأشقى لأرض عزيزة تضيع منّا. أتوهّم أحيانًا، خصوصًا في معتزلي هذا، أنّي أعبر إليها على رأس جيش عرمرم جرّار، وأخوض المعارك تلو الأخرى، فأسترجع الحصون والمدن والأقاليم، وأعيد طوابير المهجّرين إلى ديارهم وأشغالهم، وأنشر الأمن في الربوع كلّها والرخاء؛ لكن سرعان ما ينقطع تيّار وهمي، فأعود صاغرًا إلى الغوص في تدبير شؤون الناس من المقيمين والوافدين، وهي مع الوقت تزداد

حجمًا وشدّة. . . العين بصيرة يا قطب الدين، واليد قصيرة، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

لا أدري هل أصدّق كلام الوالي أم أعدّه مناورة لاستدراجي إلى البوح بما أضمره وأخفيه. غلبت حسن الظنّ به فسألته:

ـ وعين الموحّدي، الأمير علي السعيد، أين هي؟ ويده كيف هي؟

لامس الرجل لحيته وحكّ قفاه هنيهةً قبل أن يجيب:

ـ لا عيون ترقبنا هنا ولا آذان. رقيبنا الله وحده، وهو الشاهد على ما أقول: منذ فعل الأمير المأمون بدولة الموحّدين ما فعل، لم يعد لأخلافه همٌّ إلاّ أن يعضّوا على عروشهم بالنواجد، ويقفوا من مآسي الأندلس موقف من لا عينه رأت ولا قلبه توجّع. وإن سُرّبت إلى مراكش بعض أخبارها صمّوا أسماعهم أو تضرّعوا إلى الرب أن يفعل بالإفرنج ما فعله بعاد وثمود وبفرعون إذ طغى. وقد قيّض لي، أيّام الرشيد وأخيه السعيد، أن أسمع خطبًا متخمة بأدعية من هذا الصنف في جامع القصر وغيره، وشاركت مع الجموع بالتسبيح والتضرّع والإكثار من الصلوات والنوافل. وأدركت مذ ذاك أنّ عجزنا فادحٌ مكين وحالنا متردٍّ عويص. وأنت إذا دعوت الأمير وبطانته إلى العمل والجهاد، على سنّة الموحّدين الأوائل ومن سبقهم من المرابطين، قنطوا منك وتولّوا عابسين نافرين، بل أقالوك وعزلوك إن كنت ذا منصب ورتبة، مثلما حصل لبعض من سبقوني في ولاية سبتة. هذه المدينة

الواقفة على فوهة بركان، مهمّتي فيها مرسومة الطبيعة والحدّ، لا أتعدّاها ولا أعاكس في أدائها تفويض الأمير وعيونه المبثوثة من حولي، وإلاّ هلكت، وهي تثبيت الأمن ومساعدة المهجّرين قدر الإمكان. وبالله التوفيق وعليه أتوكّل.

ضاعفت إحسان الظنّ بالوالي، فأثنيت على اعترافه الصادق الصريح ثم قلت:

ـ أهل السياسة في هذا الزمان الفاسد المتصدّع يقبضون على مقاليد الحكم كلها، تراهم أمام المخاطر الظاهرة والباطنة يتلهّون ويعمون، فلا يتركون من خيار للمصلح وموقظ النيام سوى أن يرتدع بحديدهم أو أن يجول ويصول في مراتع التوهم والدعاء. ﴿*فإنها لا تعمى الأبصار ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدور*﴾، صدق العزيز الحكيم.

أخرج جليسي مسبحة وأخذ يديرها مسبلَ الجفنين، فتابعت الحديث كأنْ ليس لي منه بدّ:

ـ أناشدك الله، أيّها الوالي الصالح، أن تجيبني: هل يعمى الأمير السعيد عن إدراك أخطار القشتاليين وأحلافهم في الأندلس المتآكلة؟ ألا يعي أنّهم يمهلون اليوم غرناطة، ولكن لن يهملوها؟ ألا يعي أنّ زحفهم إذا تعاظم سيمتدّ إلى ساحل المغرب الشمالي وأكثر؟

تزاحمت في ذهني بؤر التعجّب والسؤال وتناسلت، فآثرت إيقاف سيلها، ولو إلى حين، حتى لا أحمّل سامعي ما لا طاقة له

به. تفرّسني بنظرة ثاقبة توحي بأنّي أخذت أجبذ لسانه وأبعده عن حدّه. قال:

ـ عربون قدرك العالي عندي، يا عبد الحق، أن أبوح لك الآن بما لم أسمعْه والله أحدًا من قبل... دولة الموحّدين لم يبق منها إلاّ الاسم وأمراء لاهون يعبثون بتراث الأوائل ومجدهم. الأمير السعيد، كأخيه الرشيد وأبيه المأمون، لا يهمّه من الحياة والسياسة إلاّ الساعة التي هو فيها. هو وبطانته أوّلاً وليأتِ بعدهم الطوفان. كيف إذن تريد منه الالتفات إلى الأندلس أو النظر في المآل والمصير!

ـ نصحه، يا أخي، وفتح عينيه على المخاطر النامية فرض عين على كل ذي لبٍّ وبصيرة.

ـ أولو النصح من الأتقياء الأصفياء، كما تعلم، طينة ما أندرها! وما تبقّى منهم إمّا مقيّدون مكمّمون، وإمّا منطوون على أنفسهم ولهم طوبى الغرباء.

ـ ضيق الحال (أجبت) متفشٍّ والشدّة متفاقمة، لكن أبواب الأمل والفرج لا بدّ من طرقها.

ـ كيف ذلك يا قطب الدين؟ قل لي بالله كيف؟

ـ في الربط والزوايا والفتوات معادن الإيمان وذخائر البذل والعطاء. المجاهدون وأولياء الله في العدوتين جيش حيّ لا ينقصه إلاّ النظام والعدّة والعتاد... منذ حللت بسبتة ذات الجبال

السبعة، اعتبرتها قاعدتي الخلفيّة، خطّي الدفاعي ورباطي، وعاهدت نفسي أن أقلّب فيها الأحوال والمقامات، وأتلمّس أسس السدّ الواقي. وأمثالي كثر على ضفّتي بحر الزقاق، في الثغور والحصون وفي المدن والبوادي.

أبدى الوالي أمارات التجهّم والاستغراب، قال:

ـ جماعات الفتوّة والصوفيّة، يا أخي، ليسوا رجال حرب وتخطيط، ولا جنود المدافعة والمناجزة، فكيف يجبهون فيالق النصارى بأعدادهم المتعاظمة وعدّاتهم المتفوّقة؟!

ـ يتمّ ذلك، بحول الله وقوّته، على غرار ما فعله المرابطون والموحّدون، حتى كتب لهم النصر المبين في الزلاقة والأرك. . .

ـ زمان يوسف بن تاشفين والمنصور ولّى، يا عبد الحق، والدولة اليوم أحوالها ساءت، وأركانها في كفّ عفريت. كلامي هذا والله لم أشافه به أحدًا قبلك. . .

ـ صدور الأحرار قبور الأسرار، فاطمئنَّ إليَّ يا أخي ولا تقلق.

تنهّد الرجل وتنفّس واسعًا، قال:

ـ أوضاعنا كيفما قلّبتُها أجدها متصدّعة منسدّة، ولا مخرج لنا إلاّ أن يفرّج الله. . .

ـ نحن مأمورون بالعمل في كل الأحوال. والعمل في شروطنا عبادة، هي الأحق والأجدى في تقرّبنا من الله. هل نسي السعيد،

أمير المؤمنين، فريضة الكدح إليه تعالى بصدق النوايا وصلاح الأعمال! لا يعوّض عن ضعف جيش المغاربة إلاّ المجاهدون من العدوتين، ولا يقوي جأشه إلاّ إحقاق العدل، وتدبير السياسة بالتي هي أفيد وأصلح. توجّهُ الأمير إلى طلب العون من فردريك عظيم الروم لهذا العهد أمر محمود، سيّما وأنّ هذا الملك شقّ عصا الطاعة على كنيسة روما، وأعلن حبّه لعلوم المسلمين وآدابهم، حتى نبذه زعيم ملّته بدعوى أنّه نصفُ مسلم، متنكّر لديانة الصليب...

أحجمت عن ذكر قصّة العلاقة بين الملك فردريك والملك الأيّوبي الكامل، وذلك لضيق الوقت وتجنّبًا لما قد لا يتّسع له إدراك الوالي وفهمه. وبعد هنيهات من التململ والصمت، سألني جليسي بتؤدة واهتمام بيّن:

ـ ألذلك في أجوبتك على كتاب ذلك الملك طلبت الاجتماع به؟

ـ أي نعم... لحضّه على معاضدة أهل الأندلس، كما للتوسّع في الجواب على مسائله.

ـ لكن هب أنّ الملك النورمندي لا يستجيب لك ولو بتفويض من الأمير السعيد...

ربطت جأشي وأحضرت جراءتي فقلت:

ـ يبقى الاعتماد على الله في أيّ حال، وقوّة بني حفص الصاعدة قد تأتينا بالفرج.

أبدى الوالي انبساطًا واسعًا، كأنّه يرتاح لكلامي ويثمّنه، قال:

ـ أمّا بنو مرين، وهم من أهل الوبر والترحال، فلا اعتماد عليهم ولا تعويل. عقولهم في سيوفهم، عرية من أيّ علم وأيّ مذهب. ترى زعيمهم عبد الحق يدّعي أنّ له كرامات، أدعاها للضحك والهزء أنّ النساء الحوامل، إذ يقبّلن قلنسوته وسراويله، يطلق الله سراحهن بالتي هي أحسن.

لم أعقّب على حكم جليسي، بل دعوته إلى أداء صلاة المغرب بمعيّتي فاستجاب. وما إن فرغنا حتى بادرت إلى توديعه شاكرًا له حسن استقباله، فعانقني مخفيًا قسمات وجهه المائلة إلى العبوس والانقباض.

* * *

ـ ١٨ ـ

في طريق إيابي كانت نفسي تضطرم بالأحاسيس الفائرة المتضادّة: تُراني في كلامي مع ابن خلاص أحسنت النهج والقول أم تهت وتعدّيت الحدّ؟ تراني احترزت وتنبّهت أم غفلت وانخدعت؟ لكن ما إن ولجت بيتي حتى ضربت صفحًا عن ذلك، وجرّدت شعاري أن لا أخشى في الله لومة لائم. قدت فرسي إلى المربض فصادفت بلال يعدّ العلف وسطول الماء. سلّم عليّ بحفاوة وحرارة، وتأسّفت لافتقادي مفاتيح التعرّف على باطنه ودنياه، ثم إنّي قصدت المطبخ مقتفيًا روائحه الشهيّة، فتفقّدت حال الخادمتين، واقتتت واقفًا من طهيهما، ثم أثنيت على صنيعهما قبل أن أذهب للقاء زوجتي.

في غرفة النوم، وجدت فيحاء تجلس ساهية حزينة. سألتها عمّ بها فقالت إنّ أخبار حفصة في المارستان سيّئة جدًّا. وعدتها بالنظر في الأمر قريبًا، وحنوت عليها أصبّرها وأواسيها. سألتني عن لقائي مع الوالي فأوجزت لها القول بمروره على ما يرام، لكنّها حذّرتني من الحاشية والأعوان الذين يشاع أنّ معظمهم من أهل الدسائس والسعايات. دعوتها إلى الإعراض عن ذلك ومشاركتي في أخذ نصيبنا من السحر الحلال والراحة.

في منتصف اليوم التالي، أرسل قهرمان المارستان في طلبي على استعجال. وحين مثلت أمامه نعى لي حفصة، وأوضح أنّها منذ ساعتين تقريبًا انتحرت شنقًا؛ ثمّ إنّه قادني إلى مكمنها، وكشف الغطاء عن وجهها حتى أتعرّف عليها. لا جدوى من مساءلة الرجل عن تمكّن المسكينة من شنق نفسها وهي في حالة انهيار ساحق، وعجزٍ بيّن عن تدبير ذلك وتنفيذه، فقد يبرّر لي الأمر بفورة الحشاشة والنزع الأخير، أو بغير ذلك ممّا احترفَه من تلفيقات وذرائع. وفي المقابل ناشدته أن يعدّ للمتوفّاة كفنًا ويهيّئ دفنها في مقبرة المدينة، فقوّس حاجبيه وقال مستغربًا مغتاظًا:

ـ أنت فقيه يا مولاي! لا يخفى عليك حكم الشرع في المنتحر، لا يُصلّى عليه ولا يدفن مع المسلمين...

ـ الحكم هذا (أجبت) ورد على وجه التعميم، واستُثني القاصر والأحمق والمعوّق. والمتوفاة عاينتَ أنت بنفسك خبلها المكين، فلا جناح عليك أن تلبّي طلبي.

ـ لو فعلت، يا سيّدي، لاستعديت الفقهاء عليّ وفقدت على الفور منصبي.

استهجنت جرّ الرجل إلى كلام نظري في الانتحار يعصى عليه إدراكه. أطرقت مفكّرًا ثم حدجته بنظرة ثاقبة وسألته ما العمل؟ فصاغ في التوّ جوابًا كأنّه جاهز سلفًا:

ـ تبقى مقبرة الخلاء بين سبتة وطنجة، وهي ملك لأحد

الخواص، يدفن فيها شواذُّ الموتى بترخيص أولي الأمر، وتُمنع زيارتها تمامًا.

قاطعته آمرًا:

ـ عليك بها إذن!

سكت برهة كأنّه يحثّني على الفهم. سألته عن مقدار النفقة، فحدّدها في مبلغ بادرت إلى أدائه رغم أنّي استكثرته. انفرجت أسارير الرجل، وطمأنني على أنّ كل شيء سيتمّ على أحسن وجه، في هذا اليوم قبل المغيب. ألقيت على رفاة حفصة نظرة أخيرة وانصرفت. قريبًا من مربض الدواب، اعترضني رجل شرط عليّ قدرًا من المال مقابل أن يفشي لي سرًّا يهمّني. لبّيت طلبه فقال: مقبرة الخلاء عرضها البحر وقاعه، تُرمى فيها الجثث مقيّدة بأثقال، فلا يُعلم منقلبها إلاّ الله.

الهواءَ الهواء!

ذهبت فارسًا أطلبه من جهة الساحل ثم من جهة سفوح المرتفعات. ذهني مكتظّ بما عشته من أحداث رجب وشعبان المشرف على ختمه، أحداث بعضها جسام، تمسّ سيرتي في المحيط الذي أنا حلٌّ به: رسالتي إلى فردريك ملك الروم، درسي المبتور في الجامع، زواج عبلة ونهاية جناباتي القسريّة، مقابلة ابن خلاص في معتزله، مرض حفصة وموتها... فكّرت: آن الأوان لمحاسبة النفس ونشدان الاعتكاف، وأيّ شهر أفضل لهذا من شهر رمضان الوشيك هلاله على البروز في أديم السماء.

عرجت على الجامع للتأمّل وأداء صلاة العشاء. وهنا ما إن أنهيت وضوئي حتى التفّ حولي حشد من الكهول والشباب مترجّين أن أعقد لهم قبل الأذان درسًا في الجناح المخصوص، ينوّرهم ويزيد في محبّتهم لي.

قلت بعد الشكر: الوقت ضيّق، لا يتيح سوى التذكير بحِكم الصيام في الشهر الفضيل الذي نحن على بابه.

ردّ عليّ واحد مؤيَّدًا ممّن حوله: حِكم الصيام، يا معلّم، كنقائض الوضوء وتجهيز الميت، نعرفها عن ظهر قلب. لا بل حدّثنا في ما يُروى عنك من أنّ الفلسفة قاعدة وصحن والتصوف رافعة ومحراب، وكلاهما يلتقي عند الامّحاء في بحر التوحيد.

وسأل ثان: هل كل ما يوجد يعرف؟ وإن حصل التعارض الصريح بين العقل والنقل فأيّهما تختار؟ وهل كل ما يعرف يوجد ولو لم يرد في أسفار الملّة؟

وقال ثالث: هل تُثبت أم تنفي ما يشاع عن وقوفك مع ابن حزم القرطبي في عدائه للإمام مالك بن أنس واعتباره أمر إجماع المدينة المنوّرة في المالكيّة مجرّد تعصّب بل، على حد تعبيره، أحموقة.

وسأل رابع: قال الله تعالى على لسان ملكة سبأ: ﴿*قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ*﴾، فهل تصدق الآية على ملوك عهدنا بمن فيهم أمير المؤمنين السعيد؟

وسأل خامس: هل يصحّ عندك الحديث: *«الخلافة بعدي ثلاثون سنة وتعود ملكًا عضوضًا»؟*

شممت رائحة التعريض والكيد في معظم الأسئلة، فأوقفت سيلها إذ قلت: لا يحسن الكلام على عجل في مسائلكم ولو جلسنا، ولا يجوز إلاّ أن يأتيني ناظر الجامع بإذن من الولاية مكتوب، فإن فعل عيّنتُ لكم حلقات، لكل سؤال بعد تقويمه حلقة تكون بين صلاتي المغرب والعشاء، والله الموفّق للصواب.

ألحّ السائلون عليَّ وآخرون معهم في إعطائهم أجوبتي ولو بعد الصلاة، وتبع ذلك ضوضاء وجلبة، فأقدم الناظر مهرولاً وسأل ما الخبر. استمع إلى رواية السائلين ثم إلى مطالبتي بإذنٍ خطّي، فقال وفي صوته نبرة التحايل والتضليل: لا يا شيخ! عالم في مقامك غنيّ عن الترخيص. انفع الناس بعلمك، لا تبخل على سائليك. . .

قال الرجل كلامه وابتعد، ففهمت أنّ في الأمر فخًّا وخديعة. وبينا أنا أتدبّر المخرج أحاط بي نفر من الشباب، وهمس في أذني أحدهم أنّهم أصدقاء طلبتي الأندلسيين، ثم صاح في الجمع أن ينتظروا انتهاء صلاة العشاء ويكون لها ما بعدها. ولمّا أذّن المؤذّن هبّ الحشد إلى داخل الجامع، وتباطأ حماتي في اتباعهم، وأكّدوا لي صحّة ظنّي إذ أخطروني أنّ جماعة من الفقهاء النافذين يكيدون لي كيدًا، ويحرّضون غلاة القوم على الإيقاع بي، ثم صاحبوني خفية إلى مربض فرسي ونصحوني بالعودة إلى داري، وكذلك فعلت.

حين قابلتني فيحاء كانت أمارات الجزع ما زالت بادية عليّ. سألتني إن كان حصل لحفصة مكروه، فرويت لها في شأنها ما علمته وفعلته، وشدّدتُ على أنّ زيارة قبرها ممنوعة. اغرورقت عيناها بالدموع ودعت لها بالتوبة والمغفرة.

* * *

ـ ١٩ ـ

في الفاتح من رمضان، شاورت زوجتي في نيّتي قضاء معظم هذا الشهر المبارك في معتزلي بجبل موسى، فطاوعتني حرصًا منها، كما قالت، على هناءتي وإرضائي. وفي اليوم التالي مع بزوغ الصبح، كان رحلي مهيّئًا على فرسي، وجميع من في الدار واقفين لوداعي. ضممت فيحاء إليّ هامسًا في أذنها: «أنت والله ملء العين والنفس»، وأوصيت الخادمتين وحمادة بها خيرًا، ثم ركبت وانصرفت.

في زاوية الجبل استقبلني القيّم عبد البرّ مرحّبًا مبشورًا. خيّرني في جناح الصامتين بين غرفتين، فاخترت أكثرهما سكونًا ونورًا. أطلعت الرجل على القصد من إقامتي الشهريّة، وقلّدته مهمّة الاضطلاع بالضروري من حاجاتي، فأبدى لي تفهّمه الواسع، وأرجأ جوابه على أسئلتي عن أحوال الزاوية ومرافقها ثم ذهب.

في رحلي كتبٌ توافق الأوان والمكان، لعلّ أوفاها للقصد والمراد *الإشارات الإلهيّة والأنفاس الروحانيّة* لصاحب الاسم الأغرّ الأعزّ: التوحيدي. جلسات كانت لي من قبل مع تحفته السنية هاته ومصنّفاته الأخرى. مدخلي إلى قوسها القزحي وسمفونيّتها اتسع أكثر فأكثر، وتبلور عبر كلام واضعها في

«التوحيد حياة النفس» وفي ابتهاله: *«يا من الكل به واحد، وهو في الكل موجود»*.

فتحك هذا يا أبا حيّان ليس آتيًا عن تهافت ووهم، ولا عن كلال وعِيّ، بل عن خبرة وتجريب، وفي كتابة بوزن الغصّة وغور الجرح. مثل المتنبّي بل أكثر، محنك عصرك العصيب، الذي تدمع له العين، فتعيّشت من النسخ، حرفة الشؤم، وعملت خفيرًا للبيمارستان العضدي، ونهب العيّارون بيتك، وزندقك أهل الدولة وفقهاء السوء، ونبذوك وأهانوك، حتى إذا بلغ اليأس منك كل مبلغ أحرقتَ كتبك خوفًا عليها من فساد الزمان وسقوطها بين أيدي العابثين وشهود الزور. تسويغك لفعلتك ينفذ إليّ شرارةً ثاقبة وحجّةً دامغة، وهي أنّك الغريب الذي *«من إذا ذكر الحقّ هُجر، وإذا دعا إلى الحقّ زُجر، وإذا أسند كذّب، وإذا تظاهر عُذّب»*. والذين غرّبوك وعذّبوك، لو عرفوك حقّ معرفة، وعلموا قدرك، لتمرّغوا أمامك في التراب، وغبّروا وجوههم مستجدين صفحك وعفوك.

ماء الصدق على حقيقتك يسيل، أنت من حييتَ لا أهل ولا صديق، إلاّ من الأموات الأبرار والصدّيقين، فتقبّلني، أيّها الحبيب، صديقًا خلفًا، لا زمان يفصلنا ولا فضاء، كما في جنّات عدن حيث سأطلبك بعد سيّد المرسلين؛ تقبّلني خالصًا مخلصًا، أنا الذي من صفحاتك الناجية تطلّ عليّ روحكَ مرفرفةً خفّاقة، فتُهديني أحسن القول وأنفذه، مخلّصًا من الإسناد والعنعنة، وتحرّر لي الجمل والدلالات عميقةً ثريّة، يضيئها فكرك

الشذري المتوثّب، ووعيك البلاغي المتوهّج، بعيدًا بعيدًا عن عويص المعاني ووحشيّ الألفاظ، كما عند عبدة أرسطو من المشّائين العرب.

قلمك الدافقُ الجريء سلاحك. به سبرت أغوار النفس وعُليات الحقّ، وبه سخرت من مثالب الوزراء والأكابر، وبه قاومت الفقر، وداريت الهمّ، وفاوضت الموت مناوشًا مستخفًّا؛ بل إنّ قلمك قد تعرّم في التضرّع والشكوى، وفي صبّ زيت قصّتك الحارقة مع الله، حتى هذيت وجدفت إذ قلت: *«اللّهمّ إليك أشكو ما نزل بي منك، فقد وحقّك شددت الوثاق، وضيّقت الخناق، وأقمت الحرب بيني وبينك...»*.

فكيف لا أترحّم عليك وأستغفر الخالق لك!

وكيف بعد ذاك لا أناديك إليّ راجيًا عونك:

إنّي راغب في ما يرفع عنّي أسباب توتّرك المتواتر وقلقك المقيم، بين عيون الأغيار وأوهام اللواحق، فاحمِ ظهري!

إنّي طامح إلى اجتيازك في التجرّد عن المطامع والمصارع والغلّ والحسيفة، وكلّ ما يُعطب التعرّض لنفحات فيض الحقّ، فاحمِ ظهري.

إنّي ذاهب إلى الكلّ الواحد، أحقّق في الماهية والمعنى، وأرتقي كمالات أخرى في مدارج العمق والتقريب، فاحمِ ظهري.

في *الإشارات الإلهية*، ذلك النص العلي، وفي الذخائر والبصائر وما حصلتُ عليه من *الرسائل* كانت لي جولات وغطسات، أتبعتها بأخرى في تأمّل مواقف النفري *ولامية* ابن سينا وقصيدة *نظم السلوك* لابن الفارض وخمريّته، وما اقتنصته من مجموعة الأحزاب للشاذلي الغمري، وغير ذلك ممّا سقاني بشراب الإنهاض، وشحذ ذهني بفيض الإلهام؛ ثم زدتُ على ذلك بسفرة في أدب العرب شعرًا ونثرًا، أتقوّى بلغته اللازقة بحواسي وجلدي، والتي هي حتى النخاع منّي وإليّ. الأدب الرفيع الرافع مخرج يسوّغ الحياة وييسرها للأخذ. وهل بسواه ندرك أقوال الكتب المقدسة أو نُقرُّ إعجاز القرآن والقسم الإلهي *﴿ن والقلم وما يسطرون﴾*!

كذلك أمضيت أيّامًا وليالِيَ بين دفّات الكتب وفي عرض الصفحات، لا أتوقّف سوى لحظات لسدّ الرمق عند الإفطار والنوم قليلاً وإقامة الصلوات، حتى إذا مضى من الشهر الفضيل ثلثاه، أتاني مخاض أعرفه بشحنته وسيماه، يدفعني إلى تجريد قلمي وتمكين الوضع.

لا، لست من صنف هؤلاء الكتّاب الذين يجلسون لاقتراف الكتابة عمدًا مع سبق الإصرار، تعلوهم أمارات الخيلاء وقدرٍ غير يسيرٍ من التصنّع في النظرة والحركات... هيئتهم، والله، تنفّرني وأحيانًا تضحكني.

لا، الكتابة زلزلة مباغتة وفورةٌ فجائيّة صاعدة، أو هي أيضًا اختمارٌ شائك عسير، وإثمارٌ باطنيٌّ وئيد.

صرت أتخيّل زوجتي فأناديها مستعجلاً مثولها، فتجيب: لبّيك يا عبده وسعديك. ثم أشهدها على حالي وما أتاني من فيض ربّاني، وآمرها أن تحلّ حزامي، وتشرعَ أبوابي، وترصدَ ما أنتظر؛ ثم إنّي أناديها مجدّدًا مناشدًا إيّاها أن تفتح لي صدرها واسعًا وتسمَعني، فتجيب: «صدري مطيّتك، وحواسي كلّها تبتغيك»؛ ثمّ إنّي أصيح على توهّم: «ها أنذا ألقي عليكِ اليوم، يا فيحاء، قولاً ثقيلاً فاحفظيه... لا، بل إنّي مستنطق بما إن حرّرته تباعًا كان سعدي وارتقائي»... وهكذا وضعت «الرسالة الفقيريّة» و«كتاب فيه حكم ومواعظ» و«رسالة خطاب الله بلسان نوره» و«رسالة الألواح المباركة»، والحمد للحق على آيات كرمه وإحسانه.

تلك رسائل تشاكل الفكر فيها والإلهام، وأخرى على جديلتها اكتفيت لضيق الوقت برسم لبّها وعناصرها، وكلّها إمّا تنويعات على بُدّ العارف وإضافات، وإمّا تدقيقات وواردات، ليّنة الحواشي، يسيرة المفهومات، أظنّني بها خطوت أكثر نحو تعيين إكسير وحدة الوجود وكمال الكمالات في الكدح إلى إلحاق ممكن الوجود بواجب الوجود، أي بالتخلّق بصفات الله الحسنى التي هي ذاته، وباستحقاق الاستخلاف الربّاني.

صبيحة اليوم السابع والعشرين من الشهر الفضيل، زارني حمادة وبلال يتقدّمهما القيّم عبد البرّ. طمأنني الفتى على حسن الأحوال في منزلي وأبلغني اشتياق مولاته إليّ؛ ثم أنبأني القيّم شاكرًا استلامه أكياس الزرع من حمل بلال للزكاة على فقراء

الزاوية يوم العيد. دعوت الجمع إلى نزهة في ربوع الجبل، فصاحبوني مطاوعين. تعدّينا محيط الزاوية إلى غابة النسّاك، وهنا لاحظت على وجه حمادة الدهش والفزع، لما يراه من غرابة شديدة على سموت أشخاص كانوا يظهرون ويختفون. وفيما أنا وعبد البرّ نتجاذب أطراف الحديث، سمعنا الفتى من خلفنا يصرخ ويستغيث، التفتّ فإذا بذراع خارجة من جذع شجرة تجذبه من يده جذبًا. هببت ومن معي إلى نجدته فما استطعنا لشدّة قبضة القاطن في الجذع، الذي بدت لي عليه أمارات الناسك الخشنِ المتوحّش. نهيت الرجل بالحسنى فوعدني بإخلاء سبيل الشاب الأمرد بعد أن يكمل النظر إلى وجهه. تذكّرت أن النظر إلى المرد، كفقد الإحساس والإباحة والشطح والرقص وتمزيق اللباس، عُدّ من غلطات النسّاك، والله أعلم بحقيقتها وبما تخفي الصدور. وما هي إلاّ لحظات حتى وفى القابض بوعده، فأسعفت المعتدى عليه وواسيته، وهو يترجّاني مرتجفًا باكيًا أن آذن له بالعودة إلى مستقرّه. قال له عبد البرّ مبتسمًا: «ليس قبل أن تزور معنا دار الحمقى»، ولم يخطر بباله أن يرى الفتى جرّاء تلك المزحة يندب خديه، ويتفل في صدره، ويصرخ مذعورًا: «ويلي ويلي، الحمقى! حسبيَ الله»... أومأت إلى بلال بالانصراف توًا، فتقدّم إليّ المرعوب مهدّئًا روعه، وحمله بين ذراعيه ثم قفل راجعًا إلى مربض الدواب.

في طريق أوبتنا إلى الزاوية على مهل، سألني عبد البرّ إن كان الأسود العملاق سرط لسانه، فحكيت له قصّته المفجعة،

وحوقلتُ معه واسعًا، ثم استفسرته عمّن كان لي معهم شأن في دار الحمقى، فنعى لي موت التميمي انتحارًا، وموت العجوز بيرون وكذلك عكاشة الخلطي حاكم الحمقى، وتأسّف لرحيل هذا الأخير كما لتعويضه بقهرمان شبّه خلقته ببلال، وقال إنّه لا يسوس المجانين إلاّ بالكُبول والعصا والتهديد بالبريمة. استعجمت ذكر هذه الآلة، فعلمت من رفيقي أنّ القهرمان ورجاله الشداد يشهرونها على كل معتوه كثير القلاقل والصراخ، فإمّا يلبد ويستكين، وإمّا يستأصلون بها خصيتيه أو يثقبون مخّه. استفحشت الأمر، وترجّيت القيّم أن يخبر به الوالي ويطلب منه تعيين أطبّاء لا جلادين. أشار بالقبول فتابعنا سيرنا مجدّين، حتى إذا بلغنا نهاية الغابة تناهى إلى سمعنا من رأس نخلة سامقة صوت يصيح: «إنّي هنا أترقّب القيامة، ألم يوصِ سيّد الأنبياء: إذا وُلّيَ الأمر لغير أهله فانتظرِ الساعة!». أنبأني عبد البرّ أنّ الرجل يوجد على هيئته تلك منذ مدّة، يصدع بانتظاره، ويتغذّى بتمر النخلة وبما يمدّه به محسنون بواسطة حبله الممدود. وقهرمان دار الحمقى وأعوانه يغضّون عنه الطرف ما دام لا يؤذي ولا يضرب بالحجارة؛ ثم نصحني أن لا أكترث لحاله وكلامه. ضربت يدًا بيد وحوقلت جهرًا فهمسًا خلال المسافة المفضية بنا إلى ميدان الزاوية. وهنا أدركنا الظهر فصلّيناه مع الجماعة، ثم ودّعت صاحبي على أمل اللّقاء به في المساء للاحتفال مع المؤمنين بليلة القدر المباركة.

وكذلك كان، إذ ما مرّت صلاة العشاء حتى غصّت جنبات

المسجد الصغير بالوافدين، فعلَتِ الأصوات بقراءة سور من الكتاب المبين، فيما عبد البرّ وأعوانه يعلّقون المزيد من المصابيح ويوقدونها، وينصبون المبخرات ويزوّدونها، ويرشّون الناس تباعًا بالمزهريّات. وحين تحوّل القوم إلى الأوراد والأذكار، ساهمت معهم بأنفاسي وحافظتي في تصعيدها وإذكاء جذوتها. والحقّ أنّها نشرت بين النفوس وشائج الأخوّة ونفحاتٍ قدسيّة، تصحبها روائحُ الأبخرة الطيّبةِ الزكيّة؛ ثم أعقب ذلك ارتفاع أكفّ الضراعة إلى السماء المشرعة رحابها لاجتذاب الأدعية دررًا ولآلئَ في ليلة القدر هاته، التي هي خير من ألف شهر. ولمّا بُحّت الأصوات وجفّت الحناجر، عيّنني جمع بإيعاز من القيّم وصحبه للختم بالدعاء المستجاب، فوقفت وأطلقت العنان لأدعية شملتُ بها الأهالي في العدوتين وأخيار الأمّة والبشريّة جمعاء، وخصصت الأندلس السليبة بالذكر، وتحاشيت إيراد أيّ أحد من أولي الأمر. وفي ذلك كلّه فاضت سجيّتي فصاحة وبلاغة، والمنصتون من حولي بأعناق مشرئبّة يكرّرون بصوت واحد «آمين». أنهيت قائلاً: وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين».

تحرّكت بعد أن وقف الجميع، وشققت طريقي بينهم أعانق من لقيت، حتى إذا غادرت المسجد قصدت غرفتي للراحة والنوم.

صبيحة الغد، عطفت على رسائلي أقرأها وأنقّحها، وتقدّمت في تحرير رسالة «الإحاطة». ولمّا حل العصر، اغتسلت وغيّرت لباسي وصلّيت، ثم جمعت أوراقي وكتبي في رحلي تهيّؤًا للعودة

إلى رياض الحبيبة. خرجت قاصدًا مربض فرسي، فوجدت رجلاً كأنّه في انتظاري. رددت سلامه وسمعته يقول بلهجة العتب:

ـ هل أدعيتك مقبولة يا شيخ؟

ـ أملي (أجبت) أن تكون كذلك عند السميع العليم.

ـ أنت كأيّ مسلم مأمور بطاعة الله والرسول وأولي الأمر، فلم حرمت أولي الأمر من أدعيتك ليلةَ القدر؟

رأيت القيّم يهرول نحونا، فاستقبلته بالتسليم وهو يلهث. أنبأته أنّي راجع بحول الله إلى أهلي، فبادر مسائلي إلى القول:

ـ تعود على جناح السلامة، لكن ليس قبل أن توضح لماذا لم تدع بالأمس لأميرنا السعيد. هل نسيًا أم عن قصد؟

سارع عبد البرّ إلى الإجابة:

ـ بل عن سهو ونسيان يا هذا! ألم يأتك قول الشاعر: *«وما سميَ الإنسانُ إلاّ لنسيه»*... هذا صدر البيت ونسيت عجزه. ذكّرني أنت بما نسيتُ يرحمك الله.

ارتبك الرجل وصمت. قلت:

ـ عجُز البيت: *«ولا القلبُ إلاّ أنّه يتقلبُ»*.

ندّت عن القيّم ابتسامة فوز، فصاح:

ـ أرأيت إذن يا هذا أنّي نسيت نصف البيت وتذكّره مولانا، وجهلتَ أنت أوله وآخره تمامًا. اذهب واطلب العلم ما استطعت.

انسحب الرجل متعثّرًا، وأنبأني عبد البرّ وهو يقود معي فرسي إلى بابي أنّ ذلك الجاهل إنّما هو عين لأعوان الوالي ابن خلاص، يأتي منذ مدّة إلى الزاوية لتسقّط الأخبار والبصّ؛ ثم إنّ صاحبي ساعدني على تجهيز دابّتي، وقبل أن أركب وأنصرف، عانقته بحرارة، وعديتُ من تنبيهه إلى أنّ إحجامي عن الدعاء للأمير لم يكن سهوًا أو نسيًا، بل عن قصد وسبق إصرار، وجعلتُ كفايتي في أن جنّبني سماع المزيد من مهاترات ذلك المخبر الرديء.

* * *

- ٢٠ -

منذ رجوعي إلى بيتي وعقيلتي ثم قضاءِ عيد الفطر بحسب السنّة والأعراف، توالت الأحداث مطردة متعسّرة: تصاعدُ الشغب عليّ من طرف الفقهاء وسعيُهم إلى الإيقاع بي؛ تكاثر الأتباع من حولي وإمعان بعضهم في الميل إليّ؛ إقدام نائب الوالي على منعي من لقائهم في الجامع وتحريم دخول سبتة على طلبتي الأندلسيين؛ تملّص ابن خلاص من النظر في إنصافي بدعوى كثرة مهامه وأشغاله. هذا من جهة البلد الذي أنا حلٌّ به، أمّا من جهة الأندلس فالأيّام إلى غير مصلحة المسلمين وصلاحهم تسير، والحلف النصراني يتصالح ويرأب صدوعه بالتدريج، وفلول المهجّرين تنزل تباعًا إلى غرناطة وما تبقّى من أعمالها، أو تعبر زقاق البحر إلى ساحل المغرب وداخله.

في زحمة تلك الواقعات والقلاقل، كنت أقتنص لحظات اعتصام بزاويتي لإتمام تحرير رسائلي وتنقيحها، مضيفًا إليها رسالة عهدي لتلامذتي وأحبّتي. وسرّني أن تكفّل بعضُ هؤلاء من السبتيين بنسخها وتوزيعها على الأتباع المهتمّين، وسرّني أيضًا أن تطوّع أحد هؤلاء بتبليغها إلى ثلاثي المقرّبين بغرناطة، وعاد بعد شهر حاملاً إليّ أخبارهم المطمئنة على وجودهم أحياء، وكذلك شرحَهم رسالة عهدي إليهم وإلى غيرهم ممّن أحببتهم وأحبّوني،

حتى من منهم ظلّوا دون معرفتي وقربي. وكان الشرح إذ طالعته مستفيضًا مضيئًا ومجيدًا مفيدًا، يفسّر حيث قصّرت وألمعت، ويوضح حيث أدمغت وكثّفت. فجزاهم الله عنّي خير جزاء.

كما أنّي في زحمة تلك القلاقل والواقعات، كنت أفعل جهدي لإخفاء مكابداتي وهمومي عن زوجتي، مخافة أن تقلّ حيويّتها وبهجتها. لكنّ الفطِنة اللبيبة كانت أحيانًا تلحظ علامات التجهّم والكدر طاغيةً على وجهي، فتسألني عمّ بي...

ما بي يا قرّة عيني لو جهرت به وأفصحت عنه لحزنتِ وفاضت عيناك من الدمع: إظلام الجوّ بيني وبين أهل الدولة والفقه؛ سعي هؤلاء، أينما حللت، إلى تضييق الخناق عليّ بالتنغيص والقهر، كيما اضطر إلى الإخلاء والهجرة؛ منعي من الدرس ومن لقاء تلاميذي في رحاب الحقّ العلني؛ كل هذا وسواه، كيف أحدّثكِ فيه يا فيحاء وأنا لا أطيق رؤية الهمّ والغم عليك! لذا أجعل كفايتي في كلمات قصار ألهيك بها عمّا هو أخفى وأخطر:

ـ أنا، يا حبيبتي، من معشر التشوّف إلى معرفة الحال والمآل. كلّما عرفت اتسع وعيي، وكلّما وعيت تعِستُ لما في هذي الدنيا الدنيّة من مفاسد وأكدار. لكنّي أحمد الله أن هداني إليك، وجعلك لي ملاذًا دافئًا ونبراسًا وضّاء.

ندت عن جليستي ابتسامة قبول وامتنان، ثم قالت:

ـ علمت، يا عبده، أنّ الوالي طريح الفراش، يُتعبه المرض والسقم، فهلاّ عدته ونظرت في حاله؟

ـ سأفعل هذا إن كان يرضيك، يا مولاتي.

ـ يرضيني هذا ويرضي الله، يا الحبيب في كل شيء.

في ظهر يوم الغد، قصدت رياض ابن خلاص المحاذي لمقرّ الولاية، فاجتزت العسس والخدم إلى غرفة انتظار استقبلني فيها رجل ضخم الجثّة، عريض المنكبين، قدّم نفسه بصفته نائب السيّد الوالي، وتشدّق باسمي وبكونه يعرف الشاذّة والفاذّة عنّي وعن أشياعي، ثم استفسرني بفظاظة بيّنة عن رأيي في فقهاء سبتة وراعيهم المعظّم السلطان السعيد. نبّهته إلى أنّ سؤاله خارج عن مقصد زيارتي الذي هو مقابلة الوالي والاطمئنان على صحّته. حدجني الرجل بنظرة تشي بأنّه يقبل على مضض تأجيل الاستماع إلى جوابي، ثم أذن لي بالدخول آمرًا إيّاي بعدم إرهاق حضرة الوالي بالكلام.

كان المريض في سريره ممدّدًا على ظهره، لا يُرى إلاّ وجهه الشاحب وعيناه الغائرتان ولحيته المهملة. تقدّمت نحوه تحت نظرات نسوة وخدم، انحنيت عليه مسلّمًا، فما إن تعرّف عليّ حتى قرّبني منه وأشار عليّ بالجلوس حذاءه. سألني بصوت منهك خفيض إن كنت أعرف ممّا يشكو، أجبت أن لا، فالتمس منّي أن أفحص عنه. لبّيت بأن نظرت في عمق فمه وعينيه على ضوء مصباح، وفي لسانه المسلول وصدغيه وعنقه، ثم ضغطت مرّات على بطنه، وقست دقّات قلبه، ونقرت نقرات على صدره وظهره، وهو يتنفّس واسعًا حسب طلبي. سألته إن كان يأتيه قيء وسعال

أو تعتريه الرعشات والحمى خلال اليوم، فأجاب أن لا. قلت له:

ـ أعراضك، يا سيّدي، تشير إلى وهن في النفس لا في الجسم. اخلد إلى الراحة أيّامًا، واحرص على التغذية، وتمشَّ متى قدرت يكن لك في ذلك الشفاء بعون الله.

استوى الوالي جالسًا وأمر جميع من في الغرفة بالخروج، ثم نظر إليّ نظرة ودّ وعطف، قال:

ـ ما كنت أعلم، يا قطب الدين، أن الله وهبك أيضًا بصيرة الطبيب الخبير. إنّك في إدراك مكمن علّتي قد أصبت المحزّ، لكن. . .

تململ جليسي لاهثًا، وتنفّس ملء أنفه كأنّما يتهيّأ لإلقاء كلام ثقيل، وأردف:

ـ لو علمتَ، يا أخي، ما أنهك نفسي وأحبطها لبحثت لي عن دواء أنجع من الذي تعرضه عليّ. . . وصلتني منذ مدّة من السلطان السعيد رسالة توبيخ عمّا يراه تقصيرًا منّي في التصدّي لنفوذ الحفصيين بسبتة، ثم أتبعها في موفى الأسبوع الماضي برسالة شديدة اللّهجة في حثّي على صدّ العوام عن اتباع المتصوّفة ورجال البدع والأهواء، وذكرك بالاسم رئيسًا لفرقة تتأوّل الدين وتبتدع فيه، وتؤلّب الرعيّة على العلماء وأولي الأمر. وعبّو الزغبي، هذا الذي لقيك على بابي، رقّاه السلطان حديثًا نائبًا لي، وهو عين عليّ وعلى عباد المدينة، يستميل الفقهاء

والأعوان، ويخبر مولاه بما يراه وما لا يراه، وينفخ في تبليغاته من عنده، ويكذب كيفما يشاء. . . للأعراب مثالب وللبربر أخرى، وهذا الأجلف جمع من هذه وتلك أقبحها وأعتاها.

توقّف الوالي قليلاً مستردًّا أنفاسه ثم تابع:

ـ هذا عن حالي وما جدّ فيه، وأنا تعِبٌ به مريض، فصف لي الدواء الشافي.

كان الرجل في كلامه يبعث حقًّا على الرأفة والشفقة. أجبته من باب شدّ عضده واستنهاض همّته:

ـ لا أرى حلاً لما آل إليه الأمر إلاّ أن تتقوّى بالله وتحكمَ بالحقّ والعدل، وتُظهرَ الناس على حسن أفعالك. . .

قاطعني مخاطبي مغتاظًا، قال:

ـ هل تنسى يا رجل أنّي مأمور لا آمر، ووكيل السلطان لا خصيمه؟ هل تريدني أن أستألف السبتيين وأدعوهم إلى شقّ عصا الطاعة؟ أنا متّهم بمشايعتك يا ابن سبعين، وشفائي الأوحد أن تخرج من هذي المدينة، وإلاّ فالويل لي ولك! خروجك هذا بأمري سيطمئن السلطان السعيد على ولائي له، وقد يرفع عنّي تهمة الميل إلى الحفصيين. قل لأهلك وأتباعك إنّك ذاهب للعمرة فالحجّ. ومتى هدأت العاصفة وتحسّنت الظروف، مكّنتُك من العودة آمنًا غانمًا. هذا وعد أقطعه على نفسي محبّةً فيك، فافهم. اذهب وتدبّر أمرك وتخفّ ما استطعت ثم خبرني. . . الآن وقد أطلعتك على ما بي أشعر أنّي خففت واستويت.

ودّعت الوالي ممسكًا عن الكلام، ووقف يشيّعني إلى الباب. في الممرّات المؤدّية إلى خارج الرياض صادفت خدمًا وحرّاسًا، لكنّي لم أر لنائب الوالي أثرًا.

*

محنة أخرى، يا فيحاء، أظنّها الأفدحَ والأعتى!

والله لن أدخل عليك وأجلس في حضرتك السنية بوجهي هذا، الكالح المتجهّم لهول ما يحصل لي ويترقّبني.

دوار الأعالي عندي معينه كان دومًا خيالي الطليق المغالي. أمّا في وضعي الآن، أنا المكلومُ المصدوم، فلو ركبت بُراقَ وجداني وتوتّري الجواني فلن أرجّح إلاّ كفّة الأمرّ والأسوأ، ناسجًا في ظلّها قصصًا خواتيمها ارتجاجاتٌ وجراح وموت.

قد لا ألهو عن فتوقي المتفاقمة ـ ولو إلى حين ـ إلاّ بمجالسة البحر وتلقّي ما تيسّر من هديره ولفحات أنسامه. عرجت عليه وقصدت موقعًا نائيًا بين صخرتين، فقعدت لا همَّ لي سوى أن أحتمي بمداه الشاسع، وأبثّ إليه لواعجي وأكداري، سوى أن أمعن النظر في أفقه المبرقع بألوانٍ وسحب شتّى، وفي أمواجه المتناسلة المتلاطمة. وبينا أنا أكدّ في السهو عمّا بي إذ هتف بي هاتف: البحر يا هذا لا يواسي ولا يُستفتى، فولّ وجهك نحو خالق البحار والأكوان، الذي قدّر وسوّى، وإليه المنقلب والرُجعى.

كلمة الهاتف أعادت إلى نفسي طمأنينة حلّت فيَّ سلامًا وأمنًا.

اغتنمتها فرصة للعودة إلى بيتي وفي نيّتي أن أخفي عن زوجتي ما جدّ من سوء في أمري. وحين ولجت غرفة النوم كان الليل قد أرخى سدوله، فصلّيت تحت ضوء قنديل باهت، وابتهلت بصوت خفيض ودعوت. وما إن فرغت حتى سمعت فيحاء على السرير من تحت أغطيتها تسألني عن حالي وعن صحّة الوالي، فأجبت أنّ كلانا، والحمد لله، بخير، ثم دعتني إليها فهرعت نحوها، هي محرابي وآية أماني.

في الغد عند الإفطار، حدّثت زوجتي لمامًا عن تشوّقي إلى العمرة والحجّ، فعبّرت لي عن رغبتها في أن تصحبني إلى الديار المقدّسة، لكنّها استصعبت أن يكون لها هذا في الموسم المقبل، نظرًا لمرض خالها واضطرارها إلى العناية به في طنجة. وأخبرتني أنّها ذاهبة إلى هذه المدينة صبيحة يوم غد، وأنّ فتانا سيلحق بها بعد غد. نظرت إلى وجهها البهي مليًّا وأشرت بالموافقة.

اليوم كله قضيته في صحبة قرّة عيني ومالكة مهجتي. ليلتنا كانت بالشوق الجامح طافحة وبالسحر الحلال. شعور ملتبس له طعم الفراق والختم بتّ أغالبه بالإمعان في التقبيل والالتحام والضمّ، كأنّي أدّخر للأيّام العجاف مؤونة غاليةً نفيسة.

في الصباح، ما إن ودّعت محبوبتي حابسًا دموعي حتى أتاني حمادة ببطاقة سلّمها شابّ إلى بلال وانصرف. تقول البطاقة:

«أنا، يا سيّدي، واحد من تلاميذك السبتيين. قصدنا جميعًا يوم أمس مقرّ الولاية طالبين من قيّميها السماح لك بتعليمنا في

الجامع، أو في أيّ مكان يعيّنونه، فاستقبلنا رجال الشرطة وأعوانهم بالعصي والهراوات، انهالوا علينا بالضرب المبرّح، كبسوا بعضنا، تمكّن البعض الآخر من الإفلات وعليهم آثار الكدوم والجراح. بهذا أنبئ سيّدي، وإلى الله المشتكى، ولا غالب إلاّ هو».

في منتصف اليوم التالي، استلمت من بلال بطاقة أخرى بخطّ باعث الأولى، تُعلمني أنّ أعدادًا من أتباعي يوجدون رهن الاعتقال، وثلاثيَ المقرّبين طردوا من بادية سبتة. أصابني كرب شديد لما توالى عليّ من أخبار سيّئةٍ فادحة. بعيد ذاك جاءني حمادة لتوديعي حاملاً عوده ونايه. أمهلته قليلاً وناشدته أن يعزف لي على الناي مقطوعة يحسنها. جلس أمامي مذهولاً وطفق ينجز ما طلبت. ووالله لقد جارت أنّات العزف وحشرجاته ما بي من كمد وكرب، وشاكل نزيفه اللامرئي نزيفي الوجداني. وفجأة توقّف العازف منبّهًا إيّاي أنّ قافلته تنطلق عمّا قليل، فقمت وضممته إليّ بحرارة فائقة، وأنا أوصيه بفيحاء خيرًا وأتمنّى له سفرًا مريحًا. نظر إليّ نظرة دامعة ولهى، وقبّل يدي وكتفي بشغف وشوق مثلما لم يفعل معي من قبل، ثم انصرف.

صبيحة اليوم التالي، تناهى إلى سمعي صخب وهرج من باب الدار، هرعت نحوه أستخبر، فإذا بي أمام شرطيين يخصّان بلال بالشتم والتقريع، ويأمرانه بالنداء على سيّده فورًا، بينما المارّة يتوقّفون والأطفال يضجّون. أنبأت الرجلين أنّي أنا من يطلبون، فتقدّما نحوي واستعجلاني في مصاحبتهم إلى نائب الوالي لأمر

يهمّني. سألتهما تسليمي استدعاء بتوقيع الوالي نفسه، فأنكرا عليّ السؤال وأمسكاني من ذراعي لاقتيادي عنوةً وإكراهًا، فما كان من بلال إلاّ أن سارع إلى تخليصي منهما بيسر أدهشني، واكتفى لكسر مقاومتهما بتحريك تضارب رأسيهما، ثم حشَر الرأسين تحت إبطيه، والمتفرّجون يقهقهون سخرية وهزءًا، فلم يمكّنهما من الإفلات إلاّ بعد أن أمرته بالعودة إلى عمله وإقفال الباب دونه. بعدئذ توجّهت إلى المطبخ حيث طمأنت الخادمتين الخائفتين، ثم إلى زاويتي أنشد السكينة والنظر في الحال والمآل.

قضيت الليلة نصفها أفكّر في شؤون شتى وأقلّبها، وطغى عليها أمر سفري إلى البقاع المقدّسة حجًّا وعمرة. رأيت في هذا بِرًّا يعيد للنفس بحول الله طهرها، ويمدّ نوابض الإرادة والحياة بما يجدّدها ويقوّيها، ورأيت أنّ خير هذا البرّ عاجله، لا تغني عنه زيارات إلى تلك البقاع ومناسك قمت بها من قبل على توهّم في نوماتي ويقظاتي.

حين استفقت كان الصباح يدنو من متمّه. ذهبت أتفقّد أحوال الدار، وكلّي توجّس وخشية من أن تُكتب لهذا اليوم أيضًا حصّته من المصائب. وصدق إحساسي إذ سرعان ما تبيّنت أنّ بلال لا أثر له في غرفته والاصطبل، ولا قرب الباب. سألت الخادمتين فلا خبر، ثم بعضَ الجيران، فأنبأوني أنّهم شاهدوا مبكرًا طابورًا من الجند يقتادون الخادم مقيّدًا بالسلاسل والأصفاد. تهيّأت للخروج، قصدت الولاية راجلاً حتى أتدبّر أثناء المشي أقوم المسالك إلى تحرير بلال ومواجهة الطوارئ. استقبلني نفر من

أعوان الوالي أو نائبه، رافقوني إلى غرفة رطبة ضيّقة حيث طلبوا منّي الجلوس والانتظار، وظلّوا هم مستنفرين دون الباب. مرّ بي الوقت ثقيلاً كالرصاص، فضقت به ذرعًا، وعبّرت للواقفين عن تذمّري واستيائي، مستعجلاً إيّاهم في تمكيني من مقابلة الوالي. ولمّا رأيتهم لا يستجيبون طالبتهم أن أزور بلال، فما لبثوا أن اقتادوني عبر حديقة موحشة مهملة إلى درج معشوشب متآكل، يفضي نزولاً إلى سرداب محفوف بزنازن ذات أضواء باهتة وأبواب من قضبان حديديّة، تراءى لي منها سجناء، يغلب على بعضهم الصمت والإنهاك، وبعضهم ما إن لمحوني حتى صاروا يلهجون باسمي ويدعون لي، ثم يردّدون بصوت واحد: الله فقط! الله الحي! في اليسر وفي الشدّة، لا حول ولا قوة إلاّ بالله فقط...

أوقفني الخفراء أمام زنزانة قصيّة، فتحوا بابها الحديدي المصفّح ثم أغلقوه دوني قبل أن يروحوا. ألفيت بلال مكوّمًا لا يبدي حراكًا، ناديته فوقف مذهولاً يحملق إليّ بعينين محمرّتين دامعتين، وعلى جسمه آثار ندوب ورضوض. عانقته وأنا أبدي إشارات لعلّها تفهمه أنّي سأخرجه من هذا السجن ولا بد. انهال على يدي يقبّلها وأنا أدعوه إلى الجلوس والراحة. جلست قربه فاستخبرني بإيماءاته عن مولاته وأحوال الدار، طمأنته عليها وناشدته أن يتمدّد على حصير ويحاول النوم، وكذلك فعل. أمّا أنا فتيمّمت على توهم وصلّيت ونفلت واستخرت واسعًا، ثم قضيت في الذكر أوقاتًا تواترت واتصلت حتى الهزيع الأخير من

الليل. وبعدها أظنّني استسلمت لنوم قاهر لم يوقظني منه إلاّ صوت سجّان ينبئني بقرب قدوم سيّده إليّ. استقمت واقفًا وعدلت هندامي ما استطعت، فإذا بنائب الوالي يدخل زنزانتي مصحوبًا برجل عليه هيئة فقيه، قال بصوت بشعٍ أجش:

ـ صحّ النوم يا شيخ؟ أنت ترغمنا على إيقافك عند حدّك. هذا هو الشريف الحيحي عالم هذي الديار ومفتيها؛ وهو مأذون باختبار عقيدتك وفحص إيمانك...

قال الفقيه مستدركًا وقد اقتعد حصيري ووجّه إليّ نظرات ملتبسة:

ـ بل قل، يا ابن سبعين، إنّي أبغي هدايتك حتى يقتدي بك أتباعك، فتقيَ البلاد الفتنة التي هي أشدّ من القتل.

سمات التزمّت والخمول بادية على وجه الرجل وهيئته، وكذا شارات خوضه حتى الأذقان في خدمة الساسة والأعيان. ناجيت نفسي بكلام مسموع: إنّي في أنس المعيّة الإلٰهيّة، أتجلّد على الذكر حتى أتجرّد جهدي عن المنسوبات والأرجاس. الله أنيس مَن ذَكَره. *لا إله إلاّ هو، حم. لا واجب الوجود إلاّ واحد، الم. لا موجود آنيته هويّته إلاّ الأزلي، كهيعص...*

أرغد النائب وأزبد، وخبط على الأرض منتظرًا من صاحبه أن يشير عليه بشيء. لكنّ الفقيه اصطنع التعقّل والهدوء، قال:

ـ ليس لسماع أذكارك جئت، يا عبد الحق! أنت متّهم بما لو أكّدته حقّ عليك العقاب.

ـ من ندبك لامتحاني وبأيّ مرسوم وكّلك؟

ـ الله وأولو الأمر يا هذا! وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ أولو الأمر زاغوا عن سواء السبيل، وتفرّقوا حتى فرّطوا في الأندلس السليبة، فلم يعد لهم من همّ وقوّة إلاّ في إرهاق البلاد والعباد إذلالاً وطغيًا. طاعتك لهم معصية للخالق، وأنت بها من مقامي منزوع الشرعيّة.

تجدّدت هتافات السجناء، وتردّدتْ أصداؤها في زنزانتي ولو ضعيفة متقطّعة. مرّة أخرى هاج النائب وماج. حدج صاحبه بنظرة كأنّه يستأذنه في ضربي. كان بلال في ركنه يطلق بين الفينة والأخرى زفرات وزمجرات، لعلّه بها يعبّر عن فهمه لتوتّر المشهد واستعداده للتصدّي لما قد يحصل لي ويسيئني. أجاب الفقيه بصوت لا يخلو من لغة الوعيد والشجب:

ـ أصبر عليك، يا ابن سبعين، طمعًا في توبتك. أمهلك حتى ترجع عن غيّك. الغيُّ أن تجدف: «لقد حجر ابن آمنة واسعًا بقوله لا نبي بعدي»! هل تعوذ بالله من هذيانك.

ـ يعجبك يا مأمور أن تروي قولي عن أهل التصحيف والقصور! صحيحه يا هذا: لقد رجح وليس حجر...

قاطعني الرجل بفظاظة وشدّة:

ـ وهرطقتك الأخرى، هل لحقها النحل هي أيضًا: «السلام

على المنكر والمسلم، والعالم والمتعالم، والغالط والمتغالط»؟

ندت عنّي ابتسامة شفقة واستخفاف، قلت:

ـ تستنطقني في ما لو شرحته لك لطال بنا الوقت، وضاق عقلك عن فهمه ونيله... نعم قلت ذلك بالحرف في متمّ «الرسالة الفقيريّة»، والتقطتَه مسلوخًا عن مناطه، عريًا عن أفقه الإنساني السامي. فهل ينفع أن أمهّد لك الدنوّ منه بآية من الأنعام: ﴿*كتبَ ربكم على نفسهِ الرّحمة*﴾، وأخرى من البقرة: ﴿*والله يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم*﴾. فاطلب نصيبك من رحمة الله الواسعة، والسلام عليك ولو أنّك من صنف الجاحدين المتعالمين الغالطين.

ارتبك الفقيه وامتعض، قال:

ـ مهلاً مهلاً! لن تبرح السجن إلاّ إذا تبرّأتَ من افتراءاتك ودعاواك. أتباعك ينشرون تحريضك على خرق العادات وإسقاط الحدود الشرعيّة في الربا والسرقة وتعدّد الزوجات وجواز ضرب الزوج لزوجته إذا نفرت وعصت، وغير ذلك كثير...

قاطعته بدوري هذه المرّة:

ـ تأتيني بأفكاري مشوّهة مبتورة، وتريد أطلعك على حقيقتها هنا بين عسر الوقت وعتمة المكان. والله لن يكون لك ذلك إلاّ أمام الملأ وعلى رؤوس الأشهاد، بين الثقات ومن هم على غير شاكلتك. إنّي منذ الآن مضرب عنك وعن آمرك.

فاجأني النائب بركلة منكرة صوبها إلى جنبي. انتفضتُ واقفًا، مغالبًا وجعي، صحت بالمعتدي: «حتى الركلة يا أجلف فلا!»، وبادرته بلطمة عنيفة على وجهه أفقدته توازنه، فتهاوى على الأرض مغمى عليه. وفيما الفقيه يفرّ هاربًا مستلطفًا، أقبل السجّان على النائب مسعفًا، إلاّ أنّ بلال انقضّ عليه وأسقطه أرضًا، ساحبًا منه حزمة المفاتيح، ثم غلق الباب وأسنده بكل ما حوته الزنزانة من خردوات ومطارح. اقتعدت الحصير أستردّ أنفاسي، وأرقب ما يجريه الخادم من حركات وتصويتات متحدّية مهدّدة للرجلين المنبطحين أمامه، يعسف برجله على صدر السجّان، يفتح فم النائب مستلاً لسانه ويبصق فيه مرارًا، يطلق في آذانهما صيحات خارقة مصمّة، يذرع الزنزانة خطواتٍ عصبيّة عنيفة، يحسب بأصابعه ويضرب على جبهته من شدّة التخمين والتردّد. حاولت استبانة ما يدور في خلده، فاهتديت، والله أعلم، إلى أنّه متحيّر حتى التمزّق بين صوتين، واحد يخاطبه بلغة التحريض والتحميس: «النائب، يا هذا، من طينة الطغاة الذين قطعوا لسانك وأعطبوك. اقتله وانتقم لنفسك»؛ وصوت آخر ينهاه عن ذلك حتى لا يورّط سيّده في ما لا يحمد عقباه...

خبط على الباب شديد، وأمر بفتحه حالاً. استنفر بلال وزفر وزمجر، ثم هرع نحو الباب يثبّت إقفاله ويسنده بجسمه الضخم. محاولات الحرس لاختراق الحاجز باءت بالفشل. سمعتهم يضجّون ويتداولون في الأمر، ثم فجأة ساد صمت غريب كذاك الذي ينذر بالشؤم ويسبق العاصفة. تململ النائب والحارس، فصاح بهما بلال كي يهمدا. تخيّلت أنّ الحرس يعدّون العدّة

لتدمير الباب أو تسريب دخان خانق إلى زنزانتنا، تخيّلت هجومهم على بلال وعليّ بالضرب المبرّحِ العنيف فيسقط الخادم بعد مقاومة بطوليّة مضرّجًا بدمه، وأُشبع أنا لكمًا وركلاً وأقاد معصوب العينين إلى قبو سرّي. . .

لم يقطع حبل توهّماتي إلاّ صوت الوالي ابن خلاص يناديني مترجّيًا منّي أن أفتح الباب حتى يأمنني ويعتذر لي عمّا بدر من نائبه الأخرقِ الأجلف. صمتّ مفكّرًا، فإذا بالصوت يقسم بالأيمان المغلظة أن يفي بما وعد، فجهرت بطلبي أن يشمل الوعد بلال وكل أتباعي المسجونين، فقال: يتمّ لك ذلك والله، يا قطب الدين، الآن قبل خروجك.

هل كان لي خيار آخر غير تصديق الوالي وإحسان الظنّ به. أشرت إلى بلال بفتح الباب واستباقي إلى الدار، فاستجاب مطاوعًا، وتسلّل إلى الخارج قلقًا حذرًا. برز ابن خلاص على العتبة وحيدًا وعليه أمارات الصحّة والحزم. تقدّم نحوي فعانقني معتذرًا مستلطفًا، وأنبأ النائب المكوّم الخانع بقرار نزع النيابة عنه ووضعه رهن الاعتقال حيث هو، ثم دعاني إلى اصطحابه وهو يأمر السجّان بالخروج وإقفال الباب دونه. قطعت معه السرداب كلّه رفقة نفر من أعوانه، وبدت لي الزنازن فارغة لا أثر للمساجين فيها، فانفرجت أساريري تيمّنًا واستبشارًا. على عتبة مدخل الولاية حثّني مخلّصي على العودة فورًا إلى مستقرّي للتطهّر والراحة، وضرب لي موعدًا ليوم غد بعيد العشاء في بيتي، ثم أمر سائس بغلة بمرافقتي.

* * *

ـ ٢١ ـ

في داري ألفيت الأحوال مائلة إلى الهدوء. تفقّدت بلال فكان تحت رعاية الخادمتين يتلقّى الإسعافات مغتبطًا. التحقت بزاويتي للاغتسال وأداء ما عليّ من صلوات. وبعدها بدا لي التمدّد على فراشي أحسن شيء أفعله للاختلاء إلى ذاتي ومناظرتها. التخمين في ما سيعرضه عليّ الوالي غدًا طغى عليّ، وهو ولا شكّ ترغيبي في الرحيل من سبتة في أقرب وقت؛ ونفسي رصدتها تميل شيئًا فشيئًا إلى هذا العرض. فلربما في تلبيته تنحلّ عقد وتنقشع غيوم، فأعود من بعد إلى حيث أهلي ومنشئي الفكري، أعود مسربلاً بأنوار الديار المقدّسة، منتعشًا بالنفحات الروحيّة العليّة؛ ولعلّ وعسى أن تكون لي في هذه العودة دفعةٌ رافعة جديدة، ومحجّةٌ إلى خير الناس أقوم وأجدى.

مساءَ يوم الغد أقبل عليّ الوالي في الموعد المحدّد، استقبلته بما يليق من ترحيب وحفاوة. جلسنا في بيت الضيافة حول مائدة عليها ما تيسّر من المشرب والحلوى. سألني عن الأهل، أخبرته أنّ زوجتي تقيم في طنجة لإسعاف خالها المريض. أثنى على مكارم أخلاقها، ودعا للخال بالشفاء والعافية. شكرته على صنيعه بالأمس، فقال:

ـ أنت وليّ مبارك يا قطب الدين! بعد مقابلتنا الأخيرة، استرجعت بفضل الله عافيتي ورباطة جأشي، وانصرف السلطان السعيد عن أمور سبتة إلى مغالبة الدسائس والقلاقل في قصره، ولولا ذلك لما توفّقت في الإيقاع بالزغبي وتأليب عصابته عليه ثم إيداعه السجن. لكن حتّامَ يخلو لي وجه هذه الهدنة، والسياسة، كما خبرتُها، لا تثبت على حال، مرّة لك ومرّة عليك، والويل لمن فرّط أو تهاون؟

شعرت أنّ جليسي يستدرجني إلى تعيين مطلبه منّي، بل إلى سبقه نحو تحديد المطلب وتوقيت إنجازه. لكنّي آثرت الصمت والترقّب، حتى يُفرغ كل ما في جعبته وأنظر في الأمر وأفصل. قال:

ـ الحجّ فريضة أديّتُها سبع مرّات، والعمرات لا أذكر تعدادها في حياتي. كل موسم تتوق نفسي إلى مكّة والمدينة. لو كانت الأحوال هادئة مستتبّة، والله لشددت الرحال إلى تلك الرحاب المقدّسة المباركة... قل لي، يا عبد الحقّ، هل عزمت على الحجّ كما أوصيتك؟ شوال في منتصفه، وقافلة الذهاب تقلع باكرًا بعد غد الجمعة بحول الله...

لم يكن لي بدّ من إبداء رأيي، قلت:

ـ أذهب إلى الحجّ وزوجتي غائبة، وأهبتي غير قائمة! ثم ما الفائدة في تعجيل الحجّ بدل تأخيره إلى العام المقبل.

ـ حرمك يا أخي بمثابة ابنتي الصغرى. والله لن أدّخر جهدًا

في تصبيرها على انتظار أوبتك. تسألني عن الفائدة في تقديم حجّك! بل هي فوائد: تغيب عن أتباعك فتهدأ فورتهم وأرتاح منهم؛ تحتجب زمنًا عن الأنظار فتنجو من المتربّصين بك الدوائر في سبتة ومراكش؛ هؤلاء، كالخفافيش، ما زالوا يكيدون لك ولي في الظلام. رسالتان منك، واحدة إلى عظيم الروم النورمندي وأخرى إلى الأمير المريني عبد الحق أخذهما رجالي من مريدك خالد الطنجي قبل رحيله، والله لو حصلت الثانية بين أيدي أعدائك ووقف عليها السلطان السعيد لكان هلاكك بسببها وهلاكي... هل في ما أقوله برهان وكفاية أم ما زلت تتردّد وترتاب؟

كنت بالفعل أرتاب في كلام الوالي رغم صدقه الظاهر. فما أدراني أن يكون الرجل قيّمًا على خطّة محكمة الخيوط، غايتها التخلّص منّي ونفيي من دون رجعة. قلت:

ـ أوكل ما لا أعلمه إلى الله، أمّا تردّدي فمردّه إلى أهلي. أأذهب هكذا إلى الحجّ من دون استشارة شريكة عمري؟!

ـ الوقت ضيّق يا وليّ الله، ورجوعك إلى سبتة ميسور ما إن تهدأ الأحوال في مراكش، وتعودَ إلى مجاريها المياه. تدبّر أمرك ما بقي لك من ساعات، فإن عزمت فبها ونعمتِ، وإن جاءك الخفراء فجر الجمعة وامتنعت فقد أعذر من أنذر... أمّا رجالي فيصحبونك حتى مشارف بجاية ثم يرجع أغلبهم. إن بدا لك أخذ هذه المدينة محطّة في سيرك، فلك ذلك. لكن قبلها إيّاك ثم إيّاك أن تفرّ إلى ربوع المرينيين الزناتة بين تافيلالت وتادلة، فعيون

السلطان هناك لن تخطئ رصدك واغتيالك. الدولة الموحّديّة، أو ما بقيَ منها، لا تسمح أن تكون نهايتها على يدك، ولو بمقدار. لا تحلم أن تصير ابن قسي هذه الدولة يا ابن سبعين...

نهض ابن خلاص وسلّمني كيسًا متوسّط الحجم، قال إنّه يحوي صررًا من قطعٍ ذهبيّة هي هبة الملك فردريك إليّ. ذكرته أنّي طلبت إرجاعها إلى مرسلها، أجابني أنّ ذلك تعذر عليه بل استحال، وخيّرني بين أن آخذها رزقًا حلالاً أو أن أتركها في خزينة الولاية عرضة للسطو أو التلف؛ ثم إنّه أشار إلى جواد مسوّم في اصطبلي قال إنّه هدية أخرى إليّ من الملك ذاته. ومن دون أن ينتظر كلمتي عانقني بحرارة متمنّيًا لي حجًّا ميمونًا وسعيًا مشكورًا. صاحبته إلى مربض فرسه حيث ودّعته في جنح الليل، وانصرف متبوعًا بنفر من حرسه وأعوانه.

الفصل الثالث

الموت في مكّة

إيه! الإحاطة شبه مغناطيس والموجودات كالحديد، والنسبة الجامعة بينهما هوية الوجود، والذي فرّق بينهما هو وهم الموجود.

ابن سبعين، **كتاب الإحاطة**

والمحقّق كهف الكمالات وكنه الإمكانات [. . .] وأسباب الكمال عند المحقّق الأول زمان حائل ومكان آفل، ومضاف زائل، وطالب نائل[. . .] والتجوهر بمدلول الإمكانات الإلٰهيّة.

شرح عهد ابن سبعين لتلاميذه

بَحرُ فكري عميق مسكُ كلو يعبق

من دَخَل لو حقيق ليس يخَاف أنْ يَغرق

يَدرُوا أهلُ الطّريق مِن كلاَم عبدِ الحَقّ

أبو الحسن الششتري، **الديوان**

ـ ١ ـ

على مشارف باديس، قرية الدور المشتّتة والحشيش، أوقفت جوادي عن الركض، حتى يكلأ ويستريح. كان الحجيج يعدّون مبيتهم في وادٍ أجرد وسيع. جلست إلى جذع شجرة أرقب غروب الشمس، وأنظر في حالي ومآلي. ولو قدرتُ أنيبُ عنّي من يرويني ويحكيني لما توانيت. وحده الصوت الذي عهدت سماعه في لحظات مّا من حياتي انبعث هذه المرّة مخاطبًا.

قال: الحال كما ترى يا هذا! حمل خفيف وجواد ملوكي مطاوع سريع، وأنت هنا تنجز وعد اللّحاق بالركب، عرضته في باب دارك على رهط ابن خلاص، فأمهلوك بضع ساعات. ولولا شفاعة رئيسهم الأعمى الصقلي لكانوا أخذوك معهم عنوةً في فجر هذا اليوم نفسه. وقت المهلة سخّرتَه لكتابة بطاقة لحرمك المباركة، عبّأت فيها الذرائع والأعذار لاستعجالك الذهاب للحجّ، وطمأنتها عليك، ومنّيتها بالرجوع إلى بيت الزوجيّة متى تقدّر، وأشهدت على نيّتك هاته اكتفاءك من الرحل بالنزر اليسير. وفي حاشية سلّمت على حمادة وأوصيته خيرًا بسيّدته فيحاء. كما أنّك صرفت بعض الوقت متفقّدًا أحوال الدار، مغدقًا على الخدم النصح والهبات. ولمّا حانت ساعة الانطلاق، أنهيت تردّدك في أمر القطع الذهبيّة بأخذ صررها معك مخبوءة، آملاً ردّها على

فريدرك النورمندي مرسلها إليك أو، إن تعذّر ذلك، التصدّقَ بها على من تلقاهم من ذوي العوز والخصاصة. . . والآن وقد بدأت مسيرك الاضطراري فهل تذهب به إلى مقصده أم تقطعه متى تشاء؟

قلتُ: الحجّ ركن لمن استطاع إليه سبيلا، لكنّي لن أقيمه إلاّ إذا نويت. خروجي من سبتة كان لما علمت، أمّا هجرتي فلي في منازلها وزمانها واسع النظر، بحسب الإمكان والاستطاعة. قد أقيم في مدن ذات روْح وريحان، وقد أمرّ على أخرى مرّ الكرام؛ قد أقصد حضرة الحفصي أبي زكريّا في أمر المغرب والأندلس وقد لا؛ قد أعرّج على صقلية عند مَلِكها معلّمًا مفاوضًا وقد لا.

قال الصوت وهو يخبو: هذا هذا. . . أحسنت والله أحسنت! وكذلك في تجنّب استشارة حرمك، رقيقة الحواشي والقلب، سريعة الانفعال والدمع.

انتبهت، فإذا الطقس يبرد والليل يزحف. قمت لأنزل إلى القوم وأظهر على من هم في انتظاري. ولمّا وصلت وترجّلت، قادني بعض الخفراء إلى من طلبته. فما إن أُدخلت خيمة ونُطق باسمي حتى أقبل عليّ الأعمى الصقلي مرحّبًا مقبّلاً، وعرّفني على أمير ركب الحجّاج ودليله وعلاّمه وبعض من كان معه، وصاح منوّهًا: «ألم أقل لكم إنّ وليّ الله ابن سبعين من المؤمنين الذين إذا عاهدوا وفوا!». دعاني إلى مقاسمة الجماعة عشاءهم، فتعلّلت بعادتي في مبيتي على الطوى، وطلبت الاستراحة من عناء السفر، فكان لي ذلك في خيمة صغيرة مجاورة.

عند الصباح بعيد صلاة الفجر في الهواء الطلق، دعاني مضيفي إلى خيمته للإفطار معه على انفراد. لاحظت أنّه يتقن صبَّ اللبن في الأكواب، ويسمّي الرغائف وما يضعه عليها من سمن وعسل، ويناولني إيّاها مرحّبًا، فظننت ذلك من مهارات الضرير وبصيرته؛ ثم إنّه أخذ يصف لباسي شكلاً ولونًا ويهنّئني على جودته ومناسبته لطلعتي وقدّي؛ ثم إنّه نصحني ألاّ أنتف الشعيرات البيضاء في لحيتي حتى تلزم حدّها ولا تُعدي غيرها قبل الأوان. اشتدّ عجبي، فسألته إن كان يدرك كل ذلك بحاسّة سادسة أو ما شابه، فأجاب مبتسمًا هامسًا:

ـ بتلك الحاسّة وبالعين المجرّدة يا وليّ الله!.

قلت ممازحًا:

ـ وتفتحها على نسوة السطوح حين تؤذن للصلاة؟

ردّ ضاحكًا:

ـ لا، لا.. معاذ الله! إنّما أنا عين لحضرة الوالي ابن خلاص منذ استقدمني من بلاط أبي زكريّا الحفصي، وأدخلني في خدمته. هذا سرّ لا يعرفه إلاّ هو، وأصبحت أنت تشاركه فيه، واعتقادي أنّك له حافظ. والآن أطلعني على بعض أسرارك أحفر لها قبرها في صدري.

سألت بنبرة هزء ومخاتلة:

ـ ماذا يخفى عليك من أمري يا عين الوالي؟

ـ مثلاً هل تنوي العودة إلى سبتة قبل الحجّ؟ وهل تفكّر في طلب الملك فريدرك والسلطان أبي زكريّا؟

أجبت بحزم ووثوق بالنفس:

ـ سبتة أعود إليها بعد الحجّ بقليل أو بكثير إن شاء الله. واللقاء بالملكين، نعم أطلبه، لا لشيء إلاّ لما فيه خير هذه الأمة.

توقّف جليسي عن الأكل، حدجني بنظرة ثاقبة من عينه المبصرة، قال:

ـ مقابلة النورمندي اعتبرْها من رابع المستحيلات، لأسباب معقّدة سيقنعك بها فهمك الواسع. من قبل حذفنا طلبك لها في رسالتك إلى هذا الملك، وسحبنا رسالتك الأخرى إليه من رسولك خالد الطنجي؛ أمّا الحفصي فعلى الطريق إليه ألف بوّاب وبوّاب، آخرهم الفقيه أبو بكر السكوني، صاحب اليد الطولى والنفوذ والحظوة، الذي لن يمكّنك من المثول بين يدي سيّده إلاّ أن تمرّ على جثّته. أخبارك كلّها في جعبته، وصكوك اتّهامك بالزيغ والمروق ملء أكمامه. فاعبر تونس الهوينى، خفيفًا كالظلّ، مارًا مرّ الكرام على القطر ومن فيه، فلا تلقي درسًا، ولا تعطي فتوى، ولا تخالط الأغرار ولا المغرّرين، فتنجوَ بنفسك من الفخاخ والمتاعب؛ هذا نصحي لك، وقد أعذر من أنذر.

أدركت في النصح تحذيرًا من ابن خلاص على لسان خديمه الطائع، فقلت من باب التحدّي:

ـ حين أُصبح في تونس بحول الله، يكون لي واسع النظر. إنّما خبرني: عدا التظاهر بالعمى، ماذا وراءك من أمور أخرى خفيّة؟

ـ لن تستلّ منّي شيئًا ممّا لا يعرفه إلاّ مولاي الوالي. لكن اعلم أنّي ذاهب بكلام منه إلى أبي زكريّا، فيه تجديد الولاء للدولة الحفصيّة ومشاورتُه في أمور سرّيّة شتّى.

ـ هب، أيّها الرسول، أن أكون مع ابن خلاص على نفس الجادّة في ما يريده من السلطان الحفصي ويدعوه إليه. . .

ـ لا يا شيخ، الساسة أعلم بأمور دنيانا، وأولياء الله أعلم بأمور الآخرة، وكل ميسّر لما خلق له. هذا علاوة على أنّ مولاي في سياسته لا يحتمل المبادر أو المزاحم.

سُمع ضرب على الطبل إعلامًا بأهبة الموكب للمسير. نهضت واقفًا قبل مضيفي، وأمسكت عن الكلام حتى لا يذهب بنا مذهبًا غير مأمون العواقب. أقبل الرجل عليّ يعانقني بيدين فاحصتين، والخدم يجهّزون رحله، وهمس لي في أذني أنّ عربون ثقته بي يكمن في تخييري بين لزوم الموكب أو تركه. أعلمته أنّي قاصد بجاية بسرعة الخيّال المتوحّد، فنصحني باتخاذ طريق الساحل نهارًا تجنّبًا لغارات اللصوص، وحفاظًا على فرسي الملوكي وصرري النفيسة.

من هواء جبال بني خالد تنفّست واسعًا، ملتمسًا تقوية نفسي،

والعمل بما أعلّمه لتلامذتي والمقرّبين في باب رباطة الجأش وحفظ الهمّة. أعددت للرحيل جوادي، وجلست قريبًا تحت شجرة عزلاء مورقة، أستظلّ بها وأجالس الفكرة، علّني أصير في قوامها نورًا صاعدًا يفضي ويجدي... تخيّلت نفسي ملَكًا محلّقًا بجناحيه الخافقين حينًا والمنشورين أحيانًا، والريح من تحته يوجّهها كيفما ظهر له وحلا. إذا تاق إلى السكنى والتملّي، فلا يقبل عن الأعالي الشامخات بدلاً، وإذا بدا له شأن في الواطئات وارتجاه، فلا عين مثل عينه للسعي إليه ونيله.

كنت كذلك الملك المجنّح أسرح وأمرح بالذهن في الجوّ، أو أقف عاليًا موقف التدبير والنظر، حتى إذا أتاني صوت المؤذّن من صويمعة مسجد باديس الأوحد، نزلت إليه لصلاة الظهر. اختلطت بالجماعة بعد أن ائتمنت حارسًا على فرسي، فهالني أن ألحظ بعض المصلّين إمّا قاعدين أو ساجدين لا يغيّرون هيئتهم أثناء الصلاة ولا بعدها. قصدت الإمام، وكان كثير اللحن في ذكر الآيات، فسلّمت عليه وسألته في أمر أولئك القوم، فانتحى بي ركنًا وقال إنّهم بالحشيش مخدّرون. ضربت يدًا بيد واستغفرت الله لهم، فإذا بالرجل يتشبّث بكمّي ويسألني عن اسمي ومأتاي ومقصدي. أجبته بالنزر القليل، فصاحبني إلى الخارج وهو يطلبني أن أفكّ له لغزًا في القرآن الكريم، حدّثه فيه منذ عام فقيه عابر ولم يطلعه على حلّه، واللّغز هو الثاوي في الآية ﴿*قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين*﴾؟ قلت «لعلّ العابدين هنا، والله أعلم، تعني الجاحدين؛ إذ العرب تقول عبدني حقّي، أي

جحدني. . . أعطيت الإمام قدرًا من المال ينفقه على المساكين، وبينما هو يمعن النظر في تفسيري أو في هبتي ركبت دابّتي وانطلقت جادًا صوب الشرق.

*

من باديس محطّتي الأولى إلى الجزائر، مرورًا بمليلة وحنين ووهران وتنس، كنت لا أتوقّف يومًا أو بضع ساعات إلاّ لأرتاد الجوامع والحمّامات، وآخذَ قسطًا من النوم والأكل في الفنادق. وأثناء ترحالي كدت أتعرّض لمكروه في بادية تنس لما لاحقني رهط من اللصوص الخيّالة، أظنّهم من أجلاف الأعراب، فنجوت منهم بفضل ما كان لجوادي الملوكي، العربي الأرومة والأصل، من سرعة وسبق.

في مدينة الجزائر بتّ ليلتين لا أكثر، ثم في فجر يوميَ الثاني ـ كأنّي أسابق الوقت مدفوعًا بقوّة ليّنة فعّالة ـ يمّمت صوب بجاية عبر البحر حتى أريح جوادي وأستريح من عناء الاحتراس الشديد والركض. وأثناء الرحلة في سفين وسيع، كنت نؤومًا، جوانيَّ النظر والمقصد، قليل الحركة والكلام، أفكّر أثناء انتباهي وشرودي في فيض المعاني وضيق العبارات، كما في مأساة التجاهل والتنابذ وعسر الوصال بين الخلائق. من يراني منطويًا على نفسي، تائه الذهن، ساهيًا عمّا حولي، فلا أقلّ من أن يظنّني مكلومًا من شدّة إفلاس أو يأس؛ وحقيقتي، على خلاف ذلك، أنّي بكياني كلّه ومهاراتي منجذب إلى جلائل الأمور وجسامها ومشرئبّ، أوّلها وآخرها الله الخالق الصمد، المحيط بكونه ما

ظهر منه وما بطن، الذي بالتجوهر الاستناري والمساعي الحميدة أكدح إليه وأتقرّب.

في وضعٍ نظيرٍ للذي أنا فيه، يهدهدني السفين الشراعي فوق الموج، أتلَقّى ملء رئتيَّ حصّتي من أنسام البحر والجوّ، في وضعي هذا، آهٍ لو شقّ صدري ملَكٌ وطهّره من رواسب السخيمة والسلب، إذن لتنفّستُ عبير السعداء المقرّبين إلى العرش!

* * *

ـ ٢ ـ

في بجاية التي وصلتها مساءً، طلبت المبيت في فندق فتيسّر. وبعد ليلتي الأولى استطبت تمديد المقام في هذه المدينة، كأنّما صلات ما تشدّني إليها. بعيد الإفطار تعرّفت إلى قيّم الفندق وائتمنته على فرسي، ثم قصدت أقرب حمّام للاغتسال من أدران السفر. في الجامع الكبير أدّيت صلاة الظهر والعصر، وفي انتظار المغرب خرجت أنظر أسوار قصر اللؤلؤ، فخر بجاية المعماري، فالجبال العليّة المحيطة بالمدينة، وهي معلمتها الطبيعيّة؛ ثم عرجت على الأحياء والأسواق، مستلذًّا بغربتي فيها وبمغموريّتي بين سكّانها وروّادها.

قريبًا من ساحة تجمهر فيها الناس جماعاتٍ جماعات، بعضهم للمقيل والمؤانسة، وبعضهم لسماع إمّا رواة الملاحم والمقامات، وإمّا مغنّين ومنشدين صحبة الآلات أو بدونها. وكان ما جذبني من هؤلاء مناد يقول:

تعالى يا السامع ليهْ وليّ كنتِ رجلْ أو وليّه

كنتِ عاقلْ أو هبيل كنت بْجاوي أو غريب

ونبدا كلّنا بذكر الحبيب

ثم علا بعده من وسط الحلقة صوت كأنّه من مزامير آل داود لرجل عجيب، له قدرة معتبرة في الانتقال ببنديره وشدوه من الأمداح والأذكار إلى الموشّحات والأزجال، وله في ذلك كلّه باع وأيّ باع، كما في صوغ الخرجات والأقفال.

كان الرسول عليه السلام «إذا وجد فرجة نصَّ». اقتداءً بسنّته نصصت، فسمعت الرجل ينشد كلامًا شيّقًا سهلاً، وينوّع ضربه على بنديره بين العلو والخفوت. تعالت الأصوات في الحلقة مادحة مكبّرة، ثم طالبت بالإجماع: «زدنا يا أبا الحسن»، فشرع المطلوب يطوف داخل الدائرة بآلته مترنّحًا ويتابع إنشاده:

شويخ من أرض مكناس وسط الأسواق يغنّي

آش عليّ من الناس، وآش على الناس منّي؟

آش عليا يا صاحب من جميع الخلائق

الذي هو نهواه، هو خالق ورازق

لا تقل يا ابنِ كلمه، إلاّ إن كنت صادق

خذ كلامي في قرطاس، واكتبه حرز عنّي

آش عليا من الناس، وآش على الناس منّي؟

تنافست الأصوات بالتبريك والثناء، وطلبت المزيد، فأوقف المنشد بنديره، وجهر بالقول وهو من حين لآخر يرمقني:

«اسمعوا كلامي يا ناس، بلا خرجة ولا قفل. هذي نفحة

قدسيّة هبّت عليَّ بالقول: الدايرة إذا تكرّرت تسمّرت، بل فرغت وخوت، فيا الراغب في الزيادة تحرّك معي وتسلسل، لعلّك بين أحياء الخلق والرب ترقى وتغنم. ومن ثقلت رجلاه فيبقى مع بوعزة صاحبي في الحرفة والخرقة».

كنت وأنا أعود أدراجي أستظهر بعض ما علق بذاكرتي من كلام الرجل وأعجب لسهولة مأخذه النافذة وسيولة ألفاظه العذبة. تساءلت مع نفسي إن كانت تسمية الجمهور للمنشد بأبي الحسن تعني أبا الحسن الششتري الأندلسي الوادآشي، الذي وصلتني من قبل بعض أخباره وأشعاره...

مررت بعطّار فاقتنيت شيئًا من الطيوب والأعشاب، ثم بوراق أنظر إن كان في رفوفه مصنّفاتٌ أجهلها، فإذا بيد تربّت على كتفي من الخلف برقّة ولطف. التفتّ فكان الرابت هو المشار إليه في الحلقة، هو ببنديره وقشبانيّته الخضراء، وبوجهه المشرق ذي الخدّين المتورّدين، هو بلحيته الشعثاء المخضّبة بالشيب، وجسمه النحيف الرشيق. خاطبني بصوت منفعلٍ رخيم.

ـ رأيتك، يا سيّدي، في حلقتي، فكنتَ على صورة من أحبّه في الله، ولو لم أره إلاّ في النوم، من أتوق منذ زمان إلى لقياه. هل تكون الصوفي الجليل عبد الحقّ ابن سبعين؟

أومأت برأسي أي نعم، وتحقّقت من أنّه أبو الحسن الششتري، فتعانقنا عناقًا حارًّا، والرجل يذرف الدموع فرِحًا مرحّبًا، ويدعو الورّاق الدهش المتعجّب إلى إحضار التمر

واللبن، ويعرّفه بي لمامًا ويختم بالعتب عليه: «لو علمت جلال قدر من يشرّفك بمقدمه لذبحت له عجلاً وتصدّقت». ارتبك المخاطب وعرض عليّ سلّة تين قال إنّها هي كل ما عنده، فتناولت منها تينة شاكرًا، بينما أبو الحسن ينصح صاحبه مبتسمًا بجلب كتب العلم النافع إلى حانوته، حتى يطمع في زياراتي له مستقبلاً؛ ثم إنّه أهاب بي أن أرافقه إلى منزله في حيّ قريب، فخرجنا إليه مودّعين الورّاق الذي أقسم أن آخذ منه سلّة التين هديّة.

في طريقنا المخترق لبعض الأسواق كانت أيدي تمتدّ إلى رفيقي بأعطيات، وهو يعرض عنها، وأصوات أناس من هنا وهناك تترجّاه أن يمتّعهم، فيجيب مردّدًا ومنشدًا «خلّوني خلّوني أنا الساعة الممتَّعُ بالذي صحبتُه تسعدني». وبعد أن جزنا السوق وضوضاءه، سلكنا دروبًا ملتوية وأخرى سويّةً طويلة، أفضت بنا إلى أرض مهملة فسيحة، تعمرها النباتات الطفيلة والصبّار والأشجار السائبة، فلمّا قطعناها كنّا أمام باب منزل واطئ، ذي حجر رمادي كأنّه مستمدّ من الجبل المطلّ عليه، فشبّهته، ورفيقي يشرع بابه من دون مفتاح، بكهف مهيب، يصلح للتعبّد والخلوة، لا للسكن والمبيت. وتأكّد لي تشبيهي وأنا أطلع في حجرته على افتقارها إلى أيّ فرش وأثاث، اللّهم إلاّ من قطائف وأغطية وكتب وشموع على مائدة وخابية ماء.

قال أبو الحسن وقسمات وجهه تشي ببوادر القناعة والكفاف، المشوبة بالرضى والاعتزاز.

ـ هذا الغار غاري، يا سيّدي، أحتمي به من القيظ والقرّ، ولي سواه في بقاع أخرى غيران وبيوت أتقوّى بالله فيها على وسوسات إبليس والنفس الأمّارة بالشرّ.

لم أستطع إخفاء عجبي وإكباري. ناجيت نفسي ثم قلت منوّهًا:

ـ سبحان مبدّل الأحوال، هذا تجرّد لم أرَ صنوه من قبل، سيّما وأنّ فاعله سليل أسرة عالية الرياسة والبذخ. صحّ تعيينك، يا أخي، إمامَ المتجرّدين، ولا شكّ!

أغمض الرجل عينيه قليلاً وقال مبتهجًا:

ـ هذا فضل من الله ومنك أنت يا كعبة الحسن، يا متني ويا سندي!

اندهشتُ لقول مخاطبي أيّما اندهاش، واستغفرت الله، فما كان منه إلاّ أن دعاني للتوضّؤ وأداء صلاة المغرب، وكان ذلك ما فعلناه. وبعدها اقتعدنا الأرض على قطيفة حول سلّة التين، فبادر أبو الحسن إلى محاولة تبديد أمارات العجب والحرج البادية عليّ، إذ قال بطيبوبة بالغة.

ـ منذ مدّة، يا سيّدي، وأنا أستقصي أخبارك وما تيسّر لي من لآلئ فيضك المكتوب. مصدرها عندي مريدوك العابرون من مدن بلاد المغرب إلى المشرق والديار المباركة؛ آخرهم واحد تعرّفت عليه في طرابلس يدعى خالد الطنجي، أعارني، جزاه الله،

تقييدات لبعض تلاميذك من دروسك ورسائلك، فقضيت أيامًا ثلاثة أنسخها حتى أعيدها إليه قبل رحيله. وبعد النسخ علّقت في بابي شارة خلوتي، فعكفت عليها حافظًا دارسًا متأمّلاً؛ فوالله إنّها أخذت بمجامع قلبي وحرّكت عقلي إلى ما كنت لا أدركه إلاّ بالفطرة وعفو الخاطر. ثم، وأنا بمكناسة الزيتون، رأيت فيما يرى النائم أنّك تشرط عليّ لدخولي في طريقتك ترك الأبّهة والرياسة، والتجرّد عن متاع الدنيا، ولبس القشبانية، وأخذ البندير، وولوج الأسواق بذكر الحبيب.

عجبٌ على عجب!

هذا الششتري ولي من أولياء الله الأصلاء! أوتيَ الحكمة من أبواب مشرعة على سماء الرؤى الإلهاميّة والواردات اللدنيّة. طلبًا للتدقيق في الأمر أكثر، سألت:

ـ بارك الله فيك، يا أخي، وأدعوه تعالى أن يبقّيَني عند حسن ظنّك بي. لكن ما قوّلتني في الحلم ليس كمخاطبة اليقظان لليقظان.

أجاب على البديهة وقد فرغ من أكل تينة:

ـ وهل اليقظة كلّها، يا قطب الدين، توجد في غير ما كتبتَ وسطّرت! ألست أنت الداعي إلى التجرّد من أوهام اللواحق والإضافات وضوضاء الأغيار والأضداد، وذلك نشدانًا للكمالات الرئيسة، والتخلّق بالأسماء الحسنى، الحقيقيّة وحدها بإيصال ممكن الوجود بواجب الوجود ومطلقه، الذي هو الله فقط وليس

ثمّة سواه! هذا بعض ممّا سعدت بفهمه في سعة رسائل لك، حصلت عليها بالنحو الذي ذكرت، وحفظتها كما لو أنّها منك إليَّ أو عليَّ نزلت. والحمد لله أن هداني إليها وبها، والشكر لك جزيلاً والجزاء كلّه.

لم أجد ما به أقلّل من شأن دخلي في تجرّد هذا المجذوب إلى الأسمى، لكنّي حاولت ذلك بأن قلت بنبرة التواضع والحياء:

ـ أنت، يا أبا الحسن، تغدق عليّ من جودك، وتبوّئني صدارة لا طاقة لي بها. قد تجرّدتَ بعون الله ممّا كنت مغرقًا فيه، ووضعت رتابة عيشك ومحمولات عنديتك في أدراج الخرق والترك، حتى تخلصَ إلى ما منك يتبقّى، وإلى ماهيّتك يعود؛ لكن، لولا استعدادك القبلي، لولا إرادتك النهوض بأعباء التجرّد العسير والسعي إلى عُليات الحقّ، هل كان نصحي لك في الحلم يفيد ويجدي.

أهداني المسؤول تينة فأكلتها، وتناولت ثانية وثالثة، ثم سمعته يقول:

ـ لا أنكر، يا سيّدي، أنّ أمرك لي في رؤيايَ وافقه ميل في نفسي دفين. لكن لولا قراءتي لك وعنك، لظلّ ميلي ذاك في حالة كمون وكبت، ولما عزمتُ وتوكّلتُ وأقدمت. أكبرك في السنّ، لكنّك تكبرني في العلم والفهم. أيقظتَني بآثارك من غفلتي وسباتي، وإلى حلمي ونهوضي أنت الذي حرّكتني.

حاولت تملّصًا لعلّه الأخير، قلت:

ـ كَوني أدعو إلى التجرّد لا يفيد بالضرورة أنّي أوفيه كل حقّه. صحيح أنّي مثلك زهدت في حياة الجاه والرياسة، لكنّي في طور شبابي بمرسية عشت الطيش والنطق في الهوى، وفي سبتة تزوّجت امرأة فاضلة، عالية الهمّة والقدر، غزيرة النهَى، عزيزة المعشر، لا شيء أحبّ إليّ بعد حجّي المرتقب من أن أعود إليها على جناح اللّهف والشوق.

سكتُّ عمّا في حزامي من صرر الذهب وعن جوادي المسوّم الرابض في اسطبل فندقي. أطرق صاحبي لحظة ثم استقام واقفًا وأشار عليّ بحلول صلاة العشاء. استقبلنا القبلة خاشعين وأتبعنا الصلاة بقراءة بعض الآي من الذكر الحكيم، وبعدها استوينا في قعدتنا كما كنّا. ساد مجلسنا صمت غريب، أوشكت على تأويله تأويل سوء، لولا أن عاد أبو الحسن إلى بشاشته الأصليّة ومتابعة الحديث:

ـ سيرة التجرّد، يا سيّد العارفين، ثمرة من ثمرات المجاهدة والمكابدة، لا ينالها إلاّ السالكون المجرّبون. لا تحسبني ملاكًا ولن أكون أبدًا ملاكًا، فأنا مثلك عرفت ولو بمقدار طورك الأوّل، وجزته إلى الثاني عملاً بنهي نبيّنا الأكرم عن الرهبانيّة والعزوبة، لكنّي خرجت منه بصفقة العريان، أرملَ من امرأة طيّبة، ومطلّقًا من أخرى وعرة مكابرة، ولم أخلّف من هذه ولا من تلك. بعدها ما طرقت باب التأهيل مجدّدًا، والحمد لله على ما كتب وقدّر. وأنا هنا، كما نصحتَ في الرسالة النوريّة، أوطّن عزلتي على فرار النفس من القبيح المهلك لها لا على البعد عن

الأهل والناس؛ بأنوار النبي الأمين أهتدي إلى وحدة الوجود المطلق، وعلى شيخين منوّرين في سلوكي أعوّل، شيخ من القرن الماضي كانت كلمته بين البدء وآخر الرمق: الله الحقّ، هو شعيب أبومدين الغوث؛ وأمّا شيخي لهذا العهد فإنّه جليسي الآن، أسعد بمحادثته، وأرجوه أن يتقبّلني تلميذًا ومريدًا.

تحرّجت فأطرقت مفكّرًا، لكنْ مضربًا عن التمنّع والرفض، فصاح الرجل مبتهجًا: «قد قالها شعيب: الشيخ من هداك بأخلاقه، وأيّدك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه»، ثم أخذ يعانقني ويبكي ممتنًّا شاكرًا. شددت على يديه مهدّئًا فورته، فسكن لحظة ثم دعاني إلى التعشّي بما تيسّر من لقيمات الصوفيّة، فاعتذرت بحجّة ما التهمته من تين. وقفت للانصراف واستأذنت صاحبي في الأوبة إلى فندقي الذي أشرت إلى عنوانه، فانتفض ضاربًا يدًا بيد، ورغّبني في السكن عنده بعد أن حذّرني أنّ الطريق إلى الفندق في هذا الليل البهيم غير آمن، ووعدني بإحضار فرسي ومتاعي مع طلوع الشمس؛ ثم إنّه رافقني إلى حجرة أخرى تحت نور قنديل، ونعت لي لحافي وبابًا خلفيًّا قال إنّه يفضي إلى زريبة فيها بقرة وحيوانات أليفة ودواجن وشجيرات غلال ورياحين. وبعد أن دعوت له انسحبت، حتى أخلوَ إلى نفسي وأراود نومًا ما أحوجني إليه.

* * *

ـ ٣ ـ

في الفجر استيقظت مع صياح الديك وأذان المؤذّن، قمت وتوضّأت وصلّيت. لم يكن لمضيفي في المنزل حسّ أو أثر. جلست أفكّر في شؤون شتّى، يتصدّرها شأن زوجتي التي أحنّ إليها، وشأن الششتري، هذا الموحّد المجذوب إلى الحقّ وخلقه، الشادي بما يقرّبه من الله ويحبّبه الناس. نفسي ميّالةً إليه صارت، ولما يمضِ على لقائي به سوى وقت وجيز. فأنعم به من وليّ في هذا الزمان البخيل بمن يستأهل الإعجاب والتبجيل!

ظللت على تلك الحال إلى أن بزغ الصبح. خرجت إلى الزريبة، فإذا هي بقيعة فلاحيّة تتاخم سفح جبل مهيب، يعمرها ما ذكره أبو الحسن لمامًا واطّلعت عليه بالتفصيل، فيها كلب وقطط تهشّ لي وتبشّ. وذهب التفقّد بي إلى أن اكتشفت وراءَ كدية مرحاضًا في الهواء الطلق، أحوجني إليه ما أكلته بالأمس من تين؛ ثم صعدت الجبل من مسلك معلَّم تحفّ به غروس شتّى وأشجار توت وزيتون وخرّوب، تضجّ فيها العصافير والصراصير. وأثناء ارتقائي صادفت رجلاً ذا شاشيّة يهوديّة فتسالمنا وقال: إن كنت، يا ابن السبيل، تقصد خلوة الششتري، كما قصدتها قبلك، فهذا الطريق يفضي إليها.

خلوة الششتري! ها أنذا أمام كوخ حجري منقوش على بابه «لا يدخله إلاّ الموحّد»، وتحت التنبيه هذي الكلمات:

«هو الله فقط»، قالها سيدي ابن سبعين، وأنا على كيفي أنشدها للمريدين:

في الله هاموا الرجالْ في حبّ الحبيبْ

الله الله معي حاضرْ في قلبي قريب

اذلّل يا قلبي وافرح حبيبك حضرْ

وانعم بذكر مولاك وقُصّ الخبرْ

واتهنّى وعشْ مدلّل ما بين البشرْ

دخلتُ الكوخ مبسملاً، فألفيت المكان نصفه ظليلاً، عليه خابية ماء وحصير، ونصفه الآخر وضيئًا، يحفل بشقائق النعمان والنبت الوفير؛ والغريب أنّ النزيل لا يسمع فيه ولا حواليه لاغية من أيّ عنصر أو صنف كان.

اقتعدت الحصير مسندًا ظهري إلى الحائط الطيني، أستلذّ بالصمت المطبق الطليق، أحاول الانصهار فيه والسياحة به، رغبةً في سبر أغوار ما يخفيه من لغاتٍ وأذكارٍ وأغاريد. فوالحقّ ما وجدت غير الحقّ الذي لا يحيط به وصف ولا علّة ولا فهم، وما دونه المحقّقين المقرّبين يسلكون إليه بالشوق والكدح، ماحين أعراضهم ولواحقهم في التجوهر بالأسماء الحسنى ونفحات الخلد؛ وما سواهم، وهم السواد العرمرم، يتيهون في بيداء العبث والوهم، وتتقاذفهم عتمات السهو والجهل. وأظنّني تابعت

استدرار الصمت عبر مواقفَ وحلقاتٍ تأرجحت بين الغفوة والنوم. ولمّا انتبهت دلنّي اسطرلابي على اقتراب العصر. نهضت إلى الخارج مهرولاً، فإذا بي وجهًا لوجه أمام أبي الحسن يقبض على لجام جوادي المحمّل بمتاعي، ومعه رجل عليه سمات قسّيس. طالعني مضيفي بوجهه الريّان وسلّم مثل رفيقه وقال:

ـ هذا الجبل، يا معلّمي، استهواك بهوائه المنعش، وهداك إلى هدوء خلوة الموحّد.

رددت السلام على الرجلين وأقررت:

ـ هو ذاك يا مولى الكوخ، هو ذاك!

ـ أنا وهذا القسّيس، في انتظار أن تفرغ وتستفيق، ظللنا نتجاذب أطراف السكون ما شاء الله. وأنت الآن، سيّدي، مخيّر في أن تبيت هنا أو تصحبني حيث تريد.

فهمت أنّ للقسّيس الصامت حاجة إلى الخلوة في الكوخ، فأشرت إلى أبي الحسن بالذهاب. شرعنا في النزول راجلين، والجواد يرتع مرحًا أو يكلأ ما ينتقيه من العشب، ثم يلحق بنا ركضًا؛ وصاحبي المفتون بالطبيعة يعرّفني على ما لا أعرفه من النباتات والحشرات والطير والأشجار، ويسمّيها مسبّحًا لخالقها، كما ينبئني لمامًا بما في سفحي الجبل من عمارة وساكنة، وينعت بحسب الجهات جبلاً آخر شاهقًا لا يدركه إلاّ جوارح الطير وصنف من القردة، ودونه مرتفعات أمسيوان وهضاب أشار لي فيها إلى قلعة بني حماد وآثار ملكهم الزائل، وكذلك قصبة الموحّدين وصومعة جامعها؛ ثم يسّر لي أن ألاحظ كيف أنّ

التدرّج نحو الساحل البحري شمالاً يفضي بالمدينة إلى ما يحيط بها برًّا من سهول ذات حقول وبساتين، ومن وديان كثيفة الأشجار والظلال، يسكن بعضها قردة وخنازير البرّ؛ وختم بالكشف عن سرّ تعلّقه ببجاية في ما حباها الله به من نعم طبيعيّة، ومن سحر روحي تدلّ عليه أرضها ذات المدارج والمرتقيات.

باركتِ للمعرِّف الواصف في علمه وذوقه، قلت:

ـ هكذا يكون الشاعر الأصيل وإلاّ فلا: عريفًا بالأرض وما عليها، متعلّمًا للأسماء أغلبِها!

خفض الممدوح رأسه حياءً وأجاب:

ـ علمي، يا مولاي، نقطة من معينك وغيض من فيضك.

على طول طريق النزول، كان صاحبي يقف حينًا أمام سنديانة معمّرة، يتفحصها مليًّا ويكلّمها؛ وحينًا آخر يحنو على نباتات أو حشرات، فيقول عن هاته إنّ بعضها حديث الوفود والظهور، وعن تلك إنّها ذاكرة الغابة وراعية الآجال بحول الله. ولمّا أتينا السفح، أخذ يتمرّغ في الترائب والحشائش، ويردّد منشدًا مبتهجًا «هو الله!». غَبطّتُه على جراءة فعله، وأنا أنظر إليه دهشًا معجبًا؛ ثم إنّنا توضّأنا من عين جارية وتابعنا المسير، حتى إذا بلغنا المنزل رحّب المضيف الكريم بدابتي وعيّن لها مربضها وعلفها وأعانني على تخليصها من حملي، ثم ترك لي مهمّة ترتيب حوائجي في غرفتي على أن يتكفّل هو، كما أعلن، بإعداد أكلة مستحقّة، وحسب تعبيره «دايزها الكلام».

حين أتى بالمائدة معدًّها، ووسّطها في غرفته بينه وبيني، كان ضوء القنديل المتوهّج يطلعني على طاجين ترقد فيه قطع قديد بين جلطات بيض مفقوس وبعض التوابل، والكل مغموس في مرقة ذات زيت معتبرة وأفاويه طيّبة، ويحيط بالأكلة خبز وأجبان وتمر وأكواب لبن. قدّم أبو الحسن مائدته على أنّه لا يقيمها إلاّ في الأعياد المباركة، وكذلك المناسبات الكبرى التي أعزّها، كما أكّد، تشرّفه بمحادثتي ومشاركة الطعام معي؛ ثم عرض عليَّ الافتتاح داعيًا لي بنزول القوت في معدتي منزل بركة وتيسير. بسملت مثله وشرعت آكل من الطاجين ما طاب، وأنا أنوّه بمبدعه وطاهيه. كان جليسي أقلّ منّي إقدامًا على اللقمات، لاسيّما وأنّه شغل فمه بالكلام عن اضطراره فجرَ هذا اليوم للقيام بما يستطيعه من المساعي الحميدة. سألته عن طبيعة هذه المساعي، تردّد قليلاً وتلكّأ إلى أن قال:

ـ لا شيء أكثر ممّا يأمر به تعالى ورسوله المؤمن في باب إغاثة الملهوفين والمتروكين، وهم كثر في زمن الكوارث هذا وتهجير الأهالي من الأندلس الثاكلة. أضف إلى ذلك، سيّدي، ولا منّة، دخولي خيطًا أبيض بين الناس لفضّ النزاعات وتوسيع ربوعِ المؤلّفةِ قلوبُهم.

شكرت لأبي الحسن جميل أفعاله، ولو أنّي في نفسي استكثرتها على طاقته ووسعه. وكأنّي به فطن إلى إحساسي، فاستدرك موضحًا:

ـ من منن الله عليّ أن جعلني من أوليائه الواهبين لما يفقدونه.

آخذ للضعفاء من أموال الأثرياء؛ وحين يضنّ هؤلاء أو ينقبضون، أقيم لهم ليالي الأذكار والأوراد تارة وحفلات الإنشاد والغناء طورًا، فتلين قلوبهم، وتجود أيديهم من متاع الله بما يذهب ريعُه إلى ذوي الخصاصة والإملاق؛ والله في مساعيَ وتوسّطاتي هو المستعان ووجهه مبتغاي.

اغتنمت انشغال فم مضيفي بلقيمة فقلت:

ـ هكذا، يا أخي، يكون المؤمن الصالح وإلاّ فلا: التقرّب من الله بخدمة خلقه، وطلبُ مرضاته بجلب العون إلى المستضعفين وذوي الفاقة!

سمعته يردف وقد مسح فمه وشرب من اللبن:

ـ كان أبي يرحمه الله، وقد تقلّب في أسمى المراتب والوظائف الأميريّة، يتجنّب ما استطاع معاشرة الناس، ويُجري لعبة التواري مع النساء، وذلك، حسب ظنّه، حتى يظلّ معتزًّا بنفسه وواضعًا عقله في مقام الاحترام. نصيحته الوحيدة لي أيّام شبابي كانت: «لا تقترب من سواد الآدميين، فنخاعهم الخفي ينفُرُ ويحبط؛ أمّا الطغاة فاهرب منهم ما قدرت، ضع نفسك خارج دوائرهم وأسلاكهم تنجُ بروحك وسلامة عقلك». هربت من هؤلاء بالطبع قبل النصيحة، لكنّي، مع أولئك، خالفت الوالد لمّا أن وجدتني ميسّرًا لمَا خُلقت له: طاعة الله في إسعاف مخلوقيه، كما فهمتَ سيّدي، وهم في هذا العصر العصيب كثر: معذّبو الأرض من مغلوبي الطغي، المكسّرةِ جسومُهم وقلوبُهم،

الفاقدين حقوقهم وعقولهم. وكلّهم ألقاهم بين السكّان طلقاء أو في الزوايا والمارستانات والمعتقلات. ولو أردت تزور معي بعضهم غدًا فعلى الرّحب والسعة.

كنت أنصت لكلام هذا الولي الخيّر بشغف وإعجاب، أجبت:

ـ نذهب معًا إن شاء الله، ولو أجّلتُ قليلاً رغبتي في الصعود إلى خلوة الموحّد... قل لي حكاية هذه الخلوة المسمّاة أيضًا باسمك.

ـ والله كم نهيت الناس عن هذي التسمية، ولا مجيب. لم ينفع فيهم نقشي على بابها ما قرأت؛ أمّا ما نقشت فبعض من فيض نعمائك عليّ، أضعه على مدخل كل كوخ بنيتُه بيديّ في شتّى بلدان المغرب التي حللت بها، حواضرها وبواديها.

استكثرت في نفسي تعظيم هذا الرجلِ الفذّ لي، قلت منوّهًا:

ـ حتى فنَّ البناء تحسنه يا أبا الحسن!

ـ علّمني إيّاه أحد مريدي أبي مدين بتلمسان. أبني بالحجر في الجبال ذات الرياح، وبالخشب والقصب وسعف النخيل في السهول والهضاب المعتدلة، وما التوفيق إلاّ بالله.

تناهى إلى سمعنا في هدأة اللّيل المخيّم أذان العشاء، قمنا وصلّينا المتوجّب علينا، وأتبعناها بشيء من النوافل والأوراد. ولمّا فرغنا، سألني صاحبي في جواز أداء الصلوات بعيد وقتها أو في آخر اليوم مجموعة، فجوّزت معلّلاً ذلك بقولي:

ـ إن كانت الصلاة، يا أخي، صنو التفكّر والتأمّل، ورديفَ العمل الخيّر والكلمة الطيّبة، مرسلةً أو مغنّاة، فكلانا يوجد في حالة صلاة متّصلة متواترة، ولا حرج من قضاء الفرض باليسر والسعة.

ـ لا فضَّ فوك، يا الحبيب في كل شيء، لا فضَّ فوك! الآن وقد انتصف الليل، زوّدني بما في متاعك من قوتك الروحي، أتفرّغ له ما استطعت.

مكّنت الصاحب من نسخة بدّ العارف، وطلبت منه أشعاره وأزجاله، فقال إنّ بعضها في ذاكرته والبعض الآخر في بطاقاته. استلمت منه البطاقات وودّعته على أمل التلاقي فجر الغد.

على مطرحي لم يغمض لي جفن. غلب عليّ التفكير في أهلي وقرّة عيني، كما في طلاّبي وأحوال سفري القسري. هذا السهاد، خمّنت، قد تخفّف من وطأته قراءتي لأشعار مضيفي الطيّبِ الكريمِ الأعزّ. تناولت بالاطلاع تارة موشّحات وأزجالاً وتارة قصائدَ بالفصحى. أدركت في ما نلت منها اعتدال التخلية وبهاء التحلية ولطائف التجلية. ويبقى أن أستوضح الشاعر الملهم عن ذكر السكْر في بعض أبياته وما حام حوله من مصطلح مخصوص صريح، هل بخمر «دون عصارة» أو «ما عصرها عاصر»، كما يقول على طريقة الصوفيّة الشاطحين، أم أنّ الأمر، دون الكناية والتشبيه، يحيل على طور طيش وخلاعة، شرب فيه أبو الحسن الخمر محضًا أيّام كان من أبناء الأمراء؟

* * *

ـ ٤ ـ

في الصباح أيقظتني أشعّة الشمس الدالّ حموها على دنوّ النهار من انتصافه. بطاقات مضيفي المنتشرة على لحافي ووجهي، لعلّها هي التي أصابتني سحرها بسكرة مجازية أفضت بي إلى نوم قاهر. جمعتها جانبًا وقمت أتفقّد الأحوال وأعدّ طهارتي من أجل صلاتي، والقطط والكلب والدواجن من حولي تقوّي عرى الثقة بي؛ وبعد ذاك غسلت ثيابي وجسمي وتعرّفت على جنينة خلفيّة، فيها شجيرة ليمون وبعض الخضار الطازج. قطفت من هذه وتلك ما يكفي لسدّ رمقي، ثم خرجت قاصدًا المدينة للاستئناس بالمآثر وعمارة المحلاّت والناس.

قطعت الأرض الخلاء التي تفصل بيت مضيفي عن أولى الدروب الموصلة إلى وسط المدينة. جزت سوقًا يبدو أنّه للصوّافين فالقيصاريّة، حتى إذا بلغت سوقًا يعجّ بالسلع والدواب والآدميين ـ وقيل لي إنّه سوق باب البحر ـ صادفت الكتبي الذي عرّفني به من قبل أبو الحسن، رددت عليه سلامه وسألته عن سوق الورّاقين، فنفى وجوده معلّلاً ذلك بكون معظم الناس إنّما همّهم في المأكل والملبس والمسكن، لا اعتناء لهم بالعلم ولا بأهله، ثم دعا للشتري الذي يمدّ له يد المساعدة حتى لا يغلق دكّانه أو يملأه بالبقول أو أيّ خردة.

تذكّرت نهج ذلك الولي المتجرّد في الأخذ من أموال الأغنياء وإعطائها إلى المعوزين والضعفاء، فلم أستغرب فعله الخير مع هذا الورّاق المفلس. سألت الرجل عن المحسن أين يكون الآن، أجابني بما أذهلني:

ـ كل يوم اثنين، يا مولاي، تراه يقود جماعة من المجاذيب والحمقى، يطوف معهم بين باب البنود وباب المرسى، وهم يهتفون وينشدون... هيّا اصحبني فترى.

وفعلاً صحبته. فما هي إلاّ لحظات بين مشي وانتظار حتى ظهر لي الششتري، كما وصف مرافقي، وجمع غفير من الناس يتبعونه جادّين السّير، وبعضهم يرفعون أعلامًا مختلفة الألوان، فالتقطت من إنشادهم:

يا فقيرْ اسمعْ ما تعملْ

تهْ على الأكوانْ وادْلَلْ

ليس ثمّ شيْ منك أجمل

واقطعِ الأغيارْ وافهمِ الاسرارْ

وادْ خلِ المضمار وترى الماضي والآتي

أطيبْ ماهِ أوقاتي حينْ نكنْ مجموع مع ذاتي

جُل بأفكارك واتنزّه

فالوجود كلّو لك منزه...

هرولت نحو مكان آخر من مسيرهم، ورفيقي معي، فسمعت الجموع تهتف:

اسمعْ يا أبدعَ مخلوقْ

هِمْ بمن شئتَ وابقى مطلوق

أنتَ هُ العاشقْ والمعشوق

مشهد مؤثر حقًّا!

رجال من شتّى الأعمار، بعضهم عراة الصدور حفاة، وكلّهم، ملء حناجرهم، يتبارون في ترديد هتاف إمامهم أو مصاحبته في إنشاده، وهو من حين لآخر يضرب أو ينقر على بنديره. اعترتني في الحال هزّة وقشعريرة، ولولا تورّطي في حمل حزام القطع الذهبيّة، لاختلطت بالقوم وسرت وراء إمام المتجرّدين، منصهرًا في طوافهم، باحثًا في سعيهم عمّا يخلع عنّي الهواجس والأكدار، ويشرح صدري لذرّات الفتح والأنوار. انتبهت إلى مرافقي المتعجّب لذهولي، نصحته بالعودة إلى مآربه وبيته، فقال شاكيًا:

ـ مكتوبي في القعود بين العيال أو في الوراقة. سيّدي الششتري قالها بالوزن والقافية:

افهموا ذي المقاصدْ يَا أُميّلَ الإراده

إنَّ من ظلَّ قاعِدْ كيف تكنْ لو سياده

السعود للمجاهد وله الحزقُ عاده

أمّا أنا فانطلقت على غير هدى في رحاب المرسى ثم بين الأزقّة والساحات صعودًا وهبوطًا، أردّد بعض ما حفظته من زجل الششتري، الوارد على لسان جمهور الطائفين، ثم أثني على صاحبه واسعًا، ناعتًا إيّاه بالطاقة المتوهّجة والشعلة الوضّاءة. وظللت على تلك الحال، حتى إذا واجهت باب جامع، لعلّه الجامع الأعظم، دخلته فأدّيت العصر مع الجماعة، ثمّ انتحيت ركنًا معتمًا ملاحظًا مغموريّتي ومنصرفًا إلى ما تيسّر من الذكر والتأمّل. لكن ـ وأنا قريب من قطف بعض الثمار ـ جاءني رجلان فانحنيا عليّ وقالا بالتناوب: «لا تطل الإقامة ببجاية يا ابن سبعين»؛ «الأسلم لك أن تعجّل الرحيل إلى الحجاز». لهجة الإنذار والوعيد في كلام الرجلين أقعدني وقعها المفاجئ الصارم عن إجابتهما بله اللّحاق بهما. ظللت وقتًا آخر أفحص الأمر مليًّا وأربط خيطه الطارئ بمجمل قصّتي وحبكتها. وحين تبيّن لي الفحوى واستقام، غادرت الجامع مكبًّا على وجهي، قاصدًا مستقرّي. وهنا تلهّيت بتفقّد حال حصاني، فوفّرت له المزيد من العلف والماء، وداعبت رأسه ولبدته، هامسًا له بكلمات تأنيس وأمان. وبينما أنا أقوّي النفس على الصبر إذا بالششتري يمثُل أمامي مبتهجًا بشوشًا. عانقني بشوق مقبّلاً كتفي، واعتذر لي عن عدم إيقاظي فجر هذا اليوم لكوني كنت خالدًا إلى نوم عميق.

فكّرت أنّ وقت مفاتحة هذا الولي المتجرّد بأمور واستشارته في أخرى قد حان. دعوته إلى الجلوس معي داخل البيت، فاستجاب لي بعد أن فرغ من ريّ جنينته ورعاية دواجنه

وحيواناته، وجعل بينه وبيني مشروبًا وقطع خبز وبقول وأجبان. قلت وأنا أقشّر خيارًا:

ـ حتى الفِراسة يا أبا الحسن من مواهبك!... شاهدت سعيك ظهر اليوم قرب باب المرسى مع جماعة من الفقراء، ووالله سررت لما شاهدت.

أتمّ بلع لقيمة وأجاب:

ـ كل يوم اثنين، يا سيّدي عبد الحق، ألبّي رغبة نفر من حمقى المارستان في الطواف والإنشاد معهم، ثم الختم بالإذكار والحضرة في مقرّهم. ويبدو أنّ عملي هذا يفرّج عنهم ويواسيهم. وكل يوم سبت يكون لي العمل نفسه مع طائفة من السجناء آخذهم على ذمّتي. إنّي عند هؤلاء وأولئك أبحث عن تخليص بذرة الخير فيهم، وتغليب وهجها على محنهم وأعطابهم. وللإنشاد في هذا فضل وأيّ فضل! وما التوفيق إلاّ بالله.

بلهجة الإعجاب الصادق نوّهت بعمله النافع، وأكّدت له استحقاقه للقب قطب المتجرّدين وإمامهم، فبادر إلى تذكيري أنّه في التجرّد والتصوّف كله إنّما يأخذ عنّي، كما يفعل المريد مع شيخه، فما كان منّي إلاّ أن خلعت حزامي وطرحته أمامه وصدعت محتجًا:

ـ هل أكون كما تقول وأنا أحمل صررًا من القطع الذهبيّة! ألا جرّدتني منها وأنفقتها في الخير، فأهنا وأستريح.

لم تبدُ على الرجل أيّ علامة ذهول واستغراب، بل خفض عينيه وقال بصوت هادئ مطمئن:

ـ هذا، يا معلّمي، عن الخبر، فما عن المبتدأ؟

شرعت أحكي لسائلي قصّة الصرر وخيوط نشأتها، حتى إذا انجلت له عقدتها وانحلّت صاح فرحًا:

ـ كذا إذا ظهر السبب بطل العجب. مالُكَ هذا متاع مستحقّ ورزق حلال، تجرّد منه بالصدقة قدر الإمكان، واترك الباقي لدوائر الزمان، فلا ضرر ولا ضرار.

كان حديثي عن ملك الروم فردريك وهباته مدخلاً لإطلاع جليسي على حلقات من حياتي بمرسية، ركّزت له فيها على طور الطيش والنطق في الهوى، لعلّي أميل بمريديته لي إلى الاقتصاد والاعتدال، فيدرك ماهيّتي عبر تطوّراتي، لا كما يتمثّلني بفيض حبّه وإحسانه. غير أنّ الولي المتجرّد أخذ يحكي، من دون أيّ تحرّج ملحوظ، عن حياة البذخ والمجون التي عاشها في شبابه بين مدينة وادي آش وقريتها ششتر، وبرّر ذلك بنشأته في أسرة مترفة ذات رياسة ونفوذ، كما استدلّ على ذلك بما يتراءى منه في شعره وموشّحاته وأزجاله.

هذا الرجل ما فتئ يدهشني. سألته محتشمًا:

ـ حتى ابنة العنقود يا أبا الحسن؟

فصاح منتشيًا:

ـ أي نعم يا مولاي! الخمر في الأقداح والكاسات، يا ما عاقرتها وسكرت بها في الأديرة والحانات! أمّا الخراجيات فلا تسل عن قصصي معهنّ وأسماري، فكلّها في حمى أسراري، لا يعلمها إلاّ الرحيم الغفّار.

ذكّرني هذا العجيب بمخالطتي، أيّام نزقي وشهوانيّتي، لمومسات مرسيات سمين بالخراجيات لما كنّ تؤدّينه من خراج للسلطة ومحتسبيها. حجبت الذكرى عن صاحبي من باب التستّر والحياء؛ ثم إنّه أعاد إلى ذهني أنّ توبته عن ذلك كلّه إنّما أتته بفضلي في مكناس لما أن اطّلع على رسائل لي مكّنه منها أحد تلامذتي.

عجبًا لسير الأحوال في هذي الدنيا!

فهذا المجرّب الفاضل الأكبر منّي سنًّا، لو كنت السبّاق إلى معرفته لطلبت توبتي على يديه، هو المتجرّد حقًّا، هو فعّال الخير والمساعي الحميدة حقًّا، هو من أقول عنه ما قاله أبو الوليد ابن رشد عن أبي العبّاس السبتي: *«إنّ هذا الرجل يرى أنّ الوجود ينفعل بالجود»*.

اغتنمت فرصة حالة أنسي بجليسي، فاستفتيته في أمر مخطوطتي الضائعة ورسوبي في استعادتها، فسمعت منه كلامًا يواسيني وفي نفس الآن يحيّرني:

ـ قد تكون أيّها الحبيب كتبتها في الحلم ثم فقدتها فيه. ألست أنت القائل في *الرسالة الفقيريّة*: *«واعلم أنّ الشقي هو الذي ذهب شبابه بلذّته، وارتهنه بتبِعته، وخلف له التأسّف عليه.*

والسعيد هو الذي علم أنّ أيام الحياة حلم، والموت يقظة، وفي الحساب تفسير أضغاثه...».

نعم... قلت هذا الكلام أو صنوه، لكن هل به أقطع الشك وأرفع عنّي الحيرة؟ عوض النظر في الأمر آثرت التعريج على حياتي في سبتة، فعيّنت لأبي الحسن أهمّ حلقاتها وأوجزت القول في زوجتي وشوقي إليها، وفي الذين عرفتهم بالمدينة وجبل موسى من خاصّة الناس وعامّتهم. كان صاحبي ينصت إليَّ بكلّ عناية، وبين الحين والآخر أجيبه بالتخصيص عن سؤاله في أمر بعينه أو شخص يثير اهتمامه وفضوله. ولمّا انتهيت فاجأني الرجل بإخطاري أنّه اطّلع على فصول من بد العارف. استخلصت أنّه، ولا ريب، من صنف الأولياء قليلي الصلة والاحتفال بالنوم. تحاشيت إحراجه بالكلام في قضايا كتاب تندغم أحيانًا عباراته وتكثف، فتستغلق بعض متونه وتشكل، لكنّه بادر إلى الثناء على ما استوعبَه وفهمَه في باب معرفة حقائق الأشياء كما في أقسام العلوم، وقال إنّه في ما لم يدركه لا يلوم إلاّ ضعف بضاعته وقصوره، وأردف:

ـ عندما أقرأ لعالم من طبقة معلّمي وأخرج من بعض أثره صفر اليدين، أراني أتأمّل هذا الصفر من كل جهات تكويره، فلا أجده مشيرًا بالنسب إلاّ إليّ. حينئذ أجعل وكدي في الطلب لعلّ المسؤول يفتح عليّ.

ـ وهل محلّ سؤالك عندي غير الرحب والسعة! اسأل يا أبا الحسن، اسأل.

تردّد المدعوّ قليلاً فتلهّيت بازدراد بعض التين، ثم استأذنني في إحضار طلبة إلى مجلسنا كيما يستفيدوا من علمي، وكانوا ينتظرون في الزريبة، فما إن أذنت حتى صفّق مضيفي ثلاثًا، فدخلوا علينا مسلّمين، وجلسوا في ركن مهيّئين أوراقهم وأقلامهم. بعدئذ تجرّد للسؤال أبو الحسن فقال:

ـ ذاتَ يوم من أيّام شبابي، يا معلّمي، بلغتْ نفسي من الانكسار والاكفهرار درجةً لا تطاق، فرجعتُ إلى تصانيفِ فلاسفةِ العرب في النفسِ طالبًا منها العونَ والشفاء. لكن سرعان ما خابَ سعيي، إذْ بدَتْ لي نفسي في وادٍ وتصانيفهم في واد. وهكذا أدركت ما فعل شيخ المشائين فيهم، ووقفتُ على بوارِ حيلهم لدفعِ الأحزان. . . أتباع أرسطو من المسلمين، يا سيّدي، يستعصي عليّ في الغالب مفهومهم ويتوحّش، فأفر منه إلى بنديري وإنشادي، أو أطلب السلامة في جوار أهل المقامات والأحوال. . . هل أولئك الأتباع هم في الوضع والحدّ كما رصدتَ وعلّلت؟

متوخّيًا سبيل السهل والإيضاح أجبت:

ـ الحكم على الشيء، كما نعلم، فرع تصوّره، وهذا وذاك يجريان بحسب العقول وطاقاتها، وعلى مراتبها وأصنافها. وفي هذا شتّان ما بين الشرفات الواطئة والشرفات العليّة! الفروق بينها كالفروق بين الفروع والأصول أو بين الأجزاء والكليّات. فحين أقف في شرفة المقرّب المحقّق، أو قل مقام العلم الحيّ المتجدّد، الذي هو للعلو علامة، أرى أنّ مشائيينا تعبّدوا

أرسطوطاليس واتخذوا اتّباعه في كل شيء سنّةً وديدنًا، فآلت نوابض الإبداع الذاتي لديهم إلى الهمل فالضمور؛ بيد أنّ أعزّ ما يطلب إن هو إلاّ الاستئناف الاجتهادي والتسلسل الابتكاري، وبالتالي الإعراض عن عراقيل التوقّف والتقليد. وقد تفانى ابن رشد في الافتتان بأرسطو وتنزيهه والمشي خلفه حذو النعل بالنعل، حتى رأى أنّ الحقّ كَمُلَ عنده، فعميَ عن إدراك بقاء معلّمه الأوّل دون تفوّق بطليموس وجالينوس، هذا في الطبّ والتشريح، وذاك في الفلكيّات ونظريّة السماء ذات التركيب الرياضي. وذهب الأمر بأبي الوليد إلى التورّط بأرسطيّته، كما فهمها على قدّه وهواه، في القول بقدم العالم وحصر علم الله في الكليّات دون الجزئيّات، كما بنفي بعث الأجساد والنفوس الفرديّة. وكلّها مزاعم وتطاولات في مسائل ظلّ أبو الوليد يلحّ على تحريم إفشائها والجهر بها للعامّة، وحتى للفقهاء والمتكلّمين والمتصوّفة، وذلك لأنّه يبوّئها سدّة الحقّ البرهاني، بينما تعريفه المشهور أن الحقّ لا يضادّ الحقّ بل يوافقه ويشهد عليه، وأنّ الحكمة هي للشريعة كالأخت الرضيعة. والحال، فوق هذه المفارقة الممضّة، أنّ المسائل المذكورة وما شاكلها لهي من صنف ما يعصى بل يستحيل على البرهان، والعقل في مراودتها يكون في أقصاه كالزيزفون، يزهر ولا يثمر، أو كمن يدهن من قارورة فارغة. هذا وإنّ أرسطو نفسه قد عيّن للمنطق البرهاني مجاله المخصوص في الرياضيّات والطبيعيّات دون غيره، بل إنّ أبا الوليد أيضًا في تفسير ما بعد الطبيعة قد شرح المراد من قول معلّمه: *إنّ الجوهر ليس عليه برهان ولا لما هو الجوهر، أي*

برهانٌ مطلق وهو الذي يعطي الوجود والسبب معًا». وإن كنت أنزّه المفسّر الفحل عن شرح ما لا يفهمه، فإنّي آسف لعدم التفاته إلى وليد مدينته العلاّمة ابن حزم وما قاله في *التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه* عن كون البرهان أو قياس العلّة، إن كان يصحّ في الطبيعيّات، فهو في الشرعيّات تلبيس ولغو، وهو كذلك وأكثر في المسائل التي ذكرت وما لا يعلم تأوله إلاّ الله.

كان جليسي، أكثر من الجمع، ينصت إليّ بإمعان شديد، وفيما رآني أحتسي شرابي بادر إلى القول:

ـ ﴿*ولا يعلم تأويله إلا الله*﴾ . . . أذكر يا معلّمي، أنّي، وأنا في وادي آش، اطّلعت على *فصل المقال* لابن رشد، فهالني تأويله المجازف لبعض الآيات، تحضرني منها الثالثة من سورة آل عمران، التي منها ﴿*وما يعلمُ تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كل من عند ربنا*﴾، إذ عطف صاحبنا «الراسخون في العلم» على الله عزّ وجل، وترك «يقولون» من دون فاعل، وهذا في النحو وفي التركيب لا يليق ولا يصحّ! أليس كذلك؟

ـ بلى يا أخي! عين الصواب ما أدركت. وقد أجمع فقهاء القراءات بتقبيح الوقف عند «والراسخون في العلم»، مثله كمثل الوقف عند ﴿*ويل للمصلين*﴾، أو ﴿*لا تقربوا الصلاة*﴾؛ كما أنّ الإمام ابن حزم في الكتاب الذي ذكرت نبّه إلى ذلك الغلط الفادح، عقودًا من قبل، ودلّل على وجوب رعاية النحو لطالب الحقائق بحادثة مفجعة مفادها أنّ خليفة كتب إلى أحد عمّاله آمرًا: أحص المخنّثين عندك، يريد الإحصاء، فقرأها العامل

«اخص»، فخصى كل من وجده منهم. ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. . .

ـ والشيخ الرئيس ابن سينا، يا معلّم، ألم يعبّر صراحة عن ضيقه ذرعًا من سطوة الأرسطيّة واستبدادها على المشائي المسلم، إذ يقول عنه: *«فهو مشغول عمرَه بما سلف، ليس له مهلة يراجع فيها عقله، ولو وجدها ما استحلّ أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر إلى مزيد عليه أو إصلاح وتنقيح إيّاه»*؟

ـ إيه! جاء قوله ذاك في مقدّمة *منطق المشرقيين*. وكم ابتهجت به في حينه واستبشرت، ظانًّا أنّ عطف صاحبنا على أفلاطون سيكون فاتحة سبرٍ جديدٍ وخير، لكن شعوري هذا، كالبرق الخلّب، سرعان ما انكسر وتبدّد، بعد أن أوفيت الكتاب من العناية حقّه، فوقفت على تواتر اتّباعه لأرسطو متنًا ومبنى، كما الحال في *كتاب الشفاء* حيث ترى ابن سينا يذهب إلى حدّ تبنّي زعم قال به المعلّم اليوناني في *السياسة* منذ أربعة عشر قرنًا خلت بعده، وهو أنّ هناك أناسًا هم بالطبع والضرورة عبيد. . . نعوذ بالله محرّر الرقاب، ومكرِّم الإنسان، ومنشئ خلقه الناطق من نفس واحدة، ونعوذ بالنبي المصطفى وبسنّته ودستور خطبته في حجّة الوداع.

فاجأني جليسي بأن أخذ يجوّد آيات مناسبة بصوت جهوري رخيم، أتبعها بإنشاد: *«يا أيّها الناس إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. وليس لعربيّ على أعجمي ولا لأبيض على أسود فضل إلاّ*

بالتقوى»؛ ثم أدرج في الإنشاد عن عمر الفاروق: «متى استعبدتمُ الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»، وعن عليّ كرّم الله وجهه: «الناس صنفان: إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» / «لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حرًا».

تعالت أصوات الطلبة بالتكبير والتهليل، ثم أثنيت على الرجل وفعلِه جزيلَ الثناء وعقّبت:

ـ أي نعم يا أبا الحسن، «*الناس سواسية كأسنان المشط*»، و«*النساء شقائق الرجال*»، قال بهذا الرسول الأكرم وخاتم المرسلين. فلندع لابن سينا بالعفو والغفران على ما ذهب إليه في ذلك المقام، وما غلا في طلبه من شهوة الخمر وشهوة الفرج حتى أنهكه القولنج، ولم ينفع فيه طبّه فمات. وعسى أن تشفع للمدعو له ما خلفه في الإلٰهيّات وأعني *التنبيهات والإشارات*، ﴿*إن الله واسع المغفرة*﴾، والرحمة منه ولديه.

أومأ صاحبي بتأييد الدعاء، وأبدى رغبة في المزيد من المحادثة، كأنّ النوم لا سلطان له عليه، قال:

ـ أفهم، يا معلّمي، أنّ ابن سينا إنّما ضرب لنا مع الحكمة المشرقيّة موعدًا عرقوبيًا، فهل ترى في الفارابي محجّة الانعتاق والمخرج؟

ـ بل قل محجّة المنطلق فقط... أبو نصر من شُرفتي ومنظوري هو في أرض الإسلام فارس الفلسفة بلا منازع، ولو أنّ له كبوات في الكلام على العقل الهيولاني والنفس الناطقة وبقاء النفوس بعد

فناء الأجسام. وأحبُّ ما في سيرته إليّ انقطاعه إلى التأمّل والنظر، وإعراضه عن أماكن الأمراء والوجهاء ومفاتنها، ولو أنّه قضى العقد الأخير من حياته في كنف سيف الدولة الحمداني بحلب، ولدواعيَ لا يعلمها إلاّ الله.

ـ إذن، يا سيّدي، لا مرقاة لنا ولا رافعة إلاّ بالتصوّف وسلوك الطريقة.

ـ لا يا أخي! منعت على نفسي لفّ غلطات المشائين بأغطية التغافل، خلافًا لما جرى عليه ابن سينا في الغالب الأعمّ، كما منعت عليها السلوك نفسه مع أهل الكلام والمجادلة بالتي هي أعنف، علاوة على كوني لم أسكت عن الفقهاء، وأغلبهم حشْوِيون فروعيّون، يقيسون اليوم بأمسه، ويجمّدون الإسلام في شحّ الموجود، ويحرمونه من عائدات الاجتهاد وواردات الجود، وما كان همّي في ذلك كلّه تبريز التصوّف والتوقّف عنده. جميل أن ينأى أهله بسلوكهم عن تقسيم الوجود في ذاته إلى محمولات وموضوعات وتنويعِه أشكالاً ومقولات قددًا؛ جميل أن يبلوا الإبلاء الحسن في الرياضات والمجاهات، شريطة ابتغاء وجه الله ولا شيء سواه؛ لكن هلمّ إلى ما بعد التصوّف يا أخي، لا أخلى الديان مكانك، هلم إلى سباق التحقيق والقرب الأرقى، هلم إذن إلى الأجمل والأبقى تنعمْ حقًّا بالذي إليه تفضي كل المراقي والمرتفعات، وهو الله فقط. ﴿*والسابقونَ السابقون أولئك هم المقربون*﴾، هذا هو الخيار الحقّ والمسلك الحقّ.

انطلق صوت الششتري مجوّدًا، والطلبة على شاكلتي يتململون

خشعًا وتأثّرًا: ﴿فأمّا إن كان من المقرّبين فروحٌ وريحانٌ وجنّة نعيم﴾.

قلت إن مسك ختام هذه الجلسة في هذه الآية الكريمة وأهبت بالجمع أن يأخذوا قسطهم من النوم. وقفنا كلّنا وترجّاني الطلبة في معاودة لقائي ظهيرة يوم غد، فوعدتهم به وودّعتهم واحدًا واحدًا. أمّا مضيفي فصلّيت معه المتوجّب علينا ثم تسالمنا، فاختليت بنفسي أيسّرُ لها أخذ حقّها في النظافة والراحة.

* * *

ـ ٥ ـ

في ظهيرة الغد بعيد العصر، كان لقائي مع طلبة الأمس وعدد آخر من صنوانهم. لم يكن لأبي الحسن من أثر في البيت ولا بينهم، فاستنتجت أنّه منصرف إلى شواغله ومساعيه الحميدة. صعدت مع الجمع إلى خلوة الموحّد، وفي محيطها تحت أشجار مورقة وارفة عقدت لهم مجلسًا، علّني أطلع على بضاعتهم وأقيس نبض قرائحهم. قلت بعد البسملة والصلاة على النبي:

ـ جودة التأمّل في الطبيعة، يا فتيان، من جودة التواصل مع مبدعها، فلا إفراط في مكوّن أساس، ولا تفريط في آخر؛ أي، بالمثال، لا العقل يزهر من دون ظلال الوجدان، ولا الوجدان يثمر من دون قسطاس العقل. مسالك وحلقات يفضي بعضها ارتقائيًّا إلى بعض، ولا شيء غير واجب الوجود يوجد، ولا حقيقة تنبني وتسري إلاّ به وفيه. وكم من معارف لا تتمثّل وحدة الكلّ الوجودي تتركنا على قارعات الطرق، قليلي الزاد، ضعيفي الأنفاس، دون مقامات التحقيق والإبداع! وتشترك في هذا ـ مع وجود الفارق في الدرجة ـ معارف الفقهاء والمتكلّمين ومعظم مشائينا الفلاسفة، وغيرهم. لذا آليت على نفسي ألاّ أتلوّث في الفكر وفي السياسة بأفعال مهندسي الفتوق والصدوع، وخدّام

الاتّباع والخضوع؛ كما أنّي عزمت أكثر من قبل على وهب أعزّ وقتي لمن بين السلف والأحياء يخاطبون أغوار الوعي والكينونة، وينمّون القوى النزوعيّة وحتى الخياليّة بالأحاسيس والانفعالات الرائقات الشائقات، وبالأسئلة والفِكَر الثاقبات الخارقات؛ على النحو ذاك تخلع الأيّام عنها رصاصها ورتابتها، وتنساب حيّةً بين جدوى الامتداد ودفق العطاء. . .

قطعتُ فجأة حبل الكلام، فتوقّف الطلبة عن الانهماك في تقييده. وبقيت لحظات أترقّب منهم أسئلة تدلّني على استيعابهم وفهمهم. وكدت أوقن أنّي أصرخ في بيداء وأطبّل في الماء لولا أنّ طالبًا أمرد وقف واستأذنني في السؤال:

ـ هل يدخل الشعراء، يا معلّم، في زمرة من تشير إليهم من السلف والأحياء؟

ـ الشعراء (أجبت) لا يدخلون في الزمرة إلاّ فرادى بحسب درجة الجودة وعلوّ الكعب. فهم كغيرهم من الفرق والأطياف ليسوا من واد واحد ولا من طبقة مفردة. الناس كلّهم بأعمالهم وآثارهم، وهذه وحدها تحكم إمّا لهم وإمّا عليهم. سنة الله في خلقه ولن تجد لها تبديلاً.

سكت الشاب برهة ثم أنشأ يستظهر أبياتًا كثيرة من ديوان العرب، أغلبها لابن المعتزّ. دهشت لسعة ذاكرته وقوّتها، وسألته عن سبب ولعه بحفظ الشعر، فقال لأنّه يريد أن يكون شاعرًا. استفسرته عن سرّ شغفه بشعر ابن المعتزّ، فقال للين جانبه وسهولة

مأخذه. أثنيت على صنيعه وشجّعته في مطمحه ومسعاه. باهتمام ملحوظ، كان بعض الطلبة يتابعون حواري مع زميلهم الحفّاظة. قلت في الجمع:

ـ قديمًا قيل: الشويعر من حفظ ألفين من الأبيات، والشاعر من حفظ أكثر من ألفين بكثير، والفحل أشعر الشعراء من حفظ ديوان العرب. لكن إعلموا أنّ الحفظ شريطة لا تجدي وتثمر، إلاّ أن يستطيع الشاعرِ في أبياته إمداد الذكاء والحواس بالمتعة الشائقة، وإثراءَها كما يحسن بزخمه الباطني ومعيشه، وذلك حتى يهب لُبابَ شعره حظوظًا في الإفلات من الهشاشة المفجعة، التي ترقب كل شيء وتفنيه؛ أمّا شعاركم فاستعيروه من التوحيدي طيب الله ذكراه: *«أحسن الكلام ما رقّ لفظه، ولطف معناه، وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثرٍ كأنه نظم»*.

طلب الكلام شاب آخر، فأذنت مرحّبًا، قال:

ـ أنت ولا شكّ، يا معلم، ممّن يوصون بالسؤال خيرًا ويحثّون عليه... سمعت الطالب محمد الزياني يستظهر عليك من شعر ابن المعتزّ أبياتًا في وصف الطبيعة وما حام حولها، وتستّرَ عن ذكر ولو نتفة من شعره الماجن المتهتّك! ما حكم مولانا على هذا الشعر بالذات وصاحبه؟

سألت السائل ملاطفًا:

ـ أظنّك اطلعت على ذلك الشعر وحياة قائله؟

ـ لا يا سيّدي، وليس لي أن أفعل، أمارة الدار، كما نقول في بجاية، على باب الدار. . .

ـ لكنّ الفهم قبل الحكم فرض، والدعاء بالمغفرة مستحبّ. فاعلم بدءًا واعلموا كلّكم أنّ شاعرنا، المسمّى أمير يوم وليلة، قد قُتل على أيدي الخادم مؤنس وصحبه من غلمان القصر. ولا أخفيكم أنّي، وأنا في سنّ الحداثة، قضيت أوقاتًا في قراءة شعر ابن المعتزّ، الميسّر الجانب، الممزوج بالقديم والمحدث، فكان من بين ما قوى عودي اللغوي، وفيه تأكّد لي بين قصيد وآخر إفضاء الشاعر من معايناته ومعاناته إلى أنّ الخلافة العبّاسيّة آيلة لا محالة إلى نهاية بئيسة، نهاية تبدّت له بعض علاماتها في رداءة مقتل جدّه المتوكّل وخلع أبيه المعتزّ، كما في تسلّط الأتراك والعبيد وتجبّرهم. وابن المعتزّ هذا، بعد أن لم يسرَّ بما رأى، اختار مبكرًا أن يتربّى على نحو يفسده سياسيًّا، ويخلق بينه وبين استحقاقه الخليفي الموروث شرخًا لا يردم، وبينه وبين أهل الدولة صدعًا لا يرأب. فكان مذهبه في ادّخار شهادات عدم الدراية الرياسيّة والكفاءة السياسيّة هو الأبيقوريّة الجامحة الخليعة، واقتناء اللذّات ما ظهر منها وما بطن، وهذا ليس في مجال السيرة اليوميّة فحسب، وإنّما أيضًا في دائرة الاهتمام الأدبي الصرف، حيث خصّ شعر العصر بكتابه *طبقات الشعراء*، وألف *الجامع في الغناء لآداب الخمر والشراب*. . . فكأنّي بالشاعر كان يتلهّى عن موته الحائم حوله بشتّى ضروب الانغماسات المجونيّة المتلفة، وكأنّي بشعاره هو: إن كان

مصرعي لا بدّ آت، فليكن لي وأنا رفقة الغواني وما أستطيبه وأهواه. وكان مصرعه على أسوأ صورة وأعنفها، إذ قيل بعصر خصيتيه أو باستخلاصهما أو بهما معًا لا فرق... سيُسأل ابن المعتزّ عن سيرته يوم الحساب، وأخاله يقول: مكره أخاك لا بطل، أي مسيّرًا كنتُ لا مخيّرًا... أمّا أنا، وإن كنت لا أرضى عن تلك السيرة، فإنّي لا أجوّز لنفسي الحلول محل من لا حكم إلاّ له، وهو الغفور الرحيم، وأجعل كفايتي في الدعاء بالصفح والغفران لابن المعتز، كما لأبي نواس وابن سينا وعمر الخيّام، وغيرهم كثير من الساهين والخطّائين. يقول تعالى في سورة النساء ﴿*إنّ الله لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء*﴾، الآية.

وقر في نفسي ما أحجمت عن قوله للطلبة: لا الشعرَ اقترفته إلاّ عرضًا، ولا ابنةَ العنقود مسستها أبدًا، ولا النساءَ عاشرتهنّ إلاّ إبان طور الطيش والنطق في الهوى، ومن دون غلوّ وإدمان.

استفسرني طالب ثالث عن رأيي في شعر الششتري، أجبت:

ـ قصائد حبيبنا أبي الحسن، كما تعلم، بعضها باللّهجة العامّيّة وبعضها بالفصحى. اللسان والعروض في هاته يسيرا المأخذ، مليحا المجرى، وهما في تلك متحلّلان من قواعد سيبويه والخليل بالطرق الليّنة والأحلى. والمعاني في مجمل النظم تنساب جليّة اللمع والوقع، جليلة الطرْق والمسعى. وهذا النهج المبتدع الأخّاذ، وهذا الكلام المسبوك بالمعاناة والحال، وهذا

الباع الفريد في الانجذاب العلوي مع البقاء النافع بين الخلق، كل ذلك وغيره يصالحني مع الشعر، إذ يصادف هوى في نفسي، ويحلّ فيها حلولاً حسنًا. وإنّ المصالحة لتقوى أكثر حين ينطق أبو الحسن بالحدس والفطرة في ما أصوغه بكدّ النظر وتنشئة الفكرة، وأعني وحدة الوجود المطلقة، وترقّي المخلوق بطلب الكمالات والقرب من الخالق، الذي ليس إلاّ هو. فكيف لا تضطرم تجاويفي وعروقي الجوّانيّة وأنفعل وأنا أقرأ في زجل باللّهجة الأندلسيّة:

اُتْرك الحُظوظ واجَّرَّدْ واذْهَبْ لِلتَّخلّي

واقْطَعِ العَلايِقْ تُكْسى حُلَّةَ التَّجلِّي

واقْصِدِ الوُجُودَ المُطلقْ تظْفَر بالتَّجَلِّي

وشاركني بعض الطلبة في الإلقاء:

وتُسْقى حُمَيَّا الأسْرار خَمْرًا دُونْ عُصاره

وتَظْهَر عليكَ الأنْوار وتصفُو العِبَارَهْ

إعْرِفِ الصنَّايعْ واطْلع بالتَّركيبْ لبُدَكْ

ثُمَّ اهْبط إليكَ بالتَّحليل وذاكْ هُوْ حدَكْ

انبعث صوت لم أضبط مصدره، وصاح بالقول مؤيّدًا بأصوات أخرى:

ـ إنّما تجلّيات إمام المتجرّدين الششتري هي من فضل أبي مدين الغوث، ومن فيض بركاته وكراماته. نحن كلّنا وأبو الحسن

مريدو ذلك الولي المقدّس، مدينون له بتصوّفنا، متمسّكون بالقولة التي ردّدها حتى النزع الأخير «الله الحقّ»، طامعون بجنّة عدن ونعمها التي وعدنا شيخنا بها.

كظمت غيظي واستقمت واقفًا أخاطب الجمع:

ـ إنّ لي، يا شباب، علمًا بسيرة ذلك الولي الصالح من القرن السالف. له خطرات شيّقة في الزهد والتوحيد، أتت تفاريقَ على ألسنة رواة ومريدين، وله قصص طريفة كقصّة الغزالة، التي كانت تأوي إليه وتؤنسه في غاره ببادية فاس، وله أخرى ما أنزل الله بها من سلطان، لا ريب أنّها من نسج خيال الوضّاعين والأتباع. ومهما يكن من أمر فليس لأيّ عبد، ولو أوتيَ الحكمة كلها والتقوى، أن يعد مؤمنًا بالجنّة، ولا أن يضمن له فيها مقعدًا. بالغ الحسن البصري واشتطّ لما أن قوّل الله تعالى: ﴿*وادخلوا يا عبادي الجنّة برحمتي واقتسموها بأعمالكم*﴾. لا بل لله وحده مفاتيح الجنّة ومقاليد الآخرة، وله ما في السماوات وما في الأرض، لا معبود سواه، ولا سعي إلاّ إلى وجهه ذي الجلال والجاه... ألا إن كنتم تبغون الجنّة فسيروا إلى دفين رباط العُبّاد، وإن كنتم تريدون ربَّ الجنّة فهلمّوا إليّ، بل هلمّوا إلى وحدة الوجود المطلقة، وقولوا «الله الحقّ»، على أن تعوا العبرة وتحقّقوا المعنى والمد. «الله فقط» كلمة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان. أنطق بها ترياقًا ضدّ المفاسد المنكرة، وأجهر بها في وجه كل طاغية وكل فعال للرتوق والتفرقة المدمّرة؛ كلمة لا أعزّ منها ولا أنهض في زمان ملوك الطوائف هذا وانسحاق الأندلس

بين الزوابع العاتية المتلفة. . . فافهموا، وإلاّ فالتقصير منكم، وقد أعذر من أنذر.

انقبضت وجوه وانبسطت أخرى. اخترقت الجمع صوب النزول، فتبعني بعضهم صامتين متأمّلين، حتى إذا دنونا من دار أبي الحسن دعوتهم إلى اعتبار القراءة عبادة وإيلائها حقّها ، ثم ودّعتهم واحدًا واحدًا.

* * *

ـ ٦ ـ

في مستقرّي قضيت لحظات أتدبّر أمر استئناف سفري وأعد رحلي. لا بإخراجي من بجاية عنوةً أقبل، ولا عن إحراج مضيفي الأجلّ أرضى. تونس محطّتي المقبلة ثم مصر فمكّة المكرمة، ومكّة قبلتي ومأوى نظري في حالي ومآلي.

في انتظار عودة أبي الحسن تفقّدت فرسي فهشّ لي وبشّ، وكذلك فعل كلب مضيفي، أعطيت لهذا وذاك مأكولهما وشرابهما، ثم نظرت في حال القطط والدواجن فألفيتها على ما يرام. عرجت على الجنينة فسقيت غروسها بالماء، وقطفت من خضرها بعض ما نضج وتيسّر.

خشخشات في حجرة أبي الحسن وخُطى خفيفة سمعتها وأنا أقتات وأجمع ما تبقّى من حوائجي. ناديت عليه فمثل في حينه محيّيًا، متمنّيًا ألاّ يكون أزعجني. دعوته إلى مجالستي فلبّى، وفي نيّتي أن أفاتحه في لزوم مغادرتي بجاية غدًا أو بعد غد. لكنّه عاجلني بالكلام في أمر مريدين مذينيين حضروا حلقتي بالأمس في البيت وأخرى ظهيرة اليوم في الجبل، فعبّروا له بأبلغ الكلمات وأصدقها عن تعلّقهم بي، سائلينه في جواز اتباع شيخين، واحد توفّاه الله برحمته منذ زمان، هو أبو مدين، والثاني

حيّ يشعُّ ويجذب، هو قطب الدين، سيّدنا عبد الحق ابن سبعين.

فهمت أنّ الرجل أُخبر بتخييري الطلبة بين ولي تلمسان وبيني، فقلت:

ـ ما دعوت الشباب إليه في الجبل، يا أبا الحسن، أرى أنّي أتهيّأ لعرضه عليك أنت أيضًا ولو في المنام. . .

قاطعني طربًا مبتهجًا وقال:

ـ بل، يا مغناطيس النفوس، أنا الذي رأيتك في حلمي ويقظتي تخيّرني بين الجنّة وربّ الجنة. وإنّي أكثرَ من أيّ وقت مضى أسير إلى الوجود المطلق والربّ الواحد الصمد، وأنت لي الرفيق والمرشد.

ساد صمت مؤثر بيننا. رأيت وليَّ المساعي الحميدة يذرف الدمع مدرارًا. سألته ما السبب، قال:

ـ أبكي لفرط ما أرى من تكاثر النيام وصغار الأحلام من حولي؛ أبكي لقبوعهم مخدّرين في الحوالك دون أنوار النبي محمد عليه السلام، وأنوار سيّدي إمام الليسية ووحدة الوجود الكلّيَّة؛ وأبكي أيضًا لقصوري عن فهم بعض ما جاء في *بدّ العارف* وأعكل في إفهامه للطلبة.

أجبته وعدوى دموعه تكاد تنتقل إليّ:

ـ إنّك، يا إمام المتجرّدين، تفعل مع الناس ما لا أقدر عليه، توقظ ضمائرهم حسب الوسع والاستطاعة، وتسعى بينهم

بالإحسان والخير؛ أمّا غموض بعض ما أكتب، فاللائمة على هذا الزمن الضائق المنحلّ وعليّ أيضًا. ولولا أنّ القلم جفَّ بما لاقيت، لحرّرت شيئًا لتعليل ذلك والتخفيف عن القارئ بالإبانات النافعة والإضاءات الكاشفة...

ـ قلمي وورقي تحت إملائك، سيّدي، فمُرْ...

فكّرت قليلاً ثم شرعت أملي ما تيسّر:

ـ كنت دومًا في التأليف، يا أبا الحسن، شديد الحرص على الإيجاز والإدغام، وذلك بفعل إحساس بضيق الوقت ملحاح، لازمني منذ شبابي المبكر، وجعلني أشبهَ ما أكون بمكره مضغوط، يعمل على إنقاذ الهامّ الأهمّ في مِلك يتهدّده التلف والهدم. فهل المِلك هذا هو التعبير المجازي عن أندلسنا المتداعية أركانها، الآيلة إلى السقوط الزاحف؟ قد يكون هذا هو الأرجح بل الأحقّ بالأخذ والتبريز. فلا يعجبنَّ أحدٌ من ورود جملة «ولولا خوف التطويل» في مجمل نصوصي على نحو مكرور، لا يشفع له عندي إلاّ شعوري المتواتر بغمّة الوقت الجماعي وانقباضه، كما ألمحت؛ ثم لا يبالغنَّ أحد في استعجام أقوالي المكثّفة العجلى إن كان ذا علم وبصيرة وفهم.

توقّفت لحظة استردّ ريقي وأمهل كاتبي، ثم تابعت:

ـ إنّي، من بين الأندلسيين المتأخّرين، لست الوحيد الذي خالجه ذلك الشعور وألحّ عليه. فقد قيّض لي من قبل، أثناء إقامة قصيرة في قرطبة، أن أطلع في مكتبة يهودي من آل طيبون على

تلخيص المجسطي، فوقفت على صنو ذلك الشعور في تشبّه صاحب الكتاب ابن رشد بحال من شبّ حريقٌ في بيته، فاضطر إلى تخليص الضروري والنافع، أي ـ في التأليف ـ بالتجميع والتلخيص، حتى إنّ البرهانيّة نفسها ارتدت عنده في آخر المطاف إلى غربال للتصفية والاختزال واللّيْ، غربال ضيّق الثقوب والقطر. ولعلّ في ذلك التشبيه ما يوحي بكون أبا الوليد كان في إقامته الأندلسيّة يحسّ ـ وقليلاً ما يعبر ـ أنّه يعيش في داخله تأزّم الزمان وفساده، ويعاين أفول مجد ونهاية عهد. ودليل هذا في إشاراته الوجيزة إلى ما يسمّيه «الكرب» و«*اضطراب الوقت*»، كما في وعده غير المنجز، رغم طول أجل الواعد، بأن يكتب في هذه القضيّة أو تلك «*بقول أشدّ استقصاء*»، وذلك بتعبيره: «*إن فسح الله في العمر وأفرغ عن ضيق الوقت*». أمّا أنا فلا أعد بكتاب أوسع وأعمق قد لا أقدر على وضعه ولو طال عمري وامتدّ. إحساسي المكين، الذي لا حيلة لي اليوم لقهره، أجد له تعبيره الأقوم في الحديث النبوي الشريف: «*جفّتِ الأقلام وطُويت الصحف*»...

سكتُّ فجأة كأنّ معين لساني نضب بدورِه، وأومات إلى الناسخ بالتوقّف، ففعل. ثم رأيته يرمق مدهوشًا رحلي المجموع، قال:

ـ ما هذا الضمّ وهذا الطمّ يا مولاي؟!

ـ حقوق الضيافة، يا الكريم، تعدّت حدودها، وعصا التسيار تهيب بي أن أحرّكها.

ـ في هذا البيت لا ضيف ولا مضيف. هو في غيابي لعابر السبيل ولمن لا ماوى له. أمّا إن عقدت العزم على السفر، فلن أمنعك منه وأنا سليل السياحة وناشدها على الدوام... عمّا قريب سأرحل إلى فاس ومكناس، وإن أذن سيّدي أصعد إلى سبتة وطنجة أتقصّى أخبار أهلك ومحبّيك، وآتيك بها في القاهرة، وكلها خير إن شاء الله.

من شدّة فرحي وتأثري عانقت الرجل وقبّلت رأسه قائلاً:

ـ ليس الإذنَ أعطيك، بل لي في ذاك طلب إليك أكيد. لن أقصد مكّة من القاهرة إلاّ إذا اطمأن قلبي على الأهل وأمنت العودة إليهم بعد حجّي.

ـ سيكون لك ما تبغي بحول الله... أنا الآن مدعوّ للإنشاد في حفل زفاف ثم في ليلة حضرة. وغدًا صباحًا مرني، يا أيّها الحبيب، بما تشاء.

ودّعني أبو الحسن وانصرف، فاستقبلت القبلة، وعقدت للاستخارة والأدعية جلسة، وبعدها أتممت تهيئ رحلي ثم تمدّدت طلبًا للاسترخاء والراحة. وفيما كنت أراود النوم، سمعت نباحًا مبرّحًا لكلب الحراسة أعقبه انقطاع مفاجئ فصمتٌ مريب، ثم رجّت الزريبة بصهيل مروّع غريب لحصاني. هرعت إلى مصدر الجلبة، متوتّر الأعصاب، طائش العقل، فإذا بي ألمح شبح شخص يلوذ بالفرار كالبرق. على ملاحقته غير المضمونة الفائدة آثرت تفقد الحيوان، فألفيت حاله، والحمد لله، سالمة معافاة.

بادرت إلى إدخاله في حجرتي مربتًا على رأسه، وهو يبدي لي إشارات الأمان والطمأنة، ثم ذهبت أبحث عن الكلب في محيط المنزل، فعثرت عليه جثّة هامدة في ركن من سفح الجبل. حفرت له حفرة واريته فيها على عجل، كيما أعود إلى مستقرّي وأقف موقف الحيطة والحذر. تسلّحت بعصا غليظة تحسّبًا لأيّ طارئ. قدّرت أنّ قاتل الكلب إمّا أراد سرقة فرسي، وإمّا أرسله مرسل في مهمّة تخويفي وحثّي على تسريع رحيلي. قضيت من الليل بقيّته لم يغمض لي جفن، تارة أجهّز رحلي وأثبّته على دابّتي، وطورًا أتطهّر وأتزيّى وأصلّي.

مع بزوغ الصباح أقبل عليّ أبو الحسن مشرقَ الوجه، متيقّظَ الحواس، عانقني وقال وهو يقدّم لي على المائدة لبنًا ورغائف:

ـ بادية عليك، مثلي، علامات السهاد! خير إن شاء الله يا مولاي؟

قصصت له باقتضاب ما جرى فجر هذا اليوم، فلم يجزع له ولم يدهش، كأنّما هو متعوّد عليه أو لا يرى فيه سوى شوائب وأعراض عديمة المعنى والشأن. انتصبت واقفًا بعد أن سددت رمقي بما تيسّر، وأظهرت أهبتي لشدّ الرحال بحرًا إلى مرفأ تونس. سألت أبا الحسن إن كان الوقت يسمح بتوديع صديقه الورّاق وزيارة خيريّة بجاية، فأومأ أن نعم. قصدنا هاته راجلين ورفيقي يقود فرسي خلفه، فلمّا بلغناها طلبت القيّم عليها فحضر مسلّمًا مرحّبًا. بادرت إلى تسليمه صرّتين من قطعي الذهبيّة، موصيًا إيّاه أن يصرفها في خدمة الأيتام. استلم الرجل الهبة بهتًا،

وتلعثم بكلمات شكر حارّ متقطّعة، فيما الششتري ينوّه بي أحسن تنويه وأبهاه. غادرنا الخيريّة تحت سيل من أدعية القيمّ دافئ دفاق، ثم عرجنا على الورّاق، في دكّانه، فما إن مثلنا أمامه حتى هبّ إلى استقبالنا مسلّمًا مرحّبًا. أخبره صاحبي أنّي أتيت لتوديعه، فدعا لي بالهناءة واليسر في الحلّ والترحال، وأقسم أن آخذ منه سلّتيْ فواكه يابسة، حشرها حيث استطاع في متاعي. وضعت في كفّه صرّة وقلت:

ـ الخير بالخير والبادئ أكرم. هذي منحة منّي لعلّك بها تسدّ بعض حاجيات العيش والأهل.

وعقب أبو الحسن مازحًا:

ـ والشرط، يا حماد، أن تزوّد رفوفك بالعلم النافع وتقلّل من أكل التين والفول والعدس.

ألقى الرجل نظرة على ما في الصرّة، فارتبك من شدّة الدهش والفرح، وودّعته بالعناق وهو يرفع يديه إلى السماء متضرّعًا بالدعاء لي، يكاد يخنقه البكاء: «الله يكرمك، يا سيّدي، الله ينصرك على من عاداك، الله يحفظك لمن تحبّه وترعاه، الله. . .».

عبرنا سوقًا حافلاً بالنّاس والدواب، وتعالت أصوات الباعة والمارّة يترجون مرافقي في تشنيف أسماعهم بما رقّ وطاب، فيجيب مردّدًا ومنشدًا: «خلّوني خلّوني، أنا الساعة المشيِّعُ للذي إلى قلبي يسبقني. . .» ولمّا بلغنا المرسى كان السفين على أهبّة

الإبحار، فلم يسعني إلاّ أن أضيف إلى مهمّة أبي الحسن في سبتة طلب الاستخبار عن أحوال الأندلس والوالي ابن خلاص والقيّم عبد البرّ البرادعي، كما عن تلامذتي في غرناطة بواسطة أصدقائهم السبتيين، ثم سلّمته رسالة إلى هؤلاء وأخرى إلى أولئك وثالثة إلى حرمي، وضممته ضمًّا إليّ مردّدًا في أذنه: «ما عقالك بأنشوطة، يا أيّها الحبيب. لقاؤنا في الأزهر الشريف يتمّ لنا بحول الله بعد شهور أربعة أو خمسة». أمّا هو فكان يومئ بالإيجاب، ويذرف الدمع حارًّا. وحين اشتدّ نداء البحّارة بالصعود، فارقت الصاحب الأعزّ بعد أن دعوت له بخير دعاء، وتوجّهت إلى مقصورة خشبيّة في العبّارة يطيب فيها الاسترخاء والنوم. وفيما بدأ الإبحار، أتاني عامل فاستلم ثمن السفرة ومثيله تعويضًا عن السهر على راحتي ورعاية حصاني وحملي في مكان مخصوص.

* * *

- ٧ -

قضيت مدّة العبور متأرجحًا بين النومات واليقظات المتقطّعة، سيّان عندي الليل والنهار، وهرج الموج وهدأته، وضوضاء الركّاب وسكونهم. الصور والرؤى تتلاطم في ذهني يمحو بعضها بعضًا، ولا يبقى إلاّ وجه ربّي ومن بعده قرّة عيني وأحبّائي يتقدّمهم إمام المتجرّدين الششتري.

لا أدري كم وقت استغرقته السفرة حين جاءني العامل ينبهني إلى نهايتها، وينبئني أنّ قراصنة أوقفوا سفينتنا، ونهبوا كثيرًا من دوابها وأمتعتها، بما فيها فرسي وحملي. ولمّا رآني مستغربًا مرتاعًا أهاب بي أن أحمد الله على نجاتي ككل المسافرين من موت مجّاني أو استعباد محقّق. تلمّست حزام مالي فألفيته على حاله، ثم قصدت اليابسة وأنا أتأكّد من صحّة رواية العامل على وجوه المغادرين المفزوعةِ العابسة، كما أقيس قدرتي الفائقة على التورّط في السهو والغياب.

توجّهت راجلاً إلى أقرب فندق في المدينة، وإذ بلغت مدخله دنا منّي شخصان وطلبا منّي أن أصحبهما إلى بيت الأعمى الصقلي، فما كان منّي إلاّ أن لبّيت، طمعًا في ريّ عطشي إلى الواقعات والأخبار المستجدّة. بعد وقت وجيز من المشي

خلفهما، وجدت الداعيَ في استقبالي بوجه كالح وكلمات ترحيب متكلّفة. جالسته لحظات حول مائدة أكل وشرب وفاتحته بالسؤال عن سبتة وابن خلاص وأهلي، فقطّب جبينه وأجاب وهو يحثّني على الاقتيات.

ـ أحوال سبتة سيّئة، يا وليّ الله! حلّت بها بعد أن غادرناها مجاعة أنهكت السكّان والحيوان، وسبق هذه الطامة قحط وجفاف، نجم عنها قلاقل وموتان. أمّا ابن خلاص فأخباره سيّئة أيضًا، تكالبت عليه مؤامرات أبي القاسم العزفي بتحريض من الأمير المرتضى، خليفة السعيد، وأفقدته المجاعة السيطرة على المدينة، ففرّ منها مع أهله، وقيل والله أعلم، إنّه اتّخذ وجهة مجهولة. والغالب على ظنّي أنّه أبحر إلى هنا طلبًا لحماية السلطان الأعظم أبي زكريّا. . .

قاطعته بالسؤال عن أهلي فلان وجهه ورقّت حواشيه، قال:

ـ زوجتك، يا سيّدي، بخير هي بين ذويها في طنجة، لا يخصّها إلاّ النظر في وجهك العزيز. إنّما عودتك إلى بيتك لن تكون قبل حجّك، أو قل قبل أن تهدأ فورة والي سبتة الجديد، وتنتهي محنة أعوان ابن خلاص، وأنا وأنت نعدّ من كبارهم الفارّين. . . حذارِ حذارِ يا ابن السبعين! الأوبة إلى المغرب الأقصى قبل زوال دولة الموحّدين المتلاشية مهلكة وأيّ مهلكة!

نظرت إلى الرجل نظرة تفيد انزعاجي وحيرتي، ففطن إلى حالي وقال:

ـ هي أيّام ثلاثة أو أقلّ تقضيها في هذا البيت لا تبرحه؛ أيّام تستريح خلالها من عناء السفر، وتذهب إن شئت إلى مسجد الحي، لكن لا كلام مع جمع المصلّين ولا درس ولا مناظرة. عيون الفقيه السكوني عليك وعليّ. وكل مخالفة لما ذكرت أحاسَب عليها قبلك وأعاقب. هذا الفقيه، مذ قدمت تونس وهو يشرط تسهيل وقوفي في حضرة السلطان بالسهر على رحيلك عن المدينة في أقصر الآجال.

أومأت بالفهم محجمًا عن الكلام الذي لم أر فائدة فيه. عبّرت عن رغبتي في الخلوة، نعت لي حجرة، والوقت يتاخم المغرب، فقصدتها مودّعًا وأغلقت بابها دوني، ثم تطهّرت للصلاة وترويض النفس على ما يقوّيها.

السكن عند الحبيب الششتري نعمة وراحة، والسكن عند الأعمى الصقلي مدعاة للفزع والخيفة. فهذا الرجل المتمرّس على سياسة الدسائس والمكائد قادر على توريطي والإيقاع بي، مستطيع سلب مالي وروحي لقاء حظوة ينالها من المتربّصين بي الدوائر أو طلاّب رأسي. وفعلاً، في الغد وقت الإفطار، أسرّ إليّ مضيفي أنّ العور أصابه بعد أن دعا عليه أحد خصومه من أولياء الله، وأنّه لولا خوفه من داهية أخرى تصيبه لسطا على ذهبي وسعى بي إلى أشرس أعدائي. أحجمت عن شكره على صنيعه حتى لا يدرك الهزء فيه، كما كبتتُ التعبير عن رغبتي في مقابلة السلطان الحفصي، لاسيّما وأن الأعمى الصقلي بادرني بالقول:

ـ يقال إنّ السلطان قليل الاستقبال للوافدين عليه، حتى لو كانوا مثلي ممّن خدموا أعتابه وتفانوا في طاعته وإرضائه. ويشاع أنّ ذلك إمّا بسبب مرضه أو لعلل أخرى لا يعلمها إلاّ الله.

أنبأت الرجل بعزمي على الرحيل مع الفجر، فانبسطت أساريره وقال:

ـ حسنًا تفعل، يا ولي الله. أبيعك فرسي وما تحتاجه تعويضًا عمّا سرق منك، وتركب سفينًا إلى الاسكندريّة مع مطلع النهار المقبل، ذلك أسلم لك ولي.

كان في اليوم متّسع لأغتسل في الحمّام، وبعده قصدت مسجدًا قريبًا للصلاة، فما إن أدّيت ما عليّ وهممت بالخروج حتى دنا منّي رجلان، فتناوبا على الصدع في وجهي: «تنهى، يا زنديق، عن تعدّد الزوجات وقطع يد السارق ورجم الزاني والزانية! وتحلّ الربا وما حرّم الله! لعن الديان مروقك».

رأيت من الحكمة أن أكتفي بتوجيه نظرة شزراء إلى المستفزّين، وأذهبَ إلى حال سبيلي مستقيم القدّ، مترفّع الهمّة، واثق الخطى. وبعد جولة عجلى في وسط المدينة وقضاء بعض المآرب قصدت مستقرّي. وهنا جلست ساهيًا عمّا حولي، أفكّر في أشياء شتّى، كما في هذا البون الشاسع والشرخ الخارق بين واقع الحال وإكراهاته الفادحة وبين الأنموذج والمثال. لقائي مع السلطان الحفصي، كما تمثّلته ورجوته لصالح الأندلس السليبة، أضحى وهمًا ومن رابع المستحيلات، وكذلك طموحي في نشر

العلم النافع الرافع بين جموع كثيرة من الطلبة والناس. لم يكن لي من حيلة للعلو على أمواج الضيق والحزن إلاّ في تلاوة الآي والأحاديث المنهضة المقوّية، مضيفًا إليها شذرات من *مواقف* النفري وأخرى من شعر حبيبي الششتري.

فجرَ الغد، صاحبني الأعمى الصقلي إلى مرسى تونس. سلّمني فرسًا محمّلاً ببعض المتاع ودنانير مقابل صرّة ذهب، أوصى بي وبدابّتي خيرًا بعض البحّارة، ثم ودّعني وداعًا حارًّا، فلم يغادر المرفأ إلاّ بعد أن أخذت السفينة التي تقلّني تمخر عباب البحر.

* * *

- ٨ -

أثناء الرحلة إلى الاسكندرية كنت شديد الانتباه إلى ما حولي، مستبشرًا بليونة الموج وانتفاخ الأشرعة بالرّيح المحرّكة المواتية. أجريت لفرسي تفقّدات حتى يتعرّف عليّ أكثر، ومع بعض الركّاب محادثات ودّيّة أطلعتني على أنّ معظمهم آتون من الأندلس وبلاد المغرب، إمّا للحج أو التجارة، وإمّا بحثًا عن مورد عيش ومستقرّ.

في الإسكندريّة، قضيت ليلتين في فندق أستريح من عناء السفر، وأتجهّز للنزول إلى القاهرة مع قافلة فجرَ نهاريَ الثاني. كان السفر إلى وجهتي الجديدة سهلاً ميسورًا، وجوُّ المسافات والمحطّات لطيفًا رحيمًا. ولمّا رأيت الطريق خاليًا من المخاطر، قطعت نصفه المتبقّي ركضًا، حتى أستعجل الوصول إلى مقصدي وأتدبّر أموري.

حللت بالقاهرة حوالى منتصف المئة السابعة، وفيها حكم السلطان ثوران بن نجم من الأيوبيين المتأخّرين، المنهمك جيشه في صدّ أعقاب الإفرنج عن دمياط وساحل البحر الشامي.. .في وسط المدينة، قريبًا من الأزهر الشريف، سألت عن الشيخ أبي النجا النعمان، فدلّني على بيته بعض الباعة. وحين طرقت بابه

صاح بي صائح أن أدخل. تخطّيت العتبة وربطت حصاني في ردهة، قصدت مصدر الصوت، فإذا بي أمام رجل بزيّ الصوفيّة يدلّني على حجرتي، مرحّبًا بي صديقًا موفدًا من لدن أبي الحسن الششتري، ثم يختفي عن نظري.

في الحجرة من الحوائج الضروريّة ما يكفي، وفيها ركن للطهارة وجرّة ماء. نقلت إليها رحلي وتوضّأت للصلاة، ثم اقتتت بما تيسّر وتمدّدت أستريح من نصب السفر. وأحسب أنّ النوم أخذني سريعًا، إذ لم أستفق إلاّ بعد مضي يومين على مجيئي، تناوبت عليَّ خلالهما رؤى ناميّة مخيفة، لم أتذكّر منها سوى واحدة في ثلاث حلقات، أرتني الأولى امرأة عملاقة، مكسوّة بالسواد، لا يُدرك منها شيء. استوقفتني بإشارة مباغتة ونهرتني بشدّة وفظاظة:

ـ ما فعلته بي، يا هذا، عدوان وجرم! آمرك أن تنزع شوكتك من لحمي وإلاّ قاضيتك بتهمة تعريض حرمتي وهناءتي للهتك...

ـ ترفعين دعوة ضدّي، مولاتي؟!

ـ نعم.. أجرجرك أمام المحاكم حتى أثأر لنفسي منك.

كم تحسّرت في نومي لكوني تملّصت من مستفزّتي، إذ واجهتها بتحدٍّ متغطرسٍ جاف: «عليك بالمحكمة، سيّدتي، عليك بها»! ذلك أنّه لربما كان من الأفضل والأحرى أن أخوض معها حوارًا هادئًا نافعًا حول العلائق الموهومة أو المحتملة بين شوكتي ولحمها... كم تحسّرت لكوني قدّمت العنف على الحوار،

فنزعت عن المشتكية إزارها وخمارها، فإذا بها الجارية حفصة أو ما بقي منها: امرأة خربة، صلعاء، لا لحم ولا نظر ولا أسنان، بل شبحُ كائنٍ آيلٍ للدثور والزوال!

أمّا الحلقة الثانية فدارت حول الجارية نفسها بجسمها المنهدم وأنا أزورها في سجن المجانين، وأكلّمها هذه المرّة بالحسنى والرفق الأقصى، فنفرتْ وأجفلت ثم اكتفت بنفث كلمات مريرة حارقة في وجهي: «أرأيتَ ما فعلتَ بي!». . .

وفي حلقة ثالثة من حلمي المرعب، تجلّت لي الجارية ذاتها على ظهر سفينة بين أيدي بحّارة يقطّعونها إربًا إربًا، ويرمون إلى الأسماك والحيتانِ أشلاءَها؛ وإذ لم يبق منها إلاّ رأسها تفرّستني بعينين محمرّتين داميتين وصاحت: «أرأيتَ ما فعلت بي!»، ثم إنّ الرجال بأرجلهم وأيديهم تلاعبوا زمنًا بالرأس قبل أن يطوّحوا به سطح المياه.

تكرّرت من بعد مثيلات تلك الرؤيا المناميّة طوال ليال ثلاث، مع فارق أنّ فحواها كان يغيب عنّي عند اليقظة، فلا يخلّف لي إلاّ رسوم رعبه وطعم رجاته، وأنا لا سلطان لي لدفعها إلاّ أن أجعل الليل إثمدًا، وأقول لا بدّ دون الشهد من إبر النحل؛ كما لا ترياق لي ضدّ مخالب الوهم والوسواس إلاّ التأمّل والدرس وما قلّ من النسخ لسيرتي أو الخروج لاستقصاء الأحوال وأخبار الناس.

في أوّل مرّة نشدت السياحة والسعي، كانت الباحات

والحارات المحيطة بالأزهر الشريف ومشهد الحسين تعجّ بالخلائق من أصناف شتّى، لكل نصيبه في تأجيج حركات الدبّ والسعي، فلا تخفّ، وإن بمقدار، إلاّ في أوقات نداء المؤذّن للصلاة وميل النهار إلى انتهائه.

ظللت أيّامًا وأسابيع بين مسكني الذي لا أرى فيه أثرًا لمضيفي وبين خارجه حيث أرتاد الجامع كثيرًا، وأتجوّل راجلاً ما استطعت في الفسطاط بين الحدائق والأحياء والأسواق، وأتنقّل في قاهرة المعزّ فارسًا بين أبواب المدينة التسعة المفتوحة على بحر النيل وقنال الخليج، وحين أصل إلى سور صلاح الدين، تكون لي مع ذكرى المهابة والعزّة وقفات، ثم أعرج على مشهد السيّدة نفيسة وجامع ابن طولون وبركة الفيل، فعلى مآثر فاطميّة وأخرى أيّوبيّة، ولا بقاء إلاّ لواجب الوجود، نورِ السماوات والأرض.

وذات يوم وقد اشتدّ اشتياقي إلى الششتري، بعد انقضاء خمسة أشهر على إقامتي القاهريّة، شرعت أسأل عنه بعض المجاورين في جامع الأزهر والخوانق القريبة، فلم أجد ضالّتي المنشودة، ولو أنّ الجميع يعرفونه بالاسم والصفات، ويذكرونه بكلمات التبجيل والإطراء. وحدث أن تعرّف عليّ نفر من طلبة العلم، فتبعوني إلى الجامع الشريف، حيث أدّوا معي صلاة العصر ثم أخذوا يسألونني كثيرًا عن الأندلس والمغرب ويترجّونني أن أعقد لهم درسًا أختار موضوعه أو أجيب فيه عن بعض مشاغلهم وهمومهم. لم يكن لي بدّ من الاستجابة لهم،

فجالستهم في ركن معزول وتهيّأت للكلام، لكن ما إن أنهيت البسملة والصلاة على النبي وآله وصحبه حتى اقترب منّي رجل قال إنّه ناظر الجامع، ونبّهني إلى أنّ الدرس من دون ترخيص أولي العلم والأمر ممنوع، ثم عاد إلى خلف الجمع ووقف مع أعوانه بالمرصاد.

ثقل الموقف عليّ لما لاحظت بعض الصخب يسري في الصفوف، وحركات مشبوهة تبدو هنا وهناك. نهضت وقلت للطلبة: «حُرِمنا من الكلام في بيت الله، لكن أرض الله واسعة»... ردّد من سمعني: «أرض الله واسعة وعريضة»، فتبعهم في الترديد الجمع كلّه، وصدع البعض بالحديث الشريف: «*عالم ينتفع بعلمه خير من ألف عابد*». غادرت الجامع محاطًا بهم، ثم سرت في مقدّمتهم، آمرًا بالمسالمة والهدوء، متجنّبًا ما استطعت مخافر الشرطة، وكذلك على ضفّتي النيل محلاّتِ المبرجين واللاعبين والملهين والخيالين والعرّافين، وذلك حتى لا ينساق وراءنا فلول البطّالين والمتسكّعين. وهكذا توجّهت بالفوج الحافل إلى مقبرة القرافة على سفح جبل المقطّم، وهنا جالستهم على سطح أجرد، فعالجت قضايا تهم معاشهم ودنياهم، وأخرى تربطهم بأمور الفكر والدين. كانت لبعضهم أسئلة مخصوصة في الفقه والكلام والفلسفة والتصوّف، فأجبت عنها بأبسط العبارات وأوضحها، وذيّلت كلامي بإطلاعهم على نظريّتي في التحقيق والتقريب، موصولةً بما أراه في شرائط الخلع والتجريد. أخيرًا ختمت بالإجابة عن سؤال بعضهم في الجهاد ضدّ الغزاة الإفرنج،

فقلت إنّه فرض عين على من استطاع إليه سبيلاً، وليس تحته أهلٌ معوزون يعولهم، ولم يكن مسنًا أو عليلاً.

مع الغروب توقّفت، رأيت وجوه الطلبة مشرقة بنور التحصيل والفهم، وبلهجتهم الدافئة السخيّة تنافسوا في تقريظي والثناء عليّ. نصحتهم بالعودة إلى حال سبيلهم، فترجّاني بعضهم في أخذ جانب الحيطة والحذر من فقهاء وشيوخ التدريس بالأزهر، سمعوهم ينطقون في حقّي بألفاظ الاستياء والتذمّر، من صنف «هذا الأندلسي جاء يفسد فتيان مصر، كما فعل من قبل في مرسية وسبتة وبجاية...»، «هذا المتفلسف يقول بإفلاس أهل العلم والفتوى، ويؤلّب الناس عليهم. لا بدّ من لجمه وإيقافه عند حدّه...». أبلغوني بهذا وشبيهه ثم ودّعوني لاحقين بأصحابهم، إلاّ من رجل مسنّ تقدّم إليّ بصفته أمين القرافة، قال إنّ كلامي نزل عليه بردًا وسلامًا، ولو لم يفهم سوى بعضه، ثم دعاني إلى المبيت في بيته بين أموات مؤمنين كرام. قبلت شاكرًا بعد تردّد، فتبعته إلى حيث أشار. وقفت معه داخل ضريح وسيع، تضيء الشموع المنصوبة فيه قبورًا مبنيّة وجنبات عليها لحفٌ وحصائر. عرّفني الأمين على بعض الدفناء واحدًا واحدًا، وكلّهم من الأولياء والصالحين، لا أعرف منهم أحدًا. قدّم لي كسرة خبز وتمر، وقال إنّه ذاهب لقضاء بعض الشواغل، ناصحًا إيّاي ألاّ أكترث لإقبال بعض أبناء السبيل لمشاركتي المبيت، ثم ضرب لي موعدًا في فجر غد الجمعة الذي هو، كما أكّد، يوم الزيارة والصدقة.

اقتعدت لحافًا منزويًا أحاول تهدئة رهبتي من أموات مقيمين وأحياء معدمين لا بد قادمين. فمِن هؤلاء مَن لو اشتمّ الذهب عندي لسلبه منّي وإن بقتلي؛ وجميع أولئك يتقلّبون في لحودهم سخطًا على ما أحمله في حضرتهم وأخفيه.

الصلاة ترياق للوساوس والأكدار!

حتى الهزيع المتوسّط من الليل، قمت لها وللتراويح والأذكار، لا أعبأ بوافد إذا وفد، ولا بالحركات والتململات إذا حدثت، ولا بالشخير أو التغوط إذ ضجّ وعلا. بقيت على حالي أرقًا، لا يغمض لي جفن حتى مطلع الفجر. أجريت وضوئي وصلّيت، وحين سلّمت وانتبهت أبصرت الأمين شاخصًا خلفي يدعو لي ويبارك. استقمت واقفًا، وهبته بعض المال صدقة مقبولة، فضاعف لي الدعاء والشكر، ثم خرجت أقطع المسافة إلى مستقرّي فيما المدينة تستفيق من نومها، ودبيب الحياة والحركة يعود بالتدريج إلى غزو الأرجاء والأزقّة. مررت بسوق الزروع، اشتريت كيس علف عرضته وسطلَ ماء على فرسي ما إن لحقت به في مربضه. وبعد أن اطمأننت عليه تسرّبتُ إلى حجرتي طمعًا في تعويض ما فاتني من نوم.

في ساعة لعلّها بين الظهر والمغرب، أيقظني من سباتي العميق ضوضاء مشادة كلاميّة. استرقت السمع إليها، فإذا بمضيفي يقسم بالأيمان المغلظة أن لا يسلّم من في حمايته ولو أقبل الوالي نفسه مع الأجناد، ثم أغلق الباب وعاد إلى معتزله وهو يستعيذ بالله. فهمت أنّ الأمر يعنيني، فقصدت الرجل على التوّ وحيّيته بإكبار

سائلاً إيّاه ما الخبر. أنباني أنّ الشرطة تطلبني للمثول أمام قاضي القضاة في شأن ما، فردّهم على أعقابهم ولم يستجب. شكرت للولي صنيعه ووعدته بمقابلة طالبي غدًا قبيل رحيلي عن مصر. نبّهني بالإشارة إلى أنّ حمايته لي لا تتعدّى حدود حرم المنزل، ثم أعطاني رسالة وانصرف مسلّمًا.

ارتميت على لحافي وقرأت الرسالة مرّة ثم أخرى. كانت من تاجر طنجي فوّض له الششتري من قبل أمر تقصّي أخبار أتباعي وأهلي، ومفادها من جانب زوجتي خير وبشرى، إذ قابلها الرسول في طنجة حيث تعيش مع خالها وحمادة، وكلّهم في صحّة جيّدة، وأملهم كبير في عودتي إليهم سالمًا غانمًا، كما تؤكّده بطاقة بخطّ فيحاء حياتي؛ وأيضًا علمت أنّ الدار في سبتة يرعاها بلال وخادمتان، ولا خوف عليها؛ أمّا طلبتي وأحبّائي فمنهم من ماتوا بسبب المجاعة، ومنهم من تفرّقت بهم سبل الوجود الشائكة الوعرة.

وطّدت العزم على السفر إلى مكّة ومجاورة الكعبة الشريفة، حرّرت لأبي الحسن رسالة بهذا المعنى على أن يجدها عند الشيخ أبي النجا، ثم اقتتت وصلّيت واستسلمت للنوم. وحين أصبحت، ائتمنت مضيفي على تيك الرسالة، واستخبرته عن عنوان قاضي القضاة وموعد انطلاق القوافل إلى الحجاز، فاستجاب لي، وأكرمني بعظاته وأدعيته. ومن فرط انفعالي لجوده وطيبوبته، مددت له واحدة من صرري، فأبى تناولها بدعوى أنّي أحوج إليها منه. ألححتُ أن يأخذها، فأقسم ألاّ يفعل. توخّيت الحلّ

الوسط، فواريتها التراب ورجوته أن يدلّ المشتري عليها يوم مجيئه، فأومأ بالقبول، ثم قبّلته وخرجت.

في مربض دار القضاء تركت بهيمتي وقصدت ديوان من دعاني. استوقفني بعض الأعوان للتعرّف على هويّتي، اكتفيت بالرد: «الذي أرسل سيّدكم في طلبه عند الولي أبي النجا»، فما لبثت حتى وجّهوني إلى بهو أمام باب كبير وأمروني بالانتظار. تخيّلت أسئلة القاضي وأعددت لها في ذهني أجوبة دامغة وجيزة، ثم صغت بدوري سؤالات لإلقائها عليه، تهمّ واقعات الأمّة الجسام وشؤون الحاضر والمصير. وبعد أن ثقل الترقّب عليّ فكّرت في مغادرة المكان والذهاب إلى حال سبيلي، وكنت أفعل لولا أنّ صوتًا خشنًا أمرني بالدخول. جزتُ الباب فإذا بي في ديوان فسيح يجلس على فرشه جمع يتوسّطهم رجل ضخم اللحية والجثّة، عريض المنكبين والجبهة. أشار إليَّ بخيزرانه أن أقترب وأجلس أمامه، ففعلت مسلّمًا. قال:

ـ أنت متهم، يا ابن سبعين، بأمور كثيرة، منها أنّك تسبّبت أمس الأمس، ولو عن غير قصد، في موت إنسان. وهذا الفقيه الأجلّ، قطب الدين القسطلاني، ينبئك بالنازلة وصكّ التهمة.

اسم هذا الفقيه ذي اللقب الطنّان ليس غريبًا عنّي. هو والسكوني في تونس وأبو الحملات في مرسية وغيرهم في سبتة ومدن أخرى، كلّهم من أهل الدسائس والسعايات، الخائضين خوضًا في مياه الدنيا العكرة وزخارفها الواهية الزائلة. سمعته يقول:

ـ سمعة هذا الرجل، يا مولاي، تسبقه حيث يحلّ ويرتحل، وهي، والعياذ بالله، في السوء ضاربة، وعلى أوتار الغيّ والعناد جارية. كلامه في وحدة الوجود كفر وتجديف، وقدرته على إفساد الأغرار وضعفة الإيمان خارقة شيطانيّة. يلبِّس على الناس بالسحر والسيمياء، ويخدعهم بالأقاويل المتطاولة والبدع الضالّة المضلّة. له، على سبيل المثال لا الحصر، لغو في التجريد، يقود متّبعيه إلى التزهّد المتشدّد والعصيان السليط وخلعِ حقوق أولي الأمر وأولياء الدين، بل إلى الحمق المبرّح والسلوك الجانح الخطير؛ وهذا ما أتاه أمس الأمس طالب صعيدي فقير، إذ تنكّر لأهله وحرفته، وتجنّى على بنت بريئة بفسخ عقد خطوبتها، والأدهى من كل هذا أنّه ذات ليلة ظلماء أخذ من غرفته في سطح عالٍ يرمي بكل حوائجه وماعونه، فما كان من أجسام صلبة إلاّ أن أصابت رأس مؤمن عائد من صلاة العشاء، فأردته قتيلاً. وحين أحضر صاحب الشرطة الجاني وسأله عن سبب فعلته قال بالحرف، وهو عارٍ إلاّ من مئزر: «أردتُ التجريد فرميت»، ثم ادّعى أنّه في الرمي مسيّر لا مخيّر، واستشهد بالآية ﴿*وما رميتَ إذ رميتَ ولكنَّ الله رمى*﴾، تعالى الرب عن ذلك علوًّا كبيرًا. ولمّا سئل عن داعيه إلى التجريد ومحرّضه عليه، نطق باسم الماثل أمامنا، عبد الحقّ ابن سبعين المغربي وقيل الأندلسي.

تململ القاضي في قعدته وحاشيته معه تململوا، وحدجني بنظرة فاحصة مستفزّة، قال:

ـ ما ردّك، يا هذا، على ما أنت متابع به؟

بماذا أجيب عن هراء فجّ خبيث؟ توخّيت الإيجاز الشديد فقلت:

ـ أربأ بنفسي، أيّها القاضي، عن الردّ على كلام السُّخف، وأنزّهها عن مجادلة لا معنى لها ولا طعم. وإنّي لأعوذ بالله العلي العاصم من فقهاء السوءِ والإفك المقيت.

ارتعدت فرائص القسطلاني وأبدى امتعاضًا ونفورًا، ثم أتى صوت القاضي ملعلعًا:

ـ لك الخيار، يا هذا، إمّا تقضي سنوات سجنًا نافذًا، وإمّا ترحل عن أرض الكنانة حالاً...

أجبته مقاطعًا:

ـ فرسي ورحلي على بابك في انتظاري. وهذه الأرض الطيّبة لن أعاود الدخول إليها آمنًا إلاّ أن تأمن من شرور الطغاة والظّلمة.

لم أستأذن القاضي في الانصراف، بل ولّيت الدبر على عجل. غادرت الدار وركبت دابّتي إلى الجيزة. لكن هنا لحق بي فارس عليه سمات المجاهد، أخطرني أنّ الشيخ الششتري ينتظرني عند أبي النجا، ثم مرق كالسهم من الرمية. لم أشكّ في صدق الرجل فيمّمت وجهة بيت الولي مسرعًا، تنتابني مشاعر الخوف والقلق. لمّا وصلت رأيت بأمّ عيني الحبيب أبا الحسن مستلقيًا على ظهره بين ثلّة من الرجال يتناوبون على إسعافه

وتجديد ضمائد جروحه في البطن والرجلين. انحنيت عليه مقبّلاً ولا سؤال لي إلاّ عمّا حدث له، فأنبأني رفاقه نيابة عنه، حتى يعفوه من تعب الكلام، أنّه تلقّى طعنات وهو بين المشاة المسلمين يجاهد الإفرنج في دمياط. استعظمت الأمر بقدر ما استغربته. سألت عن أبي النجا فقيل لي إنّه هبّ إلى ساحة المعارك ليأخذ مكان شيخه الجريح.

كان بين الجماعة رجل مميّز، اختلى بي وعرّفني بنفسه كمرابط وطبيب، وقال في حقّي كلامًا طيّبًا على ضوء شهادة الششتري المشيدة بمناقبي وبخبرتي في الطب، ثم شخّص لي حالة الولي وناشدني أن أسهر على نقاهته، كيما يتفرّغ هو وصحبه للجهاد وإسعاف جرحى الحرب في دمياط. فما إن عبّرت له عن قبولي حتّى سلّمني لوازم وأدوية، وأمدّني بنصائح وتعليمات، ثم أشار إلى من معه فانصرفوا جميعًا شاكرين مودّعين.

جلست قرب المريض أفحص حالته، أقيس حرارته، أنظر في أم عينه ولون لسانه، ملاحظًا أمارات الوهن عليه والميل إلى الغفوة أو النوم. ولمّا يفتح جفنيه قليلاً يُفهمني بالإشارة أنّه متعرّف عليّ، يحاول الكلام فلا تصدر عنه سوى ألفاظ متقطّعة خافتة، سرعان ما أصدّه عنها حتى أريح صدره المتهدّج وأجرّعه بعض السوائل المغذّية. وفي انتظار أن يستعيد بعض عافيته بتُّ أصلّي كثيرًا، وأدعو الله له، ثم أستقبل من وقت لآخر وفد زائريه من الطلبة والمريدين، وأحول دون إزعاجه أو تكليمه.

بعد ثلاثة أيّام صارت صحوات النّقاهة أهمّ من المعتاد،

فأخذت أغتنمها فرصًا لتنظيف جسمه ومداواة كدماته وجروحه، وذلك بعون مريد ألحّ على خدمته داخل الدار وخارجها. وفي متمّ الأسبوع أمسى الولي يتكلّم بنوع من اليسر، ويجلس للتيمّم والصلاة أو للاقتيات والاستياك. مغتنمًا عودة القدرة النطقيّة إليه، سألته من باب العتب الحبّي:

ـ تذهب لجهاد الإفرنج الغزاة، يا أبا الحسن، ولا تأخذني في ركابك.

ابتسم واسعًا ولمعت عيناه وقال:

ـ كل ميسّر لما خلق له، يا وليّي بعد الله، أنا للجهاد الأصغر دعاني إليه داع في المنام فلبّيت، وأنت للجهاد الأكبر، تقيم صرح التوحيد الأعظم، وتُلزم السالك إليه بطلب الترقّي وإكسير الكمال الأبرك.

لم يسعني حيال تواضع هذا الرجل الجليل إلاّ أن أضمّه إليّ وأتطيّب من نفحاته القدسيّة. حاولت استدراجه إلى سرد وقائع المعركة التي شارك فيها فلم يستجب سوى بكلمات مجازيّة قصار، مفادها أنّه طعن في العدى قدر المستطاع، حتى أصيب بطعنتين، واحدة في البطن غادرة، وأخرى في الفخد طائشة. وختم هذا بترديد: وعلى الله التوكّل، والحمد له كما يجب.

في ليلة الغد بعد صلاة العشاء، تقاطر على البيت جمع من الطلبة وأهل الخرقة لتقصّي أخبار شيخهم ومعاينة مثوله للشفاء. وسرعان ما غصّ المكان بالحضور، فتحلّقوا جالسين قبالة سرير الششتري، يصيبون ما يُقدّم لهم من أكل خفيف وشراب،

ويتجاذبون أطراف الحديث، تناهى إلى سمعي بعضه على مناقب الشيخ الشجاع النجد، وبعضه في مدحي وتقريظي. وفجأة، ران صمت مطبق، ثم صدح شاب مجوّدًا أورادًا على نحو شيّق مؤثر، أتبعها الجمع بأمداح نبويّة من معشرات أبي بكر النّطيلي الغرناطي فبأذكار منتقاة من نظم أبي الحسن لا أحلى منها ولا أبدع. وصاحبي في هذا الجو الروحاني البهيج يتفوّق عليّ في الترنّح والخشوع، حتى تفيض عيناه بالدمع. ولمّا مال أهل السماع إلى الهدوء أبصرتُه ـ واعجباه! ـ يقف على رجليه منتعشًا معافى، ويلقي قصيدة زجليّة مطلعها: «*صحّ عندي الخبر / وسرى في سرّي// أنّ عينَ النظر/ عينُ عينِ الفكَر*»؛ وكلّما عناني بالقول الطيّب أشار إليّ بالرؤية وكلتا يديه. وعند الختم، جلس وأنشأ يجوّد ما تيسّر من قصار السور، والسامعون بين وقفاته يدعون له بخير دعاء؛ وبعدها أنشد أحاديث قدسيّة من تلحينه، كان أعزّها عليّ حديث أحسبه من لباب فكري ومذهبي، كما يعلم الششتري ويدري: «*أنا عند ظنّ عبدي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن اقترب إليّ شبرًا تقرّبت إليه ذراعًا، وإن اقترب إليّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة*». كما أضاف المنشد حديثًا قدسيًا أثيرًا لدى أهل التوحيد، أوّله: «*ولا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه...*».

ظلّ المحفل يزهر بتلك اللطائف والنعم ويثمر، إلى أن كلّله معظم الجمع، وأنا وأبو الحسن منهم، بحضرة صوفيّة صافية راقية، اشرأبّت الأعناق فيها إلى باريها واقشعرّت النفوس

والجسوم، سلامٌ هي حتى مطلع الفجر، فهبوبُ الكل إلى الصلاة في الجامع الأزهر.

*

الإنشاد الصوفي سبحان الله! كأنّي به عند أبي الحسن ضرب من الصلاة، وكالحكمة، يأخذه بأجوده وأرقاه حيثما وجده، مع حرص شديد لديه أن يكون لأهل الخرقة فيه طاقة المنافسة الخلاّقة والنشر العاصم. ولقد شافهني ذات يوم في بجاية بكلام أضاء لي فحوى قصيدته ذات المطلع: «*تأدّب ببابِ الديرِ واخلعْ بهِ النعْلا/ وسلِّم على الرهبانِ واحطط بهم رَحْلا*»، قال: «لا حرج، يا وليي، أن ننصت إلى ألحان القساوسة والشماميس وأصواتهم، لكن لا خير فينا إن لم نتفوّق عليهم نحن في توحيد الوجود وخالقه بالسماع العلوي والموسيقى الفذّة». وكان من باب تواضع العارف الألمعي يضيف: «وقد سبقني إلى ذلك في الرقص والغناء شيخنا أبو عبد الله الشوذي الحلوي، رحمة الله عليه»...

مضت عشرة أيّام أخر في رفقة الصاحب الأعزّ، نمى إلينا خلالها خبر استشهاد أبي النجا في ساحة الوغى بدمياط، فترحّمنا عليه واسعًا، وحدّثني عن مناقبه جليسي لمامًا، وممّا علمته أنّ هذا الزاهد ينفرد بسلوك الصوم عن الكلام أو قل الإكثار من الصمت مدّة نصف العام، وهي الفترة التي صادفت سكني معه؛ كما أنّ الأخبار المتدافعة أخطرتنا بتحرّشات القسطلاني بي في الحلقات والمجالس، وتأليب دوائر السلطان عليّ، أخبار أبلغني

بها أبو الحسن بالتقسيط نقلاً عمّن يثق بهم من الأتباع والمريدين. وذات مساء بعيد العشاء فاتحني الرجل متحرّجًا:

ـ مددتَ إقامتك هنا، يا وليي، رعاية لي ودفعًا لأعطابي؛ واليوم وقد استعدتُ صحّتي وعافيتي، يشقّ عليَّ أن ينالك مكروه بسببي. عيون الوالي والفقيه القسطلاني يتبعونك حيثما وُجدت. في حفلنا الأخير كانوا مندسّين بيننا منتحلين زيّ الصوفيّة وسلوكهم. أراد بعض الأصفياء طردهم، فنهيتهم عن ذلك، حتى يروا أنّنا لا نجتمع إلاّ للخير والرياضة المثلى... عمّا قريب أشدّ الرحال إلى بجاية حيث أعاود ترويض النفس على ما يرضاه الله وترضاه يا وليّي؛ أمّا أنت فعليك باستئناف سفرك إلى أم القرى، ملاذك الآمن الأريح، على أن ألحق بك فيها متى تيسّر هذا، حتى تنكشف الغمّة وتلوح تباشير الخلاص.

وكذلك كان في فجر الغد، إذ قمت عن بكرة أبي وهيّأت فرسي ورحلي، وصاحبي يبكي ويسلّمني كتبًا وبطاقاتٍ وعناوين. تعانقنا وأنا أبثّ في أذنه: «عين الصواب ما تراه يا الفهيم الأبرك»، ثم توجّهت رفقة طلبة إلى الجيزة. هنا صرفت هؤلاء وأوصيتهم بشيخهم خيرًا، وصادفت قافلة قريبًا من الأهرامات على أهبة النزول إلى الصعيد. اتّفقت مع رئيس الجمّالين على صيغة رفقتي لهم حتى عيذاب غربَ البحر الأحمر، والصيغة أن أكون في ركابهم تارة، وأن أسبقهم إلى محطّات على الطريق طورًا، فلا أترك فرسي إلاّ للراحة والنوم، مرّة في رابطة ومرّة في فندق.

* * *

- ٩ -

وكذلك جرى السفر من منية القائد إلى بوش فدلاص حيث نودي إلى التوقّف يومين وشراء الكتّان الرفيع بأرخص الأثمان؛ ثم كان المسير إلى منية ابن خصيب، فإلى منفلوط ثم أسيوط ومنها كان العبور إلى أخميم فقوص. وتخلّلت ذلك استراحات مناسبة نافعة. وفي الطريق المتعب الشاقّ إلى عيذاب، مات فرسي من شدّة العطش والإنهاك، فأتممت السفر على جمل توفّى راكبه بفعل الريح السموم. وكان أن لحق بالراحلة ركب أميري تحفّ به سريّة مسلّحة، فاختلط الركبان، وتعاون الحجيج على البر والتقوى وإسعاف المرضى ودفن الموتى بعد الصلاة عليهم. وكنت في ذلك أدلي بدلوي قدر المستطاع، وأناظر خبيرًا بالأنواء لتعيين أنسب يوم لركوب البحر، وأنا مع كل ما آتيه أتسمّى بأبي حمادة الغافقي السبتي أو بابن دارة.

ظلّ الجمع ما يقرب من الشهر، يتقاسمون بمقدار مذخر الماء حتى كاد ينضب، ويغالبون مكاره الصحراء ومحنها، ويتلهّون عنها بلعب الشطرنج والمساقرة، وكنت فيه أبلي فيه بلاءً حسنًا، أو يواجهونها، حين تشتدّ، بالأدعية والأوراد والصلوات، وبعضهم يكاد يجنّ فيلعن الريح ومشتقّاتها، فأنهى عن ذلك

وأصدع بالحديث: *«لا تسبّوا الرّيح، فإنّها من روح الله تأتي بالرّحمة والعذاب، ولكنْ سلوا الله خيرها، وتعوّذوا بالله من شرها»*.

وذات ليلة في هزيعها الأخير، كفّت الريح السموم عن العصوف، وصارت بقدرة قادر طيّبة رُخاء، ولان البحر وأطاع، فأجمعت الآراء على اهتبالها فرصة لركوب الزوارق والعبّارات، وتقصّد جدّة في رعاية الله وحفظه. وكذلك كان بعد يوم وليلة أرسينا آخرها بمرسى على خليج، فتوقّفت مع الحجيج في جدّة حيث قضيت النصف الثاني من ذي القعدة صحبة نفر من المغاربة والمصريين، أنستُ بهم وأنسوا بي، وكان معظمهم من التجّار المتموّلين، يصرفون مجمل أيّامهم في إنجاز مآربهم، فلا ألقاهم إلاّ ليلاً وقت طلب الراحة والرّيح الليّنة في سطح الدار التي اكترينا. أمّا أنا فكنت طوال بياض اليوم أمضيه في القراءة والصلاة، منتقيًا مساجد صغيرة ورباطات يقلّ فيها الهرج والضوضاء وأذى الحرّ والرطوبة.

في الفاتح من ذي الحجّة أسريت إلى القرين، وهو موضع الحاج إلى مكّة، هنا في رابطة ائتمنت شيخها على حوائجي وداخلها صرري، وعند بزوغ الشمس استرحت وغفوت، ثم اغتسلت وتوضّأت فنويت حجَّ تمتّعٍ وأحرمت. بعيد صلاة العشاء، سرت في قافلة مُسهمًا مع أصحابها في التلبية والأدعية حتى وصولنا فجرًا إلى مكّة المشرّفة، حيث سرعان ما اختلطت في الحرم الإبراهيمي بوفود الرحمن، وأدّيت أولى شعائر العمرة

إلاّ من لمس الحجر الأسود تعذّر عليّ لشدّة الزحام عليه فاكتفيت بالتحيّة. وما لن أغفل عن تدوينه أنّ نساءً يطفن على بعد ارتمين على يدي وأنا قاصد قبّة زمزم، فطفقن يلمسنها ويقبّلنها، وواحدة منهن تشكو متضرّعة: «نحن المغبونات يستحيل علينا الوصول إلى الحجر الأسود، عزاؤنا أن نلمس الأيادي التي لمسته». أنهيت عمرتي بأن شربت من بئر زمزم وسعيت بين الصفا والمروة محييًا الحجر الأسود. وقصصت شعري ثم صلّيت المغرب مع الجماعة والعشاء مع الحنفيّة، وأخيرًا قفلت راجعًا إلى مستقرّي في القرين حيث أحللت واغتسلت تهيّؤًا للصلاة والنوم.

في الغد انتقلت إلى السكن في جوار الكعبة. اهتداءً ببطاقات الششتري نفذت من باب إبراهيم إلى دار المكناسي الفقيه، كان قبل وفاته إمام المالكيّة في الحرم، فحدّثت ناظرها في حاجتي إلى بيت مريح لإقامة قد تطول، وبادرت إلى الكشف عن هويّتي متبوعة باسم مرسلي وشفيعي، فما إن طرق سمعَه هذا الاسم حتى هشّ لي وبشّ وصاح مبشّرًا: «صديق مولايَ وحبيبي الششتري فوق رأسي وعيني! أسكنه أهنأ غرفة وإن شاء بيتي». أجزلت له الشكر وتبعته بحملي الخفيف إلى منزل من غرفتين، واحدة سفليّة ظليلة نديّة وأخرى فوقيّة ذات سطح، أبرز ما يرى منه شرقًا باب إبراهيم عليه السلام وبئر ينسب إليه، وغربًا مئذنة رائعة الصورة والصنعة. عدّد لي الناظر مزايا المنزل في الحرّ والبرد وقال: «لا يقطنه إلاّ الأعلون». سألته عن سهم الكراء، فأجاب منصرفًا: «لا شيء إلاّ ما استطعت. والخادم يأتي سيّدي بكل ما يحتاج».

ارتاحت نفسي لهذا المقام وأتاها البسط والاستبشار، اغتنمت انقشاع الغيم الجواني لإجالة النظر في واقع حالي وأفق مآلي؛ غير أن النظر وإن طال وغار لا يمكن عند من هو في وضعي أن يحلّ عقدًا منفلتة الخيوط، ويجتاز أبوابًا لا مفاتيح لها. كذا لا فائدة الآن ترجى من إعمال الفكر، اللّهم إلاّ لتحفيز النفس على نيل سعتها وقواها.

نادى المؤذن لصلاة الظهر فأدّيتها منفردًا في الغرفة السفليّة، وحين سلّمت لمحت خلف الباب رجلاً أسود، صلب البنية، طرمّاح القامة، يحمل بين يديه طبق طعام. دعوته إليّ مرحّبًا، فوضع الطبق على مائدتي وقال إنّ سيّده ياسر اليمني أوصاه بخدمتي والعناية بي. شكرته وسألته عن اسمه فأجاب أنّه غيلان السوداني ثمّ انسحب مسلّمًا.

الصحون أمامي من الطبخ المحلّي تغريني وتفتح شهيّتي. أقبلت على بعضها باسم الله، ونلت منها ما تطيقه معدتي. ولمّا فرغت رتّبت حوائجي في الغرفتين وخصّصت وقتًا لاستياكي وطهارتي.

قبيل العصر خرجت أصلّيه مع الحنفيّة في المسجد الحرام قبالة الميزاب. وبعده انتحيت زاوية قريبة، أتأمّل دبيب الخلق من حولي وسيل الطائفين المتواتر؛ ثم إنّي سمعت صوت الزمزمي منبعثًا من قبّة زمزم، يرفع عقيرته بالدعاء الحارّ لأمير أعجمي كان وحاشيته يؤدّون دورات الطواف. وما إن سكت المؤذّن المنشد حتى رأيت باب إبراهيم تتدفّق منه جحافل من الآدميين، قيل لي

إنّهم أعاجم ينفذون إلى الحرم من كل أبوابه الأخرى. ولمّا هاجوا على الميزاب المبارك وقويَ تزاحمهم وتضاغطهم على ضرب لم أشهد نظيره أبدًا، سقط منهم أعداد بين جريح وقتيل خنقًا ورفسًا. وبينا أنا واقف لصيقًا بجدار لا أريم، أبصرت رأس فتاة تئنّ تحت أكداس أجسام هامدة أو متقطّعة الأنفاس. شمّرت على ساعديَّ، اندفعت نحوها بجهد جهيد، تلمسّت يديها، شرعت أجذبها إليَّ كما تُجذب فريسة من فم وحش جائع. وحين توفّقت كانت المسكينة مغمى عليها، فحملتها إلى أقرب دار إغاثة بنيّة تسليمها إلى الطبيب ومساعديه. وجدت الدار غاصّة بطوابير من المرضى المنتظرين صحبة ذويهم، فبدا لي اختراق صفوفهم إلى بيت الفحص والإسعاف من قبيل المستحيل. مرّ خلفي رجل عليه هيئة قهرمان، التمست منه العون لشابّة تنازع الموت، أجاب بلسان بارد فظّ أنّ حالها كحال معظم المترقّبين، ثم غاب غير آبه لكلامي وتوسّلاتي. مدّدت المسكينة على مصطبة فلحظت أن نبضها يتضاءل وتنفّسها يخفت. أرعبتني أمارات الاحتضار عليها، فأخذت أضرب على طرف قلبها وأدلكه دلكًا ثم أطبق فمي على فمها وأنفخ فيه من أنفاسي. ثابرت على هذا النحو حتى شعرت منها تململاً ثم تنفسًا ورجوعًا إلى الوعي. كان بعض الفضوليين يرقبون عملي، فلمّا شهدوا حصيلته هلّلوا لي وكبّروا، وهتفوا أنّي أعدت البنت إلى الحياة بإذن الله، وحسبوها بنتي سيّما وقد رأوها تتشبث بذراعي وقميصي. حملتها كما أتيت بها إلى هذه الدار ويمّمت منزلي. هنا أطلعت الناظر على قصّة الفتاة التي لم تنبس بعد بكلمة، رجوته أن يطعمها وينظر في هويّتها وأمرها، فوعد أن

يفعل وهو يعجب منّي ويباركني، ثم بعون الخادم غيلان خلّصني من تشبّثها بي. وبعد ذاك لذت ببيتي أسْتردّ أنفاسي وأستريح حتى أدوّن ما عشته في بياض هذا اليوم العجيبِ المرتج.

في الغد وقت الغذاء، أخبرني الناظر أنّه تمكّن من إعادة البنت إلى أبيها وعمّتها بعد أن عثر في زمام الحاج على هويّتها الخراسانيّة، وقال إنّ أمّها ماتت خنقًا في زحمة الأمس، وأردف أنّ مثل هذه المآسي يحدث في كل موسم حجّ، فاستلطفنا واستغفرنا. أنبأت الرجل أنّي أنوي حجَّ قران ظهيرةَ غد، فدعا لي منفعلاً أن يجعله الله حجًّا مبرورًا وسعيًا مشكورًا، وعرض عليّ أن يصحبني غيلان المتشوّقة نفسه إلى أداء الفريضة، فقبلت واستحسنت؛ ثم أطرقت مفكّرًا قليلاً ففاتحته في أمر صرر القطع الذهبيّة العالقة بحزامي، فقال لا خوف عليها سواء تركتها مخبوءة في غرفتي أم ائتمنته عليها. من دون تردّد سلّمتها له وأخذت منه مقابل واحدة مبلغًا ماليًّا لحاجة الإنفاق والتصدّق. وقبل أن أصعد إلى بيتي سألته إن كان من خبر عن حبيبنا الششتري فقال لا شيء إلاّ ما يصله عنه في المنام، وما يصله كلّه خير.

ظهيرة السابع من ذي الحجّة قصدت البيت العتيق مع غيلان، تتبعنا أدعيةُ الناظر. كانت الممرّات المفضية إليه تحفل بالخلق والدواب والهوادج، والرحاب والأفنية داخله تغصّ بالمؤمنين من شعوب وأعراق شتّى. أدّيت في هذه المرّة شعائر العمرة كلّها، إذ مكّنني مرافقي من لمس الحجر الأسود، لكنّني لم أجد هذه المرّة، وقد أنهيت طوافي، إلاّ امرأة واحدة تلقّفت يدي باللمس

والتقبيل، وبعدها أذنتُ لغيلان بالاعتمار ثم تهيئة حجّنا برعاية مطوف يختاره، وضربت له موعدًا في فجر غد بالميزاب. هنا في هذا المكان المكرّم صلّيت العصر منفردًا ثم جلست أضمّ صوتي إلى أصوات الهاتفين بالأدعية المستجابة، حتى إذا حلّت صلاة المغرب أدّيتها مع الجماعة، ثم صلاة العشاء فكانت لي مع الحنفيّة، ومعظمهم فرس وترك، إذا خاطبني أحدهم فبلكنة بيّنة طريفة.

كان لي من الوقت متّسع لأرتاد أرجاء المسجد الحرام الفسيحة وبعض المشاهد منه. سرت الهوينى تحت أضواء القناديل والسرج الموقدة، أنظر في الأبهاء المتماسكة المتواصلة، وفي السواري الكثيرة الحاملة للسقوف المبسوطة أو المجوّفة؛ كما وقفت على أبواب لم أتعرّف عليها من قبل: باب قبّة العباس وباب قبّة اليهوديّة إلى الشمال، وباب قبّة زمزم إلى الشرق؛ ثم إنّي خرجت إلى فناء الحرم الخارجي فتملّيت بطلعة الصوامع السبع ثم عرّجت على قبّة الوحي، وهي في دار سيّدتنا خديجة قُدّس ذكرها. وهنا قريبًا منها حلا لي أن أنتحي ركنًا وأجلس متكوّمًا، مغمض العينين، سارحًا تارّة في ذكرى أم خويلد ومناقبها العظمى، وآونة في حمى حرمي فيحاء، أدامها الله لي ويسّر أوبتي إليها على جناح الأمن والسلامة.

في فجر الثامن من هذا الشهر المبارك بكرت مع غيلان وجماعة من الحجّاج بالصعود إلى منًى حيث بتنا. وفي الغد كان الوقوف في عرفات فالإفاضة إلى المزدلفة ثم الرجوع إلى منًى في

العاشر منه حيث رميُ الجمرات وذبحُ الأضحية. أدّيت المناسك كلّها وغيلان، الذي كان هذا حجّه الأوّل، يعتمدني في ذلك مرشدًا وقدوة، لا يأبه بالمطوف ولا ينصت له. وبعد أن فرغنا غاب لحظة ثم عاد حليق الرأس. ترجّاني أن يكون له شرف حلق رأسي، فكان له ذلك قبل أوبتنا إلى الكعبة لأداء الطواف الأخير استعدادًا للتحلل من الإحرام في مطلع اليوم الموالي. أمّا فترة استراحتي واستجمامي فقضيتها منفردًا بين منًى وبعض مشاهد مكّة ومنزلي. وكان الحاج غيلان كلّما صادفني أشاد بكرمي جهرًا ودعا لي كثيرًا بلهجته السودانيّة الدافئة، وياسر ـ الذي لا يذكر كم مرّة حجّ ـ يشاركه الهتاف والدعاء ويزيد من فضله اليمني المخصوص.

عند متمّ موسم الحج، بعد يوم استخبرت فيه وسحت، وجدت في انتظاري الفتاة الخراسانيّة وأباها في بهو الدار صحبة الناظر، فما إن جالستهم بعد ردّ التحيّة بأحسن منها حتى عزّيت الرجل بوفاة زوجته، وأخذ هو بعربيّة لكناء يمطرني بآيات الامتنان والشكر لإنقاذي حياة وحيدته وفلذة كبده من هلاك محقّق، فأشرت بسبّابتي إلى السماء وقلت: «بل هو الله الذي يحيي ويميت»؛ ثم أراد مكافأتي بصرر مختومة كثيرة فامتنعت عن أخذها تاليًا كلامه تعالى ﴿*بل لا أسألكم عليه أجرًا إلاّ المودّةَ في القربى*﴾. دعاني إلى بيته في مساء غد قائلاً: «لتتعشّى بنا»، وصحّح الناظر خانقًا ضحكته: «يتمنّى هذا الكريم من سيّدي أن تتعشّى معه وأهله». تمثّلت طيف فيحاء مشاورًا إيّاها في الأمر،

أومأتْ إيماءة أعرف معناها، فاعتذرتُ بما يحسن من كلمات المجاملة واللياقة. أنبأني الرجل أنّه عائد إلى بلاده بعد يومين، ودعا الله أن يجمعه بي في حجّ آخرَ قادم، وحين قمنا للوداع انقضّت الفتاة على يديّ تقبّلهما باكية متضرّعة، ثم لوت على أذيال لباسي بقوّة وعناد، مردّدةً كلامًا بلغتها الفارسيّة، فلم يفككني من تشبّثها إلاّ أبوها وياسر وغيلان الذين حملوها مكرهة إلى هودجها خارج الدار. اهتبلتها فرصة للاختلاء بنفسي قرب قبّة الوحي والتفكير في نازلة تلك الخراسانيّة اليافعة الغريبة.

في الغد اعتصمت بغرفتي السفليّة، لا اهتمام لي، علاوة على حركاتي المعتادة، إلاّ مطالعة *أخبار مكّة* لأبي الوليد الأزرقي، لعلّي أشفي بها غليلي في التعرّف على هذه المدينة التي أنا حلّ بها إلى أجل غير مسمّى. وبين الفينة والأخرى أضع الكتاب جانبًا وآخذ في استذكار بطاقات فيحاء التي كانت تنعّمني بها قبل زواجنا، وحفظتها عن ظهر قلب، كلمةً كلمة وجملةً جملة. والقصد من فعلي هذا كما من قبل إنّما هو تحلية الوقت وبعث النفس على ما ينهضها ويقوّيها.

قبيل المغيب أتاني الناظر حاملاً أكياسًا، معتذرًا أيّما اعتذار عن إزعاجي، قال مرتبكًا:

ـ سيّدي، هذي صررك أعيدها إليك، وهذي هبات جاء بها إليك الشيخ الأعجمي صبيحة اليوم وترجّاني أن أسلّمها لك.

أجلست الرجل حذائي ورمت تهدئة روعه، قلت:

ـ هل هذا كل ما وراءك يا ياسر؟

ـ ما بقي، يا مولاي، أجَلُّ وأعظم...

ـ سقه إذن تخفَّ وتهدأ.

ـ روى لي الخراساني الطريقة التي بها أحييت كريمته بإذن الله، وترجم لي هتافها نحوك بأنّها تنشد أنفاسك لتنتعش بها وتنعم. وبعض الناس يستخبرونني عنك، ويحسبونك من أولياء المواهب والكرامات، وأنا أراهم على حقّ، ولو أنّي أُبعدهم عنك ما دمتَ لم تأذن لي بغير ذلك.

استغفرت الله واسعًا وقلت:

ـ أنبئ هؤلاء، يا ياسر، أنّ ما فعلته مع الأعجميّة إنّما هو من قبيل التطبيب والإسعاف، لا دخل للخوارق فيه. أمّا هذي الأكياس فهبها لخيريّات مكّة، فهي أنفع لها وأجدى...

ـ حقًّا ما تقول! سآتيك بشهادات حيازتها عمّا قريب...

ـ هل من أمر آخر؟

ـ صررك، يا سيّدي، لا قِبل لي بحملها... تحت أرض سريرك حفرة آمنة تودعها فيها.

استلمت منه الصرر وشيّعته إلى الباب مبتسمًا مبشورًا.

* * *

ـ ١٠ ـ

الشهور الستّة من العام الموالي صرفت بعضها بين المجاورة في الحرم الشريف وخزانة الدار الموقوفة على المالكيّة، وبعضها الآخر بين التعرّف على مشاهد مكّة ومآثرها وباديتها. وكان يطيب لي، كلّما سنح الوقت، أن أصعد الجبال المحيطة، كجبل أبي قبيس وعلى وجه الإيثار والتخصيص جبل حراء وجبل ثور؛ فبات التسلّق عندي رياضة أقيس بها حالة نبضي ونفَسي، وبالتالي قدرتي على المجاهدة والصبر. وحقًّا سُمّي الجبل الأشمّ جبل ثور، وقيل «لا يصعده إلاّ ثور». وكنت إذا بلغت أعلاه تملّيت بمشاهدة منًى والجهة اليمنيّة من مكّة، ثم أسعد بولوج الغار الأبرك الآمن لأقضيَ فيه ما شاء الله من الوقت تيمّنًا بالمصطفى الكريم واستنزالاً لشآبيب الفيض اللدني والبسط، وكذلك أفعل في غار حراء النورانيّ المقدّس.

*

عش رجبًا تر عجبًا!

في إقامتي المكّيَّة ـ وقد بلغتْ حولها الثالث ـ هل ثمّة أعجب من أمر امرأة مصريّة مجاورة، استعجل ناظر رباط الموفق قدومي إلى بيت سكنها، كيما أنقذها من وهن وضيق في التنفّس يتهدّدان

حياتها؟ كانت على المريضة لما عاينتها، وهي طريحة الفراش، أمارات مقلقة من نحول وشحوب وسقم، وصدرها المتهدّج ينفث عبر فمها الكالح زفرات وحشرجات ما أدناها إلى سكرات الموت! أمرت الناظر بإحضار ماعون وماء وأعشاب، وما إن غاب حتى فتحت عينيها الفاترتين، وطفقت تنعت فمي وفمها وتشير بما يفيد احتياجها لأنفاسي. بعد تردّد أنجزت لها غرضها، وتوقّفت إثر عودة الناظر بما طلبت. أعددت دواء أعلم تركيبه وطبخته في ماء فائر، ثم جرّعتها إيّاه بتلطّف وتؤدة. بعيد لحظات تأهّبتُ للذهاب، فرأيت المرأة تستوي جالسة وتوجّه إليّ نظرات باسمة رقيقة وتقول إنّها جائعة. صاح الناظر فرحًا طروبًا «كرامة والله كرامة !» وخرج. ظللت جالسًا جنبها لا كلام بيننا إلاّ بلغة العيون، فلمّا عاد الرجل بطبق الأكل انصرفتُ، تشيّعني تكبيراته ونظرات المتماثلة للشفاء.

وجه العجب العجاب ليس في ما ذكرت، بل في ما أسرَّتْ به إليّ حين عُدتها ثانيةً للاطمئنان عليها، كما طلَبتْ. بدا لي وجهها مشرقًا، وحالُها وحسنها على ما يرام. في جنينة ظليلة جالستها، والناظر نشطٌ بين غدو ورواح يرحّب ويسهّل. قالت بصوت خافت محتشم:

ـ أنا هنا، يا سيّدي، أعيش في جوار مكّة منذ سنة ويزيد. لا وليَّ لي ولا نصير إلاّ الله. أهلي في مصر، منهم من قضى نحبه كوالديَّ وبعلي، ومنهم من ينتظر. . . وقعت عيني عليك في عمرتك الأولى وكنتُ ممّن لمسن يدك وقبّلنها، ثم في عمرتك

الثانية وكان لي شرف الانفراد باللمس والتقبيل؛ وفي هذه وتلك، وأنت تطوف، كم أعجبتني طلعتك وغمرتني هيبتك! ولا بأس ولا حرج، فقد جاء في الأثر أنّ أسوة المسلمات والمسلمين وسيّد الخلق والمرسلين قال: *«بينا أنا أطوف بالبيت إذ رأيت امرأة أعجبني دلّها»*؛ ثم إنّي شهدت بأمّ عيني كرامتك في إنقاذ البنت الأعجميّة وإنعاشِها بأنفاسك الزكيّة وتيسيرٍ منه تعالى...

سكتت المرأة لحظة كأنّها تستعدّ لإلقاء قول جسيم عليّ، وسكتّ مثلها متحيّرًا فيما أواجه به كلامها العجيبَ المذهل. وما أضافته زاد في حيرتي وذهولي، قالت وعيناها مغمضتان ووجنتاها تحت خمارها الشفيف تحمرّان:

ـ إنّي أحبّك في الله، يا سيّدي... كل ما أبغي منك أن تؤنسني في وحدتي متى تشاء، وترشدني إلى سلوك الصوفيّة الأبرار الأصفياء. مُناي وعزّتي في أن تقبلني مريدة، خفيفة الظلّ، مطيعة... تظاهرتُ بالمرض حتى أصل إليك، فأبلغَك شوقي ونجواي... أيعصى الله من بوليّه يتقرّب إليه؟ ربّي إن كنت أتيت أمرًا إدّا فأنت واسع الفهمِ والمغفرة... هذا هذا، وأنت فيه القصدُ والحكَم، فأسمعني ما ترى أو فكّر فيه ثم عُدْ إليّ به على أيّ وجه ترضاه.

بماذا أجيب هذه المرأة وذهني يطنّ من شدّة التعجّب والدهشة؟ قلت متلعثمًا:

ـ عليّ، يا أمَة الله، بالتفكير مليًّا في ما تدعينني إليه... إن تأخّرت بالإجابة فلعلّة عائقة لن يزيلها إلاّ الله وحده.

استأذنتها في الذهاب، فألقيت عليها السلام ومضيت.

*

مرّت على ذلك الحدث المحيّر العجيب ما يقرب من ثلاثة أشهر. خلالها خالطت ما قلّ من الناس وناظرت، كما أدّيت عمرتي الثالثة، وأنا في الطواف بالكعبة الشريفة والسعي بين الصفا والمروة أخلو إلى الواحد الأحد، وأقيس طاقة كدحي وانجذابي إلى أنواره في وحدة الوجود المطلقة؛ ثم إنّي رعيت حقوق الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، تارة في بيتي وتارة في غار حراء الأبرك.

صبيحة عيد الفطر زكّيت وقاسمت بعض نزلاء الدار فرحهم واحتفالهم. وفي عشيّة يومه الثاني زارتني السيّدة المصريّة، فاستقبلتها في الحديقة، وثالثنا غيلان الذي تفانى في إمدادنا بالألبان والحلوى. كانت الجلسة قصيرة، تبادلنا فيها اسمينا وكلمات التهنئة بالعيد، وأخرى حول الصحّة والأحوال، طبعتُها بالصدق والدفء حتى لا تستشعر منّي جفاءً أو صدودًا. حين قامت تودّعني، همست لي بصوت شجيٍّ رزين: «بيتي تعرفه يا سيّدي عبد الحقّ».

بيت هذه الغادة النجلاء، الحاملة لاسم أمّي أمامة، نعم أعرفه، لكن كيف أغشاه من دون أن أجلب الشبهات والأحدوثة إليّ؟

جميل أن تحبّني هذه المرأة في الله وأبادلها الحبّ نفسه!

جميل أن أتأسّى ببيت امرئ القيس: *أجارتنا إنّا غريبان ها هنا/ وكل غريبٍ للغريبِ نسيبُ!*

لكن ما العمل لو تحوّل هذا المدخل إلى ما لا أستطيعه أو تسوء عُقباه، كما كان أمري مع ميمونة مطلّقة أخي الأكبر ومع أخريات لا أذكرهنّ؟ سؤال وعر كنت فاوضت فيه طيف فيحاء منذ لقائي الأوّل بتلكمُ الغريبة، فما صدرت عنها وقتذاك سوى إشارات تنصح بالحيطة والحذر؛ أمّا اليوم، لمّا استفتيتُ طيفها مجدّدًا، فقد اتّشحتْ بوشاح الصمت المطبق والحياد المبرم. استشكلت موقفها هذا، ثم استحسنت تأويله على أنّه يخيّرني في أمري ويجعل لي عليه سلطانًا وحُكمًا.

هكذا إذن!

لكنّي ملتزم بأمر لو تحلّلت منه كان همّي ودواري: أمر الزواج بالواحدة التي لا شريك لها، فيحاء حياتي وعطر طور التوحيد الذي أنا مقيمٌ ومتحرّكٌ فيه... فاللّهمّ يا رب أحللْ عقدتي، وبدّد حيرتي، وثبّتني على ما تريده وترضاه... ردّدت دعائي هذا تحت الميزاب المكرّم وفي أيّ مقام مقدّس أقمت، وفي صلواتي وتراويحي ونوافلي، وعند قيامي وقعودي وعلى أيّ جنب تقلّبت. لكنّما الأيّام وحتى الشهور مرّت عليّ ولا إجابة أو بعضها، ولا نورٌ أو بصيصُ نور، والحمد لله على ما قرّر وقدّر.

*

آه من تدافع الأيّام والفصول ومن وقعها على النفس حين لا تأتي بالخبر اليقين عن الوطن والأحبّة!

ربت إقامتي المكّيّة على حولها الخامس، ولا شيء عن

تلامذتي بغرناطة ولا عن أهلي في سبتة أو طنجة. أمّا العزاء فكان لي في رسالة من الششتري تنبئني باستقراره في بجاية طلبًا للشفاء من وعكاته الصحّيَّة، كما بقرب التحاقه بي في مكّة المكرمة، وفي طيّ الرسالة قصيدة منه مطلعها «*أرى طالبًا منّا الزيادة لا الحسنى/ بفكر رمى سهمًا فعدّى به عدنا*» ومنها أبيات في تقريظي أدعو الله تعالى أن أكون عند حسن ظنّ قائلها، ولو بمقدار.. . كذلك لا أخفي أنّ بعض السلوان كان مصدره جلسات دأبت على عقدها مرّة في الأسبوع لبعض الطلبة في سطح الدار عند المقيل، وكان الملحُّ عليّ في سنّها والداعي إليها الناظر ياسر اليمني، الذي لم يكن يذخر جهدًا في تنظيمها والسهر على توفير شروط إجرائها ونُجحها. ومن المواظبين على الحضور كانت تلكم المرأة الغريبة التي بتُّ أخاطبها باسم الست أمامة.

مقابلاتي لهذه الستّ في جنينة الدار على هامش الدروس، كنت أحرص على جعلها تحت رعاية أو قل حراسة الناظر، تجنّبًا لأيّ شبهة، ولأنّي أخاف الله وأعوذ به من وسوسات شيطانِ الغواية والفلتان الشهواني.. .الكلام بيني وبينها كان ذا شجون، خفيفًا لطيفًا، لا كلفة فيه ولا غموض. تسألني في الشرع فأفقهها فيه، تستفسرني عن بعض القواعد الصوفيّة أو عن وليّات زاهدات فأجيب، تستخبرني عن أهلي، فأقصّ عليها لمامًا حبّي لزوجتي وتعلّقي بها، وتأخذ هي في الدعاء لي ولها بالصحّة وطول العمر وجمع الشمل؛ وقد تأتيني أحيانًا تستعير منّي كتابًا أو تهديني قدر عسل النارجيل مخلوط بالأفاويه أو حلوى من صنعها يتقدّمها الخشتي ولقيمات القاضي.

ظللت على حالي تلك بين الدروس والتعبّد والقراءة، حتى إذا انتهبني وهن أو ضيق، خرجت في جولات كشفيّة لمكّة وباديتها، أقطع الأميال مشيًا وأعرج في كل مرّة على جبل النور. وهنا بين جلوسي في عَراءِ الحجر الأجرد وتكومي داخل الغار الأبرك، أعجبْ يا الششتري بما كان يحدث لي وأقصّه عليك واسعًا يوم ألقاك، إنْ في هذه الدار أو في الأخرى:

جفّت أقلامي وانطوت صحفي، بهذا كنت أنبأتك من قبل، لكنّي في مقامي هذا ووقتي هذا، على ألواح جوانيّة أصلها في وجداني وفرعها في ذهني، صرت أكتب بقلم رقَّ ودقَّ وشفَّ حتى غدا لامرئيًّا، مدادُه الدافق كأنّي به مستَمَدّ من البحر الأحمر قبالتي أو من معين جوفيٍّ مكين. ما أخطّه فيض غامر لا أذكر منه حين أنزل إلى مكمني سوى عناوين، بعضها يرصد تحوّلاتي بين نير الزمن المتدافع وتوْقي إلى أنوار الحقّ المبين، وبعضها يرفع أعلام صمودي وصعودي خفّاقةً أبية.

تلك كانت سيرتي ذات الشعار المتوهّج المنهض: منافق خؤون من ينصح بالتزام السعي والترقّي ولا يتقلّده، العلم للعلوّ علامة، والحبّ في رحابه سماد الحيّ وركب السلامة: هكذا تكلّمتُ وعلّمت، فلا رجوع عنه البتّة ولو تجاسرتْ عليّ النوائبُ والبلايا وتكالبت، وما توفيقي إلاّ بالله، إليه أكدح وأنيب، وبه آنسُ وأستعين.

*

في موفى السنة السادسة من إقامتي المكّيَّة، شاعت أخبار دمار

ساحق حلّ ببغداد على أيدي جحافل هولاكو المغوليّة، فأتى على الأخضر واليابس والنسل والحرث، ودكّ أركان الدولة العبّاسيّة المتداعية. وجرّاء ذلك، تدفّقت على مدن الحجاز فلول الفارّين بأرواحهم، الناجين بقدرة قادر من هلاك محقّق، ونالت مكّة منهم قسطًا وافرًا، فهبّ المؤمنون كل حسب وسعه إلى نجدتهم بالإيواء والإطعام والإسعاف، وكنت بين فرقة من هؤلاء تختصّ بالتطبيب والمواساة لصالح الجرحى والمصدومين الهلعين، ومعظمهم رجال معطوبون ونساء وشباب وشيب. . . في بيمارستان حاولت جهدي مداواة بعضهم بعقاقيري وتركيباتي النباتيّة والكلمات الطيّبات المواسيات. أغلب من عالجت كانوا من الأيتام والأرامل والثكالى. رواياتهم كلّها تحكي فظائع التتر وتفانيهم في الترجيف والترهيب بالقتل الجماعي والتخريب الجائح.

في يوميَ الثالث من عملي الإسعافي بين مطارح المرضى وفريق الأطبّاء والمساعدين، تناهى إلى سمعي إعلان وصول المولى الشريف أبي نُمى أمير مكّة. التفتُّ فأبصرت رجلاً مهيبًا، كثيف اللحية أسودها، فاره القامة، عريض الكتفين؛ رأيته يتقدّم إلى جهتي محفوفًا بحاشيته ويقترب منّي مسلّمًا ثم ينحني عليّ قائلاً: «جزاك الله على إبلائك الحسن في إغاثة المنكوبين. علمت بمقدمك وسيرتك منذ حللت بهذه الديار. زماننا هذا كما تعرف صعب عصيب، ما أحوج أولي الأمر فيه إلى نصح أولياء الله المخلصين. إزعاج عالم مثلك أدهى من إزعاج مصلٍّ قانت، لكن داري مفتوحة لتشريفك لي متى شئت». قال هذا بتواضع

عفوي، وبادلته التحيّة وهو ينصرف إلى استئناف عيادة المرضى والسؤال عنهم.

*

في بيتي، قبيل النوم، استذكرت إشارات الإشادة والتنويه التي عبّر عنها لمامًا ناظر الدار في حقّ أمير مكّة وكبير أشرافها. أوّل خاطرة راودتني أنّي لم أخرج من حماية ابن خلاص في سبتة لأدخل في إيالة أبي نُمي، ولو فاق هذا ذاك خلقًا واستقامة. مكّة المكرّمة ما أتيتها إلاّ مجاورًا معتكفًا، لا راغبًا في مخالطة أولي الجاه والسياسة.

تيك الخاطرة لم يكن لي وقت لأدقّق فيها وأحقّق. تركت حبلها على الغارب حتى أتجرّد لما ندبتُ له نفسي: أعمالي الاعتياديّة، إسعاف العراقيين في المخيّمات والمباني، جولاتي في الجبال والأودية، تعليم الطلبة المتكاثرين، إضافةً إلى قضاء لحظات من حين لآخر إمّا بين بساتين عين سليمان المباركة، وإمّا في مقبرة باب المعلى صحبة مدافن بعض صدور السلف الأوّل؛ كما أنّي كنت لا أقصّر في تسقّط أخبار الأندلس والمغرب كلّما علمت بقدوم حجّاج أو معتمرين من هذين القطرين، وهي في المحصّلة أخبار ليس في زبدتها ما يثلج الصدر ويبشّر بالخير: المرتضى من متأخري الموحّدين الممسوخين يتقلّص سلطانه إلى مراكش وبعض الحواضر؛ المرينيّون من زناتة، ضعيفو الأصالة المذهبيّة، يحصّنون دولتهم مع أبي يوسف المنصور؛ أمّا الأندلس فقد استقرّ اندحارها في غرناطة وأعمالها، والخلق هنا بين عسف

إمارة النصريين وضائقات العيش، يصرفون الأيّام شاردين هلعين، ولا حول ولا قوة إلاّ بالخالق ربّ العالمين.

في ظهر يوم من منتصف السنة الموالية، نُقلت على عجل إلى قصر الأمير أبى نُمى رجاةَ أن أعالج جروحًا أصابته في منازلة سريّته لشرذمة أعراب ببادية مكّة. حين حضرت إلى سريره وفحصت عنه، ألفيته في شبه غيبوبة، مبرقعَ الوجه برضوض دلّتني على كسور صغيرة في مقدم رأسه ومؤخّرته. أسعفت المعطوب بالتنظيف والذرور، حتى إذا رمش قليلاً وتنفّس واسعًا طلبت من الخدم إحضار موادّ سمّيتها، فصنعت غطاء من الجبس أحكمته على رأسه الأصلع، أملاً أن ييسّر الرتقَ والالتئام بعد مدّة، ثم رمت الرجوع إلى مستقرّي وأنا أوصي الحاجب بضرورة خلود سيّدِهِ إلى الراحة التامّة أيّامًا سبعة.

كيف لا أكبر في أبي نُمى تواضعه للناس ورفقه بفقرائهم ومرضاهم، وكذلك قيادة جنده وإعطاءهم المثل في ساحة الشهامة والإقدام! أمير كهذا لم يعد له صنو وقرين في أندلس الملوك الخائفين الآفلين.

بعد أسبوع استحسنت أن أذهب للقائه وتفيّؤ أخباره. استقبلني للتوّ في ديوانه بحرارة بالغة أثارت انتباه حاجبه وأعوانه، وأنشأ يغدق عليّ عبارات الشكر والامتنان، فيما أنا أبدي له إشارات القبول والاستحياء، ثم إنّه نعت غطاءه الجبسي واستفسرني مبتسمًا:

ـ لزمتُ الراحة، يا ولي الله، كما نصحت، لكن هذه الخودة متى تخلّصني منها؟

ـ ليس قبل أن تفعل فعلها وأطمئن عليك يا مولاي... شهر على أقل تقدير.

ـ شهر وقابل للتمديد! لا.. ارحمني يا أخي واعتبر ثقل مشاغلي ومهامّي.

ـ لا شيء يمنعك من العمل، شريطة أن تعزّز الغطاء بعمامة أو قلنسوة، وتتجنّب مواقف القلق والاضطراب وركوب الخيل والمصادمة.

أطرق الرجل مفكّرًا ثم أمر الحاشية بالخروج. قال:

ـ الحكمة في ما تراه، لا شلّت يمينك، ووعظك لي أغلى من الذهب المسبوك، وليتك تجود به عليّ في شؤون أخرى، أعلاها الديانة والسياسة والتدبير... هذي بغداد دمّرها المغول، وخلافة بني العبّاس تلفظ أنفاسها الأخيرة. فهل نحن إذ نحتمي بالمماليك للتخلّص من قهر التتر نشبه المستجير بالرمضاء من النار، أم أنّك، يا حبيب الله، ترى غير ذلك؟

قدّرت أنّ الأمير لا يخفى عنه الجواب الصائب، فحسبت أنّ سؤاله إنّما هو لاختبار درايتي بالسياسة وواقعات العصر، قلت:

ـ حديد المغول، أيّدك الله بعلمه، لا يفله إلاّ حديد المماليك. قائدا هؤلاء، المظفر سيف الدين قطز وصنوه القائد

الظاهر ركن الدين بيبرس، قد برهنا على علوّ كعبهما في الدفاع عن بيضة الإسلام ودياره، كما فعل من قبلهما مغاوير السلاجقة والأيوبيين، فلا مناصّ من التعويل على المماليك في ردع أخطار هولاكو وجحافله. والأمر، فضلاً عن معقوليّته، مسوغ شرعًا من باب أن لا حكم إلاّ للأصلح، ولو كان عبدًا معتوقًا ذا زبينة؛ وكما جاء في خطبة حجّة الوداع المجيدة: «*ليس لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود فضل إلاّ بالتقوى*»؛ وغير هذا كثير في القرآن نص النصوص وفي الأثر.

لمحت على مخاطبي بوادر عياء بيِّن. استأذنته في الذهاب متعلّلاً بوجوب انقطاعه للعبادة والراحة، فانصرفت مشيّعًا بكلمات تأييده وأدعيته.

قبيل انتهاء الأسبوع الأوّل من رجب، سلّمني ياسر اليمني رسالة من الحبيب الششتري تلقّاها من تاجر فاسي وهو في طريقه إلى بلاد الحجاز والشام. قراءتها نزلت عليّ يمنًا وسلامًا، إذ طمأنني باعثها على أحوال زوجتي وحمادة المستقرّين الآن في طنجة، كما أنبأني باقتراب موعد لحاقه بي بعون الله ومشيئته. . . في عصر هذا اليوم الأغر، بعيد الصلاة، زارتني الستّ أمامة صحبة ناظر الدار، فأظهرتُ لهما فرحي وابتهاجي بأنباء الرسالة الميمونة، فشاركاني مشاعري بالتودّد والتبريك، فيما الخادم غيلان يتفانى طربًا في تزيين مائدتنا بالمشروب والمأكل. سألت الست عن حالها، أقرّت باسمة أنّها بخير والحمد لله، كما لو أنّ عدوى مسرّتي انتقلت إليها وغشيتها تمامًا؛ ثم كان بيننا كلام في

الحبّ الإلٰهي عند رابعة العدويّة وفي الفناء والبقاء قيد تجربة الحلاّج. وحين دنت صلاة المغرب ودعتني متأثّرة متحنّنة، فهرعت إلى المسجد الحرام للوضوء والصلاة.

في مطلع شعبان صبيحة يوم الاثنين قصدت أبا نمي بطلب منه في إقامته الأميريّة، فاستقبلني بحفاوة بالغة وترحيب. وما إن جالسته حول مائدة ملأى بالأطعمة حتّى نعت لي غطاءه الجبسي مستعطفًا. أردت ممازحته فقلت مبتسمًا:

ـ لا بأس يا مولاي من أخذ شهر آخر حتى تأتي الخوذة بكل أكلها. . .

قاطعني قلقًا وصاح:

ـ أُكلها، بل قل، يا ابن دارة، حتى يعشش القمل تحتها في ما تبقّى من شعري.

ـ إذن أبشر! الفرجُ آت لا القملُ بعون الله!

أشرت عليه بالتمدّد على أريكته، وأمرت خادمًا بإحضار سوائل سمّيتها. مترفّقًا، حاولت بدءًا خلع الغطاء فلم أتوفّق، همست في أذن المستلقي أنّ التاج يأبى أن يشقّ عصا الوفاء والطاعة، فأجاب مازحًا: بل مُرْهُ بالعصيان. عندئذ بللت مداره بالماء الدافئ حتى إذا لان وارتخى، أزحته بتؤدة وشرعت أمسح الرأس كلّه بمناديل قطنيّة مغموسة في الأثير. تبيّن لي أنّ الكسور قد التأمت تمامًا، فدهنتها بزيت الخروع وضغطت عليها بيدي من

دون أن يشعر الأمير بأيّ ألم، وحينئذ باركت له شفاءه فجذبني إليه مقبّلاً شاكرًا، ثم استوى في جلسته وتنفّس الصعداء واسعًا، فيما خادم يرشّني وإياه بمزهريّة وآخر يطعم مبخرة ضخمة بالعود القماري. قال:

ـ الآن يا مخلّصي وطبيبي، ادعُ الله لي أن يقوّيني على تدبير شؤون المدينة وحلّ ما ظلّ منها عالقًا... لما حدّثتني منذ شهر عن القائدين قطز وبيبرس ونوّهت بهما، كان جيشهما بعدّته وعتاده أكمل تحرّكه إلى فلسطين وتجمّع معظمه في عين جالوت ببادية نابلس... هل كنتَ تعلم بهذا؟

أومأت بالنفي وأفصحت مستغربًا:

ـ كيف لي أن أعلم وأنا أتيت مكّة مجاورًا ولا ناقة لي ولا جمل في أمور السياسة بله العسكر!

ـ إذن هو صوت البصيرة الثاقبة أنطقك بالحقّ وعرّفك على ما يجري! معركة عظمى حاسمة بين المماليك والمغول يستعدّ لها الطرفان على قدم وساق، ويحشدون لها كل قواهم من مشاة وخيّالة ورماة. لا دعاء لأهالي مصر والشام والحجاز إلاّ أن يحدّ الله البلاء التتري المسلّط بنصرة المماليك وأحلافهم.

ـ اللّهم آمين يا ربّ العالمين... أهون الشرّ أن ينتصر هؤلاء، ولو أنّ في هذا ما سيقوّي قبضتهم على بلاد الحجاز ويحرّك يدهم الطولى إلى جهات وأقاليم أخرى، كما هي سُنّة أقوام الظافرين المتغلّبين...

سكتُّ فجأة حتى أستدرج الأمير إلى البوح بمخاوفه من سلطان المماليك وقوّتهم، فسمعته يقتضب الكلام ويدغمه.

ـ اقتناعي أنّ الأشراف لن يصيبهم من هؤلاء أيّ أذى، ولو ملكوا وحلّوا محلّ الأيوبيين الآفلين.

ـ أدعو الله العلي القدير أن ينشر على عباده أجمعين ألوية السكينة والسلام، ويجنّبهم سبل البغضاء والحسيفة.

اكتفيت بهذا الدعاء وجليسي يردّد آمين، وأضمرت ما في نفسي وتستّرت، تاركًا للأيّام شأن الكشف عن مخبّياتها ومناحيها، وإبداء ما لا بد من وقوعه وجريانه. لكنّ امتقاع وجهي بسمات التحفّظ والارتياب لم تخف عليه، فسألني بصوت حميميّ خافت:

ـ أناشدك الله وحرمة آل البيت أن تسرَّ إليّ بما يقلقك... هل هو صنو ما يقلقني؟

ـ وما ذاك، يا مولاي؟

ـ أن يتعلّق المماليك كسلفهم بوهم الخلافة العبّاسيّة ويحيوا رسومها وهي رميم...

ـ هذا عين ما أخشاه. تلك الخلافة منذ زمان ولّى انقرضت قوّتها وخبت جذوتها، ولو تشبّثت دولة من هذا العهد بأهدابها فلحاجة مخصوصة في صدرها تريد قضاءها، كالتسلّط والاستقواء بغطاء الشرعيّة والمسوغات السنيّة المعروفة.

ـ إذن وقع الحافر على الحافر، وطابق دربك دربي... عيّن

لي، يا وليّي أيّ دولة، ولو من المغرب، تتوافر فيها شرائط القوّة والإمامة حتى أبايع صاحبها على الخلافة.

لم أبدِ أيّ حيرة أو تردّد فقلت:

ـ لا أرى في زماننا هذا سوى دولة الحفصيين في غرب بلاد الإسلام، وهي وريثة دولة التوحيد، وسليل دوحتهم العليّة. ولو تعزّز عضدها ببيعة مولاي واقتدى بك أشراف الجزيرة وشيعتهم، إذن لتضاعف جاهها وعظمها، ووحّدت خلفها شعوبًا وبلدانًا لنصرة الأمّة على الإفرنج في المشرق كما في أرض الأندلس السليبة.

ـ حرّر لي، نوّرك الله، كتاب البيعة أرسلْه بالبريد العاجل إلى المستنصر ابن أبي زكريّا الحفصي، وما التوفيق إلاّ بالله.

لم أجب بشيء حتى أظهر أنّي محتاج إلى المزيد من الرويّة والتأمّل، بعيدًا عن الاندفاع والتهافت. ثم كان بيننا حديث ودّي في أحوالنا الشخصيّة وسيرتينا، فتبيّن لي أنّ الأمير يعرف عن سلوكي وصفاتي شذرات ترجّى منّي أن أغْنيها بإطلاعه على مصنّفاتي. وقبيل صلاة الظهر استأذنته في الذهاب فشيّعني إلى الباب وهو يهمس في أذني: «لا تنس الكتاب المطلوب، ولا تبخل عليّ بالزيارة». قطعت ردهات القصر وأبهاءه بين حارسين، وعيون أكابر الحاشية والأعوان ترمقني وتتبعني بنظرات زهدتُ في الاكتراث بها وتأويلها.

*

قضيت ما تبقّى من أيّام شعبان في الاهتمام بطلبتي المتزايد عددهم وتدريس أصول الدين وأخلاق التصوّف، إضافة إلى تفاريقَ وتنويعات أعالجها على ضوء أسئلتهم واستيضاحاتهم. وأخذت أعقد لهم الحلقات في مكتبة دار سكناي أو في رابطة الموفق، ومرّتين في رواق من المسجد المعظّم. والحقّ أنّي لم أجد بعدُ بين طلبة مكّة أندادًا لطلبتي في مرسية وسبتة، لهم ما لهؤلاء من فضول علمي وسعة أفق وقوّة تحصيل، وقد أستثني الست أمامة ولو أنّها أمست في المدّة الأخيرة غير مواظبة على الحضور.

لم أنس كتاب البيعة، بل قعدت له على نحو متقطّع، أحرّره شذراتٍ وتفاريقَ في انتظار حلول وقت الجمع. اخترت من الآيات المناسبة المساوقة ما جاء في مطلع سورتي الفتح والدخان؛ وفي الأثر وجدت سندي عند مسلم إذ قال: *«قال ﷺ: يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعد. زاد أبو العبّاس الهمداني، وأشار بيده إلى المغرب»*. وأوردت بعض كلام بهاء الدّين التبريزي في ملحمته: *«إذا خرجت نار الحجاز يُقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب وتنبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العبّاس، ويكثر الدرّ بالمعبر من بلاد الهند»*. وللتدقيق والتخصيص في حقّ المستنصر سجّلت: *«ذكرت هذا ليعلم المقام أيّده الله أنّه هو المشار إليه، وأنّه الذي يُعوّل في إصلاح ما فسد بحول الله عليه. لا خليفة لأهل الملّة في وقتنا غير الذي قصدناه»*. كما عيّنت بالاسم دولة التوحيد و*«إنسانها الأعظم مُعلي الموحّدين على الملحدين وقائم الدّين وقيّمه ومقرّ الإسلام*

ومقدّمِه، القائم بالدعوة العامّة بعد أبيه إمام المجد والفخر». وكان لابد من تمجيد آل البيت في شخص عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فنسخت كلمات الهذلي في حقّه: *«هو الإمام وفيه أربعة وهو واحدها حتى في رفع التشبيه وقطع السبب، العلم والحِلم والشجاعة وفضل الحسب».* وفي تدفّق الخاطرات وتدافعها وضعتُ واحدة قيد التأمّل والمداولة لما فيها من جراءة وجسارة بالغتين حدّ المخاطرة بالنفس في مستقبل الأيّام المنظورة، كتبت: *«ولعلّ الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه، يجبره من المغرب ولا ينقله عنه، فينبغي لمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله، وبما يجب كما يجب أن لا يتغيّر قصده ولا يتوقّف عند سماع الملكات حمدُه، قد قيّدت أقدام قوم بشرك الشرك، وحملهم الضجَر إلى الهلك بطاعة الترك».*

لمّا أشرف شهر شعبان على نهايته كنت قد أتممت تحرير كتاب البيعة كاملاً، كثّفت فيه المعنى وأحكمت المبنى، من دون أن أشطّب أو أليّن ألفاظ بعض فقراته الحادّة الخطرة، وحرصت على تعيين مكان كتابته: تجاه الكعبة المباركة في الجانب الغربي من الحرم الشريف، على أن يرسم المرسل التاريخ وطابع خاتمه، ثم وضعت الكتاب تحت مخدّتي في انتظار أن يطلبه منّي مجدّدًا أبو نُمي.

أمّا رمضان الفضيل، منذ هَلّ هلاله حتى متمّ ثلثيه فقد قصرته على الاعتكاف في بيتي أو في جوار الكعبة أو داخل غار حراء المبارك الأمين. وفي أيّ من هذه الأمكنة حللت، وعلى أيّ هيئة

كنت، لا بحث لي ولا استغوار إلاّ في ما أتقصّده وأندب له نفسي: أن أبلغ درجة المقرّبين من واجب الوجود، فائضِه، دائِمه، أحقّه، الذي هو الله فقط. ولي في هذا سند التحقيق، به أتريّض وأرتقي مسالك التجوهر بالأسماء الإلهيّة الحسنى، المطلقة والمثلى. وارداتي القوليّة من وحي خلواتي المتاحة دأبت على نسخ بعضها في صفحات وهميّة بالقلم المذكور أعلاه، مع فارق هذه المرّة، هو أنّي حفظت عن ظهر قلب نصًّا ما لبثت أن نسخته في بيتي تحت عنوان: «رسالة في أنوار النبي».

بضع ساعات قبيل الاحتفال بليلة القدر، أرسل الأمير في طلبي، فخبّأت الكتاب والرسالة في كمّي وسرت إلى لقائه؛ فما إن استقبلني حتّى سألني قلقًا عن الكتاب، استوضحته متغابيًا:

ـ أيّ كتاب يا مولاي؟

ـ ويحك! كتاب البيعة يا ابن دارة.

ـ عفوك... لقد أنساني الشيطان أن أعطيكه. هو ذا ومعه رسالة في أنوار جدّك المصطفى، هي أيضًا من وضعي وبخطي.

استوى الأمير في جلسته وقرّبني منه، ثم عكف على القراءة بصوت خافت متأثر. ولمّا فرغ جذبني إليه وقال:

ـ أفدت وأجدت وبلغت النُّهى، لا جفّ قلمك. الكتاب لا يحتمل الزيادة ولا النقصان، أبايع فيه الحفصي المتلقّب بالمستنصر على الخلافة؛ والرسالة أبايعك بفضلها على الولاية، فكن لي منذ الآن شيخًا ووليًّا.

منعني عن الكلام انفعالي وانكباب مريدي الجديد عليَّ بالعناق والتقبيل فقدومُ الحاجب معلنًا دنوّ صلاة العشاء. نهض جليسي للتوّ واستتبعني في زمرة الأشراف والأعيان، حتى إذا أدركنا راجلين المسجد الحرام صلّينا مع الجماعة. ثم كان إحياء شعائر ليلة القدر المباركة بخطبة الإمام وتلاوة الأوراد والأمداح النبويّة، والزمزمي بين الفينة والأخرى يرفع عقيرته بالدعاء للأمير وآل البيت وكافّة المسلمين، وكل هذا وغيره كثير يجري في جوّ قدسي بهيج، تضيئه المشاعل والقناديل، وتنعشه المزهريّات والأبخرة الزكيّة. وأنا فيه متوجّه بكياني وجوارحي إلى السماء المفتوحة للأدعية المستجابة، لا دعاء لي إلاّ أن يحفظ الله فيحاء حياتي ويقيَني من ورطات الدنيا وسوء المنقلب والعاقبة.

مع حلول عيد الفطر كلّفت ياسر بإخراج زكاتي ثم استحسنت أن أبارك للأمير بعد صلاة الجماعة. في قصره العامر، اختلى بي هنيهات، أخطرني أنّ وفدًا من لدنه يوجد في طريقه إلى تونس قصد تقديم كتاب البيعة إلى المستنصر. حمدت السعي وأثنيت على الآمر به، ثم التحقنا بالمحضر حيث دار الحديث مع بعض حاشيته وأعيان الوافدين الشاميين حول أخبار المصادمات والمناجزات بين الجيشين المغولي والمملوكي، وتفوّق هذا على ذاك في الهمّة القتاليّة العالية كما في جودة الخطط والخبرات الحربيّة. وكان أبو نمى شديد الاهتمام بمعرفة توقّعي لمن تكون له الغلبة، فرجحت كفّة المماليك، وشرطت ذلك بصحّة أخبار المعارك وانتفاء ما ليس في الحسبان. كان هذا رأي الأمير

والجماعة، لكنّ الذي نبّهت إليه هو أنّ كرسي السلطة لا يتسع للقائدين المنتصرين، فلا بدّ أن يتنحّى أحدهما طوعًا، وهذا مستبعد، أو أن تناله يد النفي أو الاغتيال حتى يخلو للآخر وجه الحكم ويستبدّ به. ارتفعت بعض الأصوات منوّهة بقطز ومناقبه الحميدة، وتمنّت بأحرّ الأدعية أن يؤول السلطان إليه. عاكست أصحاب هذا المذهب وادّعيت أنّ حظوظ بيبرس في الانفراد بالكرسي أوفر وأرسخ لكون سجلّ إنجازاته في مصر ضدّ الإفرنج أحفل؛ فهو الذي هزمهم في المنصورة وأسر مَلِكهم ولم يسرّحه إلاّ بفدية، أمّا سيفه فإنّه في الفتك بأعدائه ومنافسيه أمضى وأسرع، حتى سمّاه العامّة والخاصّة «أبا الفتوح»؛ هذا فضلاً عن دهائه الخارق ونفوذه الواسع في دائرة السلطة والعسكر... وحين انفضّ الجمع، مال عليَّ الأمير قبل أن يودّعني وقال: «زعمك، يا ولي الله، لو صحّ ألزمني أن ألبّيَ لك ما تريد، وإن لم يصحّ سيكون لي عليك دين». أجبته هامسًا متلطّفًا: «هذا قمار لا يجوز»... فكّرت في طريقي إلى المسجد الحرام أنّ رأيه الثابت في قرارة نفسه مطابق لزعمي ونظير، وإنّما الرجل يخاتل حتى يستدرجني إلى مطالبته بعون أو خدمة.

في الدار قاسمت ياسر وغيلان وبعض النزلاء غداء العيد، وشاركتهم الحديث في ما طاب لهم من الكلام، بعضه في أمور الدنيا وبعضه في شؤون الدين. وقبل التحاقي ببيتي سلّمني الناظر بطاقة مختومة من الستّ أمامة تبارك لي فيها بالعيد السعيد وتنبئني أنّها ذاهبة للإقامة في المدينة المنوّرة حتى تصفوَ لي ذكرى

محبوبتي وتتحرّر خلوتي من أيّ شائبة أو لاغية. وختمت برفع عقيرتها بالدعاء المستفيض لي ولزوجتي، ثم سجّلت عنوانها الجديد مشفوعًا بآيات المحبّة والإكبار. ولا أخفي أنّي شعرت مع إنهاء القراءة بنغص في كبدي وقلبي أو قل بقشعريرة أكيدة.

في مطلع ذي القعدة عاد ابن برطلة رئيس الوفد الأميري من تونس، فوصف لي متحمّسًا وقائع استقبال الخليفة لبيعة أهل البيت ومُقدَّمهم المعظّم، وما صاحب ذلك من خطب في المساجد واحتفالات، دعي إليها الملأ والخاصّة، وختم الرئيس بالجزم أنّ ذلك اليوم كان يومًا مشهودًا؛ ثم تلا عليّ فقرات من رسالة الحفصي في تبجيل الأشراف وتمجيد أميرهم... وفي أواخر الشهر نفسه تأكّد انتصار فيالق القائدين قطز وبيبرس في عين جالوت، وكذلك اعتقال القائد التتري التنبغا وقتله وفرار عسكره خارج الشام وبلاد الرافدين. عمّت أجواء الفرحة مكّة ومدنًا إسلاميّة كثيرة، وتنفّس الناس الصعداء، حامدين الله كثيرًا وشاكرين على أن يسّر الفرج بعد الشدّة، وأزال أهوال المغول بأيدي عبيده المماليك، ودعا الزمزمي والخطباء والحجّاج لهؤلاء ولقادتهم الأشاوش بخير دعاء.

لم تمض على ذلك الانتصار المشهود أيّام قلائل حتى حصل ما حدسته وتوقّعته: بيبرس يتسلطن وينفرد بالحكم بعد أن اغتال غريمه قطز، مضيفًا إيّاه إلى سجلّ صرعاه، يتقدّمهم منذ عقد خلا الملك توران شاه الأيّوبي، ولا غالب إلاّ الله.

* * *

ـ ١١ ـ

يوم أسجّله بماء الذهب: العاشر من ذي القعدة ستمائة وستّين، في عشيّته لحق بي الناظر ياسر في غرفتي وألحّ عليّ لاهثًا أن أصحبه لتمتيع عيني بمن يحبّني وأحبّه. سرت خلفه متهيّبًا وأنا أفكّر أنّ الأمر قد يتعلّق بالستّ أمامة، لكن ما إن فتح باب غرفة محاذية للحديقة حتّى رأيت الحبيب الششتري مستلقيًا على فراشه. استوى جالسًا بجهد جهيد، فتعانقنا عناقًا حارًّا وذرفنا الدموع السواجم. بكيت مثله كثيرًا من شدّة فرحي لرؤيته بعد فراق وغيبة، وأيضًا لإشفاقي على صحّته الآيلة إلى السوء والتدهور، لا شكّ من جرّاء إصابته بجروح بليغة في جهاده الميمون ضدّ أجناد الإفرنج بدمياط. سألته بدءًا عن أحواله، أجاب بصوت متهدّجٍ منهك:

ـ وحقّ الحقّ، يا وليي، ما نخع الحزن نفسي إلاّ لبعدك، ولو أنّي عاشرتك مرّات في منامي وناظرتك، ووقفتُ في الشعر عند ذكرك، خاشعًا متأثّرًا. . . حال حرمك وأهلك بطنجة هي، كما أخبرتك في رسالتي، بخير والحمد لله، لا يتطلّعون إلاّ إلى عودتك بينهم والنظر إلى وجهك النيّر، بعد أن تنقشع غيوم أعدائك والمتربّصين بك الدوائر. . . أمّا طلبتك فما حصل لي من أخبارهم نزر يسير لا يفيد اليقين.

ـ وحالك أنت، يا أبا الحسن؟

ـ هي كما ترى بعينك البصيرة، والمؤمن مصاب. قد وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيبًا، واحتاج الجسم في مشيه إلى عكاز؛ إنّما الهمّة على غرار همّتك، ما زالت عالية العريكة والشأن، والشكر لله.

دعوته ملحًّا إلى أخذ نصيبه من الراحة والنوم، كيلا أرهقه أكثر بالكلام وفيض السؤال، وأوصيت غيلان بالسهر على صفاء إقامته وقضاء حاجاته. وفي يوم الغد لم يفق الولي من رقاده إلاّ وقت الغروب. وبعيد صلاة العشاء عدته فألفيته أحسن حالاً وأقدر على الجلوس والمحادثة.

أقبل علينا غيلان محييًا، وضع على مائدتنا بعض الطعام، سألته إن كان يبغي الحجّ في هذا الموسم، وفي قصدي أن يصحبني وجليسي إليه بعون الله، فبرقت عيناه فرحًا وأجاب أيْ نعم ثم ذهب.

ـ بعد طول غيبتي عن هذه الديار، شوقي عظيم إلى أداء الفريضة والوقوف على عرفة، يا أخي. ما أجمل أن يكون حجّي الأخير في رفقة حبيب مثلك.

أجبت أبا الحسن برفق وتطمين:

ـ إذن سنحجّ معًا وحجّنا يكون له ما بعده إن شاء الله.

صلّينا العشاء معًا في السطح، ثم تحت سماء مزيّنة بالكواكب اللألاءة، قعدنا نتحادث لمامًا في ما بدا لنا قمينًا بالتبليغ. أنبأني

بثبوت موت ابن خلاص، والي سبتة، غرقًا خلال فراره إلى تونس، وشدّد على استبداد خليفته وفساده، لا يعدله في السوء إلاّ والي طنجة الأجلف الجهول؛ والسلطان الموحّدي الآفل قد نفض يديه من شؤون الأندلس تمامًا؛ همّه، كل همّه، أن يحمي مدنه المتبقّية من قوّة بني مرين المتنامية. . . استلطفت الله معه كثيرًا، ثم أخبرته عن الست أمامة وطلبتي المكيين وعن اجتماعي بأبي نمى وتوسّمي الخير فيه. شاطرني شعوري هذا وأكّد لي ما كنت أشتمّه عن تشيّع هذا الشريف وعطفه على أهل الخرقة والطريقة، ثم أبلغني محتشمًا أنّه تزوّج في بجاية وليّة فاضلة ما أحوجه اليوم إلى أنسها وإسعافها. باركت له في قرانه ودعوت له ولعقيلته بالهناء والصحّة.

ثمّ واللّيل يتقدّم بنا، ذهبنا إلى الكلام عن بيبرس وهزمه للمغول، واستقرّ رأينا على أنّ هذا السلطان لن يهدأ له بال إلاّ بطلب الخلافة في ظلّ أعقاب العبّاسيين، معوّلاً في هذا على فقهاء الحشو والفروع، ذوي الصدور الضيّقة والجمود على الموجود. مع هؤلاء سيفرض المملوكي الصالحي مذهب السنّة وينشره بأسنة الرماح وحدود السيوف، أو كما قال أبو الحسن بتخريج لطيف: سيمعدن السنة ويعسكرها. وتساءلنا مستلطفين مسترحمين لماذا كلّما برز خلفاء أفذاذ أو قوّاد أنجاد إلاّ ومالوا بالدين إلى العسر والقبض، ثم أدخلوا السجن أو صرعوا كل الأحرار المتنسّمين من روْح الله وريحان اليسر والبسط. واستحضرنا معًا أسماء القتلى من المعتزلة وضحايا هؤلاء إبّان محنة خلق القرآن. وذكّر أبو الحسن متأثرًا بأبي منصور الحلاج المصلوب، وسقتُ حالة شهاب الدين

السهروردي المقتول، وفي نيّتي أن أستفسر جليسي عن هاجس يساورني من حين لآخر، قلت:

ـ حفظتُ، يا أبا الحسن، للسهروردي قولته: *«إن كان في الوجود ما لا يحتاج إلى تعريفه وشرحه فهو الظاهر، ولا شيء أظهر من النور، فلا شيء أغنى منه عن التعريف»*، انتهى. وبناءً على هذا وخلافًا له، يكون الظلام، وفيه يندرج استشهاد شيخ الإشراق، أوسع من أن يحيط به تعريف، بحيث يستحيل الانتهاء من حدّه وتحديده، ومن الإخبار عن آماده وأبعاده.

خصّني رفيقي بنظرة ودّ وتأمّل، كأنّه فطن إلى ما أقصده أو يحثّني على الكشف والإيضاح. أردفت مقتضبًا:

ـ الموت، يا أخي، هناك الذين يتحدّثون عنه على نحو مجرّد متعال، مستعملين بالأحرى مجازات من صنف الرحيل وقضاء النحب والانتقال إلى جوار الرب، معتبرين مصيبته تحت مقولتي «يُمهل ولا يهمل» و«إذا عمّت هانت»، وهناك الذين يجعلون الموت مسألة محاطة بالحشمة والحياء، أو شأنًا خاصًا عصيًّا على الكلام والجدال؛ ثم إنّ هناك الذين يصرفون فعل الموت مضارعًا بضمير الأنا وحرف التنفيس والاستقبال، بعضهم يغشاهم الخوف والرعشة، وبعضهم تعلوهم ضحكاتُ التسيّد والتحدّي. أمّا أنا، حول هذا الفصل، فلم أكن أستقرّ على رأي، أو قل إنّي بالأحرى، حسب الظروف والأحوال، كنتُ أمرُّ من فريق إلى آخر كرحّالة جادّ متقلّب... هكذا كان دأبي من قبل إلى أن أخذ الخوف من موت مخصوص يخالجني منذ مدّة، موت يصعقني

غدرًا على يد الملك الظاهر بيبرس، كما صعق، مع وجود الفارق، السهروردي قتيل صلاح الدين الأيّوبي... ﴿*كل نفس ذائقة الموت*﴾، لكنّي أدعو الله أن يقيني موتًا رديئًا تعاجلني به قوى القهر والحسيفة...

أطرق المنصت مفكّرًا ثم غمرني بنظرة رقيقةٍ حنون، قال:

ـ جُعلتُ فداك، يا وليّي. والله إنّي رأيت ملك الموت يقبض الأرواح من حولي بالجملة، ويواجهني متوعّدًا: «قريبا تأتي نوبتك». وفي معركة دمياط، كنت في كل طعنة أعطيها أطلب الشهادة وأتمنّاها، فلا تستجيب لي ولا تأبه، كأنّما عزرائيل راغبٌ عنّي أو يسوّفني. وها أنذا أمامك حيًّا أرزق ما أزال، ولو بجسم سقيم منهار، لا أدري على أيّ وجه وبأيّ يدٍ يأتي أجلي. وعلمي الأوحد في قوله تعالى: ﴿*ولن يؤخّرَ اللهُ نفساً إذا جاء أجلُها*﴾.

أومأت بالتصديق والمصادقة مستحييًا ممّا ذهبت إليه، فوافق قيامه قيامي وأمره أمري: «والآن هيّا بنا إلى حيث نتطهّر».

قصدنا البيت العتيق، فجدّدنا الوضوء وصلّينا النوافل بين جموع المؤمنين، ثمّ انتحينا ركنًا تهامسنا فيه بما تيسّر من الأوراد والأذكار، وبعدها رجع كل إلى ذاته وسكون نفسه، ولا أستبعد أنّ صاحبي كان مثلي يتدبّر شؤونًا سَنيّة نفيسة، كهيام إبراهيم الخليل إمام الموحّدين، ودموع هاجر أمّ إسماعيل وأمّنا، أو لربما يقيس، مثلي، تحوّلاته وأثار مرور الزمان عليه. وظللنا على حالنا حتى مطلع الفجر وأداء صلاته.

لمّا حلّ موسم الحجّ بكرت مع أبي الحسن إلى منىً بعيد التروية، يصحبنا ثلّة من أتباعه والخادم غيلان. تناوب هؤلاء على تيسير أداء رفيقي للمناسك المعلومة، وتكشّف بما لا يقبل الشكّ أنّه أضحى منهك القوى والهيكل، ولو كان يجهد نفسه في إظهار عكس ذلك فيتعب أكثر. أدعيته تحت الميزاب وعلى عرفة كانت من الخفوت الشديد بحيث لا يدركها السمع بلهُ الفهم.

مع انتهاء الموسم، حمدت الله أن أبقى وليَّ الحبِّ والجود على قيد الحياة، وأمدَّ في عمره وأنفاسه... في بيته استراح أيّامًا، تلقّى خلالها زيارات طلبتي وأحبابه. وحين مالت حاله إلى بعض التحسّن بات يعقد لهؤلاء في سطحي حلقات التجويد والإنشاد. كنتُ والحضور نستمتع بتحفه الشائقة الرائقة أيّما استمتاع. إذا جوّد سورتي «النور» و«الرحمن» وأورادًا بصوته الجهوري الرخيم، اقشعرّت أبداننا وارتأدت، وفاضت الدموع في المآقي وعلى الخدود والشفاه؛ وإذا أنشد أزجالاً في المدح النبوي وأحاديث قدسيّة، كما فعل مرّة في لقائي معه بالقاهرة، صار الجمع، كل حسب طاقته وموهبته، يصحبه إمّا بالصوت وإمّا بالتصفيق الخفيف أو بالنقرات الطبليّة والطستيّة. وكثيرًا ما كان بعضنا ينجذب إلى رقص الحضرة وترديد «الله حيّ». وياسر وغيلان بين هؤلاء راقصان لا يشقّ لهما غبار... في حرمة هذا الجوّ المهيب البهيج كنّا نستحلي أوقاته ونتسربل بأنواره حتى مطلع الفجر وهبوبنا خفافًا منوّرين إلى الصلاة في المسجد المعظّم.

مثيلات تلك الحلقات كانت لنا أيضًا في وادي عين سليمان

على مسيرة يوم تقريبًا من مكّة، وفيه كوخ ابتناه أبو الحسن على شاكلة كوخه ببجاية؛ وادٍ تحيط به من كل جهة بساتين ومزارع أحدثها فلاّحون مغاربة من ذوي الخبرة والمهارة، فكان هؤلاء يعدّون للمناسبة صحونًا أغلبها من البقول، ويكرمون شيخهم الششتري وصحبه، وأنا منهم المقدّمُ المبرز، كما يسهمون أيّما إسهام في الذكر والرقص والإنشاد. في الهواء الطلقِ اللّيِّن بين الغروس والمشاعل والخيام، كانت الحلقات تزيد إلى بهائها بهاء وادٍ خصيب، حافل بالمشمومات العطرة والرياحين العبقة. وأبو الحسن فيها يستردّ عافيته وصحّته، أو لعلّه يعلو على هيكل جسمه إلى سماء الأنوار، حيث تسطع روحه كيانًا سنيًّا ونفَسًا قدسيًّا. وعند انتهاء كل حلقة وانفضاض الجمع مع انبلاج الصباح، كنت أراه يمرغ بدنه في التربة ثم يناجيني: «حنّت الطينة إلى الطينة يا حبيبي»، فأغمره بنظرات ملؤها الرفق والتطمين.

حلقاتنا بوادي عين سليمان أو بدار المكناسي كنّا نعقدها مرّةً في الشهر أو مرّتين، وبين مواعيدها المباركة تتوالى الأيام والفصول بشؤونها وشعائرها المعتادة. وكان يحدث أن يدعوني أبو نمى إلى الاجتماع به على انفراد بعد أن يقن من عزوفي عن حضور محافله وولائمه. يسألني عن أبي الحسن فأبلغه نتفًا عن حياته، وألحّ على حاجته الأكيدة إلى الخلوة والاستشفاء، يشاورني في أمور المكّيين وآل البيت وشروط تحسين موسم الحج فأقول ما يمليه عليّ عقلي، ثم في أقوم المواقف من الملك بيبرس فأُدلي بالنزر اليسير أو أطلب مهلة للرويّة والتفكير. . . أمّا أبو الحسن، حين أختلي به، فصرت بدوري أستفتيه في هذا الشأن الأخير،

فيأتي جماع رأيه أن أقتصد في الارتباط بشريف مكّة وشيعتها وأختفي في مكان آمن إذا ما حضر بيبرس مهيمنًا ورقيبًا.

ذات يوم معتدل الحرّ، تشوّق صاحبي إلى زيارة غار حراء، فرافقته ظُهرًا على بغلة طائعة عريفة، أوصلتنا إلى محيط جبل النور أوّلَ اللّيل. بادرت إلى ربط الدابّة وإعطائها العلف والماء، ثم حملت أبا الحسن المتعب إلى الغار حيث مكّنته من لحافه، وأشعلت شموعًا تأهّبًا للتحنّث على سنّة سيّد المرسلين وأسوة الموحّدين. وكذلك قضينا الليل حتى هزيعه الأخير، لا يغمض لنا جفن، ولا نتحادث عن الغار البدء والحجر الأساس إلاّ بلغة الإشارات والعين. وبعيد أداء صلاة الفجر كانت أوبتنا إلى دارنا، تشملنا شآبيب التأثّر البالغ ونفحات الفرح والقدس.

زيارات أخرى للغار المبارك، كما لوادي عين سليمان، كانت لي صحبة الششتري. هنا في هذا الوادي كنّا نبيت اللّيل في كوخه أو في خيمة، وخلال النهار يعرّفني بالفلاّحين المغاربة واحدًا واحدًا، بدءًا بكبيرهم حمّودة الزناتي، ويوصيهم بي خيرًا ولا يقصّر؛ ثمّ إنّه ينفق بلاغة العارف في إطلاعي على أنواع البقول والفواكه التي يمهرون في إحداثها، ولا عهد لأرض الجزيرة بها، فلا يسعني إلاّ أن أحمد للقوم الطيّبين فعلهم وأبارك فيه، فيجزلون الشكر ويترجّونني ورفيقي أن ندعوَ لهم ولذويهم بأحسن الأدعية، فندعو لهم بصوت واحد أو متناوبين.

في بساتين الوادي، صرت أيّام حمارة القيظ بمكّة أعقد لبعض الطلبة والأشياع بحضور أبي الحسن حلقات دروس في مسائل

يعرضونها عليّ أو أوعز بها إليهم، وأغلبها في فقه الأصول والتصوّف. كان موعد الحلقات بين العصر والمغرب، وبعضها يمتدّ إلى ما بعد العشاء، فنصلها بساعات عِذاب في الذكر والحضرة والإنشاد. وذات مرّة آثرت صرف الجمع إلى حال سبيلهم حتى أختلي بالششتري وأشاوره في أمر الملك الظاهر الذي أضحى طيفه مؤخّرًا يتردّد عليّ في المنام.

ـ أرى بيبرس، يا أبا الحسن، ينهرني مهدّدًا: يُروى أنّك، يا هذا، جدّفت إذ فهت: لقد حجر ابن آمنة واسعًا لمّا أن قال إنّي خاتم الأنبياء، فما ردك؟ أجبت: خاطرة ليست في مسطوراتي. لعلّي نطقت بها مصحّفة، أو لعلّها وردت عليّ كذلك بين سكرات الشطح أو الحلم، فلا حرج إذا نفيتها عند الانتباه والصحو! قال: بل الحرج عليك وقد شاعت عنك وذاعت. قلت: ذكرت لك السياق وصحّحت النص، فإذا بدا لك السبب بطل العجب. قال: ومن يشهد لك أنّك إنّما في النوم شطحت ولغوت. قلت: الله ورسوله. وأضفت: هل إذا حلمت أنّي أبغي قتلك عاقبتني بما حلمتُ؟ قال: وهل هذا ما تبغي؟ قلت: الحياة، أيّها الملك، إنّما هي أحلام، لا يعلم تأويلها إلاّ الله. قال: خذوه وانحروه حتى يتصفّى.

غمرني الششتري بنظرة عطف وحنان، قال:

ـ جُعلت فداك يا وليّي! عوض المنذرات تمثل في يقظاتك المبشّرات ترها في ليل غفواتك ونوماتك... السلطان المملوكي لو أتى مكّة طالبًا رأسك، فلا تفرَّ منه إلى الشريف أبي نُمى ولا

حتى إلى غار جبل ثور، المشهور أمره في إخفاء نبيّنا المصطفى، بل لذ بكوخي هذا وأشع خبر رحيلك إلى المغرب. تورية على سنّة رسولنا الأمين لا بدّ لك منها حتى تمرّ الجائحة وتفلت من البلاء الخطير. مغاربة هذه المزارع هم لك عضد وعصبة، لن يبيعوك ولو بمال الدنيا كلّها... قم يا ابن دارة نقصِد الصلاة في بيت إبراهيم الخليل.

هذا الحبيب كدأبه أبدًا ينهضني ويقوّيني. انتفضت للتوّ وقبّلته هامسًا في أذنه: «عين الصواب ما تراه، لا تربت يداك».

*

في أواخر السنة الثالثة من إقامة الششتري المكّيّة، بدت على الرّجل أمارات الصحّة والعافية، فصرت أقول له مباركًا: «هذا من فضل المبشّرات يا أبا الحسن»، ويجيبني ضاحكًا: «أو لعلّه حشاشة الروحِ الأخيرة»... وكان أن اهتبلها فرصة للسفر إلى المدينة المنوّرة مدّة شهر، ناهيًا إيّاي عن مصاحبته إليها لعلمه بعداء حاكمها لي. وفي موفى ذي القعدة عاد الولي إلى مكّة وقد تحسّنت صحّته أكثر وعلت فورة حماسه ونشاطه، فحثّني على مرافقته في أداء فريضة الحجّ لهذا الموسم. طاوعته على الرّحب والسعة ضمن جمع غفير من طلبتي وأتباعه. لكن ما إن أتممنا المناسك كلّها وعيّدنا ثم استقبلنا محرم السنة الموالية حتى أخذ صاحبي يعبر لي متحرّجًا عن اضطراره إلى المسير نحو بجاية، بدعوى أنّ زوجته المسكينة تترجّاه في رؤاه المناميّة أن يعود إليها على جناح السرعة والفور.

هل كان لي غير القبول والصبر موقفًا حيال حبيب يحنّ إلى بلده وأهله! ولو تيسّر لي أن أفعل مثله هل كنت أمتنع أو أتردّد! همست منشدًا بيتيه الرائعين وهو يصحبني: *«يا ليل طلْ أو لا تطل/ فرضٌ عليَّ سهَرك// لو بات عندي قمري/ ما بتٌّ أرعى قمرك»*

في منتصف صفر كان يوم الفراق الصعب. عزائي الأوحد أنّ أبا الحسن وعدني بالرجوع إليّ متى تيسّر وفي جعبته أخبار أهلي وأحبّتي، ثم إنّه حضّ الطلبة الأتباع على الاهتداء بي وإيناسي. وساعة انطلاق قافلته إلى بحر جدّة عانقت سريعَ الدمع بقوّة وهو يبثّ في أذني: «ما عقالك بأنشوطة، يا كعبة الحسن يا وليّي». وتقاطر الناس واحتشدوا لتوديع الشيخ الأجلّ بالأدعية الفيّاضة والعواطف الجيّاشة، وفريق خلفي، معظمه من المغاربة، ينشدون معي بأصوات صافية مؤثرة:

يا فقير اسمعْ ما تعملْ

تهْ على الأكوانْ وادللْ

ليس ثمَّ شيءٌ منك أجملْ

واقطعِ الأغيارْ وافهمِ الأسرار

وادخلِ المضمار وترى الماضي والآتي

أطيبْ ماهِ أوقاتي حينْ نكنْ مجموع مع ذاتي

جل بأفكارك واتنزّه

*

لم يخف عن أبي نمى نبأ رحيل الشُشتري عن مكّة، فما هي إلاّ بضعة أيّام حتى أرسل في طلبي بعد مغرب جمعة كان نهارها شديد الزمتِ والقيظ. استقبلني في مقصورة صغيرة ذات أثاث وفرش غاية في البساطة. وإخال أنّه أراد موافقة سلوكي وطبعي، فما دعا غيري وما أولم. مائدة قصيرة القطر ليس عليها إلاّ فواكه يابسة وألبان، هي ما وُضع بينه وبيني... فاتحني بالقول ووجهه المهيب تضيئه ابتسامة عريضة:

ـ إذا التقى وليّان، فالوالي والسلطان لاغيان... استأثر بك الششتري وانفرد واسعًا، وأنا لصرفك عمّا تحبّ وترضى لا حيلة لي ولا قوّة. لولا انشغالي الشديد بتدبير شؤون آل البيت والسهر على تيسير موسم الحجّ من رفادة وسقاية، ولولا خروجي في سرايا ضدّ اللصوص وقطّاع الطرق، إذن لجئتك طالبًا حقّي فيك ونصيبي من أنوارك.

أبديت للأمير حرجي من إطرائه بترديد كلمات التواضع والاستغفار، ثم خصّصت الحديث في أمر بعينه، قلت:

ـ جهادك، يا مولاي، ضدّ مدنّسي هذه الأرض الطاهرة، من نهّابين وسرّاق، لهو جهاد في سبيل الله. قوافل الحجيج من شتّى الأصقاع تجتاز إلى هذي الديار طرقًا وعرة محفوفة بالمهالك والأخطار، وما يصل منها يكون على أصحابها دفع المكوس

والإنفاقات الجائرة المرهقة، حتى إنّ فقهاء الأندلس للقرن الماضي أفتوا بإسقاط الفريضة، فلم يحجّ منهم أعيان المعرفة والفكر، كالقاضي الفيلسوف أبي الوليد ابن رشد وصاحبه ابن طفيل والفلكي البطروجي، وسواهم كثير. وقد حجّ ابن جبير، وهو رحّالة من نفس القطر والعصر، وعانى الأمرّين، فسجّل حنقه قائلاً كما حفظته: *«فأحقّ بلاد الله بأن يطهّرها السيف، ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل الله، هي هذه البلاد الحجازيّة، لمَا هم عليه من حلّ عُرا الإسلام، واستحلال أموال الحاجّ ودمائهم»* انتهى. تلك كانت الأحوال حتى عهد قريب، وهي اليوم آيلة إلى التحسّن بفضل جهاد أشراف الحجاز وكل المسلمين الأتقياء من طرازك وصنفك.

أطرق الأمير مفكّرًا ثم سألني:

ـ هل تعرّضتَ لمكروه في طريقك إلينا أو إقامتك بيننا؟

ـ لا أبدًا، وذلك بتيسير من الله وعون بطاقات الششتري وعناوينه، كما باحتماء قافلتي بسرِيّة أميريّة مسلّحة.

ـ وحقّ ربّ الكعبة لن يهدأ لي بال إلاّ أن أجعل من قدوم ضيوف الرحمن إلى هذي الديار حجًّا مبرورًا وسعيًا مشكورًا، يصحبهم الأمن والأمان في الحلّ والترحال. هذا وعد قطعته على نفسي، وفعل مثلي كل حكّام المدن الحجازيّة الأخرى، وما التوفيق إلاّ بالله... أمّا ما يقلقني حقًّا ولا أجد له مخرجًا فهو إلحاح السلطان بيبرس عليّ في وجوب بيعة أحد صنائعه، يدّعي أنّه من أعقاب العبّاسيين، سمّاه المستنصر بالله، نكاية في

الحفصي المستنصر الذي بايعته على الخلافة، كما دعوتَ وأوصيت. وأنا سليل آل البيت أربأ بنفسي عن نكث عهدي ولا أقبل بالنحل والتزوير ولا أرضى. فبماذا تنصح وتشير يا العارف بشؤون الدين والدنيا؟

صمتُّ قليلاً تظاهرًا بالتروّي، أجبت:

ـ الردّ الحكيم في طيّ كلامك النبيل. الثباتَ على العهد والصمودَ الصمود! مقامك الأشرف عليٌّ ولن تعلو عليه يد بيبرس ولو تطاولت.

ـ ليس على مقامي أخاف بل عليك أنت من بطش المملوكي. . . أنت منذ الآن في حمايتي أكثر من ذي قبل، فلا تبرح مكّة حيث انحصرت قسمتك إلى أجل غير معلوم. آمنك فيها بعون الله وليس خارجها، وإن إلى المدينة المنوّرة التي يتنمّر لك أولو الأمر فيها.

ـ أعلم ذلك مولاي، وزد عليه وزير اليمن الحشوي الذي يبغضني، مع أنّ سيّده يجلّني، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

ـ قد خلّصت ديواني ممّن هم على شاكلة الوزير اليمني الألكع، وعلى رأسهم حاجبي عبد المهيمن الخزرجي. كل من يعاديك يعاديني، وأنا له بالمرصاد، لا أضعف ولا أغفل. سيلزمك ثلاثة من حرسي الثقات، يحمونك ليل نهار، يأتونك بأخبار بيبرس وعيونه، يقونك من شرورهم بعون الله.

ـ أناشدك بمولى الأعمار والمقاليد كلّها أن تعفيني من الحرس

والمخبرين، وحجّتي أن في هذه الدنيا لا يملك حائن دمه ولا ينفع حذرٌ من قدَر.

ـ هذا صحيح من وجه يا وليّي، لكنّنا مأمورون بألاّ نرميَ بأنفسنا إلى التهلكة. الملك الظاهر سيأتي مكّة حاجًّا في موسم لا ريب قريب، سيكدّ في البحث عنك وإحضارك. وأنت تعرف الدعوى وتدرك السبب.

ـ يومذاك سأحترز وأحتاط... لي في بادية هذي المدينة المكرّمة مخابئ وملاذات...

ـ لكن أخصم منها الغيران المباركة المعروفة بله الأماكن الحرام. اختر لك ملجأً لا يعلم موضعه إلاّ الله، ولا تخرج منه إلاّ بعد زوال الخطر ورحيل العاصفة.

أذّن المؤذّن للعشاء وألحّ عليَّ مضيفي أن أؤمّ به الصلاة فلبّيت. لمّا فرغنا صاحبني إلى حديقته وسألني بين غدو ورواح عن أعزّ رغبة أريد نوالها فسكتّ. قال:

ـ أليس لحاق حرمك بك في هذي الديار هو ما تبغي؟

أجبت على الفور مندفعًا:

ـ بلى! لكن ما السبيل إليه والحيلة؟

ـ أوفدُ من يطلب للمستنصر ذلك. أحسب أنّه قادر عليه، وإلاّ فكيف تصحّ خلافته وتكون له البيعة عليها في المشرق والمغرب!

برقت في ذهني خاطرة غريبة تلمح إلى أنّ قضيّة كتاب البيعة لربما كانت مجرّد ذريعة توسّلت بها لقضاء حاجتي الدفينة إلى

استقدام وحيدتي وفيحاء حياتي. قلت مختاتلاً:

ـ أرى أنّه لا يحسن إحراج الخليفة بأمر دون مقامه، قد لا يحفل به ويعبأ. . .

قاطعني الرجل بصوت صارم:

ـ بل بهذا الأمر أضع هيبته في الميزان وسلطته على المحكّ. وحقّ ربّ الكعبة وخالق الذكر والأنثى لأفسخنّ عهد البيعة إذا ما ردَّ الحفصي شفاعتي وخيّب مسعاي. فوّضْ لي الشأن حتى نرى. . . والآن هلمّ بنا إلى وجبة العشاء. ذكّرته أنّي على مذهب الصوفيّة أؤثر المبيت على الطوى، ثم ودّعته وانصرفت.

*

آهٍ من ومض تلكم الخاطرة في وعيي! لكأنّي بها طفَتْ عليه منفلتة من سريرة معتمة أو ثنايا الكبت والإطمار. وها هي الآن منذ هذا الليل تؤوب إليّ مائجةً هائجةً مستنفرة، تحدث لي ظنونًا وتخمينات، لا أغالب اطّرادها وتناسلها إلاّ بالمبشّرات والخروجِ للصلاة والكلام مع الناس.

بعيد شهر ضرب لي الأمير موعدًا في مقصورته بالمسجد الحرام لإقراري في طلب لحاق زوجتي بي، فأقررت وباركت، ثم أدّينا مع الجماعة صلاة العصر، ودعاؤه في ختمها أن ييسّر لي الباري ما أريد قبل موسم الحجّ القادم.

* * *

- ١٢ -

شهور ثلاثة عشتها على أحرّ من الجمر، أتذكّر نصيبي من الدنيا وأهفو إليه. وبعدها بقليل بشّرني أبو نُمى فرِحًا مبتهجًا بنجاح مسعى رسوله إلى المستنصر، وخروج حرمي عمّا قريب في موكب القاصدين بيت الله من طنجة وغرناطة. دعائي الأوحد في صلاتي وقنوتي بات أن يرعى الله مسيرها إليّ، ويخفّف عنها من نصب السفر ووعثائه. سنوات حياتي في كنفها وعشرتها عادت تلمع في ناظريّ ووجداني صورًا نورانيّة تتماوج وتنمو باقاتٍ عطرةً فائحة، وأكاليلَ رائقةً شائقة، لي في ضمّها وشمّها طوال اليوم ما يقوّي النفس على حمل أعباء الانتظار.

مرَّ شهر ويزيد وأنا أقيس الوقت بخفقان قلبي في مدى شوقي وتشوّفي إلى زوجتي ومالكة مهجتي وفؤادي. بدا لي من المجدي أن أعزّز صبري بالإكثار من الاعتمار والوقوف في جبل الرحمة، أستنزل بالأدعية شآبيب الاستجابة وحسن المنقلب. وهكذا حرّرت «رسالة في عرفة» بحسب أقوال المذاهب والسنن، وعقدت للطلبة حولها حلقات أستجلي مظانها وأشرح مقاصدها من حيث إنّ الوقوف حكمة لا مجرّد عبادة، وعيّنت زبدة فكرتي في *أنّ يوم عرفة هو اتصالُ النسب، وقطعُ لواحق السبب،*

والخروجُ عن ذلّ الأعراض المهلكة، والدّخولُ في العالم الأعلى بالجوهر، ومشاهدة أول علامات الحدّ، والتعرّضُ إلى نفحات خيرات المطلِع حتى يُبصِر أو يُبصَر.

نسخ الطلبة الرسالة بأعداد فائقة، ووزّعوها على من صادفوهم من المعتمرين والمصلّين في فِناء المسجد المعظّم وبعض أبواب الحرم الشريف، فحصلت نسخ منها في أيدي فقهاء حشويينَ فروعيين، فقرأوها بعيونهم وأفهامهم الضيّقة، وقاسوها بآلاتهم القاصرة الصدئة، وتشنّجت عروقهم وأعصابهم، وثارت ثائرتهم، فقصدوا الأمير مشتكين متظلّمين، واضعين بين يديه الرسالة، مبرزين مقاطع زعموا أنّها من جنس المروق والتجديف. ولمّا اطّلع عليها المشتكى إليه، أمرهم بالكفّ عن سوء الظنّ بولي صالح، وشبّههم بالشخص الذي أذكره في الرسالة: يبصر من قصبة مجوّفة وتكون بحيث لا يبصر إلاّ المقابل لها ويكون ذلك في وقت واحد؛ ونبّههم إلى أنّ الإحن تجرّ المحن، كما نصحهم بسلوك اليسر لا العسر، والترقّي لا التقتير، فردّهم على أعقابهم متعثّرين خاسئين. . . أخبرني به من أثق به وتصحّ روايته، فزادني ذلك معزّة وتقديرًا لذي الشرف الأثيل.

عند حلول رجب، رجوت فيه حدوث العجب، عجبٍ لا أجمل منه ولا أحلى: مثول حرمي أمامي واحتضاني لها بالضم والتقبيل فيما شرع الدين وأحلّ. قضيت معظم الشهر لا يمرّ يوم من دون أن أغتسل في حمّام جمال الدين أو حمام الميّانشي، وأتطيّب وأرتدي أحسن لُبسي، تاركًا لياسر وغيلان مهمّة تنظيف

بيتي وإعداد عرسي، ثم أكتري جملاً وأقصد شمال مكّة حتى مرسى جدّة، أسأل عن رئيس الركب الذي فيه زوجتي، فلا أجد من يدلّ ويجدي. ظللت مثابرًا ما استطعت أبحث وأستقصي، وأعرّف صاحب زمام الحجيج باسم ضالّتي، وحين أؤوب إلى مسكني ليلاً خاليَ الوفاض تمامًا، يطغى عليّ القلق وأتجرّع من مائه الزعاق، فلا أغالبه وأداريه إلاّ بالمبشّرات والأحلومات والإدمان على الصلاة.

شعر ياسر وغيلان باضطراب حالي بعد أن علما ما بي، فنصحاني بلزوم الهدأة والراحة في بيتي على أن يتناوبا في القيام مقامي للتحقيق والتحرّي. وفي متمّ رجب الفرد هذا، أتى عجبه خبرًا صاعقًا وشرًّا لا يطاق. ففي منتصف النهار، دخل عليّ الرجلان بوجهين كالحين متجهّمين، يتبعهما جمع من الناس، فسمعت منهم نعي عقيلتي وكلماتهم في التعزية والمواساة. بدوت كمن بلع لسانه واسترط الحديد، لا بغير الإشارات والإيماءات أجيب. أمطرني رئيس الركب وعلاّمه بأخبار الرحلة ومصاعبها، وخصّصا القول في ما بذلاه من جهد مع النسوة لإنقاذ زوجتي من حمّى أصابتها وبلغت أشدّها في لهب بلدة عيذاب المشؤومة، لكنّ الله اختارها إلى جواره صحبة خمسة شهداء آخرين. سلّماني في الختم رسم الوفاة والدفن قبل أن ينسحبا مع الجماعة مسترحمين مستغفرين. وما إن غابوا حتى شهق بالبكاء غيلان وياسر، فيما أنا أحاول حلّ عقدة لساني وأجهد في حبس دموعي وردع دواري، ثم رافقاني إلى حديقة الدار التي أخذ يتقاطر عليها

المعزّون من الطلبة والمريدين، ومن أعرف من القوم أو لا أعرف.

بعيد الظهر، أقبل عليّ ثلّة من الأشراف يتقدّمهم أبو نُمى، فشملوني بالكلمات المناسبة المواسية. أمّا ياسر الذي تضاعف انفعاله بفعل قدوم الأمير والأشراف، فقد تفانى وأعوانه في استقبال المعزّين حسب التقاليد والأعراف. وقبيل أذان العصر خرج الجميع إلى المسجد الحرام في موكب أتقدّمه صحبة السادة الأعيان، يشدّ على ذراعي كبيرهم ويهمس لي بين الفينة والأخرى بعبارات حزنه وأساه. وبعد الوضوء وأداء الصلاة، نودي إلى صلاة الغائب، فقمنا لها في جوّ مهيب مؤثّر. لمّا فرغنا عبّرت لمرافقي المبجّل عن حاجتي إلى الراحة في بيتي. عرض عليّ مصاحبتي للتعرّف على قبر الفقيدة، وخيّرني بين موعدين فقلت خير البرّ عاجله، ثم تعانقنا قبل أن يذهب كل إلى حال سبيله.

في غرفتي استلقيت على مطرحي بعد أن أغلقت بابها. غلبتني الدموع فأجهشت بالبكاء الخافت، وفي علمي أنّي لن أداريَ به نفسيَ المكلومة وقلبيَ الكسير. سقمي في منتهاه، وسهادي مهيمن وما دونه غفوات خاطفة مرتجّة. كذلك ظللت يومين أو أكثر حتى أتى ياسر يطرق بابي ليتأكّد أنّي في عداد الأحياء وينبئني أنّ الأمير أرسل في طلبي. استحسنت النهوض والقيام بحقوق الطهارة والصلاة؛ ثم غادرت الدار شاكرًا المعزّين الجدد والسائلين عنّي من الطلبة والمريدين. استيقنت من اليوم الذي أنا فيه والساعة، فقصدت القصر الأميري حيث ألفيت أبا نمى في انتظاري.

تقدّمت نحوه معتذرًا فاستقبلني عاطفًا مؤازرًا، وقادني إلى ميدان خلفيّ تقف فيه سريّة على أهبّة الانطلاق. ركب كلانا فرسًا وسرنا محاطين بالحرس إلى مرسى جدّة، فلمّا بلغناه أخذنا مركبٌ بدوابنا إلى عيذاب. وهنا قصدنا المقبرة جنوب البلدة، كما عيّنها رسم الوفاة والدفن. ذهب أعضاء السريّة الخمسة متفرّقين للتعرّف على الشاهدات، فيما أوكلت لقلبي وحواسي أمر هدايتي إلى قبر وحيدتي، فمشيت الهوينى متهيّبًا وخلفي رفيق زيارتي وميسّر سفرتي. وحين توقّفت، حقّقت من طرف خفي في حروف شاهدة على يساري، فإذا بها تدلّ على ضالتي المنشودة. بلا دمع ولا هلع حنوت على التراب وقبلت عبره من ضمًّ، وفعل مثلي الشريف، ثم تلفّظت بآيٍ قصار فبأدعية ترحّمًا على روح حبيبتي الطاهرة، طالبًا أن يسكنها الباري فسيح جنّاته، بينما الصاحب وحرسه وبعض الفقراء من حولنا يردّدون آمين وينطقون بكلمات تناسب المقام... في المقبرة وعلى بابها تصدّقت ما استطعت وتصدّق الأمير واسعًا، ثم قفلنا راجعين. أثناء العودة سألني الصاحب عن رأيي في أن يأمر ببناء ضريح للمرحومة، فامتنعت لاستحسان أن يبقى قبرها على شاكلة قبور معظم المؤمنين. وما خلا هذا الكلام ظلّ الصمت في الرواح كما في المجيء سيّد الموقف والمسير.

صرفت أغلب أيّام شعبان المتبقّية معتصمًا ببيتي، وياسر وغيلان يكدّان في تسهيل اعتزالي وخلودي إلى التعبّد والراحة. والحقّ أنّي أمسيت في خلوتي أسبر أغوارًا وارتاد مجاهيل بفعل

عشب درجتُ على صنعه وتناوله لتكثير نومات وتكثيفها. والنومات في حالي هذا ومنقلبي أضحت إجمالاً محشوّة بالرؤى الرهيبة أو الخارقة للعادة، لو نشرتُ بعض ما يترسّب في ذاكرتي منها عند يقظاتي القسريّة المتقطّعة لأحلّ أهل السياسة والإفتاء تكفيري بل هدر دمي.

عند استقبال رمضان قرّرت قضاءه في كوخ الششتري، رغبة منّي في إيقاف نزيف رؤاي وتمتين عرى التعارف مع مغاربة وادي عين سليمان. وكذلك كان بعد أن ائتمنت ياسر على سرّ قراري وبعض متاعي، واستعنتُ بخبرته لمغادرة مكّة بعيدًا عن عيون طلاّبي وزوّاري.

لمّا بلغتُ مقصدي فارسًا، استقبلني الفلاّحون الطيّبون بترحيب حارّ وحفاوة بالغة. أنبأتهم بمصابي الجلل وحاجتي إلى العزلة والعبادة، فشملوني بكلمات التعزية كانت من العفويّة والصدق بحيث أدمعت عيني، كما أقسم كبيرهم بالله وببعض أوليائه الصالحين، يتقدّمهم إمام المتجرّدين الششتري، أن يحموني ويحفظوا سرّ مقامي ولو طلبني طاغية أو أولو الفقه والفتاوي.

كوخ الششتري ككوخه في جبل بجاية، مع فارق هو استفرادي به من دون مزاحمة ناسك نصراني أو يهودي. إقامتي فيه كانت أدعى إلى الهدوء والسكينة، لا أخرج منه بين الفينة والأخرى إلاّ للتجول قليلاً أو الإفطار والحديث مع حُماتي. النوم بتّ أقتصد فيه ما قدرت حتى أصدّ الرؤى الرهيبة عن الاستبداد عليّ. لكن إدماني على السهر ليلاً أصابني أثناء الآصال أو الأسحار بنوبات

نعاسيّة قاهرة، كانت تتخلّلها رؤى متنوّعة شتّى، لم ألو بعد استفاقاتي إلاّ على نتف من اثنتين ليست ذات هول أو إنذار بالشؤم:

الأولى رأيت فيها أبا حيّان التوحيدي يجالسني صحبة رجل عليه سمات الحكمة والوقار، فكان يميل عليّ ويسرد أحاديث نبويّة من دون إسناد، كدأبه في هذا الشأن، ويقول إنّ بعضها قدسي، وبعضها شافهه به في المنام سيّد المرسلين والمتكلّمين؛ ثم أبصرته يلتفت إلى جليسنا مخاطبًا: من العار يا سوفقليس، كما ذهبتَ، أن يرغب إنسان في العيش المديد إن كان إنّما يمرّ من شقاء إلى آخر. لكنّي أنبّهك، أنا منهدم البدن، مقوّس الظهر من فرط طعني في السن، إلى أنّك أخطات التدقيق والتمييز، فلم تستثن من تسلّط عليهم، مثلي، العيش المديد، ولم تدرك فضل ذلك العار على بقاء النوع البشري، ضدًّا على تواتر الشقاوات وطروئها في كل الأعمار والأزمان...

أمّا الرؤيا الثانية فقد أظهرت لي امرأة تشابه عليَّ وجهُها، فأنكرتْ عليّ نسياني لأعزّ ما كنت أطلبه من قبل وأرتجيه. سألتها: ما ذاك؟ قالت: وحيك! المخطوطة... مخطوطتك الضائعة! عبّرت لها عن يأسي من العثور عليها ونفوري من سراب لا يفضي ولا يجدي. قالت: ضالّتك المنشودة استقرّت عندي، أعيدها إليك لو لبّيت الشرط. قلت ضعي الشرط أنظره. قالت: تغيّر دينك بدين التوراة والبدء. أجبت: إنّي في دين الختم عبرت الخاصّ إلى الشمول وحتى التثليث في الإنجيل إلى الأحد

الصمد، الذي تغنيني قصّتي معه عن كل لاحقة ولو كانت تيك المخطوطة.

رؤايَ في المنام واليقظة خفّت هواجسها ووساوسها في هذه المزرعات والبساتين، فمددت حلولي المستطاب بها طمعًا في توطين النفس على ما يُنهضها من سقطتها وغمّتها، وتجديد أمد الانفراج والطمأنينة. غدوت أنفق الوقت في شؤون ومسائل شتّى: صلواتُ النظر والتأمّل مع الإمساك عن الكتابة، إلاّ ما كان منها بالقلم اللامرئي على توهّم، تعلُّم بعض فنون الزراعة والسقي من حُماتي الأكفاءِ المهرة، تعليم أطفالهم اللّغة وقواعدها، التحكيم فيما يشجر أحيانًا بينهم، هذا علاوة على جولاتي في المجال ومحيطه حيث أتريّض بالمشي وأجلس إلى جذوع الأشجار المورقة الوارفة، فأتمرّغ تارّة بين الأعشاب والترائب على شاكلة الششتري، حبيبي ومضيفي، وآونة أحاكي الطيور والحيوانات الأليفة في استقبالها للحياة وفرحها بها. وفي الختم كنت أعرج على عين سليمان فأرتوي بمائها وأغتسل... لكن لا يظنَّن ظانّ أنّي لهوت عن شهيدة الطريق إليّ وانصرفت، بل في إقامتي هاته ما أكثر ما عُدت قبرها على توهّم، فقضيت ما شاء الله من الوقت أضمّ ترابه وما ضمّ، أسقيه بالدموع السواجم، أطبعه بالشوق العرمرم والقُبل الخواشع، أبغي لو ولجته عابرًا إليها، ملتحقًا بها في جوار ربّنا الأعلى وملكوت البقاء الأجمل والأرقى.

* * *

- ١٣ -

بعد موفى السنة الجارية بخمسة أشهر، أقبل عليّ ياسر ينبئني بما لم يستطع عليه صبرًا: إلحاح أبي نمى والمريدين على طلبي، وعودة الست أمامة إلى مكّة وسؤالها الدؤوب عنّي. خيّرني في أمر أوبتي إلى الدار، ثم سلّمني رسالة من طلبتي وأخرى من العزيز الششتري، وكلتاهما في تعزيتي بوفاة وحيدتي وقرّة عيني.

مع مطلع شمس الغد، ودّعت حُماتي بعد أن أخذوا منّي وعدًا بالرجوع إليهم في القريب العاجل. قصدت بيتي بمكّة على وجه ما يطيقه جوادي من ركض وسرعة. كان ياسر وغيلان في استقبالي بالترحيب والودّ. تطهّرت وصلّيت وحسّنت هندامي، ثم يمّمت القصر الأميري متلهّفًا إلى معرفة ما وراء أبي نمى. حين مثلت أمامه عانقني بحرارة، اطمأنّ على حالي بما قلّ من الأسئلة، خاطبني في أمور شتّى حول مهامه وصعوبات تأمين الطرق إلى مكّة، كما في إعداد موسم الحجّ والحرص على كبح جماح التزاحم المفضي إلى المعاطب والموت. عرضت عليه رأيي في أمر ضبط أعداد ضيوف الرحمن وترتيب صفوفهم ومسالكهم إلى الأماكن المقدّسة والزيادة في طوابير الحرس والأطبّاء والمسعفين. أيّدني في ما قلت، ووعد بإنجاز ما

يستطيع، وأضاف متنهّدًا: «وما الحيلة مع حجّاج يتمنّون الموت والدفن على هذه الأرض المباركة!». سخطت هؤلاء في نفسي وسخطت أكثر الأجلاف المتهوّرين القتلة لا بورك في حجّهم وسعيهم. سكت صاحبي برهة كأنّه يتأهّب لإلقاء قول ثقيل عليّ، من أجله أرسل يطلبني، فكان مفاده أنّ كل المعلومات المتوفّرة لديه تشير إلى قدوم الملك الظاهر بيبرس وبطانته إلى موسم الحجّ المقبل. ونصحني باتّخاذ الحيطة والحذر واجتناب المخابئ المشهورة، بدءًا من ذي القعدة حتى رحيل الجائحة، لاسيّما، كما أخطرني، أنّ الملك علم من مصادره الخبيرة بهويّة واضع كتاب البيعة بالخلافة للمستنصر الحفصي.

طمأنت الأمير على سلوكي وتدبيري، دعوت له بخير دعاء ثم ودّعته مبديًا علامات الحزم والإباء.

كنّا في أوائل جمادى الآخرة ستمائة وسبع وستّين، لا تفصلني عن موعد حلول بيبرس بهذي الديار سوى خمسة أشهر أو أقل. ارتأيت إمضاء هذه المهلة بين بيتي وغار حراء والحرم الإبراهيمي، أعلّم الطلبة تارة وأخلو للتأمّل والتملّي آونة. حين عدت إلى دار المكناسي استقبلني ياسر وأشار إلى الست أمامة الجالسة في الحديقة تترقّب قدومي. يمّمت نحوها فما إن لمحتني حتى جاءتني تقبّل كتفي وتعزّيني بوفاة زوجتي، وصوتها منكسر حزين. شكرتها مهدّئًا روعها وقدتها إلى حيث كانت فجالستها أسألها عن حالها، فلا تجيبني إلاّ لمامًا ثم تعطف عليّ قائلة ومقلتاها المحمرّتان لا تفتران عن ذرف الدموع الغزار: «لك الله

في وحيدتك ونور عينك، يا سيّدي. مصابك لا يقدّره إلاّ من اكتوى بنار فقدان حبيب أعزّ لا يعوّض. عِدني أن تصحبني إلى قبرها أترحّم على روحها الطاهرة. وإن قبلت فخير البرّ عاجله. جمعة هذا الشهر ما قبل الآخرة؟» أومأت بالقبول ثم شيّعتها إلى الباب رافقًا منفعلاً.

في يوم الموعد بعيد الفجر كلّفت غيلان بمصاحبة الستّ في قافلة إلى عيذاب، على أن ألحق بهما في مقبرة هذي البلدة المشؤومة. وكذلك كان، إذ لم تمض بضع ساعات حتى كنّا معًا واقفين أمام مدفن فقيدتي فيحاء، نترحّم عليها وندعو لها كثيرًا. ولمّا حان وقت الإياب أمهلتني صاحبتي بعض الوقت، ثم بدر منها ما تعجّبت له واستغربت: ارتمت على القبر، أخذت تعانقه بقوّة وتشهق بالبكاء الشديد، مبلّلةً ترابه بدمعها الفيّاض، مرفقةً فعلها بكلمات وأدعية مصريّة الطابع والنطق، ما سمعت بعضها من قبل. ظللت لحظات كغيلان متحيّرًا فاغر الفم، لا أدري ما أعمل، والشمس فوق رؤوسنا تدنو من كبد السماء وأوجِ الحرّ؛ ثم إنّ المرأة ناشدتني متضرّعة أن أتركها تبيت مع الستّ فيحاء، وعلى روحها الزكيّة تسهر. نهيتها بحزمٍ عن هذا، فأنهضتها وضممتها إليّ ضمًّا وقصدت المخرج هكذا حتى أبعدها عن القبر، فيما هي تبكي وتميل إلى السكينة والصمت. عند الباب أسلمت زمامها إلى غيلان حتى يرافقها في قافلة إلى مكّة فرابطة الموفق. أمّا أنا فركبت فرسي المحمحم وأطلقت عنانه وعنان انطباعاتي وحواسي على ضوء ما عشته صباح هذا اليوم الباهر المميّز.

*

قبيل موفى رجب، حدث ما كان من قبلُ يسري في مضمار الاحتمال والإمكان، وحفّزني عليه ياسر وغيلان بقوّة إقناع عفويّة لا تُحاجج: زواجي بالستّ أمامة على سنّة الله ورسوله، لكنْ من دون إشهار ولا حفل، إلاّ القليلَ القليل ممّا يعبّر عن فرح القران والعرس الحميم. كانت ليلة الدخلة في بيتي، وبعدها بيوم انتقلت العروس إلى العيش الآمن تحت سقفي. وهنا أمضيت في عشرتها الطيّبة ما يقرب من شهرين، حتّى إذا أوشك الشهر الفضيل على نهايته، شاورتها في قضاء العيد وما بعده بجنان عين سليمان، من دون أن أعلمها بالسبب الخفي والدافع القسري، فقبلتْ عن طيب خاطر وميل أكيد.

قبيل رحيلنا أسررت لياسر بسبب وجوب غيابي عن مكّة، فأقسم لي من تلقاء نفسه أن يحفظ سرّي ويرعى بيتي وأمانتي. كلّفته بشراء بغلة لزوجتي ومصاحبتها على دابّته محمّلة ببعض متاعي إلى حيث يعلم، ويكون لي أن أسبقهما ببعض المسافة والوقت، فأجاب الرجل الفهيم بالسمع والطاعة لتدبير السفر على الوجه الأتقن والأسلم. وكذلك كان، والحمد لله كما يجب.

فرِحٌ أنا بعودتي إلى الإقامة في حماية المغاربة وكوخ الششتري، فرحٌ أيضًا بوجود الستّ أمامة معي أنيسةً وزوجة، وفرحٌ لفرحها بي وبالبساتين وأهلها الأتقياءِ الأكارم. أخبرت كبير هؤلاء حمّودة الزناتي ومقرّبيه بخبر زواجي وعرّفتهم اقتضابًا بعقيلتي. هنّأوني وباركوا لي، ثم أسكنونني وإيّاها في خيمة وسيعة ذات فرش وأثاث. وسرعان ما انتقل الخبر بين النساء،

فما كان منهنّ إلاّ أن أخذن الستّ وانفردن بها في سوقهنّ الذي لا اطّلاع للرجال عليه.

في عزّ ليلة العيد، تناهت إلى سمعي أهازيج النساء وزغاريدهن، ثم أبصرتهن تحت المشاعل والقناديل يحففن بزوجتي ويقدنها إلى خيمتي تحت أنظار القوم المباركين الفرحين. على عتبة إقامتي، غنّين كثيرًا ورقصن. وما فهمته في المحصّلة من حفلهنّ أنّهنّ يزففن لي الستّ أمامة عروسًا طاهرة وسحرًا حلالاً. وصحّ فهمي ما إن يسّرن اختلائي بها، إذ أسدلن ستارة الخيمة دونهنّ وانسحبن خفيفاتٍ صامتات.

عروستي الجالسة جنبي يكاد يغمى عليها من فرط الانفعالِ والفرحةِ والحياء، جسمها الرافل في حلّة بيضاء قشيبة تفور أطرافُه دفئًا ناعمًا وعطرًا مسكيَّ النفحات، ووجهها يتوهّج حسنًا وبهاء. فلكأنّي بالنسوة أعدن نشأتها من جديد بالماء الكوثري والزينة المستحبّة، فطاوعتِ المصريّة أيدي المغريات ووافقتها، والشكر لله كثيرًا على نعمه وكرمه.

ليلة دخلة ثانية أبدع من الأولى وأحلى!

فسبحان محيي العروق بعد ضمورها، ومنعش الحواس بعد خمولها؛ واشهدي يا ستّ أمامة أنّي ما نسيت نصيبي من الدنيا، كما أمر ربّ العالمين وأوصى....

في الصباح أيقظتني عقيلتي بلطف متناه وعون من صياح الديكة ودبيب حركة مطردة خارج خيمتنا. كانت أمارات السعد والغبطة تغمرها وتغشاني أنا أيضًا.

تنسّمنا واسعًا أريج النباتات والغلال من حولنا، وأدّينا بعد الطهارة والوضوء صلاة الفجر، ثم تهيّأنا للاختلاط بالقوم ومشاركتهم مراسيم عيد الفطر. وفيما قصدت جمع الرجال وكبيرهم الحاجّ حمّودة، كانت بعض النسوة يصطحبن الستّ إلى حيّهنّ. جرى بين الجمع وبيني كلام التهنئة والتبريك والدعاء الجزيل، تبعه إلحاحهم عليَّ أن أذبح عجلاً يقدّمونه أضحية للاحتفاء بي وبقرينتي في ضيافتهم، فما كان عليّ إلاّ أن أستجيب تحت سيل من تكبيرات الرجال وزغاريد النساء وضجيج الأطفال وهتافهم.

عند حلول صلاة الظهر، أقمتها مع الجماعة إمامًا في الهواء الطلق، وبعدها انتقلنا إلى خيمة الرئيس حيث أُعِدّت موائدُ العيد، فنال كلٌّ من الوليمة حسب طاقته، وزدتُ أنا عن حدّي بتشجيع من المضيف، ولو أنّي حاولت التقصير بتسآل جلسائي عن أشياء شتّى، منها أصولهم وأنسابهم، فعلمت أنّها عربيّة بربريّة جعلتهم بالمصاهرة والمعاشرة قبيلاً واحدًا موحّدًا؛ ومنها نواحي مأتاهم، فأُخبرت أنّ معظمهم من سهول المغرب الأقصى الخصيبة؛ ومنها طبيعة الأرض التي يقيمون عليها وشؤون الحرث والبذر والريّ والحصاد والقطف، فتناوبوا على إشباع فضولي بالمعلومات الدقيقة المفيدة، وكان السبق والإفاضة لرئيس القوم وكبيرهم. أدليت بدلوي تاليًا آيات في الموضوع وأحاديث، شارحًا إيّاها بلغة الإفهام والتقريب، فكبّروا باسم الله وصلّوا على رسوله كثيرًا، وأثنوا عليّ وعلى علمي الواضح اليسير المأخذ، الحسن

القطفِ والمنبت. . . ظللنا كذلك حتى إذا حلّ العصر أدّينا صلاته متحابّين مطمئنين. وبعده استأذنت الحاجّ حمّودة في أخذ قسط من الاسترخاء والراحة.

في خيمتي حيث لا أثر لزوجتي، استسلمت لنوم متصلٍ مديد، لم توقظني منه إلاّ الست أمامة الجالسة إلى جنبي، الهامسة باسمي، وكلّها حسن ورقّة وحنان. ضممتها إليّ، فتوسّدت صدري وقالت فرحة مفتونة:

ـ ما تفعله معي المغربيّات من كرم وحفاوة شيء كثير عليّ. . . وأنا وأنت في هذي الجنان الفيحاء بين هؤلاء الناس الطيّبين! والله كأنّي أمورة في حلم أو في جنّة!

بعض كلامها ذكّرني فجأة أنّي قبل استيقاظي رأيت حلمًا يحوم حول إقامتي في هذي الجنان ونعيمها، لا يعكّر صفوه إلاّ أجناد يرومون القبض عليَّ وإتلافي. انتبهت إلى الست المتنفّسة المتنهّدة حذائي وقلت:

ـ وأنتِ فعلاً أمورة وأكثر يا مولاتي!

ـ وأنت مرشدي ووليّ سعدي وبهجتي. . . !

جلستُ وأشعلت القنديل، أرتني قوارير عطر وكحل وألبسةً جديدة هي هدايا المغربيّات إليها. سألتني إن كنتُ أنوي مسامرة القوم والتحدّث إليهم، أجبتها متحنّنًا مشتاقًا: بل هذي الليلة ليلتنا، وغدًا له مدبّر حكيم.

حين أصبحت، كان لساني ما زال رطبًا بدعاء لا شكّ ردّدته قبيل نومي أو فيه: اللّهم يا واحد يا معبود اجعلها نعمة خالصة مقيمة، لا تتبعها نقمة مفسدة وخيمة... وكذلك أمضيت مع حرمي أيّامًا طيّبة بهيّة: هي بين حيّ النساء وشؤوني، وأنا بين شؤونها وأمور الجماعة من إمامة الصلاة ومحادثتهم وإفتاء في قضاياهم وتعليم الأطفال. هذا ولم أنس نصيبي من الخلوة النافعة، أتأمّل أثناءها وأقرأ بعض ما في رحلي، ولا أكتب على غير ألواح الغمام بذلكمُ القلم اللامرئي.

ذات صباح من مطلع ذي القعدة، بكرت وزوجتي خفيفين نشيطين إلى الحقول نتنزّه ونرتع، ترمقنا هنا وهناك كلاب الحراسة، ممسكةً عن المناوشة والنبح. تنشّقنا لِلهواء الطاهر العذب رغّبنا في المشي وعليه حرّضنا، حتى تعدّينا حظائر الدواجن والماشية. غدوت أنعت لرفيقتي أشجار النخيل السامقة وثمارها الناضجة المتدلّية، أنبّهها إلى أشجار غلال أخرى ذاكرًا لكل غلّة فوائدها الصحّيَّة؛ أمّا هي فصارت تسبّح باسم الخالق المبدع، وتشير إلى بقُول ورياحين تفرشُ بقيعات مخصوصة وتوشيها:

ـ انظر اليقطين والشلجم هنا والجزر والكرنب هناك... والباذنجان! يا الله على الورد والبان! انظر الآس والنسرين والياسمين... باقات كلّها، يا حبيبي، تفتن الشم والعين وكل الحواس...

كنت كرفيقتي المفتونة معجبًا بمباهج الطبيعة ومنفعلاً، قلت مقتضبًا:

ـ هذي الغروس، يا أمامة، وهذي المشمومات تشرئب ماهيّاتها إلى مبدعها، وتتفتّح وتحيا مستقبلةً نفحات القدس في النور والندى والفراش والنّحل. كل نبض فيها ترينه إن هو إلاّ من روح الحق.

توغّلنا في نزهتنا ونشوتنا السكرى العارمة، حتى إذا تعدّينا سياجات من التبن والطين، لحق بنا رجلان وطلبا منّا الرجوع من حيث أتينا. كان الرئيس في انتظارنا، فارقتُ زوجتي وقصدته مسلّمًا، فردّ السلام ببشاشة مشوبة بشيء من الانقباض والضيق، ثم رافقني إلى خيمتي حيث جالسني لتناول وجبة الفطور، وقدّم لي هديّة كان يتأبّطها: قفطان من سندس وفرجيّة من صوف وقماش تحتاني وطرحة وطيلسان. استكثرت أعطيته عليّ، لكن لا عذر لي ولا حيلة لردّها إليه. شكرته ودعوت له ولأهله وقبيلته، ثم بادرته بالسؤال عمّا وراءه. قال ملاطفًا مطَمئنًا:

ـ الخير كل الخير يا حبيب الله... إذا كان يخفى عليك أنّك في حمايتي فاعلم ذلك كيلا تتعدّى ربعي فيردّك إليه عسسي، كما حصل لك منذ لحظات؛ وإذا أردت التنزّه، يحسن أن يكون لك رفقة بعض رجالي، لكن من دون الست... أوصاني شيخي الششتري بك خيرًا، وأطلعني شريف مكّة على حالك، وطاعتي لهذا وذاك هي في سهري على سلامتك وأمنك.

فهمت للتوّ إشارات جليسي وتنبيهاته، فوعدته أن أتخذ جانب الحيطة والحذر ولا أقصر. سألته:

ـ قل لي يا حاج، هل السلطان بيبرس حلّ بمكّة أم ليس بعد؟

ـ يقال سيأتي في منتصف ذي القعدة أو موفاه. إنّما عيونه ومخبروه سبقوه إلى مكّة لإعداد حجّه وحاجات أخرى، منها بسط يده على الحجاز والبقاع المقدّسة واستئلاف الأشراف، ومنها إلقاء القبض عليك أنت يا وليَّ الله.

استغربت اطلاع الرجل على أمري، فلم أر له مصدرًا إلاّ الأمير أبي نمى أو أحد مقرّبيه. وتبدّد استغرابي حين سمعته يقول:

ـ الواصل بيني وبين كبير الأشراف هو ياسر اليمني، ناظر دار المكناسي. منذ أيّام وعيون بيبرس يرهقونه بالسؤال عنك، فلا يفلحون منه بشيء. يأتيني الرجل إلى هنا ليلاً أو بالنهار متنكّرًا لينبئني بما جدّ في أمر طالب رأسك.

ـ وما العمل يا أخي حمّودة؟

ـ يرى الأمير ومعه الناظر أن تحدّ حركتك في هذا الربع لا تتعدّاه، وعند إشارتهما أن تختفي أنت وحرمك عن الأنظار.

ـ وإلى أين المفرّ والملجأ؟

ـ مخبأُك، يا وليّ الله، تحت قدميك، تعالَ معي تتعرّف عليه.

استقمنا واقفين، أسدل صاحبي ستارة الخيمة، سحب مطرح فراشي قليلاً فأزاح التراب بيديه القويّتين، حتى إذا بدا باب حديدي رفعه ووضعه جانبًا وقال وهو يوقد مشعلاً: «هنا المطمورة، هنا ملجأك . . . اتبعني». نزلت مثله أدراج سلّم تفضي إلى قبو وسيع، أنار مصابيحه فبان ما في وسطه من فرش وقطائف وأثاث، وفي زواياه أكياس مكدّسة قال إنّها مؤن غذائيّة مدّخرة للسنوات العجاف. عرّفني على بيت الماء وكوّة مستورة قال يؤدي نفقها إلى سرداب آخر منفذه بادية خلاء.

في القبو من الأضواء ما يجلي العتمة، ومن الهواء ما يمكّن التنفس، ومن القوت ما يسدّ الرمق. على جدار خلفي لاحظت قطع سلاح معلّقة بين سلل البصل والثوم. غضضت الطرف عنها وطفقت أنوّه بمحاسن المكان ومزاياه؛ ثم صعدت وراء مرشدي، وأظهرت له أمارات البشر والانشراح، فيما هو يعيد التراب والفراش إلى وضعهما ثم يودّعني مستأمنًا ومؤكّدًا أنّ المطمورة تحت خيمتي لا يعلم بها إلاّ أقرب مقرّبيه.

ليس على متضلّع في الخلوة مثلي يصعب الاختفاء ما شاء الله من الوقت. شعار الشيخ ابن عربي كان شعاري وما يزال: «العزلة تورث معرفة الدنيا». لكن كيف أُفهم أمامة ما أنا مدعوّ إليه معها لاتّقاء شرّ خطر داهم؟

في ظلمة الليل تركتها لحظات تتلو عليّ أنشطتها لهذا اليوم المنقضي وما تنوي فعله مع المغربيّات غدًا. ولمّا أنهت كلامها رأيت من واجبي إطلاعها على أمري وما أنا مطالب به لمواجهته،

فهمست لها به صريحًا موجزًا. وبعد أن بلّغت، كم سُررت لسعة فهمها ومطاوعتها! «المرأة الصالحة تكون مع زوجها في السرّاء والضرّاء»، قولها هذا نزل عليّ يُمنًا وسلامًا، وكذلك حضّها لي على الجلَد والصبر في مغالبة المحنة. وقبيل أن نستسلم للسحر الحلال، أقسمتْ أن تودع أمري في صدرها سرًّا عزيزًا مصانًا.

توالت أيّام وأخرى وأنا كثير الاعتصام بخيمتي، لا أبرحها إلاّ لشأن أكيد أو حاجة قصوى، فيما أمامة تنشغل بأنشطتها الاعتياديّة الكثيرة. وظللت كذلك، فلمّا جاء فاتح ذي الحجة أيقظني من نوم الليل منادٍ باسمي على باب الخيمة. لم أشكّ أنّه مضيفي، استعجلت زوجتي في النهوض والأهبّة، ثم خرجت أستخبر. كان الرئيس حمّودة يحمل قفّة ضخمة مليئة بالأقوات، أنباني أنّ السلطان بيبرس حلّ بمكّة، وحثّني على النزول إلى القبو. استأذنني في فتح طريقي إليه، ففعل ذلك بدراية وسرعة وهو يعتذر للست ويوصيها بالأناة والصبر. لم تمض لحظات حتى كنت مع حرمي ومتاعي في مسكني الجديد، وقد أضاءه حامينا ونعت لنا القفّة وأكياس التمر والفواكه اليابسة وجِرار الماء والزيت والعسل. وقبل أن يعود أدراجه، أقسم أن لا أحد سواه يعلم مكمننا، وأكّد لنا أنّ مدّة الاختباء لن تجوز فترة موسم الحجّ إن شاء الله.

ذهبت أمامة تتفقّد المكان وأركانه وتنظر في الأكياس والجرار، ثم أقبلت عليّ صبيحةَ الوجه والنظرات. حاولت اختبار صحّة قناعتها ورضاها، قلت:

ـ كهف لا نصيب له من بياض اليوم ولا من أديم السماء!

أجابت بنبرة الوثوق والثبات:

ـ هل مثلك، يا سيّد الزوايا والخلوة، يحتاج إلى ما تقول! يكفيك أن تغمض عينيك وترى في باطنك نورًا يسربلك وسماء تظلّلك... والآن هيّا نغمض عيوننا وننشد السعد والراحة.

اللَّهم اجعله نومًا حيًّا معقولاً، لا كنوم أهل الكهف أو نوم الأموات!

استجاب الله لدعائي، إذ فتحت عينيّ فرأيت أمامة تطهي الطعام في ركن جعلته مطبخًا. ولمّا عرضت صحونها مسلّمة، سألتها إن كانت الوجبة للفطور أم للغداء، أجابت: بل قريبًا من العشاء. نظرت في أسطرلابي فألفيته معطّلاً، لربما بسبب عمق القبو الذي أقدّره بحوالى عشرين ذراعًا. مقامي هنا ما عرفت ضرعه من قبل: لا قياس للوقت فيه، لا نور إلاّ ما تنفثه المشاعل، لا سماء حاشا ما أتوهّمه منها. لكن، الحمد لله أن يسّر القوت والماء والهواء، وجعل لي زوجة أرتاح إليها وأسكن، آنس بها وأتقرّب إلى واجب الوجود، متخلّقًا ما استطعت بأسمائه المباركة الحسنى.

تطهّرت وتوضّأت، ثم جالست أمامة حول مائدة واطئة. أكلت من طعامها ومدحت طهيها وطابعه المصري الأصيل. ذكّرتْ أنّ هذا الطهي تنقصه بعض التوابل الضروريّة، وشكرتني على مجاملتي السخيّة. وحين أتمّت أكلها، سألتني مستغربة:

ـ لك، يا سيّدي، في العلم والتصوّف باع وأيّ باع! لكنّي أرى أنّ لك مثيله في أمور الحكم والسياسة، وإلاّ فما بال عظيم المماليك بيبرس يضمر لك السوء ويجدّ في طلبك؟

أعرف أنّ سائلتي مطّلعة على نتف من سيرة الملك الظاهر ومعجبة بها أيّما إعجاب، وهذا هو أيضًا حالي. أجبت باقتضاب:

ـ أكابر السياسة وفطاحلها، مولاتي، لا يقنعون بالشدّ على أزِمَّة السلط ودفّاتها إلاّ إذا استتبعوا العلماء ودجّنوهم خدمة لنفوذهم وجاههم. وإن تبرّم أحد من هؤلاء أو عصى، سلّطوا عليه أشدّاءهم حتى يلين ويطيع أو يُهاجر إنْ لم يُقتل. جمهرة حملة العلم والأقلام ينصاعون وينبطحون، وقلّة قليلة يصمدون ويجبهون، وأنا بحوله تعالى وقوّته من هذه القلّة، رضيت بالنفي دون القتل. لهذا أختبئ هنا كيلا يفعل بي بيبرس ما فعله صلاح الدين الأيّوبي بالسهروردي، على سبيل المثال لا الحصر...

ـ ترفض، يا أبيَّ النفس، الموت الرديء! لذا أنت هنا معي في هذا القبو، نتهادى المتع الحلال، وتأكل من مدمسي وصحوني، وهذا فضل من الله لم يخطر ببال المملوكي.

ضحكتُ وضحكت معي، ثم ترزّنتُ وقلت:

ـ والآن إنّ لربّنا علينا حقًّا.

ـ صح... لكن أيّ صلاة نصلّي ونحن لا خبر لنا بالوقت؟ قل في هذي النازلة الفريدة فتواك.

ـ بل هاتني أنت بفتواك. . .

تفرّستني بهتةً مستغربة، قالت:

ـ لا يحلّ للمرأة ذلك.

ـ بل يحل إذا توفّرت لها شرائط العلم والعقل والصحّة، ولو كره رجال الفروع والحشو. ألم يأتك حديث نبيّنا الأكرم في عائشة أم المؤمنين: *خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء*؟

أطرقت مفكّرة، ثم فاهت برأيها مسبلةً الجفنين مستحيية:

ـ حكم الضرورة في وضعنا، يا أفقه الناس، أن نجمع الصلوات الخمس عند موفى الهزيع الأوّل من الليل، حالما ترفرف على أعيننا أجنحة النوم.

ـ صدقتِ والله وأصبت المحز. مزيدًا من التحصيل والمواظبة وأعطيك في مكّة إجازة المجتهدة في دينها. والآن قومي للطهارة وقضاء مآربك الأخرى.

تمدّدتُ على الفراش، سبّحتُ بعينين مفتوحتين في استجلاب الواردات المنهضة، وتدقيق النظر في ما يحسن فعله في القبو لتزجية الوقت بالتي هي أنفعُ وأجدر. بدت لي رؤوس أفكار نيّرة معتبَرة، عقدت العزم على تحديدها وبلوَرتها غدًا بعد الاستيقاظ.

أخرجني من سهوي صوت أُمامة منبِّهًا قبل أن يغلبني النعاس، قمت أؤمّ الصلاة بالتي تشاركني قبوي واختفائي، وتؤنسني وتخفّف عنّي بأنَاتها ومرحها وروح الدعابة المتأصّلة فيها.

في الصباح، كانت أوّل فكرة أنجزتها بعون صاحبتي أن

سيّجت ركنًا لي بواسطة أكياس وستارة، ووضعت فيه مطرحًا ومائدة وما كان في متاعي من أشعار الششتري وبعض ما زوّدني به من كتب، ضمنها نسخة ناقصة مهلهلة من *كتاب الاعتبار* لأمير شيزر أسامة بن منقذ نفعنا الله بذكره. غدوت أمضي أوقاتًا تلو أخرى في القراءة والهمس بالذكر الكوثري، فيما أمامة توزّع وقتها بين حفظ القرآن والعمل المنزلي وتليين رطوبة القبو بالأبخرة الزكيّة.

في مكان لا يلجه بياض اليوم ولا تشوب صمته شائبة، يطيب للنفس أن تغطس في عالمها الجوّاني وتسيح. في هذا العالم، أنا الموجودُ الموحِّد، المعاينُ المجرِّب، لي أدوار ومنازل، مفتاحها في مقاميَ الراهن الذكرى ما وسعني منها وظهر. حياتي أمام عيني بالصور والآثار تغلي وتمور، تحيلني إلى حقب وأمكنة، أحداث ووجوه، وبينها خيوط متناسلة متناسجة، لعلّها لُحمة ما كنت وصرت إليه. . . في تذكّري واستغواري، لأمواتي الأماجد حصّة متميّزة ودرجة عليّة، تتصدّرهم فيحاءُ حياتي ونبراسُ تقرّبي إلى الله وتوحيدي.

قضيت أيّامًا قدّرتها ستّة بين ركنيَ ذاك وفضاء الزوجيّة. وفي مساء اليوم السابع تناهت إليّ في مربعي صرخة من أمامة كانت بسبب رؤيتها لقفّة متدلّية بحبل ممدود من مخرج القبو. نظرت ما في القفّة، فإذا هو زاد وقنينات ماء وبطاقة مكتوب عليها: «ثلاث مرّات جاءنا على حين غرّة فرسان من قِبل السلطان بيبرس، ففتّشوا الربع كلّه، سألوني عنك يا ولي الله، أنكرت معرفتك وفعل القوم مثلي، فولّوا راجعين. يوم الفرج بحول الله قريب».

هتفت: الفرج قريب يا ستّي. . قريب!

تلقّت المخاطبة خبري فرحة، فيما كحّة متقطّعة تمنعها من التعبير. ناولتها قدرًا من العسل المسعودي وزيت العود، فخفّ سعالها بعون الله. وفي الغد، يوم بكور الحجيج بالصعود إلى منى، دعوت زوجتي إلى قضاء مناسك الحج على توهّم، فطاوعتني بأدائها على طريقة الحلاج ومن لا يستطيع إلى الحجّ سبيلاً. ولمّا أتممناها ذكرنا الله كثيرًا، ثم أمضينا اليوم العاشر في الراحة والاستجمام وتعويض ما فاتنا من اقتيات ونوم.

في صباح اليوم التالي، نزلت علينا مائدة كانت لنا عيدًا. لبسنا أجمل ثيابنا من هدايا الكريمات والكرام فوقنا، أقمنا صلاة العيد، تنافسنا في إنشاد الموشّحات والأغاني، ثم حلا لي ـ كم حلا لي! ـ أن أذرع القبو مزهوًّا مختالاً، وأُمامة تخطو خلفي، تطيّبني بمبخرتها وترشّني بمزهريّتها، مزغردة، مشيدةً بقفطاني السندسي وطرحتي وطيلساني، وداعيةً على المتربّصين بيَ الدوائر وكل أعدائي. لحظات عجيبة صرفتها على هذا النحو، خرجت فيها بعض الشيء عن طوري نكِايةً في هؤلاء العدى ورفعًا للتحدّي بالفرح المكين والهمّة العالية، فكان هذا اليوم من صباحه إلى ليله حفيلاً بالمسرّات والمتع النضرة الغالية، التي لم نغفل عن فيضها إلاّ بعد ميل جفوننا إلى النعاس وأدائنا للصلوات الخمس مجتمعة.

*

في الهزيع الأخير من الليل استفقت على إثر تفاقم سعال زوجتي. أنرت المكان فبدا لي عليها شحوب بالغ وأعراض ضيق التنفّس. أيقنت أنّ دواءها الأوحد ليس الزيت والعسل بل الصعود إلى هواء البريّة. تسلّقت السلّم وأخذت أخبط على الباب الأفقي طلبًا للنجدة. وسرعان ما أطلّ عليّ الشيخ حمّودة قلقًا مستخبرًا. أطلعته على الأمر فأحضر امرأتين واستعجلهما في إخراج الست وإسعافها بما يلزم. وبعد هنيهات أطلّت واحدة علينا وبشّرتنا باستعادة الست لكامل عافيتها. تنفّست الصعداء، وسألت جليسي في القبو عن رجوعي إلى الهواء الطلق متى يتمّ، خيّرني بين أن أخرج للتو، مع ما يحتمله ذلك من مخاطر صادمة، أو أن أتحلّى بمزيد من الصبر يومين أو ثلاثة ريثما يرحل بيبرس وجنده. أعلم أنّ أيّ خطر يلحق بي لا بدّ أن تكون له توابع وزوابع على أناس أكرموني وآمنوني من جوع وخوف. قلت للرئيس قبل أن أودّعه: «الصبر حيلتي وسلاحي. وقاك الله وذويك كل مكروه».

تمدّدت على فراشي. ركّزت نظري على الكوّة المستورة متخيّلاً ما تخفيه وتفضي إليه. ساح ذهني وتاه فاستولى عليّ نوم قاهر لم أتخلّص من حلقاته الغامضة المرتجّة إلاّ بعد مدّة صعُب عليّ تقديرها. من باب تزجية الوقت أو مجابهة المجهول بدا لي الوقت مناسبًا لتنفيذ فكرة خطرت ببالي من قبل. نهضت مسرعًا، قبضت على مشعل بيد وبحزامي على خنيجر، فنفذت من الكوّة إلى نفقها، متفقّدًا مستطلعًا، تارة أزحف أو أمشي كالحيوان،

وتارة أخطو واقفًا كالإنسان. وبعد مثابرة وجهد جهيد اكتشفت قبوًا وسيعًا أظهرني مشعلي على شقوق في سقفه، ينفذ منها ضوء تكاد تحجبه عناكب كثيرة، كما نبّهني إلى سرب من الخفافيش المتدلّين. أوقفت مسيري مخافة أن أوقظ هذه الطيور الضرعيّة العمياء وحيوانات ليليّة أخرى لا أراها، فأُحدثَ الهيزعة وما لا يحمد عقباه. في زخم الصمت المطبق المشوب بخشخشات متقطّعة غريبة، حين أسترق السمع لا تصلني سوى أصداء خافتة لركض خيل العساكر. ارتأيت من الحكمة أن أعود أدراجي ففعلت. وقبل الوصول ببضعة أذرع همدت منبطحًا، قطعت أنفاسي ما استطعت، كما لو أنّي في قبر أو على البرزخ. ولمّا غلبني عودها رحّبت بها جوهرًا فارقًا بين الحياة والموت، فاستأنفت زحفي، حتى إذا أدركت الكوّة وأزحت ستارها ألفيت نفسي أمام حمّودة وياسر وجهًا لوجه. ساعداني على الخروج، فقلت من باب تهدئة روعهما: إنّما هي جولة عجلى في ذرّة من أحشاء الأرض، عملاً بقوله تعالى ﴿واللهُ جعلَ لكمُ الأرضَ بساطًا لتسلكوا منها سبلاً فجاجًا﴾.

تطهّرت من أدران جولتي وغيّرت لباسي. رجعت إلى الرجلين فكان كلاهما صبيح النظرات والوجه. سألت ما الخبر، فصاحا معا بنبأ رحيل بيبرس وعسكره إلى مصر. عانقت المبشّريْن كثيرًا وحمدت الله أنْ فرّج الكربة ويسّر. استفسرتهما عن الساعة واليوم، فعلمت أنّنا في منتصف ذي الحجّة بُعيد الظهر. قال حمّودة:

ـ الآن، يا مولاي، علينا بالصعود إلى ظاهر الأرض، اللّهم إلاّ أن تريد تمديد المكوث في هذا القبو.

ـ أكرمتَ مثواي، جزاك الله، في ظاهر ربعك وباطنه، وعليّ الآن بالهواء الطلق فالأوبة إلى مكمني بمكّة المكّرمة.

أيّد ياسر كلامي وأخذ يجمع متاعي ويحمله إلى الخيمة فوقنا. هنا استرحنا وتغذّينا معًا وتبادلنا عبارات المحبّة والتواعد على تجديد اللقيا، فيما رجال يعدّون الرحل على الدواب، والنساء يحطن بأمامة ويبكين للفراق. قمت لتوديع القوم فردًا فردًا، وخصصت كبيرهم بما يستحقّه من كلمات الشكر والامتنان، ثم تحرّك ركبنا إلى وجهتنا تتبعنا الأدعية والهتافات.

* * *

ـ ١٤ ـ

على مقربة من مكّة، تولّى ياسر القيادة فسلك بي وبحرمي إلى الدار سبيلاً قليل الصخب والمارّة، ثم صاحبني وإيّاها من باب خلفي يفضي إلى بيتنا، ثم عاد ليدبّر أمر الرحل والدواب. استطبت رجوعي هذا ورغّبتني أمامة في الخلوة والراحة على أن تتفرّغ هي لشغلها المنزلي والصلاة، وانصرفت محاولة عبثا كفكفة دمعها وترويض انفعالها.

الصلوات!

لا أدري كم منها في ذمّتي، فلا حيلة لأدائها إلاّ بالوفرة والزيادة. وكذلك فعلت بين الأذكار والقراءات الكوثريّة حتى غشيني الليل ونبّهتني زوجتي إلى وجوب استقبال النوم.

في الصباح نزلت أستقصي ما جدّ من الأخبار. لقيني غيلان بالترحيب والعناق، والراجح أنّه يجهل كل شيء عن سبب غيابي ومكانه؛ أمّا ياسر فجاءني مبشورًا برسالة من الحبيب الششتري. قرأتها فوقفت على وعده بالسفر إليّ ما إن يخليَ الفراش سبيله وتميلَ صحّته إلى الاستواء؛ ثم سلّمني الرجل كيسًا متوسّط الحجم قال إنّه هديّة من الحاج الأعجمي الذي أنقذت بنته.

اطّلعتُ على ما في الكيس، فإذا به يزخر بالحلي والقطع الذهبيّة، طلبت من ياسر أن يأخذ هو وغيلان نصيبهما من الذهب ويتصدّق بالبقيّة ويهب الست أمامة كل الحلي. وبعدها استفسرته عن أنباء الشريف أبي نمى وهل يسأل عنّي، فقال إنّه منذ مدّة غائب عن مكّة في مدن الحجاز، وأنّ حاجبه وثلّة من الأشراف يقومون مقامه.

يمّمت المسجد الحرام لهفًا متشوّقًا، أمضيت في أرجائه اليوم كلّه،أصلّي وأتأمّل وأحادث من توجه إليّ من الناس سائلاً صدقة أو عونًا أو فتوى؛ ثمّ ما لبثت كذلك حتى تجمّع حولي نفر من الطلبة يحمدون الله لي على عودتي بالسلامة ويترجّونني أن أستأنف حلقات دروسي في أجل قريب. وعدتهم بالاستجابة وصرفتهم إلى الاطلاع على كتب أمّهات سمّيتها، ثم قمت بعد حين أؤدي صلاة العشاء مع الجماعة. عند التسليم كان بمحاذاتي رجل أنيق، مهيب الطلعة والجانب، ردّ سلامي وجالسني، تذكّرت أنّه الشيخ صفي الدين الهندي، كنت التقيت به في مكان ما من مكّة منذ سنتين أو أكثر واستعار منّي نسخة من بُدّ العارف وبعض رسائلي بدعوى رغبته في محاورتي بعد قراءتها. عرض عليّ بضاعتي فرددتها إليه هديّة منّي ودعوته إلى المشي معي خارج المسجد، فلبّى مندفعًا مسرورًا.

أثناء مسيرنا بين دروب المدينة وساحاتها، شرع الرجل يستظهر عن ظهر قلب صفحات كاملة من كتاباتي، خصوصًا ما تعلّق ببعض المباحث والمطالب في معرفة حقائق الأشياء. تركته

يفعل حتى أهادن فورته وأتقي الدخول في مجادلة لا رغبة لي فيها؛ لكنّه ما برح أن توقّف لحظة أتبعها بسيل من الأسئلة والملحوظات تنمّ عن ولعه بالشقّ الفلسفي وتعلّقه بأرسطو ومذهبه. ولمّا ألحّ عليّ في تبرير حدّ واحد للفلسفة دون غيره، أجبته مقتضبًا:

ـ في السنّ الذي بلغته والوضع الذي أنا فيه، الفلسفة اهتمام بالموت واستئناف كشف أغوار السرّ الإلٰهي المخبوء فيَّ، أنا ممكن الوجود، من لدن واجب الوجود، الذي له السرمد والأسماء الحسنى والملكوت.

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم هذا هذا... لا الوقت يسمح بأكثر منه ولا المكان ولا الشروط.

استعجم الرجل كلامي وطلب البيان، قلت:

ـ إن كنت تطلب الفلسفة، يا صفيّ الدين، على نحو غير الذي رسمته وسبحت فيه، فتملّكها كما تشاء ثم انظر بها في حقل بكر غير محروث، حقل التاريخ وواقعاته وعقده وتقلّباته. إنّما الشرط لذلك أن ترحل إلى خارج مكّة المكرّمة والحجاز. أمّا أنا فإن استغربتَ طول مقامي هنا فلأنّ مكّة وكعبتها الشريفة هي ملاذي الأخير ومربعي المتبقّي، ودونها في أرض الإسلام، لا حامي لدمي ولا عاصم.

أقبل عليّ مرافقي بالعناق والتقبيل معبّرًا عن فهم قولي، ثم فارقني وعاد أدراجه.

في بيتي وجدت أمامة في انتظاري على مائدة العشاء، فما إن أبصرتني حتى شرعت تنزع حليها متحرّجة، واستفتتني في جواز تزين وليّة الله بالخواتم والقلائد والخلاخل والأساور النفيسة، أجبت أنْ نعم إذا كان ذلك لغير التبرّج والتباهي. حكيت لها قصّة واهب الحلي وصرر الذهب، ثم أتبعتها بتلك الأخرى بيني وبين عظيم الروم فردريك، واهتبلتها فرصةً لإخبارها بمكمن صرره الذهبيّة وحثّها على تملّكها والتصرّف فيها متى شاءت. أُعجبتْ بالقصّتين أيّما إعجاب وبالثانية أكثر من الأولى، وغمرتني بكلمات التقريظ الصادق والدعاء الصالح.

*

حلّ محرم عام ثمان وستّين وستمائة. انسابت أيّامه كأيّام الشهور الموالية من دون مصاعب ولا معاطب تذكر: أرتاد أمكنتي ومزاراتي الأثيرة كلّما لويت على نفسي مكلومة أو متحنّنةً إلى موطني وأحبّتي فيه؛ أعقد لطلاّبي دروسًا متى تيسّر؛ أجالس بعض نزلاء الدار وزوّاري في حديقتها؛ أسكن إلى حرمي وأكاشفها في أمور كثيرة، منها غياب أبي نمى المطوّل، فأجد في كلامها اللّينَ الرفيق ما يريحني ويقوّي اصطباري.

مع مطلع رجب، جاء عجبه في استحالة غيبة شريف مكّة إلى لغز محيّر. لا أحد ممّن أسأله عنه يعرف شيئًا ذا بال، خلا تفانيه

في جهاد قطّاع الطرق وقيامه بالمساعي الحميدة في المدينة المنوّرة والطائف وبعض مدن اليمن حيث ذرَّ السلطان بيبرس قرن الشقاق والفرقة. أمّا حاشية الأمير وعلى رأسهم حاجبه الجديد، فقد لقيني من سألتهم عن كبيرهم بوجوه كالحةٍ نافرة. وقرّرت بعدئذ ألاّ تطأ قدماي القصر إلاّ أن يظهر الخيط الأبيض من الأسود وينجليَ الأمر.

لا سلطة لي ولا حول على وضع تعوزني معرفة مقدّماته وشعابه، ولست فيه من الماسكين بتلابيب الأسرار، الخائضين في فنون الدسائس والسعايات، ولا من فقهاء الحلّ والعقد. وضع بتلك الملامح والأمارات يحسن بي أن أنفض يديّ منه وأكله إلى ظروف الوقت، كيما أعود سالمًا إلى قواعدي الواقية وأعزّ ما يطلب. وكذلك ظللت إلى أن أقبل موسم الحجّ فعيد الأضحى وأعقبهما محرم السنة الموالية، ولا خبر عن أبي نمى إلاّ ما راج بين الناس في مكّة عن قرب قدومه إليها. وفي منتصف جمادي الأولى تأكّد رجوعه إلى قصره واعتصامه ببيوته وديوانه. وأنا بدوري لذت ببيتي وأرجائي المعتادة، منتظرًا أن يبادئ الأمير إلى طلبي واستدعائي.

وفعلاً، في أواخر رجب جاءني بعيد العصر رسول من أبي نمى وخيّرني بين أن أرافقه إليه أو أقصده وحدي بعد صلاة العشاء. أخذت بالخيار الثاني ريثما أرتّب مسائل في ذهني وأذهب للموعد في جنح الظلام، وكذلك كان. بحفاوة بالغة متشوّقة لقيني الرجل وأجلسني قريبًا منه حول مائدة طعامه. لا

شيء تغيّر فيه إلاّ جسمه المائل إلى النحوف وقسماتُ وجهه المتعبة. بادرت إلى حمد الله على سلامته وعودته إلى مستقرّه ظافرًا معافى. قال بصوته الجهوري المعهود:

ـ وأنا أيضًا أحمده تعالى أن نجّاك من مخالب بيبرس وطغمته. رأيته يجدّ في القبض عليك حتى خلت أنّه ما حجّ إلاّ لأسرك أو أنّ فريضته لا تكتمل عنده إلاّ بذلك. رحل السلطان بعد أن يئس من الظفر بك، وبثّ أعوانه أسباب الفرقة والشقاق بين بعض حكّام الجزيرة وحتى اليمن، فدعتني إلى التغيّب عن مكة مهامٌّ رأبِ الصدوع بينهم وإصلاح ذات البين، علاوة على جهادي المعتاد ضدّ المهرّبة وقطّاع الطرق... أحسب أنّي توفّقت، ولو أنّي استعجلت العودة إلى مكّة لإخماد نار فتنة كان حاجبي يشعلها. عزلت هذا المتنطّعَ العاقّ كما عزلت سلفه، وأعدت الأمور إلى نصابها بعون الله وقوّته، ولهذا لم أدعك إليّ إلاّ اليوم يا وليّي.

صاحبتُ كلام جليسي بألفاظ الثناء على جميل مساعيه، ودعوت له باطراد العزّة والنصر. استبدّت بي الرغبة في استفتائه عن حالي ومآلي، والسلطان المملوكي لن يتوانى عن اقتفاء أثري وأسري، قلت:

ـ عجبًا كيف يقسو عظيم المماليك على إنسان أعزل مثلي ويتربّص بي الدوائر، وقد يرحم أعداءه العتاة ويخفّف عنهم! حالته هاته تذكّرني بحالة صلاح الدين الأيّوبي الذي قتل

السهروردي الإشراقي، بيْد أنّه يوم فتح القدس رقّ قلبه للإفرنج، آكلي لحوم المسلمين، وآمنهم من ثأر وحجز... بيبرس، يا مولاي، تُراه فاوضك في أمري؟

ـ تجنّبته ما استطعت، لم أقابله إلاّ مرّة واحدة يوم وفادته. استفسرني عمّن تصحّ شرعًا خلافته، أجبت تقيةً أنّه العبّاسي الموجود تحت إيالته؛ سألني عنك فقلت بالحرف «لعلّه عاد إلى المغرب أو توفى». وبعد ذاك لم ألقه إلاّ لحظات وقت توديعه.

أطرقت مفكّرًا قليلاً ثم قلت:

ـ لا أحبّ أن أتعبك بوجودي في مكّة أكثر ممّا فعلت، فبم تعظني؟

ـ عاهدتك على الوَلاية ولن أنكث عهدي. أمّا نصيحتي فأراها في أن تورِّيَ وتخف...

قوّست حاجبيَّ استعجامًا لقوله، فأوضح:

ـ أن تخف أي أن تبعث حرمك إلى مصر حتى تنقشع الغيوم ويتحسّن الحال؛ أن تورِّيَ أي أن تغيّر باستمرار عناوين سكناك، وإذا سعيت إلى وجهة أن تشير بغيرها. ولك في التورية والصبر على المحن أسوة في سيّد المرسلين وخاتم النبيين.

صلّيت على المصطفى الأمين مبتسمًا، وقمت لوداع الأمير، فضمّني إليه وعانقني بشدّة مثلما لم يفعل من قبل، فأحسست كما لو أنّه يودّعني الوداع الأخير، ثم انصرفت متمالكًا نفسي، ثابت

الخطى، عالي الهمّة، مهمهمًا: أعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَور...

*

سبعة أيّام، صرفت بعض بياضها وسوادها في إبلاغ الست أمامة بما جدَّ في حالتي، وإقناعها بوجوب استباقي إلى مصر حتى ألحق بها متى تيسّر. زيّنت لي خيار ذهابنا معًا إلى الصعيد حيث نأوي إلى ضيعة لعمّها وأهله ونسعد بالهناء والسكينة. أعرضت عن طلبها بدعوى أنّي أرى النجاة في مجاورة الحرم الشريف لا في الدنو من عرين الأسد. وفجأة في موفى رجب أخذت الست تعدّ رحلها باكية، معتذرةً عن لجّها وعنادها، مبرّرةً ذلك بحبّها لي وخوفها عليّ. استمهلتها ثلاث ليال أخر، وبعدها عهدت لياسر بمرافقتها إلى جدّة وتسهيل سفرها على النحو الأريح والأضمن. ولمّا انبلج الصباح ودقّت ساعة الفراق مددت للراحلة ما تبقّى من صرر الذهب المخبوءة، فأبت أخذها بحجّة احتياجي الأوكد إليها.

عناق حارّ وشوق عرمرم ومشاعر جيّاشة ودموع منهمرة! ولا حول ولا قوة إلا بالحقّ.

* * *

ـ ١٥ ـ

منذ ذهاب الست أمامة حتى نهاية شعبان ظللت معتصمًا ببيتي، أقيم شعائري ومناسكي الأثيرة، أترقّب أولى العلامات المنذرة، أستسلم للسبوح في رؤايَ المناميّة أو اليقظة، وفي لجج الذكريات المتزاحمة المتضاغطة تارة والهادئة المتأنّية طورًا، وبعضها يصعد من نسي منسيٍّ، فيلمع في ذهني برقًا خُلَّبًا، ثم يختفي منطفئًا في قرار سحيق. وكيف لي أن أضبط ذكرياتي وأدوّنها، واليد شبه مشلولة والجسم كلّه واهن عيّان!

أمام إفراطي في العزلة وقلّة الاقتيات، تولّى ياسر عوضًا عن غيلان أمر خدمتي، فأضحى يسألني قلقًا عن حالي في كل مرّة أتاني ليقدّم لي طعامًا أو ينبّئني بشيء، فأطمئنه وآكل معه ما تيسّر. وذات مساء خاطبني بعد تردّد:

ـ طلاّبك، سيّدي، بتّ أصدّهم بدعوى غيابك، وعذري حرصي على أمنك وخلوتك، سيّما أنّي صرت أرى بينهم غرباء لا أرتاح إليهم. . . رأيي أن تنتقل إلى غرفة الششتري القريبة من بصري، وفيها مخبأ لا يعلمه أحد غيري. . . وحقّ من بيده الموت والحياة لن ينالك طاغية ظلوم ولو فقأ عينيَّ وقطّع أوصالي.

شددت على يد الرجل ودعوت له بخير دعاء، ثم أذنت له

بإنجاز رأيه، وأوصيته بالاعتذار للطلبة بالتي هي أحسن. وقبل أن ينسحب سلّمني رسالة من مسافر عابر لم يكشف عن اسمه. فتحتها وكلّي رجاء أن يكون الموقّع عليها عبد العلي الناصر أو خالد الطنجي وحرمه عبلة، فإذا بها للشاعر الصوفي نجم الدين بن إسرائيل الدمشقي، صدّرها بقصيدة عصماء في مدحي ومشايعتي، فلم أجبه عليها بسبب كللي وعيائي بل شلل يدي عن الكتابة جملة، والله شاهد على ما أقول، وهو أرحم الراحمين.

انتقلت إلى مأوايَ الجديد في الثالث من رمضان. شعرت بالطمأنينة تعود إليّ في حمى الوليّ الششتري، عافاه الله ومتّعه بما ينشده ويبغي. عثرت بمحضّ الصدفة في حزام أحد سراويلي على الخنيجر الذي تسلّحت به وأنا أرتاد مخبأ القبو بجنان عين سليمان، فأخفيته تحت حزامي تحسّبًا لسوء الطوارئ. المخبأ في غرفتي هاته عبارة عن سرداب صغير لا يرى مدخله الأرضي إلاّ لمن دُلّل عليه. عملاً بوصيّة ياسر، اضطررت إلى اللجوء إليه مرّتين خلال الشهر الفضيل، جرّاءَ جلبة ضاجّة تناهت إلى سمعي من بهو الدار وحديقتها، وكان سببها، كما روى لي ياسر من بعد، لجّ تلامذتي وأتباعي في طلبي. أمّا الخروج ليلاً من غرفتي إلى الحرم الشريف فكان لي ثلاث مرّات تحت رعاية غيلان وحراسته.

في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر نفذت وحدي إلى البيت العتيق، فطفت به متنكّرًا ثم سعيت بين الصفا والمروة، ودعائي أن يمكّنني ربّي حتى النزع الأخير من كدحي إلى أحسن تقويم، خلقيَ الأوّل، فأظل عند حسن ظنّه بي؛ ودعائي الآخر أن يدخلني مولاي مدخل رفق إلى محو أثري وذكري بتوْقي إليه هو

واجب الوجود ومطلقه، فلا ألغو ولا أهذي ولا أسبّ الدهر الذي هو الله ذاته، كما في نهي سيّد المرسلين عنه.

في أوّل شوال استيقظت مع تباشير الصباح برعف من أنفي حسبته فألاً حسنًا على ميل دمي إلى التطهّر والخلوص. قضيت ساعات منطرحًا على ظهري أداري الرعف بالخِرق وأداويه ببعض عقاقيري، وحين توفّقت في إيقاف النزيف شعرت برعشة وحمّى تدبّان في أوصالي متبوعتين بشقيقة بلغت حدًّا من الإيلام لم أذق مثله من قبل.

في عزّ نوبتي الصحّيّة تلك أذنت لياسر بالدخول عليّ، استقبلته بابتسامة عريضة للتهوين عليه في إدراكه لحالي. سألته إن كان أحد طلبني من الأتباع أو غيرهم، أجابني متجهّمًا بعد تردّد وتلكّؤ:

ـ جاءني واحد أعرف أنّه من رسل أبي نمى، قال إنّ سيّده كلّفه قبل سفره بإبلاغ الوليّ ابن سبعين أنّ بيبرس حبس ابنك حمادة في القاهرة، فإمّا أن تقصد السلطان مسرعًا، وإمّا أن تتسبّب في قتل الرهينة. ورأي الأمير ـ ختم الرسول ـ أن تصبر وتصمد.

صدمة أخرى أتلقّاها فادحة قويّة!

حمادة، وهو اليوم في الخامسة والعشرين، يوجد بين أيدي مماليك بيبرس القساة العابثين!

يطلبني المملوكي للمثول أمامه، فكيف أرحل إليه وقد وهن العظم منّي وتصدّع الجسم وانهدّ؟ وحتى لو قدرت، فليس في حتفي ما يعفي الشاب من مآل وخيم...

حنانيك يا ربُّ حنانيك!

رجوت ياسر أن يُحضر لي أعشابًا وسوائل سمّيتها، ففعل. وبعدها طالبته أن يرفع حراسته عنّي ولا يجزع إذا لم يجدني يومًا في بيتي، موصيًا إيّاه بحفظ أوراقي ورسائلي، ونشر خبر هجرتي إلى البصرة في طريقي إلى الهند، وإنفاق بقيّة صرري من الذهب على المحتاجين، ثم ضممته إليّ وهو يبكي، وأمرته أن لا يطرق بابي إن لم أطلبه. غاب عنّي برهة ثم أطلّ برأسه معتذرًا لينبئني أنّ من بين طلاّبي الذين صدهم بالأمس رجل ادّعى أنّه من أتباعي الأندلسيين واسمه عبد العلي الناصر، وأضاف أنّ هذا الرجل قال بعد أن أيأسه الطلب إنّه ذاهب للمجاورة في المسجد النبوي بالمدينة المنورة.

خبر آخر نزل عليّ كالصاعقة!

الحبيب عليّ الناصر كان على بعد بضعة أذرع خلف بابي، وأبت الأقدار إلاّ أن تحجبه عنّي وتحرمني من رؤيته ومعانقته!

حنانيك ربّاه!

*

يا جالينوس والرازي ويا أطباء الإسلام أغيثوني!

إن نفعتم في برئي فبها ونعمتِ، وإلاّ تركت على الغارب حبل صحّتي وانتظرت أن ترسل السماء إليّ حبلها وتشرع لروحي بابًا إلى مجرّات الوجود الربّاني. . .

طبخاتي وأدويتي هدّأتْ بعض أوجاعي دون أخرى، فكان هذا

كافيًا لدخولي في حلقات نوم هادئة تارة ومرتجّة آونة. ولمّا أؤوب إلى وعيي، أتذكّر بعض الرؤى وأخطئ أخرى. وممّا تذكّرته واحدة، تبدت لي فيها فقيدتي فيحاء على فرس مجنح يرفل في فراهته وهمّته وبياضه، تنحني نحوي مادّةً يدها، مترجّية أن أركب خلفها، وحين أحاول الاستجابة، يصيب أعضائيَ الشلل فالغوص في مستنقع المياه العفنة والأوحال الدبقة، فلا ينقذني من الخنق والغرق إلاّ استيقاظي الفجائيُّ المذعور.

وفي رؤيا أخرى ظهر لي الشيخ عبد الكامل المكناسي، من أصحاب أيّامي في زاوية جبل موسى. سألني: هل تذكرني؟ أجبت: كيف لا وأنا ما سكنت دار المكناسي بمكّة إلاّ تيمّنًا باسمك العزيز. قال: اهجر الدار الفانية كلّها إلى الأخرى الباقية، فهنا هنا العيش الحقُّ الرحراح، والخيرات والنعم من صنف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر في دنيانا الدنيّة. ألم أكن أخبرك أنّي من الداخلين الجنّة من بابها الواسع. هيّا أقبل فقد يكون بابك إليها أعظم وأشرع...

وفي رؤيا أخرى لم أذكر منها غير شظايا مفجعةٍ منكرة: الشاب حمادة المسكين يصرخ ويستغيث بي، يتضرّع لخالقه، ونفر من أجلاف المماليك يعبثون به ويفعلون به الفاحشة اللواطيّة العظمى...

بعد مضي بضعة أيّام، وأنا طريح الفراش، تدهورت صحّتي وساءت، حتى إنّ دمي الذي بتُّ أقذفه أحيانًا من أنفي وفمي بدا كما لو أنّه يبغي النضوب أو الهجر. ولمّا يقنت أنّ صيدلتي

عاجزة تمامًا عن برء أوجاعي المتفاقمة، تناولت للذهول عنها قدرًا من عشب خبرت من قبل فضله التخديري المعتبر، وخبّأت بقيّته حول حزامي حِذاء خنيجري. ارتأيت أنّ حالي قد يخفّ بفعل جولة استطلاعيّة في بعض ربوع مكّة وقت الفجر. اغتسلت وتوضّأت، تطيّبت وارتديت أبهى لبسي، ثم تسلّلت إلى مربض الدواب حيث امتطيت جوادي وتركته يركض إلى حيث يشاء. وحين أخذ يمشي الهوينى تبيّن لي أنّي أدركت سفح جبل قبيس الجنوبي، فاغتنمتها فرصة لإلقاء السلام على رسم دار مولد الرسول الأمين، وبعده عرّجت على مسجد بلال حيث صلّيت ما وسعتني الصلاة، تهيّؤًا للسفر إلى المدينة المنوّرة ودخولها، ولو كره حاكمها وفقهاؤها أجمعين. غير أنّ الطريق إليها، وقد قطعت منه شوطًا، لاهجًا باسم حبيبي علي الناصر، بدا لي أصعب من تمشيط غابة عذراء أو تخصيب جبل أقرع، سيّما وأنّ حمارة القيظ شرعت في الانتشار، متبوعة بنزيف الدم من أنفي وفمي. عندئذ آثرت الرجوع من حيث أتيت، حتى إذا أدركت مدخل مكّة، عاودتني الآلام في رأسي وكل جوارحي بنحو أفظع وأشرس من ذي قبل، فلم يكن لي بد من بلع بقيّة عشبي، طمعًا في بعض الصمود والصبر على البلاء. مشيت محدّقًا في كبد السماء، مردّدًا ملء حنجرتي المنهكة: *يا فقير اسمع ما تعمل/تِه على الأكوان واذلل/ليسَ ثمَّ شيءٌ منك أجمل/ واقطعِ الأغيار/ وافهمِ الأسرار/ وادخلِ المضمار/ وترى الماضي والآتي/أطيب ما هِ أوقَاتي/ حين أكن مجموع مع ذاتي. . .*

لمّا دنوت من أماكن اكتظاظ الناس وتزاحمهم، مددت رأسي لحجام ليحلق شعري تمامًا، ثم قايضت عند نسّاج لبسي الباذخ بجلاّبيّة وخرقة تنكّرت فيهما، وأطلقت سراح دابّتي كيما تسير حرّة إلى حيث يحبُّ خالقها، وبعد ذاك يمّمت الحرم الشريف مجاورًا، فطفت بالبيت العتيق مرارًا، حتى أصابني دوار، فتمدّدت قليلاً قرب سارية وسهوت عمّا حولي؛ ولمّا انتبهت ألفيت فمي مملوءًا بقطعة ذهب لاريب أنّ معتمرًا من أغنياء الأعاجم تصدّق عليّ بها على هذا النحو، كما هو دأبهم مع نيام الفقراء والمعدمين. تناولت القطعة وحشوتها بدوري في فم فقير نائم، ثم قصدت في الفناء الخارجي جدارًا مشمسًا شبه مهجور، فتكوّمت مسندًا ظهري إليه. خفّت أوجاعي قليلاً، فشرعت في ظلّ وعيي المتبقّي أراجع حياتي من زاوية امحائها بين أعاصير العدم ومدمّراته. أنظر هكذا وأقدّر أنّ ما قد يتبقّى منّي كلا شيء أو ربما النزر اليسير. لكن للذي قد يحفظ ذكري أو يروي عنّي أقول: مهما تنس فلا تنس أنّي تجوهرت ما استطعت في النموّ والترقّي، وأنّي لو جُزت حياتي الدنيويّة فلن تحدوَني، وحقّ الحقّ، إلاّ رغبة عاقلة ومفردة لا شريك لها: أن أعجّل بعودي إلى واجب الوجود وأكمُلَ في أنوار الفيض الإلٰهي.

بين نظراتي الغائمة وانخطافي تبدّى لي بيبرس كغول شرس ذي وجه بالغ الكلوح والسخط، يجأر بالويل والثبور: لن تفنى، يا زنديق، إلاّ بعقابي. أنت شبّهت الطائفين حول الكعبة المشرفة بالحمير حول البذار! فواجهته بالجهر: معظم هؤلاء هم كذلك لو

تعلم ، حملوا القرآن فلم يعوه ولم يعقلوه، فصح عليهم بالمماثلة قوله تعالى: ﴿ومثلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا﴾. دوّى صوت المملوكي آمرًا: خذوا هذا الكافر. . . خذوه فانحروه.

مضى عليّ وقت لا أعلم مقداره، وشيئًا فشيئًا استحال الناس والأشياء في مدى بصري إلى مسوخ وأشباح، ما عرفت أمثالها أبدًا من قبل. أغمضت عينيّ للتوقّي وتغيير الظنّ، فما لبثت حتى رأيت أيادي أخطبوطيّة، مفرطة الطول والقوّة، تمتدّ نحوي بالضرب المبرّح واللّطم المدمي؛ وحين تعيى وترتفع، تنوب عنها عقارب وأفاعي وزنابير بالتفاني في اللذع واللسع؛ وبعدها تهوي عليّ طيور جوارح فتتولاّني بالنقب والنهش حتى الفتك.

مضرّجًا بدمي النازف من كل أطرافي، وأنا قاب قوسين من الموت، تراءى لي بيبرس على رأس طابور من جنده يزحف نحوي ويضجّ بالقول: تعصاني يا مارق وتكتب أنّ من دخل في طاعة الترك إنّما حملهم إليه الضجر والشرك. . خذوه فانحروه.

لم يكن لي نفَسٌ ولا وقت للردّ والردع، فجرّدت خنيجري للدفاع عن النفس، فما كان من الجند إلاّ أن طوّقوني وأطبقوا عليّ بالخنق والسحق، ومسك كبيرهم يدي اليمنى القابضة على الخنيجر فقطع به عروق يدي اليسرى، ولم ينته إلاّ وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة، مردّدًا بصوت المحتضر: *ربٌّ مالك. . . وعبدٌ هالك. . . ووهمٌ حالك. . . وحقٌّ سالك. . . وأنتم ذلك. . . ربٌّ مالك. . . وعبدٌ هالك. . . ووهمٌ حالك. . . وحقٌّ سالك. . .*

قالوا عنه

يا كَعْبَةَ الْحُسْنِ يا عِمادِي فَنَائِي فِيكَ غايةُ الثبوتْ
يا كَنْزِي يا مَذْهَب اعْتقَادِي ذِكْرُكَ لِقَلْبي أجَلُّ قُوتْ
جَذَبْتَ كُلَّ الْوَرَى بقلْبِك فأنْتَ مَغْنَاطِيسُ النُّفُوسْ
وسُسْتَهُم كُلَّهُم بِقُرْبِكْ كَذَا هُو الوارث السؤوس

الششتري في مدح ابن سبعين، **الديوان**

وابن سبعين أعلم بالفلسفة من ابن عربي، أمّا الكلام فكلاهما يأخذه من مشكاة واحدة، مشكاة صاحب الإرشاد وأتباعه، كالرازي... من أكابر أهل الإلحاد، أهل الشرك والسحر والاتحاد، وكان من أفاضلهم وأذكيائهم وأخبرهم بالفلسفة وتصوّف المتفلسفة.

ابن تيميّة، **الرسائل والمسائل**

اشتغل ابن سبعين بعلم الأوائل والفلسفة، فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد، وصنف فيه، وكان يعرف السيميا، وكان يلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء.

ابن كثير، **البداية والنهاية**

كان ابن السبعين من أبناء الأصالة ببلده [. . .] نشأ ترفاً مبجّلاً في ظلّ جاه وعزّ نعمة لم تفارق معها نفسه البأو [. . .] وكان وسيماً جميلاً ملوكيّ البزّة عزيز النفس. . .

لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**

وأمّا حكم هذه الكتب المتضمّنة لتلك العقائد المضلّة، وما يوجد من نسخها بأيدي الناس، مثل ***الفصوص والفتوحات المكيّة*** *لابن العربي، و**بدّ العارف** لابن سبعين، و**خلع النعلين** لابن قسي، فالحكم في هذه الكتب وأمثالها إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار، والغسل بالماء، حتى يمّحي أثر الكتابة، لما في ذلك من المصلحة العامّة في الدين، بمحو العقائد المختلّة، فيتعيّن على وليّ الأمر إحراق هذه الكتب دفعاً للمفسدة العامّة، ويتعيّن على من كانت عنده التمكين منها للإحراق.*

ابن خلدون، **فتوى في شفاء السائل لتهذيب المسائل**

وسمعت عن ابن سبعين أنّه فصد يديه، وترك الدم يخرج حتى تصفى.

ابن شاكر الكتبي، **فوات الوفيّات**

سمعت الشيخ الآبلي يحدّث عن قطب الدين أنّه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث: مذهب ابن سبعين، وتملك الططر للعراق، واستعمال الحشيشية.

أحمد بن المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**

صدر للكاتب

من الإبداعات بالعربية:

ـ كناش إِيس تقول (شعر)، الدار البيضاء، ١٩٧٩.
ـ ثورة الشتاء والصيف (شعر)، الرباط، ١٩٨٣.
ـ كتاب الجرح والحكمة، دار الطليعة، بيروت، (ط ٢) ١٩٩٨.
ـ مجنون الحكم (جائزة الناقد للرواية)، دار رياض الريس، لندن، ١٩٩٠.
ـ محن الفتى زين شامة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
ـ سماسرة السراب، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، ١٩٩٥.
ـ العلاّمة (جائزة نجيب محفوظ)، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧.
ـ أبيات سكنتها.. وأخرى (شعر)، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٧.
ـ ديوان الانتفاض (شعر)، وكالة شراع، طنجة، ٢٠٠٠.
ـ فتنة الرؤوس والنسوة، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٠.
ـ زهرة الجاهليّة، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٤.
ـ أنا المتوغّل وقصص فكريّة أخرى، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٤.
ـ معذّبتي، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٩.

صدر للمؤلف عن دار الآداب:

- محن الفتى زين شامة
- العلّامة
- فتنة الرؤوس و النسوة
- زهرة الجاهلية
- أنا المتوغل و قصص فكرية
- هذا الأندلسي

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣–١١ بيروت

«يا كَعْبَةَ الْحُسْنِ يا عمادي فَنَائي فيكْ غايةُ الثبوتْ
يا كَنْزِي يا مَذْهَبَ اعتقادي ذِكْرُكْ لِقَلْبي أجَلُّ قُوتْ»

(الششتري في مدح ابن سبعين، الديوان)

سمعتا الشيخ الآيلي يحدث عن قطب الدين أنّه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث: مذهب ابن سبعين، وتملك الططر للعراق، واستعمال الحشيشة. (المقري، نفح الطيب)

«وسمعت عن ابن سبعين أنّه فصد يديه، وترك الدم يخرج حتى تصفى». (ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيّات)

د. بنسالم حِمّيش: مفكّر وأديب مغربي. يكتب باللغتين، العربية والفرنسية. تُرجمت بعض رواياته إلى عدّة لغات. يمارس مسؤولية حزبية وحقوقية. فاز بجوائز أهمُّها:

- جائزة الناقد للرواية، لندن ١٩٩٠.
- جائزة الأطلس الكبير (الفرنسية)، الرباط، ٢٠٠٠.
- جائزة نجيب محفوظ، القاهرة، ٢٠٠٢.
- جائزة الشارقة لليونسكو، باريس، ٢٠٠٣.